٦



رحلةٌ فريدةٌ إلى الحياة السّعيدة

تأليف الفقير إلى رحمة ربّه

د. جمال بن فضل الحوشبي



رحلة فريدة إلى الحياة السعيدة

جمال فضل محمّد الحوشبي، ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحوشبي، جمال فضل مُحَمَّد

أحقاً هذه الجنّة؟ / جمال فضل الحوشبي ـ مكة المكرمة، ١٤٣٢هـ

٣٦٨ ص؛ ١٧ * ٢٤ سم

ردمك: ٠ - ٥٨٤٠٥ - ٠٠ - ٩٠٣ - ٩٨٧

١. الجنة والنار ٢. الحديث ـ مباحث عامة ٣. القرآن ـ مباحث عامة أ. العنوان

ديوي ٢٤٣ ٨٩٨٨ / ١٤٣٢

رقم الإيداع: ٨٩٨٨ / ١٤٣٢

ردمك: ٠ - ٥٨٤٠٥ - ٠٠ - ٩٠٣ - ٩٨٧







رحلة فريدة إلى الحياة السعيدة

تأليف الفقير إلى رحمة ربه

د. جمال بن فضل الحوشبي

الطبعة الرابعة

١٤٤٣هـ - ٢٠٢١م



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ (١٧) فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ (١٨) كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٩) مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ (٢٠) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (٢٣) ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ (٢٤) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ (٢٥) قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[سورة الطور].

بارقة

عن تميم الداري أنّ النبي ﷺ قال: «الدِّين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولائمّة المسلمين وعامّتهم»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أعددت لعباديَ الصالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر» فاقرؤوا إن شئتم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[٢].

وعن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: كنّا عند النبي ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إنّكم سترون ربّكم كما ترون هذا القمر، لا تُضامّون في رؤيته؛ فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾[٣].

وعن عبد الله بن قيس رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «إنّ في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلًا، في كلّ زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون، وجنّتان من فضة.. آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من ذهب..

(١) أخرجه مسلم، (ج١/ ص٧٤).

(٢) أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١١٨٥).

(٣) أخرجه البخاري، (ج١/ ص٢٠٣).



آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه، في جنّة عدن»[1].

وعن البراء ﵁ قال: أهدي للنّبيّ ﷺ ثوب حرير، فجعلنا نلمسه ونتعجّب منه، فقال النبي ﷺ: «أتعجبون من هذا؟» قلنا: نعم. قال: «مناديل سعد بن معاذ في الجنّة خيرٌ من هذا»[2].

وعن سعيد بن عبد العزيز قال: لمّا حضرت بلالاً ﵁ الوفاة قالت امرأته: واويلاه. فكان يقول هو: وافرحاه: غداً نلقى الأحبّة، محمّداً وحزبه[3].

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٨٤٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢١٩٥)، ومسلم، (ج٤/ ص١٩١٥).

(٣) تاريخ مدينة دمشق، (ج١٠/ ص٤٧٥).

المقدّمة

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ أظهر في بديع خلقه ما يدلّ على وحدانيته، ودعا عباده لعبوديته، وأرسل صفوة خلقه برسالته، وبيّن على ألسنتهم ما أجمل من شريعته. والصّلاة والسلام على البشير النّذير، وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليماً.

أمّا بعد:

فما أجملَ حديثِ الجنّة.. دارِ النّعيم، ومستقرِّ المؤمنين، وقدمِ الصّدق، وأرض الميعادِ الحقّ.. نُزُل الرّوح والرّيحان، والرّضى والرّضوان، والفرحة والأمان. على أرضها تتناثرُ حبّات اللؤلؤ، وفي مجالسها يظهر الحبور والسّرور.. آنيتها الذهب والفضة، وخيامها اللؤلؤ، وشرابها بارد، وهواؤها عليل، ونساؤها ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾. فيها البهجة والكثرة، والسعادة والمتعة. الجمال فيها متجدّد، ونضرة النّعيم فيها تزداد كلّ أسبوع، بعد رؤية الرّب الرّحيم، والمساكن الفخمة يتضوّع عبقُها، وتكثر لذائذُها، وتنشرح الصدور من سعتها وبديع تصميمها.

في مساكن الجنّة تتنوّع اللذات، ويظهر رونق النّعيم! ومن أشجارها الخضراء الباسقة تتدلّى الثمار الزكيّة الشهيّة، ورائحة المسك تعبق من كريم تربتها، وبديع مياثرها وثياب أهلها. أجسامُ أهل الجنّة مترعة في شبابها، والوجوه المسفرة يزداد بهاؤها وتشتدّ نضارتها.



هي دار النعيم، ومحلّة الخلود.. خلقها الرّحمن بيده، وأبدع وصفها في كتابه، وأودع فيها من الأحوال السّعيدة ومباهج اللذات والرغد ما تشتاق إليه الأنفس الرّضية، والأذواق السويّة.

فيالها من محلّة سعادة ما أبهجها! ومنزل كرامة ما أمتعها.. كلّت العقول عن إدراك جمالها، وعجزت اللغات عن وصف حسنها:

هي جنّة طابت وطاب نعيمها ... فنعيمها باقٍ وليس بفانِ
دارُ السّلام وجنّةُ المأوى ومنـ ... ـزلُ عسكرِ الإيمان والقرآنِ
فالدّار دارُ سلامةٍ وخطابُهم ... فيها سلامٌ واسمُ ذي الغفرانِ[1]

والمتأمّل في أحوال الكثرة الكاثرة من بني آدم، يجد أنّ الرّغبة في الخلاص من الجحيم وبلوغ منازل السّعادة بعد الموت من القواسم المشتركة بينهم، وإن اختلفت عقائدهم، وتعدّدت مذاهبهم في فهم حقيقة السعادة والطرق الموصلة إليها. ومن سبر أحوال المسلمين وجدهم أصحّ الأمم معرفة بالنعيم بعد الموت، وأكثر هم تطلّعاً لدار البهجة والخلود، ولا دعوة تسبق إلى أحدهم من سؤال الجنّة.. على اختلاف لغاتهم وثقافاتهم وأجناسهم؛ فهي حاديهم الأكبر إلى ربّ العالمين.. بذكرها يزكو التعامل، وتُفطم النّفس عن الشهوات، وتزداد الهمّة للاستقامة والريادة في كلّ مجال.

وعلى الرّغم من حاجة البشرية اليوم إلى معرفة الأسباب الموصلة للنّعيم بعد الموت، والتعرّف على حقيقة الجنّة وأوصافها، إلا أنّ ما كُتب

(١) الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم، (ج٣/ ص٣٦١).

عن الجنّة بلسان هذا العصر قليل، لا يفي بحاجة المسلمين أنفسهم، فضلاً عن غيرهم؛ فالمسلمون لا يزالون مغيّبين عن الرّيادة الأممية التي لن تتحقّق إلا باعتزازهم بميراثهم، وتوظيفه للوفاء باحتياجات عصرهم، ثمّ نقله إلى العالمين بلغة سهلة رحيمة، يظهر من خلالها شرف الإسلام، وتتبيّن معالم خيريّته وعالميته.

وشغفي بحديث الجنّة قديم، لازلت أستروح عبَقَه، واستطعم لذّته؛ فقد كنت في زمن الصبا قارئاً نهماً، وبخاصّة في كتب السيرة النبوية واليوم الآخر، التي لم يكن يوقفني عن الإبحار في بعضها إلا الانقطاع الذي يعتري السرد الشائق بسبب ذكر الخلاف والرّدود، وتفريع المسائل.

وكثيراً ما كانت تلوح أمامي تساؤلات عن نعيم الجنّة لم أجد لها آنذاك جواباً، من قبيل: تذليل الثمار في الجنّة، أهو عامّ يشمل كلّ شيء فيها؟! ومن هؤلاء الغلمان.. أهم أبناء المؤمنين الذين ماتوا قبل البلوغ؟ أم أبناء المشركين؟ أم غيرهم؟! وكيف يشفّ لباس الحوراء مع أنّها تتدرّع بسبعين حُلّة؟ وهل ترى نساء الجنّة الصالحات ربّهنّ يوم المزيد مع الرّجال؟ وما حالُ الفتاة العفيفة الطاهرة إذا لم تتزوّج في الدّنيا ثم دخلت الجنّة؟! وكيف تكون الإضاءة داخل القصور والغرف والخيام؟ ومن أين تأتي أنهار الماء والعسل واللبن والخمر؟ هل لها منابع كبرى تتفجّر منها، ثم تسيل في أنهار الجنّة؟ أمّ أنها تفيض هكذا على أرض الجنّة بقدرة الله تعالى؟! وأسئلة كثيرة أخرى[1] لا سبيلَ لإدراكها بالعقل، إن هي إلا نصوص الوحي، ومجالسة أهل العلم.

(١) سيأتي الجواب عنها، وعن غيرها، في فصول هذا الكتاب ومشاهده بإذن الله تعالى.



والغيب ساحل لا يُدرَك أُفُقُه، ولا يُبلغُ عمْقُه.. شاطئه التّصديق، وقارب نجاته العلم، وحاديه اليقين، ومجدافه الرّضى عن ربّ العالمين.

ولم أزل متهيّباً من شدّ زمام القلم، ونظم قوافل الكلِم صوب بلاد الأفراح، وأستعظِم البحث في أمر نافس المفرّدون عليه، وسارت ركائب السّلف المباركة إليه، حتى حان وقت المسير الهادي مع صلاة الفجر[1]، وحدا بالرواحل الحادي لعظيم الأمر، فاستعنت بالله تعالى، متلمّساً أنوار الهداية، ومنازل التوفيق والكفاية، مستحضراً ضعفي، ومعتمداً على ربّي، إنه نعم المولى ونعم النّصير.

والحاجة لتأليف هذا الكتاب لا تخرج عن استشعار واجب النّصيحة لعامّة لمسلمين، وإن انتفع بهذا الكتاب غيرهم. والمسلمون الجدد، وكذلك المهتدون والشباب والشابات أخصّ شرائح يخاطبها الكتاب؛ فهم يتعرضون لأشرس هجمة شيطانية موجّهة على مدار التاريخ! هجمة استجمعت قواها لصدّهم عن ذكر الله وعن الصلاة، وأشغلتهم ببهرج الدنيا عن الآخرة، وصرفت الكثير منهم عن صراط الله المستقيم وأخذت بهم إلى سُبُل المتاهات والملهيات، قبل أن تزجّ بهم في شراك الشبهات، والفتن الكثيرة التي أُدخلت عليهم من أقطارها. ومن تربة (الفَيْس بوك) (وتويتر) ونحوها من مواقع التواصل الاجتماعي نبتت تصوّراتهم، وأثمرت إراداتهم. وبمجموعهما حدث التغيير الكبير في قناعاتهم، وتبدلّت عند كثير منهم حقائق الدين، ومسلمات القيم.

---

(١) كان ذلك في يوم الجمعة لعام ١٤٢٦هـ، حين قرأ الإمام آيات عن الجنّة أخذن بمجامع قلبي، وكأنّهن يطرقنه لأوّل مرّة.

ولأنّ البناء سبيل المدافعة، ونصب أعلام الهدى أنفع طرق الهداية؛ فقد راعيتُ في هذا الكتاب غايةَ استنقاذ النّفوس من دركات شهواتها، واستخراجَ الطُعم الشيطاني من أعماق تصوّراتها؛ لتقدّر خالقها، وتتبصّر غاية الخلق، وبدايات النّشأة، ومآلات المستقبل المهول، وتتعرّف على حقائق الآخرة؛ فالمعرفة متى صحّت اتّقدت شعلة الإرادة، والإرادةُ متى أشرقت استنارَت مشكاة القناعة؛ فلم تخطئ القلوبُ سيرَها بعدُ في طريق السعادة، ولم تتوقف العزائم عن شحذ الهمّة في السير إلى الله تعالى بطلب العلم النّافع، والعمل الصالح.

ومنهجي في هذا الكتاب: تقريبُ النّصوص التي تناولت الجنّة بأسلوب العرض الروائي، والتأمّل فيها، والتأليف بين مشاهدها الكثيرة، ضمن سياقات مترابطة تجلّي معانيها الفريدة، وقيمها الغالية التي قد لا تظهر بمجرّد النّظر العابر. وأنا مع كلّ ذلك مجتهد ما استطعت في الجمع بين الأمرين معًا: أن يكون الكتاب ميسوراً مائلاً للتشويق، ومحرّراً قريبًا من التحقيق. ومن جرّب التأليف وفق هذين المسارين وجده من أشقّ صنوف التأليف على الإطلاق؛ إذ النَّفَسُ الدائمُ في مسار منهما بعينه، ماتعٌ سهل، محمودُ العواقب، وإن كان في أدقّ الفنون، بخلاف مغالبة النّفس في مسار منهما، ثم فطمها عنه إلى صنوه بما يتطلّبه الحال.

وتكلّف الجمع بين (ضرّتين) بالعدل أشقّ ما يكون في عالم التأليف، وبخاصة لمن جمع بين التحقيق والتشويق معًا في نُزُلٍ واحد؛ فعقدُ البناء على (التحقيق) يقتضي تمييز المسائل المهمّة، وبحثها، وإجالة النّظر في مواردها، مع التسليم لقواطع النقل من نصوص الشّرع، والتأدّب معها،



وتقييد لجام العقل أن يجول في مسائل الغيب استقلالاً، ثم اللجوء لإصدار الحكم الذي لا بدّ منه[1].. سواء بسلوك طريق السلامة عبر التقليد، إن كانت المسألة مشهورة مسبوقة، أو المغامرة بخوض لجّة البحث إن كانت فريدة لم يُسبق إليها، أو سُبقت بنوع تحرير مفقود، أو ناقص أو خاطئ، ثمّ تهذيب لغة التحقيق وبخاصة حين تجتمع مع ضرّتها، التي يتطلّب العقد عليها، هو الآخر: اختيار أوضح الألفاظ وأسهلها، وسبكها في قالب الذّوق والجمال الدّال على المعاني البديعة، مع لجم قوافل الكلم حتى لا توغّل في صحراء الإسهاب، أو تضيع في مهامه الإطناب، وقطع أشواك الحشو من طريقها ما أمكن، وتقليم المتكرّر بلا فائدة، والخروج عن متاهة التفاصح والتفيهق، مع لزوم التواضع على كلّ حال، واستعراض البدائل على الدوام.. بدائلُ المعاني والألفاظ معـًا، والاعترافُ بالتقصير أمام الكؤود من المسائل، ومجاوزتها إلى الطريق السّهل؛ حفظـًا لسلامة القوافل ووقت القارئ، أو تحميله أمانة السّير فيها، إن تمّت له الإرادة، وظهرت القدرة.

فإذا سلم السّير في مهالك التحقيق، ونفح عَرف الطريق بعبق التشويق، فلا اشقّ على النّفس من عزو الفضل إلى أهله، والتعريف باللقطة الخبريّة بما يليق بعُرف أصحاب النّشر زمانـًا ومكانـًا، والاجتهاد في إعادةّ الضالّة

---

(١) الحديث عن الجنّة حديث عن الغيب، وقد تناولت في الطبعة الثالثة تقرير أنّ الإخبار عن الغيب إمّا محمود مشروع، وهو الإخبار عنه بطريق الوحي، أو بلازم الوحي، وإمّا مذموم ممنوع، وهو الإخبار عنه بنقيض الوحي، أو بلازم نقيض الوحي. ولكلّ مجال تفصيل، وتمثيل، وتدليل أشرت إليه هناك، ولم أر حاجة لتكراره.

الخبريّة إلى أهلها، واقتفاء أثَر صاحبها، وبخاصّة تلك التي لا تستقيم بنفسها؛ لانعدام مرجعها، أو نفاده، أو عدم القدرة على الوصول إليه، أو غُمرة[1] صاحبها أو موته، عدا لقطة الضوالّ الشهيرة، التي ترد الكتب، ويُزيّن بها الخبر، ويعرف النّاس حذاءها وسقاءها؛ لاشتهار أصحابها، فيكفيها من العزو القليلُ الذي لا بدّ منه.

وأنا لا أدّعي السلامة من أسباب الزّلل، ولا الحيدة عن مزالقِ النسيان والخلل، وبخاصّة في المسائل والأخبار التي قيّدتُها وأسندتُ مردّ علمها إلى الله تعالى، فإنّي لا أقطع اليقينَ بها، وأبرأ من القول على الله تعالى ورسوله بغير علم، أو الخوض فيما ليس لي به فهم. ولا أُحلّ أمامَ الله تعالى من قَدِر على النّصح، ثم أحجم ومال إلى دروب الفضح.

وحسبي حرصي وجهدي.. جهدي في تحرير ما رأيت وجوبه من المسائل، وحرصي على أداء ما علمت لزومه من النّصيحة بتقريب أهل الدّار الفانية الهزيلة إلى بلاد الأشواق الخالدة السعيدة، مراعياً عرض صور النعيم من كتاب الله تعالى وسنّة رسوله، ومتفكّراً في سياق المشاهد لاستنباط الّدرر والفرائد، مجلّياً بعض حقائق الجمال، ومصوّراً بهاء الحال وشرف المآل؛ ومراعياً لغة العصر واحتياجات أهله ما استطعت.. ومجتهداً في تقريب ما أمكن من الصور الغيبية بالمشاهد المعاصرة الحسيّة التي ظهرت بعد انتشار الأجهزة والمخترعات الحديثة؛ راجياً أن يكون الكتاب أنيس الصحيح والسّقيم، وزاد الظاعن والمقيم، ومرجعاً يتعلّم منه الرّاغب، ويتذكّر به العالم بأسنى المطالب، وأن يتحوّل إلى مائدة عامرة يجتمع

---

(١) المغمور من النّاس: من لا يُعرف. (القاموس المحيط، ج١/ ص٥٨١).



عليهـا أفـراد الأسـرة المسـلمة، صـغاراً وكبـاراً.. يتـذاكرون ويتعلّمـون، ويناقشون اهتماماتهم الحقيقية النافعة، بدلاً من اجتماعهم على مشاهدة الأخبار والتحليلات، والأفلام والمسلسلات، ووسائل اللهو واللعب، التي تتخطّفهم بها الشياطين من كلّ جانب، لتغرس في قلوبهم بذور الشكّ والشبهات، وتزيّن لهم الباطل، وتنسيهم حقائق الهول بعد الممات، وتزيل الحواجز التي تحول بينهم وبين تفاهات الكافرين وعاداتهم وأخلاقهم.

وبعد.. فإذا جاز لكاتب أن يزفّ أبكار الكَلِم لخطّابها، والتعريف بكريم مكانتها، فإنّي بذلك أحرى وأولى؛ فلهذا الكتاب حظوته ومكانته بين ما جمعتُ وألّفت. ومن تأمّله وجده بحق فريداً في بابه.. بديعًا لم يُسبق، وجمعًا لما تفرّق، بترتيب وتنسيق يزاوج بين المعرفة والتشويق، ويتنقّل بين المشاهد الرّغيدة.. بألوانها النّضِرة ونسيمها العليل، وسرورها الدّائم الذي لا يسأم المشتاق السياحة في مشاهده، ولا يملّ القلب التطواف في منازله.. قد أخذتُ به السّهل دون الجبل، وجانبته الكؤود من طرق الخلاف والرّدود والجدل، ونظمته ببديع التقاسيم والتصنيفات، والتجزئة والتبويبات، وأدرجت فيه ما دعت الضرورة من المسائل، ثمّ أعدت صياغته بأسلوب سَلِس لا يُملّ، وحررته على وجه يخاطب الوجدان والعقل، والمنّة لله من بعدُ، كما هي له من قبل.

ومما زاد في رونق هذا السِّفر المشوق أنّ منازله ونصوصه ومشاهده مرتّبة وفق التسلسل الزمني لمسير سعيد من السّعداء.. تبدأ قصّته مع اللحظات الأولى التي خرج فيها إلى الدنيا، وتسير معه في منازل الصراط المستقيم، وتقف معه في لحظات الهول العظيم على عرصات القيامة،

مروراً بما يجري له على أرض القنطرة إلى ساعة دخول الجنّة، وما يجد في مسيره إلى محلّة الفوز والكرامة، ومجالس البهجة والرغد، حتى يرى ربّه يوم الفرحة الكبرى، والنّعمة العظمى.

أسأل الله تعالى أن يجعله عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وسببًا لرفعة الدرجات في جنّات النّعيم، وأن يدّخره لي ذخراً من صالح العمل بعد انقطاع الأجل، إنّه سبحانه نعم المولى، ونعم النصير، وهو حسبي ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قُيّدت سطور الكتاب الأولى بمكة المكرمة في بكرة يوم الجمعة، غرّة ربيع الأول سنة ١٤٢٦هـ، وتمّ الفراغ من تهذيب طبعته الأولى أمام الكعبة المشرفة، مساء الثامن عشر لشهر محرم سنة ١٤٣٠هـ، ولله الحمد والمنّة.



بطاقة دعوة إلى بلاد الأفراح

﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾[إبراهيم: ١٠]

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[يونس: ٢٥]

لا أرحم من الله تعالى بخلقه، ولا أكرم منه بأوليائه، ولا أشرف من دعوته جلّ جلاله لعباده؛ فهي دائرة بين دعوتهم «لِيَغْفِرَ لَهم مِّن ذُنُوبِهِمْ»، ودعوتهم إِلَى «الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ». ودعوته تقدّست أسماؤه إلى جنّات النّعيم تأخذ بمجامع القلوب، وتخاطب سائر الحواس، وتأسر كلَّ عينٍ مُبصرة، وتُسمِع كل أذن مرهفة، ولها تشتاق الفِطر السويّة، وبها يصلح حالُ العباد ومآلهم. وكلّ ما في القرآن الكريم عن جنّات النّعيم غاية في الجمال، لو تأمّلته القلوب بأنوار بصائرها، والعقول بكمالات خيالاتها، قال الله تعالى يصف حال المقرّبين: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ ... فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[الواقعة: ١٥ - ٢٤].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[(١)].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري (ج٣/ ص١١٨٥)، ومسلم (ج٤/ ص٢١٧٤).

ومن عقد حياة حقيقية مع القرآن الكريم أوشك أن يطير قلبُه شوقًا إلى دار النّعيم؛ فهاهم جيرانُ الله فيها، أمامه رأي العين.. قد سَمَو بنعيم ملكهم، واتّكأوا على أسرّة الخلد في أعالي شُرُفاتهم، بعد أن أمدّتهم كرامة النّظر إلى وجه ربّهم شرف الدّهر وحبوره، والرّفاهُ الكبيرُ لأقلّهم منزلةً.. واسعٌ، يفيض على مُلك الدنيا عشر مرّات، والأبرارُ في غرفاتهم تلك.. فارهون: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[الصافات: ٤٤ - ٤٩]، والمقرّبون في منازل السّعادة يرون ربّهم بكرة وعشيّا: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾.

ولا دعوة إلى الجنّة بعد كلام الله تعالى أكمل ولا أجمل من وصف رسوله حيث اجتمع له في خبرها طريقان لم يجتمعا لأحد قبله ولا بعده، سوى ما كان لأبيه آدم عليهما الصلاة والسلام: علمُ اليقين الذي تضمّنه الوحي، المنزّلُ بجميل صفاتها، وعينُ اليقين الذي تحصّل له عند دخولها. عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «دخلتُ الجنة، فأبصرت قصراً فقلت: لمن هذا؟ قالوا: لعمر بن الخطاب؛ فأردت أن أدخله فلم يمنعني إلا علمي بغيرتك» قال عمر بن الخطاب: بأبي أنت وأمّي يا نبيّ الله، أوعليك أغار؟[1].

والأسفارُ بعد ذلك، مهما بلغ رصفُها ونظمها، لن تصل إلى مقاربة بديع كلام الله تعالى وبيانه، ونظمه وإتقانه، ثمّ كلام رسوله، ومن ذا يُطيق الحديث عن دار الأبرار، ومستقرّ المتقين الأخيار، أو يشوّق النّاس إليها، ثمّ

---

(١) أخرجه البخاري (ج٥/ ص٢٠٠٣).



لا يقف مذهولاً أمام وصف مَن خلقها فسوّاها، ورفع بالدُرّ والياقوت شَرَف ذراها، وأقام كثبان العود والمسك الأذفر في قبابها وثراها، ونجّد بالزرابيّ فسيح خيامها، وبسط العبقري في بطن رحابها، وزيّنها برفارف إستبرقها، وحفّ بالديباج فُرُشها ونمارقها، وكساها جلبابا من نور عرشه، ثم قال، وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

والأنفسُ المؤمنةُ الرّضيّة سريعةُ الاستجابة لحديثِ الجنّة إذا استنار بمشكاة الوحي، وهي شديدة الشوق إليه.. تأذَن لأخباره، وتستحضر لذّاته، وتطوّف في نعيمه الذي يستغرق اللذات كلّها! وسريعًا ما تنفر عن حديث الجهل والخرافة، والمبالغة والدّجل والتهويل.

لذّات الجنّة بمعرفة أسمائها وصفاتها

الرّفاه على أرض الجنّة مكنوز في التعرّف على أسمائها وصفاتها، من استحضرها وأدرك معانيها حصّل من وضوح العلم واشتداد الشوق ورسوخ اليقين مالا يحصّل غيره. فصفات الجنّة أكمل الصّفات لدار قرار؛ من حيث البناء والإتقان، والسعادة والأمان، والملك التامّ، والحياة الخالدة الرغيدة.. نعيمها دائم، ولذّاتها لا تنقطع، تربتها الزّعفران:

وبناؤها اللبنات من ذهب ... وأخرى فضة، نوعان مختلفان

وقصورُها من لؤلؤ وزبرجد ... أو فضة أو خالص العِقيان[1]

وكذاك من درّ وياقوت به ... نُظِمَ البناء بغاية الإتقان

والطين مسكٌ خالص أو زعفرا ... نٌ، جا بذا أثران مقبولان

ليسا بمختلفين لا تنكرهما ... فهما الملاط لذلك البنيان

والأرض مرمرةٌ[2] كخالص فضّة ... مثل المرآة تناله العينان

حصباؤها درّ وياقوت كذا ... ك لآلىءٌ نُثرت كنثر جمان

غُرُفاتها في الجو ينظر بطنها ... من ظهرها والظهر من بطنان

أشجارها نوعان منها ما له ... في هذه الدنيا مثال ثان

يكفي من التّعداد قول إلهنا ... من كلّ فاكهة بها زوجان[3]

---

(١) العقيان: الذّهب، إذا كان نقيّاً خالصاً.

(٢) نوع من الرّخام الصّلب.

(٣) الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم، (ج٣/ ص٣٦١-٣٦٣).



(والجنّة) أشرف أسمائها وأكثرها ظهوراً، وهو اسم شامل لجميع ما حوته من البساتين والمساكن والقصور، الكثيرة. عن أَنَسُ بن مَالِكٍ ﷺ أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بن سُرَاقَةَ رضي الله عنهم أجمعين، أَتَتْ النبي ﷺ فقالت: يا نَبِيَّ الله، ألا تُحَدِّثُنِي عن حَارِثَةَ، وكان قُتِلَ يوم بَدْرٍ، أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ، فَإِنْ كان في الْجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كان غير ذلك اجْتَهَدْتُ عليه في الْبُكَاءِ؟! قال ﷺ: «يا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا جِنَانٌ في الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأعلى»[1]. والجنّات داخل الجنّة الواحدة يراد بها البساتين ذات المساحة الكبيرة التي تتداخل فيها: القصور، والغرف، والخيام، والأشجار المتنوّعة الكثيرة.. أشجار الرّمان، وأشجار الموز، وأشجار العنب ونحوها، ويشهد لذلك قول الحق جلّ شأنه: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾[الرحمن: ٦٢]. عن عياض بن تميم ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ تلا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قال: بستانان، عرض كل واحد منهما مسيرة مائة عام[2].

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١٠٣٤).

(٢) الدر المنثور، (ج٧/ ص٧٠٨). قال السعدي رحمه الله: دلّ ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخيرتين. ومجرد تقديم الأوليين على الأخريين يدل على فضلهما. فبهذه الأوجه يعرف فضل الأوليين على الأخريين وأنهما معدّتان للمقرّبين من الأنبياء والصدّيقين وخواص عباد الله الصالحين، وأنّ الأخريين معدّتان لعموم المؤمنين. وفي كل من الجنات المذكورات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيهنّ ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، وأهلهنّ في غاية الراحة والرّضا والطمأنينة وحسن المأوى، حتى إنّ كل واحد منهم لا يرى أحدًا أحسن حالًا منه ولا أعلى من نعيمه الذي هو فيه. (تفسير السعدي، ج١/ ص٨٣٢).

وأسماء الجنّة كثيرة بالغة الحسن والجمال، دالّة على شرف الرفعة والكمال [1]؛ فهي (دار الخلد)، والخُلد دوام البقاء على الحالة التي خلقها الله تعالى، بدون التعرّض للفناء، أو النقص. ونعيم الجنّة متجدّد لا ينقطع؛ فأهلها لا يمرضون ولا يهرمون، و(أكلها دائم وظلها) كذلك، وعطاؤها الممنوح من الله تعالى ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ولا منقوص، وهم فيها منعّمون، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾.

وهي (دار النّعيم)، والنّعيم مأخوذ من النّعمة الكثيرة، الدالّة على رفاهية العيش، وطيبه، وصلاحه؛ فالعيش هنا خصيب، والسّرور كبير، والرّاحة عظيمة، والبهجة في التمتّع باللذات شاملة للمأكولات والمشروبات، والملبوسات والمركوبات. كما تدخل البهجة في الصّور الجميلة، والروائح الطيّبة، والمناظرُ الخلاّبة، والمساكن الواسعة، وفي كلّ حالة وهيئة من هيئات الحياة الرغيدة، والنّعيم الظاهر والباطن الذي يعيشه أهل الجنّة. (وجنة المأوى) اسم يدلّ على الأمان في السكنى، والسّلامة والحبور والهدوء، وهو جزاء كريم لمن خاف ربّه في الدّنيا. وهي كذلك (جنّة عَدْن). والعَدْن هو الإقامة، لكن على هيئة مخصوصة من الرّغد والسعادة، وتنوّع المباهج، حيث النّعيم الدائم الذي لا تحوّل عنه ولا ظعن، بل مكوث واستقرار وحبور. (والفردوس) يُطلق على الوادي الخصيب الواسع، والبستان الكثيف الملء بالأشجار، وهو وسطُ الجنّة وأعلاها، وفوقه عرشُ الرّحمن، ومنه تُفجّر أنهارُ الجنّة.

---

(١) ذكر ابن القيم رحمه الله، في الحادي، أحد عشر اسماً للجنة، أفاض في شرحها والاستدلال عليها.



وأمّا كونها (داراً للسلام) فلأنّ فيها السلامة الحقيقية من كلّ مخوف مؤلم، فهي دارُ السلامة من الموت والمرض، ومن الفقر والهرم، ومن الهموم والآفات، والنقائص والنكبات. والسعادة في الجنّة مقرونة بالسلام؛ فهي سعادة دائمة بلا أحزان، والعزّ فيها متواصل بلا ذلّ، والصّحة فيها ظاهرة بلا سَقَم. وهي دار سالمة من الفناء؛ لأن الله تعالى خلقها للبقاء. والسّلام في الجنّة يجده أهلها في كل مكان.. سلام من الله تعالى، وسلام من الملائكة، وكما يجدونه عند تحية الغلمان، وما يدور من أحاديث البشارة من الزوجات والإخوان في دار الكرامة.

والحُسن وصفٌ لازم للجنة بكل ما فيها، ومن هنا جاء تسميتها بـ (الحسنى)؛ لأنّ كلّ ما فيها جميل ومُفرح، يراه أهلها في شدّة الحُسن والبهاء الذي تتمثّل به زوجاتهم، وهنّ يرينه فيهم كذلك، كما يرونه في منازلهم وآنيتهم، وثيابهم ودوابّهم. وكلّ لذّة من لذّات النّعيم فيها هذا المعنى من معاني الحسن والجمال؛ فالأشجار والأطيار، والحدائق والثمار والألوان والأنهار.. كلّها في غاية الحسن البهيج الذي تَفْرَح به العيون، وتطرب له الآذان، وتتجاوب معه سائر الحواس.

و(الحياة) أو (الحيوان) من أسماء الجنّة كذلك، وهي تُطلق على الشيء الباقي العامر بالحركة، الخالي من الآفات. والحيوان، على وزن فَعَلان، يدل على الحياة وزيادة. وإطلاقه على الدّار الآخرة، وعلى الجنّة خصوصاً يدلّ على الحركة والنشاط والمتعة؛ فهي حياة حقيقية، بأبدانٍ غاية في القوة، ومبهجات كثيرة تتمّ بها اللّذة في الحواس، والفرح في القلوب. قال الله عز وجل: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ

ﭐلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴾[العنكبوت: ٦٤]. وهكذا هي الجنّة.. دار الحياة الحقيقية التي لا موت فيها ولا فناء، بل بقاء سرمدي، من صار إليها ناله الخلود والبقاء والبهجة والفرحة.. في حياة طيبة سرمدية.. خالية من الكدر والشقاء.

والجنّة فيها الإقامة الحقيقية الدائمة، ولذا استحقت أن تكون (دار المُقامة).. بهذا العموم؛ لأنّ البقاء فيها لا يكدّره تحوّل ولا انتقال. لا يخرج أهلُها منها، ولا يتحوّلون عنها كدار الدّنيا القصيرة الزائلة التي لا تكون الإقامة فيها حقيقية، بل ينتقل منها أهلها إلى دارهم الباقية. قال الله تعالى عن دعاء أهل الجنّة إذا دخلوها: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴾[فاطر: ٣٤ - ٣٥].

وهذه الإقامة الخالدة الباقية، التي يصحبها رغد العيش، لا تحتاج إلى شيء حاجتها إلى صبر من المخاوف، والسّلامة من المكاره، ولذا كان المقام في الجنّة آمنـًا لا خوف معه[(١)]، قال الله جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ﴾. والأمن مصاحب لأهل الجنّة من كلّ وجه؛ فهو مقام لا خوف من انقطاعه في المستقبل، كما أنّه خال من الآفات والنقائص في

---

(١) قال بن القيم رحمه: الخوف ليس مقصودا لذاته، بل هو مقصود لغيره، قصد الوسائل؛ ولهذا يزولُ بزوالِ المَخوف؛ فإنّ أهلَ الجنّة ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾. والخوفُ يتعلّق بالأفعال، والمحبّةُ تتعلّقُ بالذّات والصفات، ولهذا تتضاعفُ محبّةُ المؤمنين لربّهم إذا دخلوا دار النعيم، ولا يلحقهم فيها خوف. (مدارج السالكين ج١/ ص٥١٤).



الحاضر. وكلّ نعيم في الجنّة كاملٌ وطيّب، وهو متاح ميسور لأهلها، لا خوف يصحبه عند الاستمتاع باللّذات المتحصّلة منه؛ ولا حُزن يدُبّ على القلبِ من تخيّل انقطاعه يوماً من الدّهر؛ لأن الجنّة واحدة من مخلوقات الله تعالى الدائمة، التي لا تبيد[1]، ونعيمها متجدّد أعدّه الله تعالى لإبهاج المؤمنين وإسعادهم. قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[الدخان: ٥١ - ٥٢].

والجنّة (قدم الصدّق) الذي بشّر الله تعالى به أولياءه في الدّنيا. وقدم الصّدق هو الأجر الذي أرصده الله تعالى لهم، والنّعيم الذي ينتظرهم؛ جزاء أعمالهم الصالحة: من صلاة وصيام، وصدقة وحجّ وجهاد ونحوها؛ فهي مقعد لا زوال له، ومستقرّ لا بؤس فيه، قال الله سبحانه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾.

والمكث الأبديّ في هذه الدار العالية حقّ لا شك فيه؛ ولهذا كانت (مقعد الصدق) (ودار الكرامة) والرضوان، ومحَلّة الجود والإحسان الذي لا يدخله إلا أهل الصدق، ممن آمن بالله تعالى وصدّق المرسلين. كما ارتبط (مقعد الصدق) في الجنّة بموضع يقترن به نعيمٌ خاص من أشرف نعيم أهل الجنّة، وهو القُرب والجوار من الله تعالى. وبسبب قربه أصبح موضعاً مختاراً في هذه الدار الكريمة، له من الجمال والبهجة والبهاء، وتحفّ به من اللذات ما يميّزه على سائر المواضع البهيجة الأخرى. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾.

---

(١) وهي من المخلوقات العشرة التي يعمّها حكم البقاء، كما سيأتي.



منازل السّير إلى اليوم الآخر!

خلق الله تعالى الإنسان من ماهية فريدة، تختلف عن ماهية الملائكة والجانّ، فمن طينة الأرض ونفخة الروح تشكّل آدم عليه الصلاة والسلام؛ فإذا هو بشر سويّ. ولإظهار فضله أسجد له ربّه ملائكته، وعلّمه الأسماء كلّها، وأدخله الجنّة، فلمّا عصى ربّه فيها أُهبط وزوجه إلى الأرض، ومعهما الشيطان الذي أغواهما. وأخبر الله تعالى آدمَ أنّ بقاءه وزوجه في الأرض لمدّة معلومة، يعودان بعدها إلى دارهما الأولى، ومعهما من صلح من ذريتهما. وفي الأرض جرى الاختبار الكبير لبني آدم، واحتدم الصراع بينهم وبين الشيطان.

وكما خلق الله تعالى آدم من طين فقد جعل نسله بعده متسلسلًا من نطفة أمشاج مهينة، تستقرّ في مستودعها المكين. وأخرج من أصلاب نسله ذريتهم.. يتوالدون جيلاً فجيلاً، كلّما أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم قرّرهم بأنّه خالقهم ومليكهم، وأخذ منهم الميثاق بما أودعه في فطرهم أن يوحّدوه ويعبدوه[1]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾[الأعراف: ١٧٢]. وإقرارهم هذا عامّ لجميعهم؛ بما أودعه سبحانه في فطرهم وهم في أصلاب آبائهم. فإذا جُمع خلق أحدهم في بطن أمه، بعث الله تعالى إليه ملكـاً موكلاً به، وأمره بكتابة أربع

(١) انظر تأويل الآية في: تفسير السعدي، (ج١/ ص٣٠٨)



كلمات، يقول له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقيّ أو سعيد. فإذا نُفخ في ابن آدم الروح، وهو في الظلمات الثلاث، بدأ رحلة الكدح الطّويلة الشاقّة.

١- الانتقال إلى دار الدّنيا:

ومع خروج ولد آدم إلى الوجود، تتجلّى به رحمة ربّه؛ حيث يخرجه طاهراً نقيًا، مبرّأً من الذنب والخطيئة، سالمًا من العقائد الفاسدة، مفطوراً على التوحيد، ثمّ لا يزال به ربّه.. يُمدّه بالقوى الظاهرة والباطنة التي تعينه على بقاء هذه الفطرة، ويكمّله بمكتسبات المعرفة، ويتمّها له طوراً فطوراً، حتى يتمكّن من تحصيل مقاصد السّير الطويل إلى ربّه، والثبات على الصراط الذي يؤول به إلى داره الأولى.. الجنّة. وربّه في جميع الأطوار يحفظه ويرعاه، ويهديه السبيل، ولا يتركه لعدوّه.. يرسل إليه الرسل بالآيات البينات، والكتب الواضحات، ويبشّره ويحبّب إليه الطاعة ويرغبه فيها، ويحذّره من سبل الشرك والمعصية وطرق الضلال التي تؤول به إلى دار البوار، فإذا بلغ سنّ التكليف وجرى عليه القلم اتّضح مسيره، وتحدّد بحسب العمل مصيره.

٢ - عداوة الشّيطان:

وما من عداوة أشدّ على ذريّة آدم من عداوة الشّيطان؛ فهو لا يزال حيًّا بينهم، وسيظلّ إلى قيام السّاعة، ومهمّته لا تتجاوز إضلالهم عن صراط الله المستقيم، ودعوة من استطاع منهم إلى سواء الجحيم. والمعركة مع الشّيطان أطول وأشقّ مواجهة يخوضها البشر على الإطلاق؛ حيث بدأت فصولها منذ اليوم الأول لخلق أبيهم آدم، ولم تهدأ ساعة من الدّهر، كما لم تنحرف عن غايتها الواضحة التي جلّاها الله لهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[فاطر: ٦].

والأنفس البشرية الضعيفة سريعاً ما تركن إلى الدّنيا، وتقع في شِراك الشيطان، ولكلٍ سبيلُه الذي يغويه؛ فمنهم من تدركه الغواية بسبب الشّرك، ومنهم من يضلّ بسبب المال، تحصيلاً أو إنفاقاً، ومنهم من يقع في شباك الشهوة، ونحو ذلك.

وكلّما التقط آدميّ الطّعم الشيطانيّ الذي يناسب حاله ازداد انحرافه عن صراط ربّه، وأعرض عن ذكره، ثمّ لا يزال ينقطع عن معالم الهداية، حتى يغيب في ظلمات الضلالة؛ فأشقاهم من تأتيه منيّته وهو كذلك، وأسعدهم الأوّابون الذين تدركهم رحمة ربّهم، ويُقذف في قلوبهم نور الإيمان ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، يتلمّسون الدليل الهادي الذي يبصّرهم أنوار الطريق، ويوقظهم من سكرة الغافلين، بصوت الترغيب تارة، وبسوط الترهيب تارات. فإذا زكت البصيرة بنور الإيمان صحّت المعرفة وصلحت الإرادة، واستقام السلوك، وأخذ القلب يغذّ السّير إلى منازل الأبرار، حيث الفرحة الكبرى، فإذا لاحت أمامه تلقته الملائكة الكرام مهنئين، يقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

فحيَّ على جنّات عدن فإنّها ... منازلك الأولى وفيها المخيَّمُ
ولكنّنا سبي العدوّ فهل تُرى ... نعود إلى أوطاننا ونُسَلَّمُ

والسعيد في كدحه إلى ربّه يتقلّب بين المنازل الثلاث: الدّنيا، والبرزخ، والآخرة، والدّنيا أقصر هذه المراحل عمراً، وأكثرهنّ اضطراباً، وأعظمهنّ أثراً في مستقبل الخلود القادم، وفيها تكون التكاليف، ويحصل التجاذب بين نوازع الرّوح والجسد، ترفعه هذه لتسمو به إلى الفضائل العلوية والقيم، وتثقله تلك بمطالب الجسد الأرضية، والشهوات واللذّات.



وربّه في الحالين أعلم به، وأنصح له، وأخبرُ بمصيره، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[الانشقاق: ٦]. فإذا مات ابن آدم قامت قيامته، وانقطعت عن الدنيا صِلته، وظهرت له نتائج عمله.

٣ - (القبر أوّل منازل الآخرة)(١):

فإذا استوفى ابن آدم رزقه وأجله توفّته ملائكة الرّحمة إن كان مؤمنا تقيّـًا، أو ملائكة العذاب إن كان جاحداً شقيّـًا، وبُشّر بمصيره عند نزع روحه. والموت حالة تنفصل فيها الرّوح عن الجسد من كلّ وجه: هذا يذوي في التراب ليصبح رميمـًا، وتلك تحلّق في النّعيم، أو تعذّب في الجحيم. وبالموت ينتقل ابن آدم عن الدّنيا انتقالاً نهائيـًا لا رجعة فيه، وتزول متعلّقاته فيها، وينقطع عنه كلّ شيء سوى ما خلّف من كسب صالح، ثمّ لا يجتمع شمله بالمقرّبين له، من المتّقين أو الفجار، إلا في الجنّة أو النّار. قال ﷺ: «إذا حضرتم الميت فغمّضوا البصر؛ فإنّ البصر يتبع الروح، وقولوا خيراً؛ فإنّ الملائكة تؤمّن على دعاء أهل البيت»(٢). وقال ﷺ: «إذا

(١) جزء من حديث رواه هانئ مولى عثمان بن عفان ﷺ، قال: كان عثمان بن عفان إذا وقف على قبر بكى حتى يبلّ لحيته، فيقال له: قد تذكر الجنة والنّار فلا تبكي، وتبكي من هذا؟ فيقول: إنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ القبر أوّل منازل الآخرة؛ فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشدّ منه» (أخرجه الحاكم في المستدرك، ج١/ ص٥٢٦).

(٢) أخرجه الحاكم، (ج١/ ص٥٠٣)، من حديث شداد بن أوس، وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم ينتفع به وولد صالح يدعو له»[١].

وبالموت يذبُل الجسد ويودع التراب، وتجوزُ الرّوح إلى عالم جديد يسمّى البرزخ.. وهو أوّل عوالم الآخرة، قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾[الأنعام: ٦١ - ٦٢].

والبرزخ عالم الأرواح لا الأجساد! ومع أوّل ليلة في القبر تتجلّى للرّوح الآدميّة حقائقُ الأهوال الجديدة التي كانت محجوبة عن المُدركات في الحياة الدنيا. أمّا الجسد فلا يلبث طويلاً حتى يزول وتبلى محاسنه، وتزول معالمه[٢]، ولا يبقى منه إلا عُجب الذنب الذي لا يفنى بعد الخلق الأوّل، ومنه تبدأ الحياة الأخرى يوم القيامة! قال الله جلّ شأنه: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾[طه: ٥٥]. والرّوح، كذلك، إذا نُفِخت أول مرة لا تموت أبداً؛ لأنّها مخلوقة للبقاء، بخلاف الجسد[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي، (ج٣/ ص٦٦٠) من حديث أبي هريرة، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) عدا أجساد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال ﷺ: «إن الله قد حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»، (أخرجه النسائي، ج١/ ص٥١٩).

(٣) لله تعالى مخلوقات لا تبيد، أوجدها سبحانه للبقاء، ولا يلحقها الفناء، وقد نظمها الإمام السيوطي رحمه الله بقوله:

ثمانية حُكم البقاء يعمّها ... من الخلق، والباقون في حيّز العدم

هي العرش والكرسيّ، نارٌ وجنة ... وعُجبٌ وأرواحٌ كذا اللوح والقلم

وزاد عليها بن القيم في نونيته: الحور العين. ويضاف لها كذلك: الولدان؛ فإنهم مخلوقون للبقاء أيضاً.



وأرواح العباد بحسب ما غلب على حال أصحابها في الدّنيا؛ فإذا كانت حالاً إيمانية عليّة؛ ارتفعت للتنعّم في مستقرّ الخلود، وإذا كانت حالاً شهوانية دنيئة، لم تُفتّح لها أبواب السّماء، بل يُقْذف بها في دركات الأرض، وتعذّب إلى يوم النّشور[(١)]. عن كعب الأنصاري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّما نسمة المؤمن طائرٌ يِعْلُقُ في شجر الجنة، حتى يرجع إلى جسده يوم يبعث»[(٢)]. ثم تجري على الرّوح في مستقرّها ذاك أحوالاً لا يعلمها إلا الله سبحانه، عن أبي أيوب الأنصاري ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا قُبضت نفس المؤمن تلقّاه أهل الرّحمة من عباد الله كما تلقّون البشير في الدنيا، فيُقبلون عليه ليسألوه، فيقول بعضهم لبعض: انظروا صاحبكم يستريح؛ فإنّه قد كان في كرب شديد، فيقبلون عليه؛ فيسألونه ماذا فعل فلان؟ وما فعلت فلانة؟ هل تزوجت؟ فإذا سألوه عن الرجل قد مات قبله قال لهم: قد مات ذاك قبلي، فيقولون إنا لله وإنا إليه راجعون، ذُهب به إلى أمّه الهاوية.. وإنّ أعمالكم تُعرض على أقاربكم وعشائركم من أهل الآخرة؛ فإن كان خيرًا فرحوا واستبشروا، وقالوا: اللهم هذا فضلك ورحمتك فأتمم نعمتك عليه، وأمته عليها، ويعرض عليهم عمل المسيء فيقولون: اللهم ألهمه عملا صالحًا ترضي به عنه وتقربه إليك»[(٣)]. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ

---

(١) تأمّل أحوال هذه المرحلة في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن الْبَرَاءِ ﵁ ، (ج٤/ ص٢٨٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه، (ج٢/ ص١٤٢٨) والنسائي، (ج١/ ص٦٦٥).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (ج٤/ ص١٢٩) ورجّح الألباني رفعه يقينـًا، (السلسلة الصحيحة ٢٧٥٨).

أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠]. وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا رأى (المؤمن) ما فُسح له في قبره يقول: دعوني أبشّر أهلي، فيُقال له: أسكن»[(١)].

٤ - (ثُمَّ رُدُّواْ إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ):

فإذا قضى الله تعالى بزوال الدّنيا أمر نافخ الصور بأمره، قال سبحانه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الزمر: ٦٨ - ٧٠]. وما بين النفختين أربعين سنة[(٢)]، يبيد فيها كلّ شيء، ولا يبقى الا الله سبحانه، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧]. بعد ذلك يحيي الله تعالى الأجساد وهي رميم، بقدرته وعظمته جلّ شأنه.

وحال الخلق الجديد في النّمو يوم القيامة كحال البذرة إذا روّاها المطر بعد تقليب الأرض الصالحة وحرثها! وكذلك الأرض إذا زلزلت واضطربت يوم القيامة.. تُخرج ما بداخلها، ثمّ ينزل سبحانه مطراً من تحت العرش، تهتزّ له بقايا بني آدم، ومنها تركّب أجسادهم؛ فإذا هم قيام أسوياء، بلا روح، كحالهم يوم خلق أبيهم آدم عليه السلام! فإذا نُفخ في الصّور أخرى تطايرت الأرواح واجتمعت بأجسادها؛ فإذا هم قيام ينظرون، يعاينون الحقائق على وجه اليقين!! قال الله تعالى في تقريب حقيقة النشأة الأخرى:

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (ج٣/ ص٣٣١) وهو حديث صحيح.

(٢) انظر: فتح الباري (ج١١/ ص٣٧٠).



﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[ق: ٩ - ١١].

أي: كذلك خروجكم من الأرض يوم القيامة. وقال سبحانه عن لحظة الصّدمة الكبرى للمكذّبين: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ۝ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ۝ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[يس:٤٨-٥٢]. وقال جلّ شأنه: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾[التكوير: ٧]. أيّ: اقترنت بأجسادها، ورُدّت إليها عند البعث[(١)]. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «يقوم المَلَك بالصّور بين السماء والأرض فينفخ فيه، والصور قرنٌ، فلا يبقى خلق في السماوات والأرض إلا مات، إلا من شاء ربك، ثم يكون بين النفختين ما شاء الله أن يكون، فليس من بني آدم خلق إلا منه شيء، فيرسل الله ماء من تحت العرش كمنيّ الرجال، فتنبت لحمانهم وجثمانهم من ذلك الماء كما ينبت الأرض من الثرى. ثم قرأ ابن مسعود: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]، قال: ثمّ يقوم ملَك بالصّور بين السماء والأرض، فينفخ فيه، فينطلق كل نفس إلى جسدها حتى يدخل فيه، ثم يقومون، فيحيون حياة رجل واحد، قياماً لرب العالمين»[(٢)].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، (ج٤/ ص١٨١).

(٢) أخرجه الحاكم، ج٤/ ص٥٤٢). وقال ابن حجر: رواته ثقات إلا أنه موقوف. (فتح الباري، ج١١/ ص٣٧٠).

٥ - أحوال الخلائق يوم القيامة:

والحقائق الغيبية الكبرى تتجلّى عين اليقين حين يخرج بنو آدم على العالم الجديد، الذي تبدّلت أرضُه وسماؤه.. أرض جرداء عفراء، صفصف: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ قد اكتظّت بالأجساد العارية الوجلة، والشّمس قريبة دانية، قد اتّقدت حرارتها!! والملائكة تنظّم الجموع، وتنادي كلّ أمّة لتلحق بنبيها.. مخلوقات كريمة تطير وتسير، لم يرها بنو آدم من قبل، كثيرة لا حصر لها، ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾، وزيادة لا يعلمها إلا هو سبحانه.

والوقوف في ذلك اليوم طويل، والحساب عسير على الكافرين، والصّدور منه إلى دار السعادة أو إلى دار الشّقاء! وفي عرصات القيامة يؤتى بجهنّم ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، «لها سبعون ألف زمام، مع كلّ زمام سبعون ألف ملك يجرّونها»[1]، وتتبدّى حقائق الجنّة، من طيب نسائمها التي تهبّ على المؤمنين، وعذب مائها الذي يشخب في حوض الكوثر «أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يغُتّ فيه ميزابان[2] يُمِدّانه من الجنّة، أحدهما من ذهب، والآخر من ورِق»[3]. في ذلك اليوم: ﴿لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[الدخان: ٤١ - ٤٢]. ومع اشتداد الهول وترقّب الحساب: ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ

---

(١) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص٢١٨٤).

(٢) أي: يدفقان فيه الماء دفقاً دائماً متتابعاً. (النهاية في غريب الأثر ج٣/ ص٣٤٢).

(٣) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص١٧٩٩) والورِق: الفضّة.



وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس: ٣٤ - ٣٧]، ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ [المعارج: ١٠ - ٣٧]... وفيه يتحقق وعد الله الصّدق، وينكشف زيف الدّاعين سواه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾[إبراهيم: ٢٢].

٦- كمال التنظيم والترتيب:

إذا قلنا إنّ بني آدم لم يعرفوا حقيقة التنظيم إلا مع أوّل أيام القيامة فإنّا نتحدث عن حقيقة واحدة من حقائق اليوم الآخر التي يشاهدها القادمون من بادية الدّنيا، ويلمسونها في كلّ شيء يحيط بهم! والفارق كبير بين ما كان يديره البشر في حياتهم، وما اصطلحوا عليه لتنظيم شؤونهم الخاصّة والعامّة.. داخل منازلهم ووظائفهم، مهما بلغوا في التخطيط والتنظيم، وبين عالم الغيب الذي يدّبر أمره العليم الحكيم، وتتولّى مهامّه الملائكة الكرام، الذين: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

لقد شاهد السعيد، برحمة ربّه، عظمة هذا الانضباط والتنظيم والترتيب ساعة انشقّ عنه قبره؛ فالنّاس منذ خروجهم يدعون إلى النّظام والتجمّع في أماكنهم المحدّدة، وتحشرهم ملائكة الرحمن على عرصات القيامة.. أممًا أممًا، يتقدّم كلّ أمّة رسولها. ويظلّون قيامًا، حتى إذا دنت ساعة الحساب جثت الخلائق على رُكبها، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الجاثية: ٢٨ - ٢٩].

وفي عرصات القيامة تظهر دقّة الجزاء، بنظام دقيق، وميزان عدل لا ظلم فيه. وأعمال ذلك اليوم مرتّبة منظّمة، لا يتقدّم فيها أحدٌ على أحد، ولا عملٌ على عمل. والنّاس على أحوال مرهونة بما قدموا في الدنيا؛ جزاء وفاقـًا؛ فالسّعداء يرفلون في أحوال السعادة، والأشقياء تغشاهم أحوال الشقاوة. والعبور على الصراط يتمّ بنظام، وكذلك اجتماع المتّقين في القنطرة قبل دخول الجنّة. وعلى مشارف أبواب الجنّة تتجلّى أبهى صور النظام، وأسمى مراتب الدّقّة التي لم يعهدها البشر في أيّامهم الخالية.

ومشاهد أحوال السّعداء وأعمالهم على عرصات القيامة تبيّن مقدار النّظام الذي يظهر في مجازاة كلّ آدمي بما كان يعمل في الدنيا؛ فهؤلاء المصلّون.. غرّ محجّلون، يشعّ النّور من أعضاء وضوئهم، ويحيط بهم من كلّ جانب، وأهل القرآن.. تظلّلهم سورتا البقرة وآل عمران، وأولئك الحجّاج والعمّار، بلباس الإحرام الذي ماتوا فيه.. يلبّون، على حالهم قبل الانتقال من دار الدّنيا! وهؤلاء الشّهداء، تثعب جراحهم، كما لو أنّهم أصيبوا بها في ذلك اليوم، بلون الدمّ، وروائح المسك الخالص. والمؤذنون سعداء مرتفعون عن الناس، لا يصيبهم كرب الزحام وشدة الحرّ؛ جزاء ما رفعوا اسم الله تعالى في دار الفناء!

وأهل ظلّ الرحمن في ذلك اليوم مُكرمون؛ لأعمالهم الصالحة التي استوجبت الصبر على حرارة الشهوة الجارفة، ومرارة تأنيب النفس الأمّارة في أعقاب الصدقة الخفيّة، ولفح عواقب العدل الذي لا يُرضي أكثر النّاس، وفراق الأقران والأوطان لأجل الله تعالى فاليوم يُدعون ليستظلّوا، والنّاس من حولهم يصطلون بوهج الشمس، ويعانون من شدّة الكرب! وعلى النّسَقِ



ذاته تظهر الدّقة في أحوال الأشقياء يوم القيامة، وتتجلّى صورُ النظام في مجازاة العباد، بمثل ما كانوا يعملون، ويظهر كمال عدل الله تعالى ورحمته(١).

٧ - مراسم الفصل بين الخلائق:

ومراسم الفصل بين الخلائق على درجة من الدّقة والنّظام كذلك؛ فهي لا تبدأ حتى ينزل الجبّار جلّ جلاله. ونزوله سبحانه محفوف بالهيبة والوقار والعظمة، في ظُلَل من الغمام والملائكة، قال الله جلّ جلاله، وتقدّست أسماؤه، يصف حال السماء ساعة تنزّله إلى أهل الموقف: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾[الحاقة: ١٧]. أي: على جوانب السماء وأركانها.. صفاً صفاً، خاضعين لربّهم مستكينين لعظمته، وترى في ذلك الموقف العظيم الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقّاء، والملوك والسوقة.. ساكتين مُنصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعةً رقابهم، جاثين على رُكَبِهم، عانيةً وجوههم.. لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا يُفعل به، قد اشتغل كلٌّ بنفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحبيبه(٢).

والشفاعة بين يديه سبحانه ليست لكلّ أحد، بل مرهونة برضاه عن الشافع والمشفّع معاً. والأمم جاثية خلف أنبيائها، والأنبياء على وجل عظيم، لا يجرؤ أحد منهم على الكلام؛ هيبة لمقام ربّه. ويطول بالنّاس الوقوف، وينقطع الكلام، فلا تسمع إلا الهمس، والمخافتة سِرّاً بتحريك الشفتين. ولا يُسمع في ذلك اليوم صوتٌ بين الخلائق إلا صوت الدّاعي،

---

(١) أفردتُ هذه المشاهد في مبحث لطيف غير منشور، بعنوان: (الأرض الجديدة).

(٢) تفسير السعدي، (ج١/ ص٥١٣).

وهو مَلَك كريم، ذو شأنٍ عظيم، ينادي أهل الموقف كلّهم للحضور والاجتماع، بصوت جهوري واضح، فيتّبعونه.. مسرعين فزعين، لا يلتفتون عنه. قال الله سبحانه: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾[طه: ١٠٨ - ١٠٩]. عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: تلا رسول الله ﷺ الآية: «يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ»، ثمّ قال: «كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة، خمسين ألف سنة، ثم لا ينظر الله إليكم؟»[(١)].

فإذا طال بالخلائق الوقوف، واشتدّ بهم الكرب ذهبوا يطلبون من يشفع لهم إلى ربّهم لفصل القضاء. والنّاظر في حديثِ مسيرهم يجد آثار النظام الدّقيق، والحركة المنضبطة التي تشرف عليها ملائكة الرحمن؛ إذ لا يقصدون سوى الأنبياء، الذين لا يؤذن بالكلام إلا لهم؛ فيبدأون بآدم، أبي البشر؛ لمكانته وشرفه، ثم بأولي العزم من الرسل خاصّة، بحسب ترتيب زمانهم؛ فيتّجهون إلى نوح فإبراهيم فموسى فعيسى، حتى يصلون إلى خاتم النبيين، محمد، قال ﷺ في بيان هذا الموقف المهيب: «أنا سيّد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد، يُسمعهم الداعي، وينفذهم البصر. وتدنو الشمس، فيبلغ الناسَ من الغمِّ والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم. فيأتون آدم عليه السلام، فيقولون له: أنت أبو

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب الإيمان، ج٤/ ص٦١٦ وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.



البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك. اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلَغَنا؟ فيقول آدم: إنّ ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته. نفسي.. نفسي.. نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح، إنك أنتَ أوّل الرسل إلى أهل الأرض، وقد سمّاك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عزّ وجلّ قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي. نفسي.. نفسي.. نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبيّ الله، وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إنّ ربي قد غضب اليوم غضباً، لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنّي قد كنت كذبت ثلاث كَذِبات، نفسي.. نفسي.. نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسول الله، فضّلك الله برسالته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إنّ ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنّي قد قتلت نفساً لم أومر بقتلها، نفسي.. نفسي.. نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنت رسول الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح، منه، وكلّمت الناس في المهد صبياً، اشفع لنا، ألا ترى إلى ما نحن فيه: فيقول عيسى: إنّ ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله قط، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً، نفسي.. نفسي.. نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى

محمد، فيأتون محمداً ﷺ فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فأنطلِق فآتي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربي عز وجل، ثم يفتح الله عليّ من محامده، وحسن الثناء عليه، شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يُقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تُعطه، واشفع تشفّع. فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا ربّ، أمتي يا ربّ. فيقال: يا محمد، أدخِل مِن أمّتك مَن لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنّة، وهم شُركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب». ثم قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنّ ما بين المصراعين من مصاريع الجنّة كما بين مكة وحِمْيَر، أو كما بين مكة وبصرى»[1].

عندها تحين ساعة الحساب، ويُستخرج من كلّ أمّة رسولُها، فيسأله ربّه، وهو أعلم به: «هلّ بلّغت قومك، ودعوتهم إلى عبادة ربّهم؟» وأمّته من خلفه، تسمع السؤال، وتسمع الجواب. فإذا فرغ النبي ﷺ سأل الله تعالى أمّته عنه، فإذا كذّبوه، طلب الله تعالى من النبي ﷺ شهوداً على صدقه. قال رسول الله ﷺ: «يُدعى نوحٌ يوم القيامة فيقول: لبّيك وسعديك يا ربّ. فيقول: «هل بلّغتَ؟» فيقول: نعم. فيُقال لأمّته: «هل بلّغكم؟» فيقولون: ما أتانا من نذير. فيقول: «من يشهد لك؟» فيقول: محمّدٌ وأمّته، فيشهدون أنّه قد بلّغ، فذلك قوله جلّ ذكره: «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً»[2].

---

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٧٤٥)، ومسلم، (ج١/ ص١٨٤).

(٢) أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٦٣١) عن أبي سعيد الخدري.



وحركة المُنَادى عليهم بين جموع الخلائق منظّمة، وفي غاية الدّقة، وما يُسئل به المنادى، ومن يشهد عليه، وما يُقدّم له من السجلات والصحف، كلّ ذلك مرتّب ومنظّم بدقة متناهية!! وكلّ فرد من بني آدم يستعرض في ذلك اليوم سجلّه الذي يحوي (جميع) عمله في الدّنيا، موثّقاً بأصغر جزء من الثانية، وعلى كل عملٍ من تلك الأعمال شهودُه من السّماء والأرض، فإن لم يقبل شهادتها، أُخرِس لسانُه فشهدت أعضاؤه! عن أبي ذر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّي لأعلم آخر أهل الجنّة دخولاً الجنّة وآخر أهل النار خروجاً منها، رجل يؤتى به يوم القيامة، فيقال: «اعرضوا عليه صغار ذنوبه، وارفعوا عنه كبارها»، فتُعرض عليه صغارُ ذنوبه فيقال: عملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا، كذا وكذا. فيقول: نعم، لا يستطيع أن يُنكر، وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تُعرض عليه، فيُقال له: »فإنّ لك مكان كلّ سيئة حسنة»، فيقول: ربّ قد عملت أشياء لا أراها ها هنا»، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه[1]، قال تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾. والجزاء يومئذ موكول بالعمل، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

والناس يومئذ: شقي وسعيد، والسعداء منهم على صنفين: صنف يدخل الجنّة ابتداء؛ لتحقيقه أصل التّوحيد، وتمامه، وكماله، وصنف يدخلها انتهاء بعد التهذيب في النار؛ لتحقيقه أصل التوحيد. ولا يحاسب أحدٌ عن أحد، ولا يحمل أحدٌ عن أحد. والسّعداء لهم أحوالهم، وكذلك الأشقياء، وحوض النبي ﷺ لا يَرِدُه إلا أمّته، بنظام تتولّاه الملائكة الكرام،

(١) أخرجه مسلم، (ج١/ ص١٧٥).

ومعرفة دقيقة بمن يَرِد ومن يُرَدّ!! والسّعيد يشهد ذلك كلّه لا يغيب عنه شيء؛ فإذا وُزِن وعملُه، وفرغ من كنف السّتر نودي عليه أن أقبِل، فيتّجه حيث ضُرب الصّراط باتجاه القنطرة، فيجد الخلائق هناك يُنادى عليهم بالورود.. واحداً تلو الآخر!!

عن عبد الله بن مسعود ﵁ عن النبي ﷺ قال: «يجمع الله الأولين والآخرين لميقاتِ يومٍ معلوم، قياما أربعين سنة، شاخصةً أبصارُهم إلى السماء، ينتظرون فصل القضاء، قال: وينزلُ الله عزَّ وجلَّ في ظُللٍ من الغمام» وذكر الحديث، وفيه سجود المؤمنين لربّهم، حتى قوله: «ثم يقول الله تبارك وتعالى: ارفعوا رؤوسكم، فيرفعون رؤوسهم فيُعطيهم نورَهم على قدر أعمالهم، فمنهم من يُعطى نورُه مثلَ الجبلِ العظيمِ يسعى بين يديه، ومنهم من يُعطى نوره أصغر من ذلك، ومنهم من يُعطى نوراً مثل النّخلة بيمينه، ومنهم من يُعطى نوراً أصغر من ذلك، حتى يكون رجلاً يعطى نُوره على إبهام قدمه، يضيء مرّةً، ويفيء مرَّة، فإذا أضاء قدَّمَ قدَمَه فمشى، وإذا طفئ قام. والرّبُّ عزَّ وجلَّ أمامَهم، حتى يمرَّ في النَّارِ فيبقى أثرُه كحدِّ السَّيف، دحضٌ مزَلّةٌ. قال: ويقول: مُرّوا، فيمُرّونَ على قدرِ نورِهم، منهم من يمرّ كطرف العين، ومنهم من يمرّ كالبرق، ومنهم من يمرّ كالسّحاب، ومنهم من يمرّ كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمرّ كالرّيح، ومنهم من يمرّ كشدّ الفرس، ومنهم من يمرّ كشدّ الرّجل، حتى يمرّ الذي أعطي نوره على إبهام قدميه.. يحبو على وجهه ويديه ورجليه، تخرُّ رجلٌ، وتعلَقُ رِجلٌ، ويُصيبُ جوانبَه النّارُ، فلا يزال كذلك حتى يخلُص، فإذا



خَلَصَ وقَفَ عليها ثمّ قال: الحمدُ لله، لقد أعطاني الله ما لم يُعطِ أحداً، أن نجاني منها بعد إذ رأيتُها»[1].

وللسعيد من لحظة النجاة تلك قصة طويلة من قصص النعيم، ومنازل رفيعة في كنف الرّفاه والخلود.

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (ج٩/ ص٣٥٧).



فَـرْحَةُ النَّـجَاةِ

ها هو السعيد برحمة ربّه.. يضع قدمَه الأولى على برّ الأمان، بعد أن عبر للتوّ متن الصراط، مُخلّفًا وراءه تعب الدّنيا، وضيق القبر، وكُربات المحشر، وهول المشاهد التي يتفطّر منها الفؤاد، ويشيب لها الوليد. المشاعر التي تختلج في نفوس أهل المحشر قبل التوجّه للصراط متداخلة؛ بين الخوف والترقّب، والأمل والحذر؛ فالخطوة الواحدة هنا تعني الحياة، أو تعني العدم!!



والصّراط من جهة أهل المحشر باتجاه القنطرة طويل، وهو حادّ كالسيف، ودقيقٌ كالشّعرة! والهاوية تحته عميقة، لا يبلغها البصر، وهي مُستعِرة جداً؛ لأنّ الصراط يُنصب يومئذ على متن جهنّم، التي سيردها جميع الخلائق، بحسب أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[مريم: ٧١ - ٧٢].

وعلى جنبتي الصراط كلاليبُ مثبّتة بالسّلاسل، جعل الله لها حاسّة عجيبة، تمايز من خلالها بين أهل الإيمان، وأهل الكفر والنّفاق والعصيان. وحالها، على سبيل التشبيه، لا يبعد كثيراً عن حال كلب الحراسة في الدّنيا؛ فهو يهشّ لصاحبه إذا أقبل، ويحرّك ذنبه فرحًا بقدومه، ويكشّر عن أنيابه لكلّ مشبوه لا يُعرف حاله، ولم يره من قبل، ولربما تحرّش به فنبح في وجهه، وقطّع ثيابه، وأعضاء من جسده، ولا يزال به حتى يعود مرعوبًا أو يجوز مخدوشًا. فإذا أقبل غريب أو لصّ هجم عليه، وفتك به، ولم يُفلته.

وقد أودع الله تعالى في هذه الخطاطيف القدرة على التّجاوب مع من يجوز الصراط، بحسب السمات التي تظهر عليه؛ فهي تشعر بالمؤمن إذا مرّ بقربها؛ بسبب سكون الإيمان ونور العمل الصالح الذي يكلّله، فتسكن له، وتتهادى نزولاً؛ احترامًا وتقديراً حتى يجوز، وتشعر بالمشبوه الذي خَلَط في عمله بين الصّلاح والفساد؛ فتتحرّش به، وتتنمّر عليه، وتكدِشه، وتقطّع من جسده وهو يسير فوقها مرعوبًا، حتى يجوز، كما تشعرُ بالغريب الذي تفوح منه رائحة الذنوب، وتبدو عليه سيما الكبائر المهلكة أو الكفر والنفاق فتثِب عليه من مكانها، وتُنشب في جسده مخالبها، ثم تقذفه في الهاوية[1].

---

(١) ما من غرابة يجدها العقل الصحيحٍ في إدراك هذه الحساسية المرهفة التي =

فإذا جاز محمد ﷺ وقف على حافّة الصراط، من الطرف الآخر، يرقُب النّاجين من أمّته، وكذا كافّة الرّسل والأنبياء. وشعارُهم في ذلك اليوم: اللهم سلّم سلّم؛ لِما يرون من الأهوال، ويرقبون من الفزع، ويشهدون من تساقط أهل النار.. واحداً تلو الآخر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطويل: «ويُضرب جسر جهنم، فأكونُ أوّلَ من يُجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللهم سلّم، سلّم. وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «فإنّها مثل شوك السعدان، غير أنّها لا يعلم قدر عِظَمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم، منهم الموبّق بعمله،

= أودعها الله تعالى في هذه الكلاليب المثبّتة على جنبتي الصراط، التي تتصرف وفقها مع كلّ من يمرّ فوقها بحسب الإيمان، والعمل الصالح! والعقل المعاصر أولى بالتصديق، وبخاصّة من تعامل مع الحاسب الآلي، ورأى أحوال برامج الحماية فيه لصدّ الفيروسات الخطيرة، والبرامج الغريبة، ومنع المتلصّصين من الدخول بدون تصريح!!

وسلوك هذه البرامج لا يبعد عن سلوك كلب الحراسة الأمين؛ فهي تقوم بالسماح للبرامج والتطبيقات النافعة التي لا تضرّ بالجهاز، وتهشّ لها وتعرّف بها، حتى تأخذ مكانها في القرص الصّلب، وتعترض طريق تلك التطبيقات أو البرامج المشبوهة، وتتحرّش بها، وتكشفها وتخدشها أو تعيق عملها، وتوقفها بين الحين والآخر، وتظلّ معها حتى تستقرّ في مكانها، في حين تنقضّ على الفيروسات الضارّة، والتطبيقات الخطرة، وتقضي عليها، أو تحجبها وتمنعها من دخول الجهاز بتاتاً!!



ومنهم المُخَردَل، ثم ينجو»[1]. وفي لفظ مسلم: «فيمرّ أوّلُكم كالبرق». قال أبو هريرة ﷺ، راوي الحديث: قلت: بأبي أنت وأمي، أيّ شيء كمرّ البرق؟ قال ﷺ: «ألم تروا إلى البرق كيف يمرّ ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمرّ الريح، ثم كمرّ الطير، وشدّ الرجال، تجري بهم أعمالهم.. ونبيّكم قائم على الصراط يقول: ربِّ سلّم، سلّم، حتى تعجز أعمالُ العباد، حتى يجيء الرجلُ فلا يستطيع السّير إلا زحفاً. وفي حافّتي الصراط كلاليب معلّقة، مأمورة بأخذ من أُمِرَت به؛ فمخدوش ناجٍ، ومكدوس في النار». قال أبو هريرة رضي الله عنه: «والذي نفسي بيده إنّ قعر جهنم لسبعون خريفاً».

بداية السّعادة!:

ها هو السعيد برحمة ربّه.. يجوز الحركة الهائلة في بداية القنطرة.. زاحفاً في خضمّ الوفود السعيدة؛ ففرحة الفوز اليوم لا توصف! إنّه أعظم فوز في تاريخ الخليقة كلّها! قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[الحشر: ٢٠]. وعلى البُعد هناك.. يتراءى المتّقون أبوابَ الجنّة، وتهبّ عليهم نسائمها. الملائكة في تلك اللحظات السعيدة تطير من فوق الحشود.. تهنّئهم، وتوجّههم، وتساعدهم، والأفواج المؤمنة التي عبرت الصراط للتوّ تغمرها مشاعرُ ممزوجة من: الأمن والفرح، والفوز والترقّب، وهم في هذا المكان فرحين، آمنين.. يتضاحكون، ويهنّئ بعضهم بعضًا بسلامة الوصول، لا يشعرون بما كانوا يشعرون به على الجانب المهول الآخر.

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٤٠٣)، ومسلم، (ج١/ ص١٨٧).

الكلّ هنا ناجٍ سعيد.. يسلّم على من يعرف ومن لا يعرف من المتقين، ويهنّئهم بمغفرة أرحم الراحمين الذي زحزحهم عن النّار، وثبّتهم على الصراط، وأوصلهم هذا المكان، حيث الفوز العظيم. قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[آل عمران: ١٨٥].

وهناك بقرب الصراط يقف بعض السّعداء متفرّسين في وجوه القادمين، وغير بعيد يصل أحدهم سالماً ويجتمع شمله بأهله الذين جازوا برحمة الله تعالى، ويبشّرهم بأنهم منذ الساعة لن يجدوا التعب والشقاء، ولا الحزن والعناء.

النّاجون في اللحظات السعيدة الخالدة هم المتّقون.. على امتداد التاريخ البشري الطويل! في هذه الحشود جميع الصالحين الذين اشتهرت أخبارهم، من الأنبياء والرسل والذين اتبعوهم بإحسان.. الكلّ موجود هنا السّاعة.. من لدن آدم عليه السلام إلى آخر فرد مؤمن. خطوات من هذا السعيد تجمعه بمن شاء، بغلام الأخدود، أو بأصحاب الكهف، أو بنبيّ الله داود أو يوسف عليهما السلام، أو الانتقال لرؤية أبي بكر وعمر، أو الانضمام لكوكبة الأنصار هناك. لقد اجتمع شمل المؤمنين، على اختلاف أزمانهم وأوطانهم، وأجناسهم ولغاتهم.

الكلّ مسرور.. يرحّب بإخوانه ويهنئ، ويصافح ويبارك، تماماً كحالهم صبيحة عيد الفطر، بعد أن صاموا لله تعالى، وأمسكوا عن المفطّرات طوال شهر رمضان، أو كحالهم صبيحة عيد الأضحى، بعد أن عادوا من عرفة وباتوا في المزدلفة، ممسكين عن المحظورات، ومستكثرين



من الطاعات، قد اجتمعوا في صعيد واحد، بلباس واحد، وشعار واحد. هاهم يفدون اليوم على ربّهم في أعظم مشهد، وأكرم محفد! وكأنّ مسيرهم في الدّنيا كلّها لا يتجاوز تلك المسافة القصيرة، بين الوقوف بعرفة والتحلّل في منى؛ استعداداً لدخول البيت الحرام!!

وحركة الوفد الكريم إلى دار السلام لا تبدأ حتى يستتمّ جمعُ الأتقياء، ويُقبل أولئك الذين في الطرف الآخر، ممن لم يفد بعدُ من عرصات القيامة. وأعمالُ المؤمنين وأقوالهم في هذه البقعة لا تجاوز السلام والتهنئة، والحمد والثناء، والتّسبيح والتهليل. وهم يسيرون أفواجاً.. زُمراً زُمراً، وأمّة أمّة؛ فالنّظام هنا دقيق، على درجة لم يعرفها البشر من قبل، قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ﴾[الزمر: ٧٣].

القنطرة:

البقعة الجديدة التي يصل إليها المتقون إذا جازوا الصراط تسمّى القنطرة. والقنطرة مكان لا يعلم سعته وسِمَته إلا الله تعالى.. يجتمع فيه أهل الجنّة كلّهم قبل دخولها. والقنطرة من حيث المعنى تطلق على ما يوصِل بين المكانين، ويبلّغ الغاية والمراد. وهذه البقعة من الغيب الذي لا يمكن الخوض فيه بدون علم؛ إذ لم يرد فيها خبر عن كيفيتها وسعتها، ووجه مغايرتها لأرض المحشر، وما ورد لا يزيد عن كونها بُقعة جديدة ينتقل إليها وفد الرحمن إذا جازوا الصراط؛ فهي برزخ بين أرض المحشر، التي يغلب عليها الخوف والفزع، والشدّة والضيق، وبين الجنّة دار السلام.

ولله الحكمة البالغة في التّقدُمة بالقنطرة وجمع المتّقين فيها، قبل إيفادهم إلى نُزُل السعادة الأبديّة التي لا يتحوّلون عنها؛ فالنُّزُل العظيم

الذي ينتظرهم جنّة عرضها السماوات والأرض، ولذا ناسب أن تكون للقنطرة مكانتها الكريمة، ومنزلتها العظيمة التي تختلف ولا شكّ عن أرض المحشر في الطرف الآخر؛ إذ هي بقعة أخلِصت للمتقين، زيادة في الحفاوة، وتهيئة للنفوس قبل دخول الجنّة[١]، وبها يزول ما علِق في الصّدور من كدمات التشاحن، ونَدَبات التهاجر والتباغض المتولّد عن التنافس الدّنيويّ على فتات الأيام الخالية؛ وهكذا هي الجنّة.. طيّبة، لا يدخلها إلا الطّيبون من كلّ وجه. عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلُص المؤمنون من النّار، فيُحبسون على قنطرة بين الجنّة والنّار، فيُقتَصّ لبعضهم من بعض مظالمَ كانت بينهم في الدّنيا. حتى إذا هُذّبوا ونُقّوا أُذِن لهم في دخول الجنّة»[٢].

والنفوس المسلّمة من عذاب النّار لا تدخل الجنّة حتى تسلّم كذلك من الأحقاد والغلّ والضغائن، وكافّة الحزازات التي علقت بها من دار الدّنيا، مما لا يناسب دار الطهر والنقاء والطيب الخالص! وكأنّ ما يحدث

---

(١) ولهذه التقدمة ما يقرّب صورتها في أحوال ملوك الدّنيا؛ حيث جرت عادتهم أن يفرّقوا بين ضيوفهم في مراسم الاستقبال؛ فيخصّوا كبار الضيوف باستقبال أوّليّ خاصّ حال الوصول.. في قاعات فارهة؛ تَقْدُمَةً بين يدي اللقاء الكبير في النُزل الفخم الخاص المهيّأ لإقامتهم. والفارق كبير بين النّزلين من كلّ وجه؛ ويكفي لبيان عظمته أنّ المُضيفَ في هذا اليوم السعيد.. ملكُ الملوك سبحانه!

(٢) أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٣٩٤). وأورده الحاكم بلفظ: «ليحبس أهل الجنة بعد ما يجاوزون الصراط، على قنطرة، فيؤخذ لبعضهم من بعض مظالمهم التي تظالموها في الدنيا، حتى إذا هذّبوا ونقّوا، أذن في دخول الجنة» (المستدرك، ج٤/ ص٦١٦).



للنفوس في هذه القنطرة فتنٌ وتهذيب، بغير النار التي نجّاهم الله منها، كفتن الذهب المشوب؛ ليعود نقيّاً خالصاً، قبل أن يستقرّ في مكنونه الفاخر. وبهذا الفتن للنفوس تحدث التهيئة الكبرى لدخول الجنّة؛ فالنّعيم فيها عامّ، وهو يخالط الحواس والقلوب. وما النّعيم إلا نعيم الأرواح، ولا السعادة إلا سعادة القلوب[1]، ولذا قرن بينها سبحانه وبين منظر الهناء الحسّي على سرر الجنّة فقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[الحجر: ٤٧].

وتأمّل المقارنة بين المقدّمة والنتيجة في قوله سبحانه، مخاطباً أهل الجنّة على ألسنة ملائكة الأبواب: ﴿طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[الزمر: ٧٣]، أي طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبّته وخشيته، وألسنتكم بذكره، وجوارحكم بطاعته، فبسبب طيبكم «ادخلوها خالدين»[2]. من هنا كان المقصد الأسمى من إيفاد المتّقين إلى هذا المكان، والله أعلم، تهيئة نفوسهم وأرواحهم لنعيم الجنّة، وإخراج ما في صدورهم من أحقاد، واستلال ما تبقّى بينهم من أدران الدّنيا وأشوابها وأكدارها، التي ظلّت تحجبهم عن اللذّات المباحة في الدنيا.

---

(١) يجد بنو آدم أثر ذلك جلياً في أنفسهم؛ فلربما قعد في جنّة من جنان الدّنيا.. بأنهارها وأشجارها وهوائها، ثم لا يجد الراحة، ولا يذوق الهناء إذا كانت الهموم تعمر قلبه، والحُزن يعتصر فؤاده. وكم من أعرابي في باديته القفر، خالٍ من الهموم، بعيدٍ من المنغّصات.. قد نصب عصاه بقرب خيمته، وأوقد ناره، ورفع قهوته فوق الأثافي، ثم تطلّع لمنظر الغروب، واستمع لصوت الأذان، وبقربه إبله، ثم استنشق عبير الصّبا، فانتشى وتخلّلت فؤاده فرحة غامرة، حتى ليخال له في تلك اللحظة أنّه أسعد أهل الأرض كلّهم!!

(٢) تفسير السعدي، (ج١/ ص٧٣٠).

والمقاصّة هنا.. بين المتّقين، تختلف عن المقاصّة هناك.. بين العالمين، فإذا كانت تلك من باب الجزاء والعقاب، فإنّ هذه لا تعدو المسامحة بعد العتاب؛ ولذا لا يبرح أحدهم مكانه حتى يعود راضياً مرضيّاً.. من تِلقاء نفسه، أو بعد ما يرى من تدخّل ربّه للإصلاح بين عباده. ولا يدخل أهل الجنّة الجنّة إلا وقد تصافوا، وتسامحوا، وزال ما بينهم، وأخذ بعضهم بيد بعض!

ومن الناس من يُحبَس على أبواب الجنة، وإن كان من أهلها، لأعمال قام بها، لم يستوجب لأجلها النار. وهؤلاء المحبوسون على أبواب الجنة يتأخر دخولهم بعدما يدخل الوفد العظيم، ومنهم الأغنياء المرفهون، وإن أدوا حقّ الله تعالى. عن أسامة ﵁، عن النبي ﷺ قال: «قمت على باب الجنة، فكان عامة من دخلها المساكين، وأصحاب الجد محبوسون، غير أنّ أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار، وقمت على باب النار فإذا عامة من دخلها النساء»[(١)]. ومنهم من يتأخر حبسه بقدر إجابته على الأسئلة الأربعة التي أخبر عنها رسول الله ﷺ بقوله: «لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيم أفناه، وعن علمه ما فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه»[(٢)].

ومنهم من يُحبس على باب الجنة بدَيْنه، عن سمرة بن جندب ﵁، يقول: صلى رسول الله ﷺ الصبح فقال: «هاهنا أحد من بني فلان؟ إن صاحبكم

(١) متفق عليه: صحيح البخاري (٧/ ٣٠)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٩٦).

(٢) أخرجه الترمذي عن أبي برزة، وهو في صحيح الجامع، (حديث رقم: ٧٣٠٠). قال الألباني: صحيح.



محبوس بباب الجنة بدين عليه»[١]. ومن أراق دماً بغير حق حُبس على باب الجنة بمقدار ظلمه، وذلك الدم الذي أراقه، عن طريف أبي تميمة، قال: شهدت صفوان وجندبًا وأصحابه وهو يوصيهم، فقالوا: هل سمعت من رسول الله ﷺ شيئًا؟ قال: سمعته يقول: «من سمّع: سمّع الله به يوم القيامة، ومن يشاقق: يشقق الله عليه يوم القيامة»، فقالوا: أوصنا، فقال: «إن أول ما ينتن من الإنسان بطنه، فمن استطاع ألا يأكل إلا طيبا فليفعل، ومن استطاع ألا يحال بينه وبين الجنة بملء كفه من دم أهراقه فليفعل»[٢].

ومنهم من يُقتص منه، ولكن لا يؤخر عن دخول الجنة مع الوفد العظيم. ومما روي في هذا الشأن عن أنس قوله: بينا رسول الله ﷺ جالس إذ رأيناه ضحك حتى بدت ثناياه، فقال له عمر: ما أضحكك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي؟ فقال: «رجلان جثيا من أمّتي بين يدي ربّ العزّة جلّ جلاله، فقال أحدهما: يا ربَّ خُذ لي مظلمتي من أخي». قال الله عز وجل: «أعط أخاك مظلمته». قال: يا ربِّ لم يبق من حسناتي شيء، قال: ربّ فليحمل عنّي من أوزاري». قال: وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء، ثم قال: «إنّ ذلك ليوم عظيم، يحتاج الناس فيه أن يُحمل عنهم من أوزارهم[٣]، فقال الله تبارك وتعالى للطالب: «ارفع بصرك فانظر في الجِنان»

---

(١) مسند أبي داود الطيالسي (٢/ ٢١٣)، وهو في السلسلة الصحيحة، (حديث رقم: ٣١٤٥).

(٢) صحيح البخاري (٩/ ٦٤).

(٣) إذا صحّ الخبر، وكانت القنطرة مسرحه، فإنّ حمل الأوزار عن الغير هنا لا يعدو المقاصّة بوضع الأعمال الصالحة التي ترفع العبد في درجات الجنّة.

فرفع رأسه، فقال: أي ربّ، أرى مدائن من فضّة وقصوراً من ذهب، مكلّلة باللؤلؤ! لأي نبيّ هذا؟ لأي صِدّيق هذا؟ لأي شهيد هذا؟ قال: «هذا لمن أعطى الثمن» قال: يا ربِّ، ومن يملك ذلك؟ قال جل وعلا: »أنت تملكه« قال: بماذا يا رب؟ قال: «تعفو عن أخيك» قال: يا ربِّ، فإنّي قد عفوتُ عنه، قال الله تعالى: «خذ بيد أخيك فأدخله الجنّة»، ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم؛ فإنّ الله عز وجل يُصلح بين المؤمنين يوم القيامة»[1].

على مشارف الجنّة!

المتّقون في هذا المكان على حالهم.. يلهجون بالحمد والثناء، وهم يشهدون ما كانوا به يؤمنون، من أمور الغيب الذي سمعوا عنه، وآمنوا به ولم يروه. وبينا هم يرفلون في فرحة السلامة الغامرة، ويغسلون أحقاد الماضي السّحيق، وتتراءى أمامهم مشاهد النّعيم المقيم. وغير بعيد.. تقف ملائكة الجنّة صفوفًا بقرب الأبواب المؤصدة، ومعها سجلاّت الداخلين. وهناك.. خلف الأبواب مشهد كريم من مشاهد السّعادة.. لقد اكتملت مراسم الاستقبال، والجميع جاهز.. القصور مهيّأة، والأهلون في هذه اللحظات يشتدّ بهم شوق اللقاء، والكلّ يترقّب الحدث الجميل، بعد فتح الأبواب.. في هذا اليوم السعيد المنتظر منذ زمن طويل.

فإذا تكامل وصول المؤمنين على أرض القنطرة، واستوفى كل منهم مظلمته من أخيه، وزالت الأحقاد من الصدور، وتطهّرت القلوب، وأخذ بعضهم بيد بعض.. شرعوا ينظرون صوب أبواب الجنّة.. يتقدّمهم محمّد بن

---

(١) أورده بن حجر في المطالب العالية، (ج١٨/ ص٦٢٢) وقال: ضعيف جداً.



عبدالله، ومعه الأنبياء، يتبعهم فقراء المهاجرين، يليهم سائر النّاجين من هذه الأمة، فالمؤمنون من سائر الأمم.

ويبدأ الزحف العظيم إلى دار النّعيم..

القلوب في طريقها إلى أبواب الجنّة مُفعمة بالمشاعر المتداخلة.. بين فرحة السلامة من الأهوال، وترقّب الانغماس في أرض الرّفاه والبهجة والجمال. وحبّ الله تعالى يعمُرُ قلوبَهم، وتتعطّر به أنفاسهم، وهم يرون من صور رحمته، وآثار كرمه ما لا طاقة لهم بشكره.

ها هو السعيد يقلّب شريط الأعمال الصالحة التي هداه الله تعالى إليها في الدّنيا، ويستعرض الذنوب التي غفرها له سبحانه على عرصات القيامة، بعد أن أدناه من كنفه، وقرّره بها.. ذنباً ذنباً، ثم سترها وتجاوز عنها.

أحقّاً أدركتني رحمةُ ربِّي؟! أهذا آخر العهد بالآلام والأحزان، والكربات والأهوال؟ أيّ نعيم ينتظرني في الجنّة؟ من أيّ الأبواب سأدخل؟ ومَن أوّلُ مَن يستقبلني؟ أيّ طعام وشراب سيُقدّم لي؟ وفي أيّ قصر سأنزل؟ متى سألتقي بأهلي وأصدقائي لأحدّثهم عمّا رأيت وسمعت؟ أسئلة كثيرة، ومشاعر متداخلة تهيّجه وهو في طريقه إلى دار السعادة الأبدية.. التي لا عناء بعدها.

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾:

في هذه اللحظات الغالية تقترب وفود المتقين بسيرها الوئيد.. النسائم العطرة وروائح الطيب الخالص تعبُق في كلّ مكان، وتتهادى على أهل الموقف[1]. أبواب الجنّة تلوح شيئًا فشيئًا في الأفق القريب، تكاد قصورها

(١) قال بن القيم رحمه الله: ريح الجنة نوعان: ريح يوجد في الدّنيا تشمّه الآرواحُ =

المزيّنة تتراءى للناظرين، ومشهد غرفها العالية يلوح بين فجوات الأشجار التي تتمايل أغصانها، آسرة الأعين المتلهّفة، والقلوب المشتاقة؛ فجدران الجنّة شفّافة كالزجاج، يظهر ما بداخلها من النّعيم، وتتجلّى مناظرها الآسرة لمن كان خارجها.. الأشجار الكثيفة الباسقة تغيب في السماء طولاً.. لا يُدرك البصر منتهاه، وتكاد العيون تلمح حركة الأطيار، وبخاصّة كلّما تجمّعت أسرابها ثمّ طارت دفعة واحدة في سماء الجنّة بألوانها المحبّبة!

الجميع في مسيرهم إلى أبواب الجنّة يحمدون ربّهم، ويهلّلون، ويُثنون عليه سبحانه. قال الله عز وجل في وصف هذا المشهد المبارك، قُبيل اللحظات الخالدة: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ﴾. وقال سبحانه: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا ﴾[مريم: ٨٥]. عن علي رضي الله عنه قال: هل تدرون على أيّ شيء يُحشرون؟ أما والله ما يُحشرون على أقدامهم، ولكنهم يؤتون بنوق لم ترَ الخلائقُ مثلها.. عليها رحالُ الذهب، وأزمّتها الزبرجد[1]، فيجلسون عليها، ثم يُنطلق بهم حتى يقرعوا باب الجنة[2].

= أحيانًا، لا يدركه العباد، وريح يُدرك بحاسة الشم للابدان، كما يُشمّ روائح الأزهار وغيرها، وهذا يشترك أهلُ الجنّة في إدراكه في الآخرة من قرب وبعد، وأمّا في الدنيا فقد يُدركه من شاء اللهُ من أنبيائه ورسله، والذي وجده أنس بن النضر يجوز أن يكون من هذا القسم وأن يكون من الأول والله أعلم. (حادي الأرواح ج١/ ص١٠٩).

(١) الزّبرجد: حجر كريم، يشبه الزمرّد، و هو ذو ألوان كثيرة. (المعجم الوسيط ج١/ ص٣٨٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، (ج٧/ ص٣٧).



يالـه مـن مشـهد مهيـب!! ويـا لهـا مـن فرحـة غـامرة! الملائكـة تحـفّ بـالمتقين في هـذه السـاعة المباركـة، تسـوقهم[1] بـإجلال واحـترام.. وهـم ينهدون إلى أبواب الجنّة، بعد أن وقفوا على أرض القنطرة ما شاء الله لهـم أن يقفوا. وكـأنّهم في مـوقفهم وتـرقّبهم هـذه السـاعة الخالـدة، ثـم حـركتهم جميعـًا صوب بلاد الأفراح، يُعيدون مشهد يوم عرفة مـن أيـام الـدّنيا، حين كـانوا يترقّبـون شـمسَ الغـروب لينفـروا بعـدها إلـى المزدلفـة، محفـوفين برضوان ربّهم ومغفرة ذنوبهم، أو كأنّهم في صبيحة عيد الأضحى.. يهلّلـون ويكبّرون، وقد أشرقت شمس البُكور في طريقهم إلى بيت الله الحـرام! هـا هو الفوز الأكبر يلوح أمامهم، وها هي الفرحة العظمى بانتظارهم.

فـإذا شـارفوا بـلاد الأفـراح، ولاحـت أمـامهم حقـائق الغيـب كخيـوط الصـباح إذ بهـم يقفـون مشـدوهين مـن عظمـة المكـان! مأسـورين بسـعة الأبواب، وجمال البناء والتصميم. إنّـه لمشـهد أعظـم مـن أن يوصـف.. هـا هـي أبـواب الجنّـة المزيّنـة بجميـل الـنقش، وورونـق الجمـال، مُغلقـة مـن الـداخل، والملائكـة يزيّنـون المكـان.. مـنهم مـن صـحب الوفـد سـاعة وصولهم، ومنهم من لزم الأبواب بسجّلاتهم، ومـنهم الـذين يحلّقـون فـوق رؤوس المتّقين.. مرحّبين، ومهنئين.

أبواب الجنّة لا يقدر على وصف جمالها وسعتها الواصفون، هذا باب واحد من أبوابها.. لا منتهى لطَرفه عرْضـًا، ولا يبلغ البصر مداه طـولاً.. أيّ سعة هذه؟! وأي عظمة؟! وعلى الباب حَلَقة فخمة معلّقة، يأخذ بهـا القـادم فيحرّكها ويقرعها استئذانـًا بالدّخول. قال ﷺ: «والذي نفس محمـد بيـده،

(١) لفظ (السّوق) يوحي بأنّ وفد المتقين متقدّم على جموع الملائكة؛ لأن السـائق يتأخر عمن يسوق، وهذا من كمال الأدب؛ ففـي الوفـد رسـل الله الكـرام، وفـيهم محمّد عليه الصلاة والسلام، وكلّ منهم أهدى بطريقه، وأعرف بمنزله.

إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى»[1].

الزحام يشتدّ حول الأبواب في هذه الساعة، تماماً كما أخبر، والملايين من الأفواج المؤمنة تنتظر أمامه، إضافة للوفود التي تملأ الأفق زحفاً، ولا يحصي عددها إلا الله وحده. عن عتبة بن غزوان رضي الله عنه قال: «إنّه قد ذُكر لنا أنّ ما بين مصراعين من مصاريع الجنّة مسيرة أربعين سنة[2]، وليأتينّ عليه يومٌ وهو كظيظ من الزحام».

---

(١) صحيح مسلم، (١/ ١٨٥). وقد قام أحد الباحثين بقياس المسافة بين هذه المدن الثلاث؛ فوجد أنّ ما بين مكة وهجر يساوي (١.٣٧٣) كيلو متر، وهي المسافة ذاتها التي تفصيل بين مكة وبصرى.

(٢) جاء في روايات صحيحة أخرى أنّ ما بين مصراعين من مصاريع الجنة، أو ما بين عضادتي الباب: «لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكّة وبصرى». والمصراعان، أو العضادتان: خشبتان من جانب الباب. وجاء أنّ ما بينهما مسيرة سبع سنين، وفي رواية: ثلاثة أيّام. «وروى أبو الشيخ عن سالم بن عبد الله عن ابيه أنّ النبي ﷺ قال: «الباب الذي يدخل منه أهل الجنة مسيرة الراكب المجدّ ثلاثاً»، (أخرجه أبو نعيم)، وهذا مطابق للحديث المتّفق عليه من أنّ ما بين المصراعين كما بين مكة وبصرى فإنّ الراكب المجدّ غاية الاجادة على أسرع هجين، لا يقرّ ليلًا ولا نهارًا يقطع هذه المسافة في هذا القدر أو قريباً منه) (شرح قصيدة بن القيم، ج٢/ ص٤٧٣).

والجمع ممكن بين هذه الروايات؛ لأنّ أبواب الجنّة تختلف في قدرها وعظمتها؛ فما بين المصراعين العظيمين، في حديث عتبة بن غزوان، مسيرة أربعين سنة، وما سوى ذلك من الأبواب أقصر، فما بين اثنين منها كما بين مكة وهجر، والأخريان كما بين مكّة وبصرى، ونحو ذلك مما جاء في الروايات، قرباً وبعداً، والله أعلم.



والزّحام هنا ليس زحام فوضى، كما كان عليه الحال في دار الدّنيا، وبخاصة على أبواب الملوك قبيل الإذن بالدّخول، ولكنّه زحام نظام ودقّة وترتيب؛ فقد أخبر ﷺ أنّ جميع السعداء يتمّ تنظيمهم بحسب أولّيتهم في الدّخول، بحسب كرامتهم عند ربّهم ومكانة أممهم.

والأمم في ذلك اليوم صفوف معلومة.. متراصّة منتظمة، وأمّة محمّد غرّة الأمم ومقدّمها، وأسعدها بهذا اليوم الكريم[1]. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن حوله: «كيف وأنتم رُبُع أهل الجنة؟» قلنا: كثير. قال: «كيف وأنتم والثلث؟» قال: قلنا: ذلك أكثر. قال: «كيف وأنتم والشطر؟» قلنا: «ذاك أكثر» قال: «أهلُ الجنة عشرون ومائة صفّ، أنتم منها ثمانون صفّا» قال: قلنا: فذاك الثلثان يا رسول الله ﷺ؟ قال: «أجل»[2]. وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صفّ، ثمانون منها من هذه الأمّة، وأربعون من سائر الأمم»[3].

---

(١) قال بن القيم رحمه الله: هذه الأمة أسبق الأمم خروجـًا من الأرض، وأسبقهم إلى أعلى مكان في الموقف، وأسبقهم إلى ظلّ العرش، وأسبقهم إلى الفصل والقضاء بينهم، واسبقهم إلى الجوار على الصراط، وأسبقهم إلى دخول الجنة، فالجنّة محرمة على الأنبياء حتى يدخلها محمد، ومحرّمة على الأمم حتى تدخلها أمته. (حادي الأرواح، ج١/ ص٧٧).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، (ج١/ ص١٥٥).

(٣) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٦٨٣) وقال: هذا حديث حسن.

مَرَاسِمُ الاسْتِقْبَالِ العَظِيْمِ

الملائكة في هذه الساعات الخالدة تملأ المكان، وهي في غاية السعادة. تسلّم وترحّب بالقادمين من وفد الرحمن، الذين طالما أَنِست بهم في الدّنيا، وشفعت لهم عند ربّها، ورفعت أعمالهم الصالحة.. صباح مساء.



أبواب الجنّة لا زالت مُقفلة.. كحالها[1]، وجموع المتّقين قد اكتملت في البقعة المباركة. ويتساءل الوفد الكريم فيما بينهم: من يَستفتِحُ لنا؟ فيتّجهون إلى أبي البشر آدم، فإبراهيم فموسى فعيسى، عليهم الصلاة والسلام، حتى يأتون محمداً فيقوم ويقرع أبواب الجنّة بيده الشريفة. وهذا هو المقام المحمود الثاني الذي يُظهِرُ الله تعالى فيه شرف خليله محمّد ﷺ على المتقين، بعد أن أظهر شرفه في عرصات القيامة على العالمين، كما بشّره في أيام الدّنيا بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾[الإسراء: ٧٩].

عن حذيفة بن اليمان وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: (يجمع الله النّاس، فيقومُ المؤمنون حين تزلفُ الجنّة، فيأتون آدم عليه الصّلاة والسّلام فيقولون: يا أبانا، استفتح لنا الجنّة، فيقول: وهل أخرجَتكم من الجنّة إلا خطيئةُ أبيكم آدم؟ لستُ بصاحبِ ذلك، اعمدوا

(١) لأبواب الجنّة خازن يتعاهدها، ويُصدرُ أوامره بفتحها وإغلاقها. وهي يوم القيامة مغلقة، لا يدخلها أحد قبل محمّد وأمّته، وفي الدّنيا كذلك، إلا أنّها ربّما فُتِحت لأحوال خاصّة، ومناسبات يمرّ بها المتّقون في الدّنيا، أو لنبيّ كريم يُرفع إلى السّماء مطهّراً، كما حدث لعيسى عليه السلام، أو يفد إليها زائراً كما حدث لمحمّد في ليلة المعراج. عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا جاء رَمَضَانُ فُتِّحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتْ الشَّيَاطِينُ» (متفق عليه: أخرجه البخاري، ج٢/ ص٦٧١، ومسلم، ج٢/ ص٧٥٨).

ولأبواب الجنّة أيّامُ رحمةٍ، ومواسِمُ مغفرةٍ تُفتَحُ فيها، ومنها يومي الاثنين والخميس، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (تُفتح أبواب الجنة يوم الإثنين ويوم الخميس فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئًا، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال انظروا هذين حتى يصطلحا، انظروا هذين حتى يصطلحا، انظروا هذين حتى يصطلحا). (أخرجه مسلم، ج٤/ ص١٩٨٧).

إلى إبراهيم، خليل الله، فيأتون إبراهيم، فيقول إبراهيم: لست بصاحب ذاك، إنّما كنتُ خليلاً من وراء وراء[1]، اعمدوا إلى النبي موسى، الذي كلّمه الله تكليماً، فيأتون موسى، فيقول: لستُ بصاحب ذاك، اذهبوا إلى كلمة الله وروحه.. عيسى، فيقول عيسى: لستُ بصاحب ذاك، فيأتون محمداً ﷺ فيقوم، فيؤذَن له)[2].

وفي جواب كلّ نبي كريم تواضع وأدب جمّ، وإظهار لشرف محمّد ﷺ على سائر المتّقين، كما ظهر شرفُه ورفيعُ مقامِه على الخلائق أجمعين؛ وإلا فقد علم كلّ واحد منهم، عليهم الصلاة والسلام، أنّ نبيّ آخرِ الزمان وبدر التمام في عقد النبوات والرسالات هو من سيحظى بهذا الشرف الكبير، ولذا ذكر كلّ منهم عبارة توحي بهذا الأدب النبويّ، ولم يذكر ذنباً بين يدي اعتذاره، كما ذكره في عرصات القيامة!

فإذا استتمّ الحوارُ مع سادة المتّقين من النبيين والمرسلين تقدّم ﷺ، يشقّ الصفوف.. مسلّماً على الجموع، وهم يُفسحون له، ويردّون عليه السلام بمثله، مرحّبين ومقرّين له بالفضل والشرف، والمقام المحمود.

فإذا وصل باب الجنّة العظيم أخذ بحلقته فقرعها بيده الشريفة، ولا يقرعُها أحدٌ قبله ﷺ، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أكثرُ الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وأنا أوّل من يقرعُ باب الجنة»[3]. وعن أبي سعيد رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل أنّ رسول الله ﷺ قال: «فيأتونني فأنطلق معهم،

---

(١) هذا من تواضعه لربّه عليه الصّلاة والسلام؛ وإلا فهو الخليل الذي لا يُنكَر شرفه، والنّبي الذي لا تُنال درجته، وهو أحبّ الخلق إلى ربّه، بعد محمد ﷺ.

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه، (ج٤/ ص٦٣١).

(٣) أخرجه مسلم، (ج١/ ص١٨٨).



فآخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها، فيُقال: من هذا؟ فيُقال: محمّد، فيفتحون لي، ويرحبّون، يقولون: مرحبًا»[١]. وعن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنّة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أُمرت، لا أفتح لأحدٍ قبلك»[٢]. وفي رواية: «فآتي الجنة فآخذ بحلقة الباب، فأستفتح فيفتح لي فتحا، فأحيّى ويُرحَّب بي»[٣].

والخازن هو المؤتمن على الشيء الذي استُحفِظه. وقد سمّى الله سبحانه وتعالى كبير خزنة الجنّة (رضوان)، وهو اسم مشتق من الرِّضا، وسمّى خازنَ النّار (مالكًا) وهو اسم مشتقّ من الملك، وفيه القوة والشدة[٤].

وباب الجنّة هذا هو الباب الرئيس الذي يدخل منه أشراف الوفد من المرسلين في ذلك اليوم العظيم، ومعهم أمّة محمد ﷺ. وقد رأى ﷺ هذا الباب ليلة الإسراء والمعراج، فعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَخَذَ جِبْرِيلُ بِيَدِي، فَأَرَانِي بَابَ الْجَنَّةِ الذي تَدْخُلُ منه أُمَّتِي»[٥]. ويظهر - والله أعلم - أنّ هذا الباب هو باب الجنّة الأيمن الذي أمر الله تعالى رسوله أن يُدخل منه المتوكلين خاصة، بقوله جلّ شأنه: «يا محمد، أدخِل مِن أمّتك مَن لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنّة»[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي، (ج٥/ ص٣٠٨) وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه مسلم، (ج١/ ص١٨٨).

(٣) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده، (ج١/ ص٩٤).

(٤) حادي الأرواح، (ج١/ ص٧٦).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك، (ج٣/ ص٧٧).

(٦) متفق عليه من حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٧٤٥)، =

وما إن يستتمّ الحوار بين سيّد وفد الرحمن من المتقين: محمّد ﷺ، وخازن الجنّة من الملائكة المقرّبين حتى تتحرّك الأبوابُ الضخمة شيئًا فشيئًا؛ مؤذنة ببداية السعادة التي لا كَرب معها، والرّفاه الذي لا كَدَرَ بعده.

ولا يحتاج فتح هذه الأبواب الضخمة إلى جهد؛ فقد ورد أنّها تتجاوب مع خازنها رضوان عليه الصلاة والسلام بمجرّد الأمر والنهي!! عن خُليد عن قتادة قال: أبوابُ الجنّة يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.. تفهمُ ما يُقال لها: انفتحي، انغلقي[1]. وكلّما انفرج من الأبواب شيئًا.. أشرقت من الدّاخل أنوار الجنّة، وازداد عبقها، وهبّت نسائمها الباردة على أهل الموقف!!

قلوبُ المتّقين في هذه اللحظات الخالدة تُسابق حركة الأبواب، وعُيونُهم تطوّفُ بما تستطيع من النّعيم، وأفئدتهم تكاد تطير من جوانحها..

إنّها الجنّة! حقّاً.. إنّها الجنّة رأي العين!!

ثم يأذنُ خازنُ الجنّة لرسول الله ﷺ، ومن معه بالدّخول إلى دار السلام، ويبدأ وفد الرحمن في المسير العظيم إلى بلاد الأفراح.. جماعات جماعات، وأممًا أممًا.. تحفّهم الملائكةُ من كلّ باب، ويستقبلهم الخلود السرمديّ على الأعتاب، وخزنة الجنّة ترحّب بهم وتحييّهم، وتبشّرهم بالنعيم الدائم الذي لا يزول، والملك الأبديّ الذي لا يحول، قال الله تعالى في وصف هذا المسير الميمون الذي لا أعظم منه في تاريخ البشريّة:

= ومسلم، (ج١/ ص١٨٤). قال ابن حجر: البابُ الأيمن: هو باب المتوكّلين، الذي يدخل منه من لا حساب عليه ولا عذاب. (فتح الباري، ج٧/ ص٢٨).

(١) حادي الأرواح، (ج١/ ص٤٤).



﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [الزّمر: ٧٣ - ٧٤].

وما أشبه دخول المتّقين إلى بلاد الأفراح، في هذه الساعات المباركة بدخولهم البيت العتيق صبيحة عيد الأضحى، حين يسفر الصباح، وتلوح خيوط الشمس مع منادى الفلاح: الله أكبر.. الله أكبر.. لا إله إلا الله.. الله أكبر.. الله أكبر.. ولله الحمد.

﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ :

أبواب الجنّة الضّخمة المزيّنة بجميل التصاميم، المرصّعة بالذهب والفضة والجواهر النفيسة مفتّحة لوفد الرحمن في هذه اللحظات الخالدة، وأشجارُها وأطيارها، ومروجها وأنهارها تلوح لأهل الموقف. أفواج المؤمنين المتلهّفة تتدفّق خلف محمد ﷺ، والزّحام على الأبواب شديدٌ كما أخبر. والذين خاضوا موجات الزّحام حول الكعبة في دار الدنيا؛ لتقبيل حجر من أحجار الجنّة المثبّت في رُكنها أقرب من يستحضر طبيعة الزّحام في هذه الساعات، ويدرك مشاعره؛ فالقلوب تسابق الأجساد كلّما تبدّت صُور النّعيم وازداد عبق النّسائم الباردة من الداخل!!

وقد وصف الله تعالى الحال التي تكون عليها أبواب الجنّة ساعة دخول المتّقين، وما يجدونه بعدها، فقال سبحانه: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾[ص: ٤٩ - ٥٤]، أي: هذا الذي تجدونه في الجنّة، لا زوال

له ولا انقضاء، بل نعيم سرمدي بلا انتهاء، والحال الكريمة التي تصيرون إليها، بعد طول الوقوف، ومشاهد الفزع، حالُ كرامة لكم، تُظهِر شرفكم، ومنزلتكم عند ربكم، الذي وعدكم فأنجزكم، وأخبركم فصدقكم.

والجنّة تشتاق للسعداء كما يشتاقون إليها.. تشتاق إليهم بمجموعهم، ولأفراد منهم على وجه الخصوص، فكيف وقد وافوها، وهم الآن على عتبات أبوابها؟! عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الجَنَّةَ لتشتاقُ إلى ثلاثةٍ: عليٍّ، وعَمَّارَ، وسَلمان»[1].

فإذا تكامل أهل الموقف وصولاً، بدأ النبي الكريم ﷺ بأشرف خطوات الوجود، صوب دار الخلود، ليكون أوّل أهل الجنّة دخولاً، يتبعه سائر الأنبياء والمرسلين؛ لفضلهم ومكانتهم، ثم أمّة محمد، أولى الزُّمَر دخولاً الجنّة بعد الأنبياء. عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «نحن الآخرون الأوّلون يوم القيامة. نحن أوّل النّاس دخولاً الجنّة»[2]. وعن عمر بن الخطاب ﵁ عن رسول الله ﷺ قال: «الجنّة حُرّمت على الأنبياء حتى أدخلها، وحُرّمت على الأمم حتى تدخلها أمّتي»[3].

ومن أظهر صور الدّقة والتنظيم ما نجده عند الموائمة بين أحاديث الأوّليّة بين الخلائق في دخول الجنّة؛ فالنبي ﷺ أوّل النّاس دخولاً، فسائر

---

(١) أخرجه الترمذي، (ج٥/ ص٦٦٧).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، (ج١/ ص٥١٤). والتّعبير بأوّل الناس دخولاً وارد في سياق تفضيل هذه الأمّة على سائر الأمم، وإلا فالأنبياء أشرف قدراً عند الله تعالى، وهم أولى بأفضلية التشريف والتقديم من غيرهم، والله أعلم.

(٣) أخرجه الدارقطني في الأوسط، (ج١/ ص٢٨٩) وقال: حديث غريب.



الأنبياء، فهذه الأمة، ثم سائر الأمم بعد ذلك. والتنظيم قائم على درجة أكثر دقّة، وهذا ما نجده في أحاديث أوليّة دخول هذه الأمّة الجنّة؛ فأوّل هذه الأمّة دخولاً بعد الأنبياء أبو بكر ﵁، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل فأخذ بيدي، فأراني باب الجنة الذي تدخلُ منه أمّتي[1]»، فقال أبو بكر: يا رسول الله، وددت أنّي كنتُ معك حتى انظر إليه. فقال رسول الله ﷺ: (أما إنّك يا أبا بكر أوّل من يدخل الجنّة من أمّتي)[2].

وأوّل زمرة تدخل الجنّة من أمّة محمد ﷺ بعد أبي بكر ﵁: فقراء المهاجرين؛ كرامة لهم، ووفاء بجميل صبرهم وبلائهم، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يدخلُ الفُقراءُ الجَنَّةَ قبلَ الأغنياءِ بخمسِ مائةِ عامٍ.. نصفُ يومٍ»[3]. وعن عبد الله بن عَمْرِو بن الْعَاصِ ﵄ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ فُقَرَاءَ الْمُهَاجِرِينَ يَسْبِقُونَ الْأَغْنِيَاءَ يوم الْقِيَامَةِ إلى الْجَنَّةِ بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا»[4].

---

(١) باب الجنّة الأيمن مخصوص للذين يدخلون بغير حساب، كما سيأتي.

(٢) أخرجه أبو داود، (ج٤/ ص٢١٣). وأما حديث أبيّ بن كعب ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال: «أول من يصافحه الحقُّ عمر، وأول من يسلّم عليه، وأول من يأخذ بيده فيدخله الجنة» فأخرجه ابن ماجة في سننه، وقد صرّح ابن القيم رحمه الله بأنّه حديث منكر جدا، ولو صحّ لكان مخصوصاً بالحديث الذي تقدّم، وفيه قوله ﷺ: «أما إنّك يا أبا بكر أوّل من يدخل الجنة من أمتي» (انظر شرح قصيدة ابن القيم لأحمد عيسى، ج٢/ ص٤٩٢).

(٣) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٥٧٨). وقال: هذا حديث صحيح.

(٤) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص٢٢٨٥). قال بن القيم رحمه الله: تختلف مدة السّبق =

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنّه كان قائمـًا عند رسول الله ﷺ فجاء حَبر من أحبار اليهود، فسلّم ثـم سأل النبي ﷺ أسئلة، ومنها: أين يكـون الناس يوم تُبدّل الأرض غير الأرض والسماوات؟ فقال رسول الله ﷺ: «هم في الظُلمة، دونَ الجِسر». قال: فمن أوّل الناس إجازة؟ قال: «فقراء المهاجرين». ثم سأله أسئلة كثيرة، قال اليهودي في آخرها: لقد صدقت، وإنّك لنبيّ، ثم انصرف فذهب، فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، ومالي علمٌ بشيء منه، حتى أتاني الله به»(١).

= بحسب أحوال الفقراء والأغنياء؛ فمنهم من يسبق بأربعين، ومنهم من يسبق بخمسمائة، كما يتأخر مُكث العصاة من الموحّدين في النّار بحسب أحوالهم والله أعلم. ولكن ههنا أمرٌ يجب التنبيه عليه، وهو أنه لا يلزم من سبقهم لهم في الدخول ارتفاع منازلهم عليهم، بل قد يكون المتأخِّر أعلى منزلة، وإن سبقه غيره في الدخول، بدليل أنّ من الأمة من يدخل الجنة بغير حساب، وهم السبعون ألفـًا، وقد يكون بعض من يُحاسب أفضلُ من أكثرهم. والغني إذا حوسب على غناه فوُجد قد شكر الله تعالى فيه وتقرّب إليه بأنواع البر والخير والصدقة والمعروف، كان أعلى درجة من الفقير الذي سبقه في الدّخول، ولم يكن له تلك الأعمال، ولا سيما إذا شاركه الغني في أعماله، وزاد عليه فيها، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا، فالمزية مزيّتان: مزية سبق، ومزيّة رفعة، وقد يجتمعان وينفردان فيحصّل الواحدُ السبقَ والرفعةَ ويعدمهما آخر، ويحصلُ لآخر السبقَ دون الرفعة، ولآخر الرفعةَ دون السبق، وهذا بحسب المقتضى للأمرين أو لأحدهما وعدمه. (حادي الأرواح، ج١/ ص٨١).

(١) أخرجه مسلم، (ج١/ ص٢٥٢). وفيه تأكيد بأنّ أفضليّة المهاجرين كانت معروفة عند أهل الكتاب، وأنّها من علامات نبوته.



وما أجمل وصف دخولِ زُمَرِ هذه الأمّة الجنّة، قبل سائر الأمم، بحسَب الفضل والمكانة، والعمل الصالح؛ ففيه حديث عن صفاء قلوبهم، وطهارة أبدانهم، وجمال زوجاتهم، وفيه الإشارة إلى تسبيحهم، وطريقة دخولهم.. آخذين بأيدي بعضهم، وتفاضل ما بينهم، الذي يظهر في وجوههم.. بهاء وحُسناً وإشراقاً، زمرة فزمرة!! قال ﷺ: «أوّلُ زُمرة تدخل الجنّة على صورة القمر ليلةَ البدر، والذين على إثرهم كأشدّ كوكب إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم، ولا تباغض. لكل امرئ منهم زوجتان، كل واحدة منهما يرى مُخّ ساقها من وراء لحمها من الحُسن، يُسبّحون الله بكرةً وعشيّاً. لا يسقمون[1]، ولا يمتخطون، ولا يبصقون. آنيتهم الذهب والفضة، وأمشاطهم الذهب، ومجامرهم الألوّة»[2].

---

(١) انتفاء السّقَم عن أهل الجنّة يشمل كلّ سقم يعتري الجسد بأكمله: كالحمّى ونحوها، ويشمل كلّ سقم يعتري جزءاً منه بعينه؛ كالرّمد الذي يصيب العين، والصداع الذي يعتري الرأس، ونحوه.. وكلّ ذلك منتف حصوله في الجنّة؛ لأنّ أجساد أهل الجنّة بأكملها سليمة صحيحة، غاية في القوّة والصّحة، وأعضاؤهم كلّها غاية في السلامة والحدّة، تقوم بأكمل وظائفها أبد الآباد. ومما يدخل في انتفاء السّقم، انتفاء كلّ ألم من مقدّمات السقم أو نتائجه، كما كان يحدث في الدنيا على إثر الارتطام بالأرض، الذي يولّد الشعور بالألم في الجزء الذي باشر الارتطام من الجسد واحمراره أو انتفاخه. كلّ ذلك أصبح تاريخاً بعيداً لا يتكرّر، وإنّما يذكره السعداء في معرض شكر النّعيم الذي يتقلّبون به في دار الخلود.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة، (ج٣/ ص١١٨٦) والمجامر تُطلق على البخور، مأخوذة من الجمر إذا وضع عليه العود. والأُلُوّة: العود الذي يُتبخّر به، وهو فارسي معرب، والجمع ألاوية. (لسان العرب ج١٤/ ص٤٢).

وهؤلاء الذين يدخلون الجنّة، على إثر فقراء المهاجرين: هم السبعون ألفـًا الذين أخبر عنهم رسول الله ﷺ، وبيّن سماتهم ومؤهلات استحقاقهم هـذا الشرف، والله أعلـم. فعـن ابـن عبـاس رضي الله عنهما قـال: قـال رسـول الله ﷺ: «عُرِضَت عليّ الأمم، فجعل النبي والنبيان يمرّون، معهم الرّهط، والنبي ليس معه أحد، حتى رُفِع لي سوادٌ عظيم، قلت: ما هـذا؟ أمتي هـذه؟ قيل: هذا موسى وقومه. قيل: انظر إلى الأفق، فإذا سواد يملأ الأفق، ثم قيل لي: انظر ها هنا، وها هنا في آفاق السماء، فإذا سوادٌ قد ملأ الأُفُق، قيل: هـذه أمَّتُك، ويدخل الجنّة من هؤلاء سبعون ألفـًا بغير حساب»، ثم دخل رسـول الله ﷺ ولم يبيّن لهم، فأفاض القوم، وقالوا: نحن الذين آمنا بالله، واتبعنا رسوله، فنحن هم، أو أولادُنا الذين وُلدوا في الإسلام؛ فإنا وُلِدنا في الجاهلية. فبلغ النبي ﷺ فخرج، فقال: «هم الذين لا يسترْقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون»، فقال عكّاشة بن مِحصَن: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: (نعم)، فقام آخر فقال: أمنهم أنا؟ قال: «سبقك بها عُكّاشة»[1]. وقد شبّه النبي ﷺ هؤلاء السبعين ألفـًا ساعة دخولهم بالقمر ليلة البدر[2]، فقال ﷺ: «ليدخلنّ الجنّة من أمّتي سبعون

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢١٥٧).

(٢) تشبيه النبي الكريم عليه الصلاة السلام لصور هؤلاء السبعين ألفـًا حال دخولهم الجنّة بالقمر ليلة البدر في هذا الحديث، وبأشدّ كوكب في السّماء إضاءة، كما في الحديث السابق، لا تعارض فيه، بل يحمل معنى بلاغيـًا جميلاً قلما يُفطن إليه؛ إذ المقارنة معقودة بحسب الزّمرة التي تسبق والتي تلحق؛ فهم، لمّا كانت مقارنتهم بالزّمرة التي سبقتهم في دخول الجنّة من فقراء المهاجرين، خفتت إشراقة وجوههم، كما يخفت ضوء النّجوم إذا ظهر البدر، ولذا أصبحت =



ألفـًا.. متماسـكون، آخـذٌ بعضـهم بعضـًا، لا يـدخُل أوّلهُـم حتـى يـدخل آخرُهم. وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»(١).

وهذه الكيفية في دخول السّعداء الجنّة، جميعـًا.. لا يتقدّم أحـدُهم عـن أخيه، ولا يتأخّر عنه، لا تحدث إلا حين يدخلوها صفّـًا واحداً، كهيئتهم في الصّلاة(٢)، بحيث يتساوى دخول الأول والآخر، من هذا الباب الواسع في الجنّة العالية الفسيحة التي عرضها السماوات والأرض! وهذا ما أخبر عنه رسـول الله ﷺ حين ذكـر عـدد الصـفوف التـي تـدخل الجنّـة في هـذا اليـوم السعيد؛ فعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ.. ثَمَانُونَ منها من هذه الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ من سَائِرِ الْأُمَمِ»(٣).

ولكرامة السبعين ألفـًا، ومنزلتهم عند ربّهم يشفّعهم في عـدد غفيـر مـن النّاس، ويتفضّل بزيادة اختصّها سبحانه لنفسه.. لا حدّ لها ولا عدّ. عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وعدني ربِّي سبحانه أن يُدخل الجنّة من أمتي سبعين ألفـًا، لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كـلّ ألفٍ سبعون ألفـًا، وثلاثُ حثياتٍ من حثياتِ ربّي عزّ وجلّ»(٤). وليس هـذا

= صـورُهم كأشـدّ كوكـب في السّـماء إضـاءة، ولكـنّهم حين قورنـوا بمـن سـيدخل الجنّة من الزّمر بعدهم ظهرت إشراقة وجوههم، حتى أصبحت على صورة القمر ليلة البدر، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري عن سهل بن سعد، (ج٥/ ص٢٣٩٩).

(٢) وهذا ما فهمه العيني رحمه الله، حيث قال: فإن قلتَ كيف يتصور هـذا؟ قلـت: يدخلون معـًا صفّـًا واحداً. (عمدة القاري، ج٢٣/ ص١٢٢).

(٣) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٦٨٣).

(٤) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٦٢٦)، وأخرجه ابن ماجه، (ج٢/ ص١٤٣٣).

بعزيز في جنب سعة رحمة الله تعالى لهذه الأمّة التي بعث فيها خير رسله، وأنزل عليها خير كتبه، وكثّر فيها المؤمنين، والمجاهدين، والصّديقين، والشهداء، على درجة فاقت بها جميع الأمم.

ودخول السبعين ألفًا الجنّة قبل غيرهم دليل كرامة لهم من ربّهم؛ وهو جزاء ووفاء في الوقت ذاته، وإلا فقد يكونُ هناك من هو أفضل منهم. عن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، فأوّل زمرة من أمّتي يدخلون الجنّة صورة كلّ رجلٍ منهم على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم كأشدّ ضوءِ نجم في السماء، ثم هم منازل بعد ذلك»[1]. ومن أمّة محمّد ﷺ من يدخل الجنّة بغير حساب، من بابٍ خاصّ بهم دون سائر النّاس؛ تشريفًا وتكريمًا!! قال ﷺ في حديث الشفاعة الطويل[2]: «فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا ربّ، أمتي يا ربّ. فيقال: يا محمد، أدخِل مِن أمّتك مَن لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنّة، وهم شُركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب»[3].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، (ج٢/ ص٤٧٣).

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٧٤٥)، ومسلم، (ج١/ ص١٨٤).

(٣) أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٧٤٦) قال ابن حجر: البابُ الأيمن، وهو باب المتوكّلين، الذي يدخل منه من لا حساب عليه ولا عذاب. (فتح الباري، ج٧/ ص٢٨). وقال القاري: وقوله: (وهُم شُركاءُ النَّاسِ فيما سوى ذلك من الأبواب) أي: ليسوا ممنوعين من سائر الأبواب، بل هم مخصوصون للعناية بذلك الباب. (مرقاة المفاتيح، ج١٠/ ص٢٣٩).



وهناك آحاد من هذه الأمّة يُكرمون بدخول الجنّة قبل غيرهم لعظيم صبرهم وبلائهم، ومنهم المرأة التي غاب عنها زوجها فنذرت نفسها على أولادها وتركت الزواج من أجل تربيتهم، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول من يُفتح له باب الجنة، إلا أنه تأتي امرأة تبادرني، فأقول لها: ما لك؟ من أنت؟ فتقول: أنا امرأة قعدت على أيتام لي»[(١)]. وعن عَوْفِ بن مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا وَامْرَأَةٌ سَفْعَاءُ الْخَدَّيْنِ كَهَاتَيْنِ يوم الْقِيَامَةِ. «وَأَوْمَأَ يَزِيدُ بِالْوُسْطَى وَالسَّبَّابَةِ» امْرَأَةٌ أَمَّت من زَوْجِهَا، ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، حَبَسَتْ نَفْسَهَا على يتاماها حتى بَانُوا أو مَاتُوا»[(٢)].

وممن بُشّر بالأسبقيّة إلى الجنّة: بلال ﷺ، فعن بُرَيْدَةَ قال: أَصْبَحَ رسول الله ﷺ فَدَعَا بِلَالًا فقال: «يا بِلَالُ، بِمَ سَبَقْتَنِي إلى الْجَنَّةِ؟ ما دَخَلْتُ الْجَنَّةَ قَطُّ إلا سمعت خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي. دَخَلْتُ الْبَارِحَةَ الْجَنَّةَ فَسَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي، فَأَتَيْتُ على قَصْرٍ مُرَبَّعٍ مُشْرِفٍ من ذَهَبٍ فقلت: لِمَنْ هذا الْقَصْرُ؟ فَقَالُوا: لِرَجُلٍ من الْعَرَبِ. فقلت: أنا عَرَبِيٌّ، لِمَنْ هذا الْقَصْرُ؟ قالوا: لِرَجُلٍ من قُرَيْشٍ. قلت: أنا قُرَشِيٌّ، لِمَنْ هذا الْقَصْرُ؟ قالوا لِرَجُلٍ من أُمَّةِ مُحَمَّدٍ. قلت: أنا مُحَمَّدٌ، لِمَنْ هذا الْقَصْرُ؟ قالوا: لِعُمَرَ بن الْخَطَّابِ». فقال بِلَالٌ: يا رسول الله ما أَذَّنْتُ قَطُّ إلا صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ، وما أَصَابَنِي حَدَثٌ قَطُّ إلا تَوَضَّأْتُ عِنْدَهَا، وَرَأَيْتُ أَنَّ لِلَّهِ عَلَيَّ رَكْعَتَيْنِ. فقال رسول الله ﷺ: «بِهِمَا»[(٣)].

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده، (ج١٢/ ص٧). قال بن حجر: رواته لا بأس بهم: وقوله: (تبادرني) أي لتدخل معي، أو تدخل في أثري، ويحتمل أن يكون المراد مجموع الأمرين: سرعة الدخول، وعلو المنزلة. (فتح الباري ج١٠/ ص٤٣٦).

(٢) أخرجه أبو داود، (ج٤/ ص٣٣٨). والمعنى: صبرت على تربيتهم بعد وفاة زوجها حتى يتزوجوا أو يموتوا قبل ذلك.

(٣) أخرجه الترمذي، (ج٥/ ص٦٢٠).

النداء الكريم على أبواب الجنّة!:

ودخول المتّقين في هذه اللحظات السعيدة إلى دار النّعيم في غاية التّرتيب والانضباط؛ إذ حالما يدخلُ وفد الأنبياء، ثم الزّمرة الأولى، فالثّانية من هذه الأمّة.. تبدأ ملائكة الجنّة بالمناداة على السعداء من هذه الأمّة كذلك. وكلّ باب من أبواب الجنّة الثمانية العِظام، عليه ملائكة، معهم سجلاّت بأسماء الداخلين، بحسب أعمالهم الصالحة في الدّنيا. وأبواب الجنّة لها مسمّيات الأعمال؛ فهذا باب الصّلاة، وذاك باب الجهاد، والآخر باب الرّيان.

والمؤمنون يُنادون من أبواب الجنّة بحسب أعمالهم التي عُرفوا بها في الدّنيا؛ فمنهم من تناديه الملائكة من باب واحد، ومنهم من تناديه من بابين، ومنهم من يُنادى من ثلاثة أبواب، ومنهم الذي ينُادى من أبواب الجنّة الثّمانية، وهم قليل، وأشرفهم أبو بكر ﵁. عن أبي هريرة ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله نودي من أبواب الجنّة: يا عبدالله هذا خير، فمن كان من أهل الصّلاة دُعي من باب الصّلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الرّيّان، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة». فقال أبو بكر ﵁: بأبي وأمّي يا رسول الله ما على من دُعي من تلك الأبواب من ضرورة، فهل يُدعى أحدٌ من تلك الأبواب كلها؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»[(١)].

وهناك أقوال وأحوال وأعمال مباركة تُدخِل صاحبها من أيّ أبواب الجنّة الثّمانية العِظام شاء. عن عبادة بن الصّامت ﵁ أنّ النبي ﷺ قال:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٢/ ص٦٧١)، ومسلم، (ج٢/ ص٧١١).



«مَن شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ عيسى عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنّة حقّ، والنار حقّ، أدخله الله من أبواب الجنّة الثمانية أيّها شاء»[1]. وغير بعيد أن يكون للجنة أبواب أخرى كثيرة، سوى هذه الأبواب الثمانية العِظام[2].

تلقّي الأطفالُ لوالديهم!:

وبجانب أبواب الجنّة منظر فريد، ولقاء عجيب أخبر عنه رسول الله ﷺ، إذ ينتظر هناك الأطفالُ الصغار الذين فارقوا آباءهم وأمّهاتهم في الدّنيا، وماتوا قبل سنّ التكليف، فيظلّون على الأبواب، يتفرّسون في وجوه القادمين، حتى إذا رأوهم أخذوا بأيديهم يقودونهم، ويرشدونهم إلى دار السلام، فإذا دخلوها معاً صوّروا بصُورِ أهل الجنّة، من حيث الرغد والحسن، على فارق السنّ، ثم لا يزال الصغار يكبرون حتى يبلغوا التمام الذي عليه سنّ أهل الجنة، ويجري عليهم ما يجري على أهلها، والله أعلم[3]. قال ﷺ: «ما من مسلمين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١٢٦٧)، ومسلم، (ج١/ ص٥٧).

(٢) انظر: بهجة الاتساع، من فصل (الحياة الجديدة)؛ فقد بسطتُ الحديث عن هذه المسألة هناك.

(٣) أحاديث من مات من الأطفال صغاراً قبل سنّ التكليف على نوعين: أحاديث تتعلّق بمصير أطفال المسلمين، وأخرى تتعلّق بمصير أطفال المشركين. فأمّا أطفال المسلمين فأقوال العلماء فيها تدور حول مسألتين، الأولى: أيدخلونها صغاراً أم كباراً؟ فإن دخلوها صغاراً أهم الغلمان الذين ذكر الله تعالى أم =

= غيرهم؟ فأقول مستعيناً بالله تعالى: أمّا كونهم الغلمان فإنّ أطفال الدّنيا ليسوا بالغلمان يقيناً، على ما سيأتي بيانه عند الحديث عن غلمان أهل الجنّة. وأمّا سنّ الأطفال عند دخول الجنّة فأهل العلم فيه على قولين، الأول: أنّهم يدخلونها صغاراً، بالسنّ التي ماتوا عليها. غير أنّ الأحاديث التي يحتجّون بها إمّا صحيحة غير صريحة، كحديث أبي هريرة رضي الله عنه ، من أنّهم «دعاميص الجنّة»، وأنّهم يحاجّون ربّهم في آبائهم على أبوابها، ولا يزالون بهم حتى يشفّعهم الله تعالى فيهم ويدخلونها معهم، كما سيأتي، وإمّا أحاديث صريحة غير صحيحة؛ كحديث أبي سعيد، وفيه: «من مات من أهل الجنة، من صغير أو كبير، دون أبناء ثلاثين في الجنة لا يزيدون عليها أبداً، وكذلك أهلُ النار» (أخرجه الترمذي ج٤/ ص٦٩٥) وهو ضعيف (انظر ضعيف الجامع. ح٥٨٥٢).

القول الثاني: أنّهم يدخلونها كباراً شأنهم شأن أهل الجنّة في السّنّ والهيئة، والأحاديث التي يحتجّ بها اصحاب هذا القول على نوعين: عامّة، أو خاصّة صرّحت بالسنّ الذي يكون عليه الأطفال على وجه الخصوص، وأظهرها، فيما وقفتُ عليه، حديث المقدام بن معدي كرب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في السّقْط إذا دخلوا الجنّة، وفيه: «ما من أحدٍ يموتُ سقْطاً ولا هرماً، وإنّما الناس فيما بين ذلك، إلا بُعِثَ ابن ثلاثين سنة، فمن كان من أهل الجنّة كان على نُسخة آدم، وصورة يوسف، وقلب أيوب. ومن كان من أهل النّار عُظّموا، أو فخّموا كالجبال» (أخرجه الإمام أحمد، ج٣/ ص٨٢، والطبراني في الكبير، ج٢٠/ ص٢٨٠، وصححه الألباني. انظر: الصحيحة، ح٢٥١٢). وقد أشار إلى ما يشبه هذا القول شيخ الإسلام بن تيمية، بقوله: أبناء أهل الدنيا إذا دخلوا الجنة يكمُلُ خلقُهم كأهل الجنّة، على صورة آدم، أبناء ثلاث وثلاثين سنة، في طول ستين ذراعا. (الفتاوى الكبرى ج٢/ ص٢١٠).

ومسلك الجميع بين حديث أبي هريرة السابق، وحديث المقدام هذا سهل ميسور؛ فحديث أبي هريرة ورد مورد التلقّي على أبواب الجنّة، والتلقّي إنّما =



= يكون لمن جاء من الخارج، وهو حاصل على الأبواب، فإذا دخلوها صوّر الأطفال بصور أهل الجنّة وأسنانهم، وجرى لهم ما يجري لآبائهم من الخلود والنّعيم والجمال، مع بقاء وشائج القربى على حالها، بل إنّها لتزداد وصلاً وشوقًا وحبًّا، كما سيأتي.

وهناك مسلك آخر للجمع، والله أعلم، وبه فصل المقال إذا استحكم الإشكال، وهو دخول الأطفال الجنّة صغارا، بأسنانهم التي يعرفهم بها آباؤهم وأمّهاتهم على الأبواب، ثم يجري عليهم النّمو في الجنّة بعد ذلك فيكبرون حتى يبلغوا سنّ أهل الجنّة، ثم يتوقّف نموّهم. وليست هذه الصّورة بمستنكرة ولا مُستبعدة؛ فقد وردت أحاديث تؤكّد نماء الزرع والولد إذا اشتهاه أهل الجنّة، بل واستكمال مدّة الرّضاع أيضًا لمن مات من الأطفال قبل الفطام، وإن ورد مورد الخصوصية، فعن أنس قال: ما رأيت أحدا كان أرحم بالعيال من رسول الله، كان إبراهيم مسترضعًا له في عوالي المدينة، فكان ينطلق ونحن معه، فيدخلُ البيت، وإنه ليدخن، وكان ظئره قيّنا، فيأخذه فيقبّله، ثم يرجع. قال عمرو: فلما توفّي إبراهيم قال رسول الله: «إنّ إبراهيم ابني، وإنّه مات في الثّدي، وإنّ له لظئرين تكملان رضاعه في الجنة» (أخرجه مسلم: ج٤/ ص١٨٠٨).

وأمّا أولاد المشركين فقد كره جماعة من السلف الخوض في مصيرهم، إلا أنّ الراجح دخولهم الجنّة كأطفال المسلمين، والله أعلم؛ لسعة رحمة الله تعالى، ولعدم جريان التكليف عليهم، ولأنّهم ماتوا على الفطرة، ولحديث الرؤيا الطويل الذي رواه سمرة بن جندب، وفيه قوله: «وأما الرّجلُ الطويل الذي في الروضة فإنّه إبراهيم، وأما الوّلدان الذين حوله فكلّ مولودٍ مات على الفطرة». فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال: «وأولاد المشركين» (أخرجه البخاري)، ولشيخ الإسلام بن تيمية مسلك للجمع، فرّق فيه بين العدل والفضل، بقوله رحمه الله: والصحيح المنصوص عن أئمة العدل، كأحمد وغيره: الوقوف في أولاد المشركين، وأنّه لا يجزُمُ لمعين منهم بجنّة ولا =

الحنث إلا أدخلهما الله وإياهم بفضل رحمته الجنّة. يقال لهم: ادخلوا الجنّة، فيقولون: حتى يجيء أبوانا. فيقال لهم: ثلاث مرات، فيقولون مثل ذلك. فيقال لهم: ادخلوا الجنّة أنتم وأبواكم»[1]. فإذا دخلوها مع آبائهم وأمهاتهم تدرّج كمال خلقهم، ورفع الله منازلهم بواسع فضله وكرمه حتى يجمعهم في درجة الأتقى منهم.

وقد وصف رسول الله ﷺ ما يجري بين هؤلاء الغلمان، وبين آبائهم وأمهاتهم حين يرونهم في تلك الساعات الغالية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال في شأن من مات له أطفال لم يبلغوا الحنث: «صغارهم دعاميص الجنّة[2]، يتلقّى أحدُهم أباه، «أو قال: أبويه»، فيأخذ بثوبه، «أو

= نار، بل يُقال فيهم كما قال النّبي في الحديثين الصحيحين: حديث أبى هريرة وابن عباس: «الله أعلم بما كانوا عاملين»؛ فحديث أبى هريرة في الصحيحين، وحديث ابن عباس في البخاري، وفى حديث سمرة بن جندب الذى أخرجه البخارى: أنّ منهم من يدخل الجنة، وثبت أنّ منهم من يدخلُ النار؛ كما في صحيح مسلم في قصة الغلام الذى قتله الخضر. وهذا يحقّق ما روي من وجوه أنّهم يُمتحنون يوم القيامة؛ فيظهر على علم الله فيهم؛ فيجزيهم حينئذ على الطّاعة والمعصية، وهذا هو الذى حكاه الأشعرى عن أهل السنة والحديث، واختاره. (مجموع الفتاوى، ج٢/ ص٢١٠).

(١) أخرجه النسائي في الكبرى، (ج١/ ٦١٥). وأخرجه الإمام أحمد (ج٤/ ص١٠٥).

(٢) الدّعموص: دويبة صغيرة تكون في مستنقع الماء، وقيل: هي دويبة تغوص في الماء، والجمع دعاميص ودعامص أيضا.. وتشبيه الأطفال الصّغار بدعاميص الجنّة، لجامع الحَركة والدّخول والخروج بلا كُلفة، أي أنّهم سيّاحون في الجنّة، =



قال: بيده»، كما آخذ أنا بصِنفة ثوبك هذا، فلا ينتهي حتى يُدخله الله وأباه الجنّة»[1]. وعن معاوية بن قرة عن أبيه أنّ رجلاً كان يأتي النبي ﷺ، ومعه ابن له، فقال له النبي ﷺ: «أتحبّه؟» فقال: «أحبّك الله كما أحِبُّه» ففقده النبي ﷺ فقال: «ما فعل فلان؟» قالوا: مات ابنه. فقال النبي ﷺ: «أما يسرّك ألا تأتي باباً من أبواب الجنّة، إلا وجدته ينتظرك؟» فقال رجل: أله خاصّة، أو لكلنّا؟ قال: «بل لكلّكم»[2].

وهناك صنف آخر من الصّغار، سوى هؤلاء الذين ينتظرون المتّقين من آباءهم وأمّهاتهم على أبواب الجنّة ويستقبلونهم، كما يستقبل صاحب الدّار ضيفه القادم عليه، وهم أولئك الذين تظهر بركتهم على والديهم بعد أن يدخلوا النّار بذنوبهم، دون الشّرك، حيث يشفعون لهم ويحاجّون ربهم ويجادلونه في المؤمنين من آبائهم وأمّهاتهم، ولا يزالون كذلك حتى يشفّعهم الله تعالى فيهم، ويُدخلهم الجنّة معهم، برحمته وكرمه عزّ وجلّ. عن عليّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ السّقط ليراغِم ربَّه إذا أُدخل أبويه النّار، فيُقال: أيها السَّقطُ المراغمُ ربَّه، أدخل أبويك الجنّة، فيجرّهما بسَرره، حتى يُدخلهما الجنّة»[3].

= جوّالون في منازلها، لا يُمنعون من موضع، كما أنّ الصبيان الصغار لا يُمنعون من الدّخول، ولا يحتجب منهم أحد. (لسان العرب ج٧/ ص٣٦).

(١) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص٢٠٢٩).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، (ج١/ ص٥٤١) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه ابن ماجه، (ج١/ ص٥١٣).

بل لقد أخبر ﷺ أنّ من مجادلة هؤلاء الصغار ربّهم رفضهم دخول الجنّة حتى يُرضيهم الله تعالى بدخول أبويهم معهم!!؟ فعن بعض أصحاب النبي ﷺ أنّه سمع النبي ﷺ يقول: «يُقال للوِلْدان يوم القيامة: ادخلوا الجنّة، فيقولون: يا ربّ حتى يدخل آباؤنا وأمهاتنا. قال: فيأتون، فيقول الله عز وجلّ: مالي أراهم مُحبطين؟ ادخلوا الجنّة، فيقولون: يا ربّ، آباؤنا وأمهاتنا! فيقول: ادخلوا الجنّة، أنتم وآباؤكم»[1].

بطاقة دخول الجنّة!!

والنّظام على أبواب الجنّة دقيق؛ فبعد أن يصطفّ السعداء.. الأوّل فالأوّل، يبدأ الملائكة بالنّداء، ومعهم سجلاّت أسماء الدّاخلين، من أبواب العمل الصّالح الذي عُرفوا به في الدّنيا، كثرة وقلّة! فإذا سمع أحدهم اسمه تقدّم باتّجاه الباب، ثم أبرز بطاقة الدّخول المختومة له من ربّ العالمين؛ ذلك أنّ للمؤمن كتابين: أحدهما يُختم له عند الوفاة، ويُحفظ في عليّين بشهادة المقرّبين من الأنبياء والملائكة، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾[المطففين: ١٨ – ٢١].

فإذا بُعث المؤمنون قُدّم إلى كلّ منهم كتابُه ليقرأه. وقد أخبر تعالى أنّ كتابهم ﴿مَّرۡقُومٞ﴾؛ تحقيقًا لكونه مكتوبـًا كتابة حقيقة، ويوقّع لهم بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين، كما تكتب الملوكُ تواقيع من تعظّمه من بين الأمراء وخواصّ أهل المملكة، تنويها باسم المكتوب وإشارة

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (ج٤/ ص١٠٥). ومعنى مُحبطين: ممتنعين عن الدخول.



بذكره[١]. وهذا نوع من صلوات الله سبحانه وملائكته على عبده[٢]. وأمّا الكتاب الثاني فيستلمه السعيد «عند عبور الجسر المنصوب على متن جهنّم، وهو الصراط؛ فالمؤمنون يُعطون، كلّ واحد منهم، كتاباً لدخول الجنّة»[٣]. وفي هذا الكتاب خطاب من الله ربّ العالمين إلى خزنة الجنّة، يأمرهم فيها سبحانه بالسماح لحامل الخطاب بدخول أبواب السّعادة. عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة إلا بجواز: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتابٌ من الله، لفلان بن فلان، أدخلوه جنّةً عالية، قطوفها دانية»[٤]. قال ابن القيم رحمه الله:

هذا ومن يدخل فليس بداخل ... إلا بتوقيع من الرّحمنِ

(١) جرت عادة ملوك الدّنيا ورؤسائها وعظمائها في حفلاتهم الكبرى ومناسباتهم الخاصّة أن يقدّموا للمدعوّين بطاقات دعوة، يظهرونها عند الدخول؛ يلقوا بعدها الإكرام والترحيب والمساعدة من الخدم والمشرفين والمنظّمين للحفل.

(٢) شرح قصيدة ابن القيم (ج٢/ ص٤٧٧) وروى أحمد وابن حبان وأبو عوانه في صحيحيهما من حديث البراء بن عازب الطويل في شأن القبر مرفوعا فيقول الله عز وجلّ: «اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض».

(٣) التعليق المختصر على القصيدة النّونية، للشيخ الدكتور صالح بن فوزان الفوزان، (ج٣/ ١١٦٤).

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط، (ج٣/ ص٢٢٤)، والخطيب في تاريخ بغداد، (٥/ ٢٠٨)، وأعلّه ابن الجوزي في العلل المتناهية، (٢/ ٩٢٨) لجهالة أحد رواته.



وكـذاك يُكتـب للفتـى لدخُولـه ... مـن قبـل توقيعـان مشـهورانِ

إحداهما بعد الممات وعرض أر ... واح العبـاد بـه علـى الـدّيانِ

فإذا انتهى للجسر يوم الحشر يُعـ ... ـطى للـدّخول اذاً كتابـًا ثـانِ

عـنوانه: هـذا كتـاب مِـن عزيـ ... ـز راحـم لفـلانٍ ابـن فـلانِ

فدعوه يدخل جنّة المأوى التي ار ... تفعـت ولكـن القطـوف دواني

هذا وقد كُتب اسمه مُذ كان في الـ ... أرحـام قبـل ولادة الانسـانِ

فإذا أبرز السعيد بطاقة الدّخول.. وظهر الإذن من الرّحمن بالقبول، رحّبت الملائكة الكرام، وسلّمت على السّعيد سلام المحبّ لحبيبه، وبشّرته بسعادة الأبد التي لا خوفَ بعدها ولا حَزَن. فلا تسل عن فرحته الغامرة، وعن هيبة المشاعر التي تغمر قلبه في تلك اللحظة الفاصلة، وهو يتحرّك وسط الزحام، باتجاه الباب الذي نُودي عليه منه، ليضع قدمه الأولى على أرض الحياة الجديدة.. حيث الفوز السرمدي الخالد، والبقاء الأبدي الرغيد. قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران: ١٨٥].

لحظات السّعادة الأولى!:

ما إن يجتاز السعيد عتبَة باب الجنّة دخولاً حتى يقف مبهوراً في مكانه لشدّة الذهول، وما به إلا أنّه يرى في هذه اللحظات مشهداً لا قُدرة لآدميّ على وصفه، ونعيماً باهراً.. لم يكن قطّ يتخيّله، وينغمسُ في مقدّمات نعيم اشتاق إليه ولم يكن يعلم أنّه بهذا القدر من الجمال!! هاهو الآن في الجنّة.. حقّ اليقين، يسمع ويرى.. عين اليقين ما كان يؤمن به في الدّنيا، ويصدّقه علم اليقين.



نعم.. ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.. تلك هي الأشجار الباسقة التي التفّت أغصانُها، واشتدّت خُضرتُها من كثرة الرّي، تماماً كما وصفها خالقها! وتلك الأنهار تتخلّل من بين الأشجار والحشائش الخضراء.. رقراقة، عذبة صافية، وخريرها يختلط بصوت العصافير وأوراق الشّجر، لتبعث صوتاً محبّباً لا مثيل له.

ها هي مشاهد الجنّة العلوية الممتدّة في السماء، وذاك هو الأفق الواسع المزدان بألوان المباهج والجمال الذي لا يبلغه البصر! أين الزّحام؟! وأين الضوضاء؟! أين الشّمس؟! وأين القمر؟! أين ضيق القبر؟! وأين شدّة المحشر؟! لا شيء هنا، سوى السّعة والهدوء العليل، والرائحة العطرة، والضياء المحبّب الذي يملأ أرجاء الجنّة!

ما عسى الآدمي القادم من بادية الدّنيا يقول لو طُلِبَ منه أن يصف ما لم تر عينه، ولم تسمع أذنه، ولم يخطر على قلبه من مباهج النّعيم ومنشور السّعادة؟!! عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: أعددتُ لعباديَ الصّالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[1].

ودخول الوفد الكريم إلى الجنّة يتزامن مع أصوات الملائكة الكرام.. مردّدين أجمل التحايا، ومهنّئين بالطّيب الأبدي، والنّعيم السرمدي الذي سيرافق السّعداء حياتهم القادمة، يقولون: السلام عليكم يا أهل الجنّة، ﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١١٨٥)، ومسلم، (ج٤/ ص٢١٧٥).

ومع كثرة الدّاخلين إلى الجنّة، من المتّقين على مدار التاريخ البشري، إلا أنّ هذا اليوم السعيد يكاد يكون لأمّة محمد ﷺ؛ فهم أوّل الأمم دخولاً الجنّة، وهم أكثر أهل الجنّة، بل هم ثُلُثا أهلها، ولهم منازلهم فيها.. كثرة واتّساعًا؛ كرامة لنبيّهم، ولكثرة أجورهم وأعمالهم الصالحة التي لم تكن لأحد من الأمم قبلهم، عن نافع عن بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما مِن أُمَّةٍ إلا وبعْضُها في الجَنَّةِ، وبعضُها في النار إلا أمَّتي فإنَّها في الجنَّةِ»[1]. وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «أما ترضون أن تكونوا رُبُع أهلِ الجنّة؟» قال: فكبّرنا. ثم قال: «أما ترضون أن تكونوا ثُلُثَ أهلِ الجنّة؟» قال: فكبّرنا. ثم قال: «إنّي لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنّة»[2]. وأكثر أهل الجنّة من هذه الأمّة.. الفقراءُ والمساكين والمحرومون، قال ﷺ: «اطّلعت في الجنّة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النّساء»[3].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (ج٢/ ص٢٣٢) وهو في صحيح الجامع، (٥٦٦٩٣). والمراد بها أمّة الإجابة ويخرج من شرف الانتساب لأمّته المشركون؛ فإنّهم محرومون من دخول الجنّة، مطرودون عن الحوض يوم القيامة.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٧٦٧)، ومسلم، (ج١/ ص٢٠٠) وقد أجابه ربّه، وزاده بأن جعل أمّته ثلثا أهل الجنّة، كما سبق من حديث بريدة عند الترمذي بإسناد حسن: «أهل الجنة عشرون ومائة صفّ، ثمانون منها من هذه الأمّة، وأربعون من سائر الأمم».

(٣) أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١١٨٤) عن عمران بن حصين رضي الله عنه.



الاستقبال البهيج:

حالما يدخل المؤمنون الأبواب، مخلّفين أيام التّعب على الأعتاب.. متصافية قلوبهم، مكبّرين، مهلّلين.. آخذاً بعضهم بيد بعض، إذ هم بأنوار الجنّة تُشرق من حُسنها، وتعبقُ بنسائمها.. الأشجار الخضراء تهتزّ أوراقها، مجاوزة عنان السماء.. الأطيارُ الجميلة تحلّق بكل لونٍ بهيج.. السماء لا تزداد إلا بهجة، والأفقُ تكسوه خُضرة النّعيم، مع امتداد الأشجار، وتحليق الأطيار، وتدلّي الأغصان بالثمار. الجنّة في هذه الساعات على أكمل حالات النّعيم. كيف وهي التي اشتاقت لهذه اللحظات منذ زمن؟! عن أبي بشير رضي الله عنه يرفعه قال: «ما من يوم إلا والجنّة تقول: طابت ثماري، واطّردت أنهاري، واشتقت إلى أوليائي، فعجّل إليّ بأهلي»[1].

وكلما دخل سعيد من السّعداء صُوّر بصورة أهل الجنّة، وأُلبِس لباس أهل الجنّة، وحُلّي بحُليّ أهل الجنّة، وأخذ تُحفته التي أعدّها الله تعالى له ساعة الدخول. عن عليّ رضي الله عنه يرفعه: أنّ أهل الجنّة إذا دخلوها رأوا شجرة على باب الجنّة، ينبعُ من أصلها عينان، فإذا شربوا من إحدى العينين غسل ما في بطونهم من دَنَس، ويغتسلون من الأخرى فلا تشعثُ أشعارُهم ولا أبشارُهم[2]. فإذا استتمّ دخولُ المتّقين جنّاتِ النّعيم، ذكوراً وإناثاً، إذ بهم يرون ما لا يُحصى كثرة من ملائكة الرّحمن.. كلّهم يسلّمون، ويهنّئون بسلامة الوصول، ويدعون أهل الجنّة أجمعين إلى حيث نُزُلهم في ضيافة

---

(١) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة، (ج١/ ص١٢١).

(٢) كنز العمال، تفسير سورة الكهف، (ج٢/ ص١٩٦).

ربّهم، ويرحّبون بهم.. داعين لشهود مراسم الاستقبال التي أعدّت لهم، غير بعيد عن أبواب الجنّة التي جازوها.

فإذا وافوا نُزُل الضيافة، وجدوا الموائد قد بُسِطت، والتُّحَف قد أعدّت، والكؤوسَ قد مُلئت، ورأوا الغِلمان، على حال من الانضباط والنّظام والأدب، والجمال والبهاء، يتبسّمون ويرحّبون.. معهم الأباريق، وبقربهم الكؤوس والأطباق، ينتظرون خدمةَ وفد الرحمن، وتلبية رغباتهم من أي مشروب يطلبون، وأيّ طعام يشتهون!!

وقد أخبر رسول الله ﷺ عن مشهد من مشاهد هذا الاستقبال العظيم، وعن أوّل تُحُفة تقدّم لأهل الجنّة، حيث تُشوى لهم زيادة كبد الحوت، ثمّ يُقدّم لكلّ واحد منهم قطعة على طبق من ذهب(1). فإذا تناولوه قُدّم لهم اللحم، ثم يُطاف عليهم بعد ذلك بالشّراب اللذيذ.

فياله من ذوق رفيع ما أجمله، ومراسم للتكريم والتّقديم والرّفاه ما أبهجها!! عن ثوبان مولى رسول الله ﵁ أنّ رسول الله ﷺ سُئل عن أهل الجنّة، ما تُحفَتُهم حين يدخلون الجنّة؟ فقال: «زيادة كبد النّون». قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «يُنحر لهم ثور الجنّة الذي كان يأكل من أطرافها» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «من عينٍ فيها تُسمّى سلسبيلاً»(2).

---

(1) ولك أن تتأمّل في عظيم خلق الله تعالى، كيف أنّ قطعة من كبد هذا الحوت تكفي أهل الجنّة كلّهم في ذلك اليوم. وسيأتي مزيد حديث عن هذه العظمة في الجنّة التي تظهر في الأحجام والأجسام وتنوّع النّعيم وتجدّده، واتّساع الجنّة، وفي البهجة والهناء والخصوصية التي ينعم بها كلّ فرد من أهل الجنّة، ذكراً كان أم أنثى.

(2) أخرجه مسلم، (ج1/ ص252).



فإذا لبس أهل الجنّة جميل الثياب، وتناولوا أثمن التحف، وفرغوا من لذيذ الطعام، وأهنأ الشراب، وأبصروا رحمة ربّهم، وفضله عليهم، استتمّ نعيمُهم، وازداد فرحُهم، ولم يبق في قلوبهم خوف ولا وجل إلا من منغّص واحد، لم يعودوا يخافون سواه، ويخشون أن يقطعهم عن هذا النّعيم، ويحول بينهم وبين هذه السعادة الغامرة.. إنّه الموت!

وبينا هم في نعيمهم يترفّهون، فرحين بما آتاهم ربّهم.. يضحكون بقرب الموائد العامرة، ويتجاذبون الحديث عمّا يجدون من صور النّعيم، ويجولون بأبصارهم في أرجاء الجنّة.. هنا وهناك، تُبهجهم الأصوات العذبة، والأنداء المطيّبة، والنسائم العليلة، ويأسرهم النظامُ العجيب، والطهارة الكاملة والصّور الجميلة.. إذ بصوت عظيم يناديهم: «يا أهل الجنّة!» فيشرئبّون ينظرون، فيقول لهم المنادي: «هل تعرفون هذا؟» فإذا هم بالموت قد صوّره الله تعالى بصورة كبشٍ أملح، واقفٍ بين الجنّة والنار. فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلّهم قد رآه، وقاسى من سَكراته، ويخاف ساعته الرهيبة. فإذا سمع المنادي ذلك منهم، التفت إلى الهاوية السّحيقة، فنادى بصوت عظيم يسمعه كلّ من في النار: «يا أهل النار!»، فيشرئبّون ينظرون، فيقول: «هل تعرفون هذا؟» فيقولون: «نعم، هذا الموت»، وكلّهم قد رآه. فيسكتُ المنادي لحظاتٍ، هي أطول ساعات الزمن، وأحرج مواقف العمر.. يخافُ عندها أهلُ الجنّة، ويتعاظم معها أمل أهل النار، فيُذبح الكبش، ثم يقول المنادي: «يا أهل الجنّة، خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت»[1].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٧٦٠)، ومسلم (ج٤/ ص٢١٨٨).

وقد خلّد القرآن الكريم أثر البشارة الغالية على أهل الجنة، وهم يسمعون هذا الوعد الكريم بانتفاء الموت والعذاب في تلك الساعات المباركة، وأخبر أنهم يتوجهون إلى الملائكة المقربين يسألون: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الصافات: ٥٨ - ٥٩]. أحقـًا انتهى الموت؟ وحصل الأمن الدائم من العذاب؟؟ فإذا تحقق لهم ذلك، وجاءهم الجواب السعيد قالوا بلسان الامتنان: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

فلا تَسل عن فرحة المتّقين عندها، ولا عن سرورهم وحبورهم! ولا تسل عن تباشيرهم وتهنئتهم لبعضهم ومباركة الملائكة الكرام لهم بخلود الأبد الذي لا فناء بعده! الكلّ يهنّئ من بجواره من السّعداء بالحياة السرمديّة، والنّعيم المقيم الذي لا تحوّل منه، والراحة والبهجة التي لا حزن بعدها ولا تعب ولا شقاء. قال الله جلّ جلاله مصرّحـًا بخلود أهل الجنّة في معرض تفضّله سبحانه على أهلها إذا دخلوها: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٨].

الله الجليل.. يرحّب بالوفد الكريم:

وبينا أهل الجنّة في فرحهم غامرين، وفي سعادتهم فاكهين، يتضاحكون ويهنئون، ويتطلّعون إلى النّعيم المقيم مِن حولهم، والرّفاه والرّغد في أبدانهم وثيابهم، وفي أرواحهم ومشاعرهم.. بعد أن نالتهم البشارة الغالية بحياة سرمدية خالدة.. لا موت فيها ولا خوف، ولا ألم ولا مرض، ولا هرم ولا حزن.. إذ بهم يُنادَون بصوت جليل: «يا أهل الجنّة!»، فينصتُ الوفد الكريم حالما يسمعون النداء: أيّ لذّة هذه؟! وأيّ صوتٍ جميل هذا الذي ينادينا؟! أهو بشير بنعيم آخر؟ وأيّ نعيم ألذّ من الصّوت نفسه؟ لقد



ذاقت قلوبُنا حلاوته قبل أسماعنا، ووجدت أرواحُنا لذّته قبل آذاننا! فينظرون في أرجاء الجنّة، فإذ بالموقف في هذه اللحظة على غير ما عهدوه؛ الملائكة خاضعةٌ بأجنحتها في محالّها، واجمةٌ مُطرقةٌ برؤوسها.. قد سَكَنت جوانحها، وخشعت جوارحها، بعد أن كانت قبل لحظات تحلّق فوقهم، فرِحَة.. مُسلّمة ومُرحّبة. ما لها؟! وكأنّها لا تقدر على الحركة؟! كلّ ما في الجنّة حولهم خاشع، ساكنٌ لا حِراك له.. هيبة وإجلالاً! أهو صوتُ ربّنا؟!! نعم.. لا صوت أجمل منه، إنّه صوت ربّنا عز وجل!! فيرفعون رؤوسهم، فإذ بالجليل سبحانه في حجاب النّور، يحيّيهم، ويسألهم: «تريدون شيئًا أزيدكم؟» فيقولون: يا ربّنا.. وأيّ شيء نطلب بعد هذا؟ ألم تبيّض وجوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنّة؟ وتنجّينا من النار؟ قال ﷺ وهو يصف هذا المشهد المهيب: «فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النَّظر إلى ربّهم عزّ وجل»[1].

أيّ سعادة أعظم من هذه السعادة؟ وأيّ لذّة أجمل من هذه اللذّة؟ إنّها اللحظات الخالدة التي يذوق فيها السّعداء أسمى مراتب النّعيم.. إنّها قرّة عيون الموحّدين، وبهجة قلوب المتقين، وغاية مطلب المؤمنين، وهي الزيادة الموعودة التي لا تعدلها زيادة، واللذّة المشهودة التي لا تماثلها لذّة، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[يونس: ٢٦]. وتأمّل في هذا التقابل البديع بين الكفّتين: نعيم النظر إليه عزّ وجل، وهي الزيادة، ونعيم الجنّة كلّه بما حواه الحسن والجمال!

---

(١) أخرجه مسلم عن صهيب، (ج١/ ص١٦٣).

هذه هي اللحظات الخالدة التي لا توصف، والمشاعر المتداخلة التي لا تسعها الكلمات، مهما حاز السعيد من الخيال والبيان.

ولا تسل عن الحُبّ العظيم الذي يعمر قلوب أهل الجنّة لخالقهم سبحانه، وهم يقلّبون سريعاً آثار رحمته بهم: لقد كان لهم نعم المعين في زمن الوحشة، ونعم الأنيس في وقت الغُربة، ونعم السّند الناصر حال الكُربة.. خلقهم من العدم، وهداهم للتي هي أقوم، ووفّقهم للتوبة والاستغفار، وجنبهم طرق الغواية والضلال، وأحسن خاتمتهم على التوحيد، ونزّل عليهم الملائكة مبشّرين حال الفراق: ألا خوف عليهم فيما يقدمون إليه، ولا حُزن على ما خلّفوا وراء ظهورهم من أهل وذريّة، ثم آنسهم في قبورهم وأزال وحشتهم بالعمل الصالح، وبالملائكة الكرام، ثم سلّمهم من الأهوال والكروب عند القيام لفصل القضاء، وأدخلهم في كنف سِتره، وخفّف عليهم الحساب، وآواهم إلى ظلّه، وأوردهم حوض نبيّه، وثقّل موازينهم، وأجازهم على الصراط، وزحزحهم عن النار، ثم تفضّل عليهم بدخول الجنة.. وهاهو اليوم يزيدهم أنساً وقُرباً في بساط ملكه، ويُحلّ عليهم رضوانه، ويُسديهم الإحسان الذي عوّدهم! فيا له من ربّ رحيم ما أكرمه، وملك عظيم ما أكثر نعمه!

فإذا أنس السّعداء برؤية خالقهم، وخالطت البهجة والنّعيم قلوبهم وأرواحهم، أخذ الجليل سبحانه يحدّثهم ويبشّرهم، ويزيدهم من فضله الذي عوّدهم[1]، ويذكّرهم وعده الذي صدقهم، ومن أوفى بعهده من الله؟

---

(١) ما أشبه موقفهم في هذه الساعة بموقفهم يوم عرفة.. حين يدنو الجبّار إليهم في ذلك الموقف، وقد تجرّدوا من لباس أهل الدنيا، وانقطعوا عن أسبابها =



قال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق: ٣١ - ٣٥]. إنّها المقدّمات الأولى لفصول النّعيم!! وما ينتظرهم من السّعادة فوق ما يتخيّلون، وما يفدون إليه من العيش الرّغيد فوق ما يطمحون!

ولله الجليل سبحانه مع أهل الموقف في هذه اللحظات رحَمَات عظيمة، ينسون معها كلّ تعب وعناء مرّ بهم في الدّنيا؛ ذلك أنّ منهم الفقيرَ الذي طالما جاع في الدّنيا، وأهلُها منعّمون مرفّهون، ومنهم المريضَ الذي اشتدّ عليه مرضه، وظلّ يصارعه، ويعاني آلامه؛ صابراً على قضاء الله تعالى فيه، حتى مات بسببه، ومنهم الأسيرَ الذي طال حبسُه من أجلِ دينه، وتوالى تعذيبه في ذات مولاه، ومنهم الأبرصَ والأجذمَ، وصاحبَ العاهة الذي لم يَذق في الدّنيا طعم اللذّة والراحة، ومنهم الأصمَّ الذي لم يتنعّم بسماع

= ونعيمها، قلوبهم له محبّة طامعة، وأرواحهم مشتاقة واجفة، وعيونهم ذارفة.. قد تركوا لأجله الأهل والدار، وتزوّدوا للقائه بزاد الغريب في الأسفار.. الضائع الذي انقطعت أمامه كل السبل إلا سبيله، وكل الأسباب إلا سببه، وزال منه الرجاء إلا بمولاه، واضمحلّت أمامه كل المطالب إلا مطلباً واحداً يظلّ يدعو به في ذلك اليوم العظيم: اللهم إنّي اسألك لذّة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك. ولشرف ذلك الموقف وأهله، يدنوا الجليل سبحانه فيباهي بهم ملائكة السّماء ويقول: «ما أراد هؤلاء؟!» (أخرجه مسلم، ج٢/ ص٩٨٢)، مباهاة تشريف لمكانهم، ورفعة لسموّ مطلبهم. فلا يبقى أحد شهد ذلك الموقف بصدق إلا غُفر له. وها هم اليوم يحقّقون أسمى ما كانوا يسألون ويتلذّذون بالنظر الذي كانوا يشتاقون ويطلبون!

القرآن الكريم الذي يبهج القلوب والأرواح، ويخفّف وحشة النفوس، ولا سماع الأذان الذي يذكّره كلّ يوم بلقاء ربّه ومحبوبه عزّ وجلّ، ومنهم الأعمى الذي ظلّ يعثُر في طريقه.. ولم يُبصر جمال الضياء، ولا المناظر الجميلة، والألوان البهيجة، ومنهم الأبكمَ الذي لم يعرف لذّة ترتيل كلام الله تعالى، ولا التسبيح والتهليل والتكبير، ومنهم الأيامى الذين ماتوا على العفافِ، ذكوراً وإناثـاً، وصبروا عن لذائذ الحرام، وحفظوا فروجهم، وجاهدوا أنفسهم عن الوقوع في الفواحش، ولم يتبعوا خطوات الشيطان ولا مسامرة الأخدان، كما كان يفعل الغافلون من أقرانهم.

كل هؤلاء المتّقين.. رجالاً ونساء دخلوا الجنّة، بعد أن طهّر الله تعالى قلوبهم، وصفّى أرواحهم، وأزال ما بينهم وبين إخوانهم؛ ونزع من صدورهم ما علِق من الغلّ والأحقاد، وهاهم منتظَمون في عِقد السّعداء الذين يناجيهم ربّهم السّاعة، فماذا عن ذواتهم المكلومة؟ وماذا عن ذكرياتهم الحزينة التي لا تزال حاضرة، ويخشون أن تنغّص عليهم بهجة النّعيم، ولذائذ الفرحة في دار السلام؟!

إنّها أوّل أيام الجنّة، وهم الآن في ضيافة ربّهم العليم الذي أكرمهم، ووعدهم بأن يتحفهم من اللذائذ الكثيرة ما يُفرح القلوب والجوارح، ويغسل آلام الأنفس.. غَسلاً حسّياً بمباهج النّعيم، ومعنوياً بنسائم السعادة التي لا حزن معها، واليقين الذي يزيل كلّ ما علق في النّفس من صور الجهد والشقاء، والرضى الذي لا شقاء معه ولا كدر.

والكريمُ إذا أعطى أدهش، وأنال من العطايا أعظم مما يتصوّر العبد! فما شأن الكريم إذا كان عليماً بكلّ خافية منك، يرى حالك، ويسمع أوتار



خواطرك وهي في عالم الصّمت البعيد؟!! عن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدّنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا بن آدم هل رأيتَ خيراً قطّ؟ هل مرّ بك نعيمٌ قطّ؟ فيقول: لا والله يا ربّ. ويُؤتى بأشدّ النّاس بؤساً في الدّنيا من أهل الجنّة، فيُصبغ صبغةً في الجنّة فيُقال له: يا بن آدم، هل رأيتَ بؤساً قطّ؟ هل مرّ بك شدّةٌ قطّ؟ فيقول: لا والله يا ربّ، ما مرّ بي بؤسٌ قطّ، ولا رأيتُ شِدّةً قطّ»[1].

وهذه الغمسة الحانية الكريمة ينالها كلّ مكروب ومجهود من سعداء أهل الدّنيا في لحظات التجلّي، وهي أشرف ما يجده أهل الجنّة في مراسم الاستقبال على أبوابها، بعد النّظر لوجه الله جلّ جلاله، وبهما يحلو كل نعيم في الجنّة بعد ذلك، ويزول كل شقاء علق من دار الدّنيا!!

وأسعد السّعداء بهذا العطاء: الرّسلُ والأنبياءُ الذين لم يذوقوا في الدّنيا طعم الرّاحة، ولم يتفرّغوا للرّفاه والنّعيم، وأكرمهم محمد ﷺ، الذي خاطبه ربّه في أوّل أيام الصّبر، فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾[الضحى: ٣ - ٥].

فيا له من نعيم هذا الذي يجده السعيد برحمة ربّه، ويا لها من بهجة تلك التي تغمره، وهو يرى من آيات ربه الكبرى، ويجد من شرف الاستقبال والضيافة، وكريم الرّعاية والعناية، وأبّهة الملك، وجميل الخطاب.. ما لم تر عينُه، ولم تسمع أذنه، ولم يخطر على قلبه! وله في هذه اللحظات السعيدة حالة فريدة من الرَّغَد في كلّ تُحفّة تُقدّم له، وكلّ لذّة يقف عليها.. نسأل الله الكريم من فضله.

---

(١) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص٢١٦٢).

الحَيَاةُ الجَدِيْدَةُ

في اللحظات الأولى من الحياة الجديدة تتجلّى الفوارق الكبيرة بين دارين: دار أسنٍ وتعبٍ فانية، ودار طهر وفرح باقية، وبين ساكنين: ساكن هزيل لا يسلم من الضعف والمرض، والفقر والهرَم، ونزيل سعيد يُبشّر على أبوابها بالخلود الدائم الذي لا موت بعده، والصحّة التامّة التي لا مرض فيها، وبالغنى والسعادة، وبالأهلين والقصور، وأنّ له فيها ألا يجوع ولا يعرى، ولا يظمأ ولا يضحى، منعّم بهيئات جمال يتجدّد، وحواسّ كاملة قوية، يتنقّل بين ثمار طاب جناها، ولذائذ استتمّ مناها، بدار سرور لا بأس بعدها، وسعة لا حدّ لمنتهاها.



الهيئات، بكمال جمالها:

وأهل الجنّة إذا دخلوها صُوّروا بصورٍ جديدة، في غاية الحُسن وأبهاه، وأجسام غاية في القوّة والكمال، كلّ ما فيها مركّب لتكمل به اللذّة، وتتمّ الفرحة والاستمتاع؛ فطولهم سُتّون ذراعًا في السماء، وعرضهم سبعة أذرع، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ، قال: «يدخل أهل الجنة، مردا بيضًا، جعداً، مكحلين، أبناء ثلاث وثلاثين. على خلق آدم، سبعين ذراعا في سبعة أذرع»[1]، وكُلّهم على صورة أبيهم آدم من حيث الحسن والجمال[2]. وجميعهم جُرْدٌ مُرد:

ألوانهم بيضٌ وليس لهم لحى — جُعدُ الشّعورِ مكحّلوا الأجفان
هذا كمال الحُسن في أبشارهم — وشعورهم وكذلك العينان

وهم أبناء ثلاث وثلاثين[3]، وهو سنّ الشباب والقوة والجمال.. ثم لا

(١) أخرجه الإمام أحمد، (ج٢/ ص٤١٥)، وهو حديث حسن بطرقه وشواهده، دون قوله (في سبعة أذرع) فقد تفرّد بها علي بن زيد بن جدعان، وهو ضعيف (انظر تعليق الفوزان على النونية، ج٣/ ١١٧٤). لكن لا يخفى التناسب بين الطول والعرض، وهذا ما اشار إليه ابن القيم بقوله:

هذا ولا يخفى التناسب بين هَـ — ـذا العرض والطول البديع الشان
كلّ على مقدار صاحبه وذا — تقدير متقن صنعة الإنسان

(٢) آدم رضي الله عنه أجمل من كلّ ولده؛ ولا أجمل ممّا باشر الله عز وجلّ خلقه بيده. روى الدارمي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خلق الله تعالى أربعة أشياء بيده: العرش، والقلم، وعدن، وآدم، ثم قال لسائر الخلق: كن، فكان.

(٣) هذا سِنّ أهل الجنّة، وعليه النّصوص، وأما ما جاء مصرّحًا بأنّهم أبناء ثلاثين =

يفنى شبابهم بعد ذلك، ولا يتغيّر جمالهم، بل يزدادون حُسناً وجمالاً كلّ جمعة، بعد لقاء ربهم. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يبعث أهل الجنّة على صورة آدم في ميلاد ثلاثة وثلاثين سنة، جُرداً مُرداً، مكحّلين، ثم يُذهب بهم إلى شجرة في الجنّة فيُكتبون فيها.. لا تُبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم»(١).

الحواس، بقوّة وظائفها:

وحواسّ أهل الجنّة حواس جديدة، غاية في الحِدّة، ولا يعتريها نقص ولا فقد؛ لأنّها مخلوقة لتقوم بوظائفها، في حياةٍ سرمدية باقية، تتنعّم خلالها بصنوف اللذات فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ.. من شهوات الأبدان: بالمآكل والمشارب والمناكح، ومن مُفرحات القلوب والأرواح: بالأمن والسعادة، والمحبّة والرّضى، والمشاعر الجميلة الرقيقة، والمعاني الشفّافة الكريمة، فحدّة الأبصار وقوّة السمع والشمّ، مع القوّة الكلية في الجسم ووظائفه، وجمال المنظر وبهجة الروح وطيب النفس.. كلّ ذلك يجده السعيد ساعة دخوله الجنّة(٢). عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوّل زُمرة

= سنة، كما عند الترمذي فإنّه لا يناقضه؛ لأنّ العرب إذا قدَّرت بعدد له نيّف فانهم تارة يذكرون النيّف للتحرّز، وتارة يحذفونه، وهذا معروف في كلامهم، وخطاب غيرهم من الأمم. (شرح قصيدة ابن القيم لأحمد عيسى، ج٢/ ص٤٨٥).

(١) أخرجه أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي في كتابه: الأحاديث المختارة (ج٧/ ص٢٦٦) بسند حسن.

(٢) وقد أخبر الله تعالى عن ظهور قوّة الحواس، وبخاصّة حدّة البصر، على عرصات القيامة، بقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[ق: ٢٢]. أي: حديد النّظر، شديده (الدّر المنثور: ج٧ / ص٦٠٠).



تدخل الجنّة من أمّتي على صورة القمرِ ليلةَ البدر، ثم الذين يلونهم على أشدّ نجم في السماء إضاءة، ثم هم بعد ذلك منازل.. لا يتغوطون ولا يبولون، ولا يمتخطون ولا يبزقون. أمشاطُهم الذهب، ومجامرهم الألوّة، ورشحهم المسك. أخلاقهم على خلْق رجلٍ واحد، على طول أبيهم آدم ستون ذراعـًا»[1].

الطهارة والنّقاء:

وجميع أهل الجنّة يطهّرون إذا دخلوها حِسّـًا ومعنى، بأبهى حالات النّقاء والصفاء.. باطنـًا وظاهراً، ذكوراً وإناثـًا. وبهذا النّقاء والطهر ترحّب بهم الملائكة على أبواب الجنّة قائلة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾. وبهذا تكتمل صور الطيب لوفد الرحمن؛ الطيب الخُلُقي بتطهير قلوبهم من الضغائن والأحقاد، والطيب الخَلْقي بصحّة الأبدان والأجساد، ونضارتها، ونقائها، وطهارتها؛ فهم يدخلون الجنّة على قلب رجل واحد.. إخوانًا متحابّين، مطهّرين من كلّ قاذورات الدّنيا ونجاساتها، قد قُطِعت عنهم كلّ روائحها وإفرازاتها.. لا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يتفلون، ولا يمتخطون، ولا يحتلَمون، ولا يُمنون. عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أوَّل زُمْرةٍ يدخلون الجنّة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشدّ كوكبٍ دُرّيٍ في السماء إضاءة. لا يبولون ولا يتغوّطون، ولا يمتخطون ولا يتْفلون. أمشاطُهم الذَّهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوَّة، وأزواجهم الحور العين. أخلاقهم على خَلْقِ رجلٍ واحد، على صورةِ أبيهم آدم سُتّون ذراعـًا في السماء»[2].

(١) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص٢١٧٩).

(٢) المرجع نفسه.

قال مقاتل رحمه الله عن وصول وفد الرّحمن طيبين: إذا قطعوا جسر جهنم حُبسوا على قنطرة بين الجنة والنّار، فيُقَصّ لبعضِهم من بعض مظالمَ كانت بينهم في الدّنيا، حتى إذا هُذّبوا وطُيّبوا قال لهم خزنة الجنّة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلُص المؤمنون من النّار فيُحبسون على قنطرة بين الجنّة والنّار فيقتص لبعضهم من بعض مظالمَ كانت بينهم في الدّنيا، حتى إذا هُذّبوا ونُقّوا أذن لهم في دخول الجنة»[1] قال النقّاش: إنّ على باب الجنة شجرة ينبع من ساقها عينان، يشرب المؤمنون من إحداهما فتطهر أجوافهم وذلك قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، ثم يغتسلون من الأخرى فتطيب أبشارهم، فعندها يقول لهم خزنتها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[2].

وجميع أهل الجنّة يُكسون ساعة دخولهم من لباس الجنّة، ويُحلّون من حُليّ الجنّة، وما فيهم أعزب[3]! ولا يكاد أحدٌ، بعد النبيين، يُعرف بحُلّته البهيّة إذا سار أو تنقّل في الجنّة كما يُعرف الشهيد في سبيل الله تعالى؛ لكرامته عند ربّه. وللشهداء في دار النعيم حُلل فريدة، يختالون بها كهيئة الملوك، ويتوّجون بتيجان الوقار.. الياقوتة المرصّعة منه خير من الدّنيا وما فيها؛ كرامةً لهم ورفعة لمنزلتهم. عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ستّ خصال: يُغفر له في أوّل دفعة، ويرى

---

(١) أخرجه البخاري، ج٥/ ص٢٣٩٤.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، (ج١٥/ ص٢٨٦).

(٣) جاء ذلك في حديث أبي هريرة رضي الله عنه خرجه الإمام مسلم، (ج٤/ ص٢١٧٨).



مقعده من الجنّة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمنُ من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاجُ الوقار.. الياقوتةُ منها خيرٌ من الدّنيا وما فيها، ويزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفعُ في سبعين من أقاربه»[1].

وأعظمُ ما يخالطُ قلوبَ أهلِ الجنّة إذا دخلوها شعورُ الأمن؛ حيث تظهر آثاره، وتلوح معالمه في كلّ شيء داخل هذه الدار الكريمة.. يجدونه في تسليم الملائكة، وتبشيرها لهم برضوان الله تعالى.. ويجدونه في توالي التُحَفِ، وتتابع العطايا والتكريم، كما يجدونه في السّلامة الخالدة من عذاب النار، وحجبهم عن أهوالها، وأحوال أهلها، ويجدونه في خطاب الله تعالى ورضاه الذي لا سخط عليهم بعده أبد الآباد، وفي كرمه سبحانه وتتابع فضله وعطاياه، كما يجدونه في كثرة النّعيم الباعث على الطمأنينة والهناء، والسعادة والفرح: ﴿لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾[سبأ: ٣٧].

فإذا استتمّ لساكن الجنّة هذا الاستقبال الكريم، وتقلّب في مقدّمات الرّفاه والنّعيم الذي أعدّه الله تعالى له في اللحظات الأولى من حياته الحقيقية الجديدة، واكتسى أجمل الثياب، ونهل من لذيذ الشراب، وتحلّى بُحليّ أهل الجنّة، على صورته الجديدة في البهاء والحسن، والطول والسنّ.. تحوّل من نُزُلِ التكريم ومراسم الحفاوة على أبواب الجنّة، وبدأ يقلّب ناظره في ملكوت النّعيم المقيم الذي سيخلد فيه، وهو من غمرة السعادة يرى أنّ خيمة من خيام الدّنيا، توضع له بقرب هذه الأبواب الضخمة في دار السعادة الأبدية يعدل كل نعيم الدّنيا، ويفي بكل حاجة

(١) أخرجه الترمذي في سننه، (ج٤/ ص١٨٧). وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب.

يطلبها الفؤاد!! وعُذر الآدمي حين يطلب الكَفاء بالقليل من النّعيم، أنّه يرى ما يستحيل عليه تخيّله، ويسمع ويبصر ما لا طاقة له بتحمّله، ولا يعلم حتى الآن ما له من الكرامة التي خبّأها له ربّه، وما ينتظره من النّعيم الأبديّ في بلاد الأفراح!!

أحقّاً هذه الجنّة؟!

هل انتهى كلّ شيء؟؟! أم بدأ منذ السّاعة كلّ شيء؟؟!

خواطر تدور في ذهن السّعيد وهو يقلّب بصره في بديع الأزهار، ويستنشقُ الطيب الممزوج بروائح الثمار، ويُرهِفُ سمعه للأصوات العذبة المنبعثة من خرير الأنهار، واهتزاز أوراق الأشجار، وتغريد الأطيار، وسلام الملائكة الأبرار.

وبينا هو منغمس في كنف النّعيم ظاهراً وباطنـًا إذ بغلمانه وخدمه يستأذنونه بأدب واحترام.. يحيّونه ويرحّبون به، ويهنئونه بسلامة القدوم.. قد أقبلوا من ممالكه وقصوره؛ ليرافقوه إلى نُزله الكريم الذي أعدّه الله تعالى له، ومعهم مَلَكٌ من ملائكة الرّحمن يستقبله، ويرافقه في مسيره إلى قصره المنيف الذي سينزل فيه، فيسير معه الملَك ويؤانسه، ويزيد من تعريفه بالممالك والنعيم، ويجيب على أسئلته.. وعند وصول السعيد إلى قصره يودّعه المَلَك ويتركه يدخل قصره. عن مقاتل ابن حيان قال: بلغنا أنّ المَلَك الموكل بحفظ بني آدم يمشي في الجنّةِ، ويتبعه ابن آدم، حتى يأتيه أقصى منزلٍ هو له، فيعرِّفه كلّ شيء أعطاه الله في الجنَّة، فإذا دخل إلى منزله



وأزواجه، انصرف الملك عنه[1]. وعن الضحاك قال: إذا دخل المؤمنُ الجنّةَ دخل أمامه مَلَكُ فأخذ به في سِككها، فيقولُ له: انظر.. ما ترى؟ قال: أرى أكثرَ قصوراً رأيتُها، من ذهب وفضّة، وأكثر أنيسٍ! فيقول له المَلك: فإنّ هذا أجمع لك. حتى إذا رُفع إليهم استقبلوه من كلّ باب، ومن كلّ مكان، يقولون: نحن لك. ثم يقول: أمش، فيقولُ ماذا ترى؟ فيقول: أرى أكثر عساكر رأيتُها.. من خيامٍ، وأكثرَ أنيسٍ. قيل: فإنّ هذا أجمع لك. فإذا رُفع إليهم استقبلوه فقالوا: نحن لك[2].

فمن أيّ شيء يعجب في هذه اللحظات الغالية؟! أمن حال التكريم الذي حظي به، بعد رحلة التعب والعناء؟ أمّ من حال المُلك الذي سينتقل إليه في دار البقاء؟ أمّ من حال غِلمانه وخدَمه الذين خلقهم الله تعالى له، بوافر الأدب وكمالات الجمال والبهاء؟! أم من النّعيم الذي أخبأه الله تعالى له في الممالك التي سيعيش في أكنافها أبد الآباد؟!!

وينطلق السعيد برحمة ربّه الكريم إلى مُلكه العظيم.. يحُفّ به خدمه وغلمانه، وهو في حال فرح وسرور، وسعادة وحُبور لم يشعر بها من قبل. ومن عجيب حاله، وهو في طريقه إلى قصره الكبير، أنّه يسير بهداية الله تعالى، ويجوز الحدائق والعيون، والأشجار والمروج بدون دليل.. عارفًا بها، كأنّما غادرها للتوّ!!

(١) حادي الأرواح، (ج١/ ص٩٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنّة، ص ٥٣.

تعريف الله تعالى الجنّةَ لأهلها:

إذا استتمّ للسعيد سلامة الباطن، واستتمّ له طيب الظاهر، وكُسي من ثياب الجنّة، وتطيّب من طيبها وحُليّها.. عرّفه ربّه من الجنّة بكلّ ما تقرّ عينه، وتزكو به إقامته، وهداه للذّوق الرفيع، والأدب البديع، والنظام الرّاقي الذي يناسب هذه الدار الجديدة، فإذا هو يعرف العربية.. لغة أهلها[1]، ويعرف الطريق إلى ممالكه الكثيرة، وإذا به يهتدي للأساليب الراقية في الحديث والتعامل، وطرق تناول الطعام والشراب، والذهاب والإياب، والنّزول والظعن في مرافق الجنّة وأماكنها وروضاتها؛ مصداقاً لقول الله جلّ جلاله عن أهل الجنّة حال دخولها: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾[2]. حتى

---

(١) أورد شارح النونية حديث انس بن مالك عند ابن أبي الدنيا، وفيه: (يدخل اهل الجنة الجنة على لسان محمد) وروي عن ابن عباس قال: لسان اهل الجنة عربي، وكذا قال الزهري، غير أنّ أسانيد هذا الأثر ضعيفة، والصحيح ما ورد فيها موقوفاً عن الزهري برواية إبراهيم بن سعد عنه (انظر: صفة الجنّة لابن أبي الدنيا، ص١٥٨، وشرح قصيدة ابن القيم، لأحمد بن إبراهيم عيسى، ج٢/ ص٤٨٨). وموارد إثبات اللسان العربي لأهل الجنّة يقوم بأدلّة أخرى.. نقلية غير مباشرة، وأخرى موقوفة، وثالثة عقلية؛ منها: شرف العربية في الدنيا على سائر اللغات، واتساق غناء نساء الجنة مع أوزانها، واستشهاد أهلها بنصوص لا تخرج في تركيبها عن اللسان العربي، كالقرآن الكريم والتسبيح، ونحو ذلك من الأدلّة التي يطول بسطها.

(٢) العجيب أنّ لفظ (التعريف) قد أصبح متداولاً بين أهل الدنيا، في هذا العصر خاصّة؛ للتعبير عن تشغيل برامجهم الصوتية والمرئية التي لا يمكن أن تعمل بدون ذلك التعريف. والملفات الحاسوبية قبل هذا التعريف تظلّ غامضة مبهمة حتى يتمّ تفعيل مشغّلاتها؛ فإذا بالحياة تدبّ فيها، وتتحدّد معالمها ثم تعمل بوضوح وصفاء!! ومن تعامل مع آلية تعريف البرامج الحاسوبيّة هذه أحرى من غيره بإدراك معنى التعريف عموماً، وإن غابت عنه كيفية هذا التعريف الخاص الذي يحدث على أبواب الجنّة، مما لا يعلمه إلا الله تعالى.. والذي تحلو بعده جميع الحقائق الغالية في الجنّة، وتظهر لذّاتها بكامل تفاصيلها.



إن الرجل ليأتي منزله في الجنّة، وهو أهدى به من منزله في الدنيا، لا يُشكل عليه. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يخلُص المؤمنون من النّار فيُحبسون على قنطرة بين الجنة والنّار، فيُقتصّ لبعضهم من بعضٍ مظالمَ كانت بينهم في الدّنيا، حتى إذا هُذّبوا ونُقّوا أُذِن لهم في دخول الجنّة، فوالذي نفس محمّد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنّة منه بمنزله كان في الدنيا»[1]. قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، لا يخطئون، كأنّهم سكّانها منذ خُلقوا، لا يستدلّون عنها أحدًا[2].

ولفظ التعريف عامّ، يشمل الجنّة كلّها؛ فهو أعرف بممالكه فيها، كما يعرف آداب سكناها وما أعدّ الله تعالى له من النّعيم، وبما تتطلّبه أساليب العيش الرّفيع للاستمتاع بلذّاتها!

وكما لا يدخل الجنّة عجوز ولا سقيم ولا مريض، فكذلك لا يدخلها فوضويّ في ذاته، ولا همجيّ في أسلوب تعامله، ولا سفيهٌ سليطُ اللسان، ولا متخلّفٌ لا يُحسن تناول الطعام والشراب، ولا يتذوّق الجمال الفريد في الخيام والقصور، والآنية والقناديل، والحليّ والثياب!! وأهل الجنّة، وإن بقيت لهم مشاعرهم ومحبوباتهم وقراباتهم إلا أنّهم في الحقيقة مبعوثون خلقًا جديداً، مغايراً لما كانوا عليه في دار الدّنيا.. البدائيّة في أساليبها وأذواقها وكلّ ما يتعلّق بها!!

وما في الجنّة شيء يحتاج للسؤال عن الأماكن واللذات، ولا للتدريب على الأساليب والهيئات بعد هذا التعريف العظيم من الرّب الرّحيم! وكلّ

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٣٩٤).

(٢) تفسير الطبري، (ج٢٦/ ص٤٤). قال محمد بن كعب: يعرفونها كما تعرفون بيوتكم في الدّنيا، إذا انصرفتم من يوم الجمعة. (حادي الأرواح ج١/ ص٩٩).

من يدخل الجنّة يهتدى بنفسه لممالكه، ويعرف طرق الاستمتاع بالنعيم الذي يشتهي. وكيف يحتاج السعيد إلى سؤال ملَك أو خادِم عن نُزُلٍ أو موضع في الجنّة هو أعرف به منه! وأنّى يطلب الدُّربة أو الهداية لبلوغ أسلوب أو طريقة يستمتع فيها بطعام أو شراب أو لباس، أو ممارسة هواية أو تنقّل في رياض الجنّة برّاً وجوّاً وبحراً.. وهو، بتعريف الله له، أهدى ممن سأله[1]؟!

---

(١) أرفع أهل الدّنيا ذوقـًا وخيالاً، سوى النّبيين والمرسلين، حاله في الجنّة كحال أعرابي منقطع في باديته، لا يعرف من أساليب الحضارة شيئـًا.. ثم دُعي للمبيت ليلة في أفخم فنادق الدّنيا ذات النّجوم الخمسة، أو ما سيأتي بعدها من نجوم فنادق الجيل القادم!! فإذا حضر بهيئته التي تناسب طبيعته، طُلب منه أن يمارس خصوصيات الإقامة والسكنى في هذا الفندق.. بأن يحجز غرفته بالتنسيق مع موظّف الاستقبال، ودفع العربون أو القيمة مقدّمـًا عن طريق بطاقة ائتمانية يستلمها ويطلب منه المحافظة عليها لأنّ نقوده (محشوّة) بداخلها! ثمّ يُطلب منه أن يرتقي لغرفته من خلال المصعد الكهربائي، ويخرج منه إلى الدّور الذي يقطن فيه، ويُدخل بطاقته الممغنطة في مكانها الصحيح المثبّت على بابها؛ ليتمكّن من دخول غرفته، ويضبط بعدها درجة الإضاءة والبرودة في حُجرته، بأرقام وعلامات ورموز مُتعارف عليها، ويُطلب منه أن يتعامل مع كلّ ما يحتاجه في الفندق من خلال الهاتف.. بأرقام محدّدة لكل خدمة، ومراعاة لأسلوب الطلب ابتداء، وتأكيده أو الشّكر عليه انتهاء.

فإذا قرصَهُ الجوعُ أو العطش ما عليه سوى النّظر في قائمة الطعام الموجودة في حجرته، وطلَبِ صنفٍ منه يعرفه ويشتهيه، أو يقدر على دفع تكاليفه حال الخروج، أو النزول بمفرده إلى قاعة الطعام في الفندق، حيث يُطلب منه أن يشارك النّزلاء بطريقة الذوق المتعارف عليها في هذه الأماكن!! بحيث يبتعد =



= عن استخدام يده في التقاط ما يستقذر النّاس التقاطه بعده!! واستخدام مغرفة الطعام للغرف من المشروب الساخن، واستعمال الأدوات المساعدة لالتقاط الحلو اللزج، وألا يضع هذا في مكان هذا بعد فراغه من تناول حاجته، وألا يخلط هذا بهذا في صحن واحد!! ثم يصبّ بعدها من الشراب المنوّع في ألوانه ومذاقاته.. ما يناسب ذوقه، لا بما يُغري عينيه، فيضع صحفة طعامه برفق، ثم يصبّ من الشراب في الكأس بأدب، أو يطلب من (الغُلام) أن يساعده. فإذا اختار ما يأكل وما يشرب ذهب إلى طاولة مناسبة، يراعي عند اختيارها ألا يزاحم خصوصيات غيره، وألا يجلس حيث لا يليق به، من أماكن الرّفعة أو الضعة في الفندق. ثم يضع طبقَ الطعام عن يساره، وكأسَ الشراب عن يمينه؛ ليسهُل عليه تناول هذا، والشّرب من هذا.

فإذا بدأ بتناول طعامه راعى الذّوق حال الشرب؛ فلا يرشفه بصوت يُسمع الجميع، ولا يهلّل أو يكبّر بصوت مرتفع بعد كلّ لقمة أو رشفة يتذوّق فيها طعم لذّة ما ذاق مثلها في حياته!! ولا يُكثر من عبارات الشّكر والعرفان للمشرف على سير العمل داخل المطعم ولا للخادم الذي يتقدّم إليه بابتسامة وأدب طالباً تحقيق أمنيّته، وتقديم المزيد الذي يشتهي! ولا يبادله الحوار الذي اعتاد عليه في محلّته البعيدة، من أنّه كلّفهم بمجيئه، أو يحلف له الأيمان المغلّظة أنّه لو علم بما صنعوا لأجله، وما كدّسوا من الصحون والأطعمة والأشربة.. ما حضر، ولا نزل الفندق، بل ما جاء للمدينة أصلاً! ولا يعزم على العامل الذي أتعب نفسه بخدمته بأن يجلس معه، ولا يُحرجه ولا يخبره بأنّ زوجته طالق إن لم يأكل من طعامه، وأنّه لا يذوق منه لقمة حتى يشاركه!! ثم يراعي استخدام الأدوات التي أمامه بأدب يراعي فيه نوع الطعام المعدّ لكلّ أداة!! ونحو ذلك من الذوق العام الذي تجب مراعاته مع كلّ حال من أحوال الإقامة!!

ولولا كرم الله تعالى وتعريفه السعداء بآداب الجنّة، وأماكنها، ونعيمها، ومناسباتها، وبالأساليب الرّفيعة عند التعامل مع لذاتها وأحوالها، لكان تصرّف أحدهم في =

ومع هذا التعريف بالجنّة في لحظات الدّخول الأولى تتزنُ العقول فلا تطيش، وتثبت القلوب وهي ترى مشاهد النّعيم العظيم الأخّاذ.. في جمال الدّار وبرودتها، وإضاءتها، وارتفاع أشجارها وقصورها، وتدفّق أنهارها، وتبقى آثار الانبهار عند مقارنة اللذّات والتنقّل من رغد إلى رغد، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٢٥].

وكرم الله تعالى سابق على بني آدم؛ فقد خلق آدم بيده، وعلّمه، وأمر الملائكة بالسجود له، وها هو يتفضّل على ذريّته فيعرّفهم الجنّة معرفة تفوق ساكنيها من الملائكة والحور والغلمان! ولولا ذلك لجاز لهم أن يضحكوا من حال أعراب الدّنيا اللذين لا يُحسنون حتى الاستواء على الأرائك إذا ارتفعت بهم للقاء الأصحاب، ولا يراعون الذّوق حال تناول الطعام والشّراب، ولا الأسلوب الرّفيع عند طلبهما!

ولكنّها رحمة الله تعالى بالوفد المكرمين من أوليائه المتّقين حيث عرّفهم وهداهم، وجعل لهم من المكانة والرّفعة في أعين الملائكة ما جعل لأبيهم عند الخلق الأوّل! حتى إنّهم ليبدأون من أوّل طلب، وأوّل تناول للطعام والشراب بإظهار كمالات الآداب ورفيع الأذواق، مع سهولة المعاشرة، وحسن التناول ما يحارُ منه الغلمان، وتعجبُ له الحورُ

= الجنّة أشد ضُحكة من هذا الأعرابي في الفندق المصنوع بأيد بشريّة ضعيفة، ومواد اسمنتيّة خاملة بشعة المنظر، لولا ما تزيّن به في الظاهر من الطلاء والألوان والأنوار!!



الحسان، ويزداد قدرهم عندهنّ، ومكانتهم في قلوبهنّ!! فكأنّهم، لشّدة معرفتهم بما في الجنّة، ما خُلقوا إلا فيها، مع أنّهم ما دخلوها إلا للتوّ!

وها هو آدم عليه الصلاة والسلام، والمتقون من بنيه يُظهرون أنّهم مُعلَّمون بالأسماء والممالك، معرّفون بكمالات الآداب والأذواق.. معرفة لا يحتاج معها أحد لسؤال الغلمان أو الملائكة أو الحور! يستوي الجميع في ذلك، حيث تظهر المعرفة، ويتجلّى الذوق الرّفيع من أهل القرون الأولى والأخرى.. في طريقة الأكل والنظام، وخفض الصوت وحسن الكلام، ومراعاة كل أسلوب جميل في الحديث والمحاورة، والسّكنى والمعاشرة.

وما في الجنّة من أخلاق رديئة تنافي الذوق والأدب؛ لأنّ كل مستقذر طبعًا وشرعًا مفقود، لا يعرفه السّعداء، وهو كالغلّ، من جملة ما نُزع منهم قبل دخول الجنّة.

ومن كان أمّيًا جافيًا، جهوَريّ الصّوت، شرس الطباع، لم يقف على أساليب الذوق التي يعرفها أهل الحاضرة في الأزمنة المتقدمة والمتأخّرة خاصة؛ ثم دخل الجنّة فإنّه يدخلها بكمالات أهلها.. خَلقًا وخُلُقًا، وذوقًا وأدبًا.

نعيمٌ متجدّد.. لا يفنى ولا يُملّ:

وليس مع هذا التعريف ملل ولا رتابة؛ فهو تعريف بواقع الحال وآدابه العامّة، لا بمستقبل النعيم الذي لا يعلمه إلا الله وحده؛ فللسعيد نعيم كثير يخفى ولا يُعرف، ولذّات باهرة لا تنفد ولا تبلى. والسّعيد لا يعمد لمقارنة النعيم المتجدّد في الجنّة بما كان عليه الحال في الدار

الوضيعة، وإنّما بما يجد من صنوف النّعيم في الجنّة ذاتها؛ فإذا تناول فاكهة ثم ذاق أختها، من الصنف ذاته ووجد الفرق في الطّعم بين الثمرتين قال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾، ولا يعمد ذهنه إلى تذكّر فاكهة الدنيا، التي لا وجه للمقارنة بها البتّة!

والمقارنة بين صنوف النّعيم في ذاته أعجب وأعجب، حتى إنّ السعيد ليجد الفرق بين طعم الثمرة وأختها من الشجرة الواحدة، بل في طعم الثمرة ذاتها ابتداء وانتهاء! وإذا نَزل منزلاً من ممالكه الكثيرة، ثم انتقل إلى غيره وجده على حالٍ بخلاف الأول! ثم لا يزال يتنقّل بين ممالكه أبد الآباد، حتى يشتاق لمنازله الأولى وزوجاته فيها لطول ما غاب عنهم.. في دار سعة متجدّدة لا حدّ لها! بل إنّ السعيد ليرى زوجته، والزوجة ترى حِبّها على صورة أجمل فأجمل كلّ أسبوع!!

ومن أجمل معاني التعريف في الجنّة انتقال كلّ سعيد إلى منزلته ودرجته التي لا يخطئها؛ فهذا يرتفع إلى الفردوس برحمة ربّه، وجزاء عمله في الدنيا، وذلك في منزلة أدنى منه، ولكلّ من الممالك والقصور، والخيام والحور ما يحصيه كتاب الله الجامع، الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة[1].

---

(١) هذا التنظيم الرفيع في نقل كلّ سعيد إلى منزلته، وترقيته إلى مرتبته من أظهر ما يكون في ساعات التكريم الأولى؛ فلكلّ سعيد ما يستحق من الدرجات والنعيم جراء عمله الصالح؛ ذلك أنّ للأعمال الصالحة منازل أخبر الله تعالى عنها؛ فالذين يرثون الفردوس، وأصحاب الغرفات، وأهل القرآن، ونحوهم، ينتقلون ويرتفعون بحسب وفائهم بالأعمال الصالحة المستلزمة لها، كلّ قد عُرفت درجته ومنزلته وما رُصِد له من النعيم! =



وبهذه المعرفة التامّة، وترقّب النّعيم المتجدّد ينطلق السعيد مشتاقـًا إلى أهله، ويغذّ السير إلى ممالكه، بدون قائد أو دليل، وكأنّه فارقها للتوّ! قد علاه السّرور، وأخذ بمجامع قلبه الحُبور؛ لما يرى ويسمع من النّعيم. وصدق أحكم الحاكمين: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة: ١٧]. وأحظى السعداء بهذه الكرامة والنعيم الذي يخفى: المخلصون الأخفياء، الذين ستروا أعمالهم عن أعين الخلق؛ طمعـًا في رضى الخالق سبحانه.

= وأهل الإدارة والحسابات في هذا العصر أحرى بأن يدركوا هذا المعنى ويفهموه أكثر من غيرهم؛ فمن استعرض التقارير السنوية للشركات التجارية الكبرى أبصر مقدار الدقّة في تنظيم الأعمال، وتحليل المعلومات، وتقييم الأفراد.. باستخدام وسائل العرض، من الخطوط والأعمدة البيانية، والرسوم الدائرية والمضلعات والمنحنيات التكرارية، واستخدام مقاييس النزعة المركزية أو مقاييس التشتت التي تضبط الأرقام والمتغيرات، وتحدد على وجه الدقّة نسبة المبيعات والمشتريات، ومن يُحرم من الموظفين ومن يكرّم، ومن يُعاتب ومن يُفضَّل ومن يُفصَل، وفيها مقارنة دقيقة بين درجات الأداء لجميع الموظفين، خلال ذلك العام والأعوام السابقة، ومستوى كلّ موظّف وراتبه ودرجته وسلّمه الوظيفي والعلاوة السنوية التي يستحقها فوق الراتب الأصلي، بحسب أيام الغياب ونسبة الإنجاز.. هذا وهم في دار الدنيا التي لا تساوي شيئًا في ميزان المفاضلة مع الجنّة.. دار العدل والوفاء، التي فُرِغ فيها من تحديد منازل السعيد وممالكه وخدمه من قبل ولادته في الدّنيا، بل من قبل أن تُوجد السماوات والأرض.. حين خلق اللهُ القلمَ وأمره أن يكتب مقادير كلّ شيء إلى قيام الساعة!! فتبارك الله العليمُ الخبير.

بهجة الاتساع:

السعيد في سيره إلى نُزُله الكريم يسبَح في عوالمِ الجمالِ والمتعة، والسعادة والبهجة، والرّفاه والاطمئنان، وهو يستشعر امتداد زمان الخلود، واتساع دار المقامة.. في تجدّد دائم، وتنوّع فريد لا يدركه الخيال.

والأنفس الدنيوية كثيراً ما آذاها الضيق.. في المساكن والمراكب، وفي الأوقات والرّغائب؛ لا يصلون إلى لذّة دنيوية هزيلة إلا بمنغّصات تكدّرها، ولا يمارسون مُتعة قصيرة فانية إلا في أضيق حدودها، ولا يحصلون عليها إلا بعد مقدمات التعب والخوف والترقّب، فإذا مارسوها زالت بهجتها، وانقضت متعتها، ثم لا تعود إلا بتلك المقدّمات.

والشعور بالراحة والهناء الذي يجده السعيد وهو يتجوّل في أرجاء الجنّة يتولّد من التأمّل في اتّساعها وارتفاعها، والتلذّذ بكثرةِ نعيمها وهدوئها، وجمال مناظرها، وطيب ريحها؛ فالجنّة ظليلةٌ، باردة طاهرة.. لا ينفَد نعيمُها، ولا ينضبُ ماؤها.. لا يمرضُ ساكنُها ولا يسقم، ولا يجوع ولا يهرم.. أهلها متلذّذون، منعّمون، مخدومون، وكلُّ ما يحيط بهم واسع، ممتد في الأفق لا يُبلغ مداه، متطاول رفيع لا يُدرك منتهاه! عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إنّ أدنى أهل الجنة منزلة من ينظر إلى مُلكه ألفي عام، يرى أقصاه كما يرى أدناه. وإنّ أفضل أهل الجنة منزلة من ينظر إلى وجه الله في كلّ يوم مرّتين[1].

ويكفي لبيان سعة الجنّة أنّ السماوات السبع والأرضين السبع إذا قُرِنت كلّها كما تُقرن الثياب بعضها، كان طولُها مجتمعة هو عرض الجنّة فقط!! فكيف الحال بطولها، مع أنّ الطول أكثر اتساعـًا؟! قال الله تعالى:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنّفه: ج٧/ ص٣٤.



﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[آل عمران: ١٣٣]. عن أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنّة مِائَةَ دَرَجَةٍ، لو أنّ الْعَالَمِينَ اجْتَمَعُوا في إِحْدَاهُنَّ لوسعتهم»[١].

ومن هنا فإن نعيم الجنّة يزداد بهجة ولذّة عند استحضار هذه السّعة والفُسحة[٢].. في الزمان، والمكان، والأعمال؛ فكل شيء في الجنّة كثير، متعدّد متجدّد، وكلّ موضع فيها واسع، تكمن به الراحة، وتطيب الإقامة، وتزداد اللذة. وسعة النعيم في بلاد الأفراح لا يمكن أن تدركه عقولنا، ولا تستوعبه مداركنا، ولذا احتجنا لضرب الأمثلة التقريبية التي تقرّب لنا سعة الأبواب، وتطاول الأشجار، وعظمة الثمار، ونحوها.

وقد جاء في وصف الجنّة بيان سعتها وذكر أحوال المتعة فيها بما يأسر القلوب ويحيّر العقول؛ فالجنّة على درجات ومنازل كثيرة، ما بين كلّ درجة والتي تليها كما بين السماء والأرض!! ودرجاتها لا يحصيها إلا الله وحده، منها مائة درجة، أعدّها سبحانه للمجاهدين في سبيله، وسواها من الدرجات كثير[٣].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، (ج٣/ ص٢٩)، وأخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٦٧٦)، وقال: هذا حديث غريب.

(٢) لا يمتنع في قدرة الله تعالى أن تكون الجنّة في توسّع وتمدّد دائم لا يتوقّف، وبخاصّة أنّ الله تعالى أخبرنا عن عرضها ولم يخبرنا عن طولها، مما يوحي بنوع اتّساع وتمدّد لا خطَر له، وإن كانت الجنّة كافية لكلّ نعيم، وافية بكلّ بهجة. وقد أخبر سبحانه عن شيء من ذلك في تمدّد سماء الدنيا، بقوله جلّ شأنه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، والله أعلم.

(٣) سيأتي الحديث عن هذه المسألة عند التفريق بين التخصيص العددي الذي يرد مورد الحصر، والتخصيص النّسبي لبيان عظمة النّعيم وكثرته، وعلى الثاني =

وأعلى هذه الدّرجات.. الفردوس، وهو وسط الجنّة وأعلاها، وقبّة سقفه عرش الرّحمن، ومنه تُفجّر أنهار الجنّة، ثمّ تسيل متدفّقة نازلة لسائر الدّرجات! فلا عجب بعد ذلك أن يأخذ نعيم الجنّة طابع السّعة والكثرة والتّجدد.. في ذاته ولذّاته.

وقد أخبر ﷺ أنّ في الجنّة شجرة باسقة، متطاولةً في جوّ السماء، محمّلة بالأوراق والثمار، وتتفرّع أغصانها لتظلّل المكان.. على امتداد الطريق، قال ﷺ: «إنَّ في الجنّة شجرة يسير الراكب في ظلّها مائة عامٍ لا يقطعها»، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾[1]. وقال ﷺ يصف باباً واحداً من أبواب الجنّة: «إنّ ما بين مصراعين من مصاريع الجنّة مسيرة أربعين سنة»[2]. والمائة عام أو الأربعين سنة، إنّما هي بمقياس أهل الدّنيا؛ ليتخيّلوا هذا الاتساع العظيم، وإلا فأي وجه للمقارنة بين ذرّة هباء في ملكوت الكون الواسع، تُدعى الكُرة الأرضية، وبين جنّة عظيمة تغطّى مساحتها، من جهة العرض فقط، السماوات والأرض مجتمعة!!

وكلّ ما في الجنّة عظيمُ القدر، كبير الحجم، إذا قارنّاه بعالم الدّنيا الصغير المتواضع؛ فالنّبق المتدلّي من سِدرةِ المنتهى له ورق كآذان الفيلة، وثمرته، التي لا تتعدّى في الدّنيا حبّة العنب، متوسطة الحجم، كأنّها قُلّة

= يخرّج حديث هذه الدرجات المائة في الجنّة، مقارنة بالأحاديث التي أخبرت عن الدرجات الأخرى التي لا تحصى كثرة، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه من قوله ﷺ: «يُقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنّة: اقرأ، واصعد. فيقرأ، ويصعدُ بكلّ آيةٍ درجة، حتى يقرأ آخر شيءٍ معه» (أخرجه ابن ماجه، ج٢/ ص١٢٤٢) ونحوه من الأحاديث.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٨٥١)، ومسلم، (ج٤/ ص٢١٧٥).

(٢) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص٢٢٧٨).



عظيمة من قِلال هَجَر[1]! وقِلال هَجَر مثلٌ تقريبي آخر لتوضيح الصّورة لأهل الدّنيا الذين كان يخاطبهم الوحي آنذاك، وهي جِرار ماء كبيرة، كان العرب يضربون بها المثل لِضخامة حجمها.

كثرة الأبواب والممالك!

وبالنظر في سعة الجنّة وعظمتها، فلا يبعُد أن يكون لها من الأبواب ما لا يعلمه إلا الله تعالى.. كثرة واتّساعًا، سوى الثمانية التي جاء بها الخبر! وإنّما ورد التخصيص بذكر هذه الثمانية لعظيم قدرها وسعتها، مقارنة بأبواب الجنّة الأخرى، وحالها كدرجات الجنّة الكثيرة، عدا تلك المائة التي أعدّها الله تعالى للمجاهدين في سبيله[2]. ولا يمنع في الدار الواسعة أن

---

(١) كما ورد في حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه عند البخاري، (ج٣/ ص١١٧٣).

(٢) للعلماء قولان مشهوران في المسألة؛ فأكثرهم على أنّ للجنّة ثمانية أبواب فقط؛ عملاً بظاهر الأحاديث، وذكر غيرهم أنّ لها من الأبواب أكثر من ذلك، وهو الرّاجح، والله أعلم، وممن نصر هذا القول: الإمام القرطبي رحمه الله (في كتابيه: الجامع لأحكام القرآن: ١٥ / ٢٨٦، والتذكرة، ص ٤٥٧)، كما عضد هذا القول ابن القيم رحمه الله في نونيّته، بقوله:

أبوابها حقّ ثمانية أتت ... في النّص وهي لصاحب الإحسان

بابُ الجهاد وذاك أعلاها وبا ... ب الصوم يدعي الباب بالريّان

ولكل سعي صالح بابٌ، وربّ ... السّعي منه داخلٌ بأمان

ولسوف يُدعى المرء من أبوابها ... جمعا إذا وفّى حُلى الإيمان

ومما يشهد على هذه الكثرة الروايات المخصّصة للأبواب الثمانية. ولا يجري على هذا التخصيص ما يجري على قاعدة الخصوص والعموم الأصولية التي يُلجأ إليها عند الترجيح بين المسائل المشكلة؛ لأنّ مساق التخصيص العددي يختلف عن مساق التخصيص النّسبيّ؛ فالأوّل للحصر والآخر لبيان المكانة =

= والأفضليّة أو نقيضها! فقول القائد: ما الجيش إلا هذه الكتيبة، يرد مورد الإعجاب والمقارنة، وإن كانت كتائب الجند أكثر من ذلك.

والقاعدة في التفريق بين التخصيص العددي والنسبي تظهر، والله أعلم، بالنّظر في الذات نفسها؛ فكلما كانت الذات، بصفاتها وأسمائها، عظيمة شريفة القدر، فريدة لا شبيه لها، فالأغلب أنّ التخصيص بجري فيها لبيان العظمة والمكانة، ما لم يرد فيه اللفظ العددي الحاصر.

وعلى هذا يدور الكلام في عدد أسماء الله الحسنى، وأسماء يوم القيامة، ودرجات الجنّة، ونحوها. وبه يمكننا تخريج مساق الخصوص الوارد في بعض أبواب الجنّة الكثيرة، وأنّه نسبيّ؛ لبيان الأفضلية والمكانة، لا للحصر، أيّ أنّها أبواب واسعة معلومة، من جملة الأبواب الكثيرة في الدّار العليّة.

ومن قواعد التفريق ورود التبعيض، وهو أظهرها، وعليه يخرّج حديث عبادة بن الصامت في الصحيح في قوله ﷺ: «من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ عيسى عبدالله وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وأنّ الجنّة حقّ، وأنّ النار حقّ، أدخله الله من أي أبواب الجنّة الثمانية شاء» أخرجه مسلم، (ج١/ ص٥٧).

وهذا تخصيص جرى مجرى التعريف بهذه الثّمانية، وأنّها بوّابات كبرى، لها شأنها من حيث السّعة والمكانة، ولا يمنع أن يكون بين كل بوّابة وأخرى أبواب أقلّ منها سعة وأكثر عدداً، يدخل منها المتّقون بحسب أعمالهم الصالحة الكثيرة التي عُرفوا بها في الدّنيا. ومما يؤكّد أنّ هذا الحديث جاء لبيان المكانة لا للحصر ما ورد في النصوص الأخرى التي تناولت الأبواب الثمانية بصيغة التنكير، وهو أصرح في بيان التبعيض ونفي الحصر والتّخصيص، منها حديث عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يتوضّأ فيُسبغ الوضوء ثم يقول عند فراغه من وضوئه: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله إلّا فتحت له ثمانية أبواب من الجنّة يدخل من أيها شاء» (أخرجه الحاكم في المستدرك، ج٢/ ص٤٣٣)، (والنسائي في الكبرى، ج١/ ص٩٤)، و(ابن ماجه، ج١/ ص١٥٩)، و(الترمذي، ج١/ ص٧٧)، كلّهم بهذا اللفظ.



تتعدّد أبوابها وتكثر درجاتها، وبخاصّة أنّ ألوان النّعيم في الجنّة جاء مقترنـًا بالأعمال الصالحة الموصلة إليها، وهي كثيرة متنوّعة؛ لكثرة شعب الإيمان؛ فناسبت هذه الكثرة كثرة مقابلة في صور النّعيم وتعدّده. وقد أخبر ﷺ عن باب الصّلاة، وباب الصوم، وباب الجهاد، وباب الصدقة، ولا يمنع ذلك وجود أبواب سواها لأصول أعمال صالحة أخرى، والله أعلم.

وثمار الجنّة كثيرة.. ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ ما إن تُقطف إحداها حتى تنمو أختُها مكانها. ولؤلؤة واحدة من الدّر الخالص مجوّفة من الداخل، على شكل خيمة جميلة أعدها الله تعالى لنزيل الجنّة.. تتطاول في السماء ستين ميلاً، وتمتدّ عرضًا سبعين ميلاً.. للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم، فلا يرى بعضهم بعضًا من سعتها وامتدادها[1].

ولا تعجب بعد ذلك إذا سمعت عن عظمة أجسام أهل الجنّة.. طولاً وعرضًا، وقوّةً واكتمالاً، وحِدّة حواسهم؛ لأنّها أجسام وحواس خلقها الله تعالى لتستمتع بالنّعيم الكثير.. المتعدّد في صنوفه وألوانه، وطعومه وأحجامه، المتجدّد على الدّوام في هذه الدار العليّة، قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنّ الرّجل منهم ليُعطى قوة مائة رجلٍ في الأكل والشرب والجماع والشهوة»[2].

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٨٤٩)، ومسلم، (ج٤/ ص٢١٨٢).

(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى، من حديث زيد بن أرقم، (ج٦/ ص٤٥٤) ومن تأمّل في بيئات الأرض بكائناتها وجد شواهد ذلك جليّة ظاهرة؛ فمخلوقات الصحراء جعل الله فيها القابليّة لحفظ الماء والصبر على شدّة الحرّ، وحيوانات الغابات المطيرة مكتنزة اللحم قويّة الحركة، ولمخلوقات القطبين فراء سميك =

ولمّا كانت الجنّة بهذه السّعة.. طولاً وعرضاً وتجدّداً فإنّها، بعد دخول أهلها واستقرارهم في ممالكهم الكثيرة تظلّ واسعة فسيحة على حالها.. كأنّ أحداً لم يسكنها!! فيُنشئ الله تعالى لها خلقاً من خلقه، يُسكنهم فضل الجنّة؛ ليسعد بهم أهلها. وهكذا هم بنو آدم.. يأنسون بالاجتماع والحركة والمجاورة. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «حاجّت الجنّة والنار، فقالت النار: أوثِرت بالمتكبّرين والمتجبرين؟ وقالت الجنّة: ما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم؟ قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنّما أنت عذابي أعذّب بك من أشاء من عبادي، ولكلّ واحدة منهما ملؤها، فأمّا النار فلا تمتلئ حتى يضع، الجبّار، رجله، فتقول: قطّ، قطّ، قط، فهنالك تمتلئ، ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحداً، وأمّا الجنّة فإنّ الله عزّ وجلّ يُنشئ لها خلقاً»[1]. والمؤمن إذا دخل الجنّة فإنّه يرث الكافر، ويحظى بكلّ ما له فيها لو أنّه أطاع الله تعالى.

وقد نال أهل الجنّة من هذه السعة حظّاً كبيراً، ومُلكاً عظيماً، يكفي لبيانه مقارنته بما أُعدّ لأدناهم منزلة، وأقلّهم ممالك، وهو آخرهم دخولاً الجنّة.. فإنّه إذا دخلها خُيّل إليه أنّها ملأى فيؤذَنُ له أن يسأل ما شاء من النّعيم، وربّه يجيبه، ويتحفه بالممالك والقصور، والغلمان والحور، والسَّعة والحبور ما لا يقدر على بلوغ مُنتهاه، ولا يحيط به كثرة واتّساعاً!!

= يقيها من الصقيع، وأسماك الأعماق تدرك ما حولها بحواس مرهفة تعوّضها حاسّة البصر، والإنسان في هذه البيئات له حظه من ذلك التنوّع والاختلاف.. فسبحان العليم الخبير!

(١) أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٨٣٦).



هذا وهو آخر أهل الجنّة دخولاً، وأقلّهم منزلة، فكيف بمن دخلها مُكرماً مع وفد المتقين؟! وما حال الأنبياء والمرسلين، والشهداء والصّالحين؟! قال ﷺ في شأن آخر السعداء: «ثم يأذن الله له في دخول الجنّة فيقول: تمنّ، فيتمنّى، حتى إذا انقطعت أمنيّته قال الله عز وجل: مِن كذا وكذا، أقبل يذكّره ربّه، حتى إذا انتهت به الأماني، قال الله تعالى: لك ذلك وعشرة أمثاله»[1].

وفي رواية: «إنّ آخر أهل الجنّة دخولاً الجنّة، وآخرُ أهلِ النّار خروجاً من النّار رجلٌ يخرج حبواً فيقول له ربه: ادخل الجنّة، فيقول: ربِّ الجنّة ملأى، فيقول له ذلك ثلاث مرات، فكلّ ذلك يُعيد عليه: الجنّة ملأى، فيقول: إنّ لك مثل الدّنيا عشر مرار»[2].

وقال ﷺ عنه: «فإذا خلُص، وقفَ عليها[3] ثم قال: الحمد لله، لقد أعطاني الله ما لم يُعطِ أحداً، أن نجّاني منها بعد إذ رأيْتُها! قال: فيُنطَلق به إلى غدير عندَ باب الجنّة فيغتسل، فيعودُ إليه ريح أهل الجنة وألوانهم، فيرى ما في الجنّة مِن خلال الباب، فيقول: ربّ أدخلني الجنّة. فيقول الله له: «أتسألُ الجنّة وقد نجيتك من النّار؟!» فيقول: ربّ اجعل بيني وبينها حِجاباً، لا أسمعُ حسيسها. قال: فيُدخلُ الجنّة، فيرى، أو يُرفع له منزل أمام ذلك، كأنّما هو إليه حُلُم. فيقول: ربّ أعطني ذلك المنزل! فيقول له: «فلعلّك إن أعطيتُكه، تسألُ غيرَه؟!» فيقول: لا، وعزّتك، لا أسألُك غيرَه، وأيّ منزلٍ يكونُ أحسن منه؟! قال: ويرى أو يُرفع له أمام ذلك منزلٌ آخر، كأنما هو

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة، (ج١/ ص٢٧٧).

(٢) أخرجه البخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، (ج٦/ ص٢٧٢٨).

(٣) أي: النّار.

إليه حُلُم، فيقول أعطني ذلك المنزل. فيقول الله جلّ جلاله: «فلعلّك إن أعطيتكه تسألُ غيرَه؟!» قال: لا، وعزّتك، لا أسألُ غيرَه، وأيّ منزلٍ يكونُ أحسن منه؟! قال: فيُعطاه، فينزِلَه، ثم يسكت، فيقول الله عزّ وجلّ: ما لك لا تسأل؟ فيقول: ربّ لقد سألتُك حتى استحييتُ، وأقسمتُ لك حتى استحييت، فيقول الله تعالى: ألا ترض أن أعطيكَ مثلُ الدنيا.. وعشرة أضعافه؟! فيقول: أتستهزئ بي وأنت ربُّ العِزَّة؟!» فضحك الرّب عزّ وجل من قوله.

قال مسروق: فرأيت عبد الله بن مسعود إذا بلغ هذا المكان من هذا الحديث ضحك، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، قد سمعتك تحدث هذا الحديث مراراً كلّما بلغتَ هذا المكان ضحكتَ! فقال: إنّي سمعت رسول الله ﷺ يحدّث هذا الحديث مراراً، كلما بَلَغَ هذا المكان من هذا الحديث ضحك حتى تبدو أضراسُه. قال: فيقولُ الرّبُّ عزّ وجلّ: «ولكنّي على ذلك قادر، سَل». فيقول: ألحقني بالناس. فيقول: الْحَقِ النّاس. قال: فَيَنْطَلِقُ يَرْمُلُ في الْجَنَّةِ، حتى إذا دَنَا مِنَ الناس رُفِعَ له قَصْرٌ من دُرَّةٍ، فَيَخِرُّ سَاجِدًا، فَيُقَالَ له: ارْفَعْ رَأْسَكَ، مالك؟ فيقول: «رأيتُ رَبِّي، أو تَرَاءَى لي رَبِّي. فَيُقَالُ له: إنما هو مَنْزِلٌ من مَنَازِلِكَ! ثُمَّ يَلْقَى رَجُلا فَيَتَهَيَّأُ لِلسُّجُودِ له، فَيُقَالَ له: مَهْ، مالك؟! فيقول: رأيت أَنَّكَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلائِكَةِ! فيقولُ: إنّما أنا خَازِنٌ من خُزَّانِكَ، عَبْدٌ من عَبِيدِكَ، تَحْتَ يَدِي أَلْفُ قَهْرَمَانٍ[1] على مِثْلِ ما أنا عليه. قال: فَيَنْطَلِقُ أَمَامَهُ حتى يَفْتَحَ له الْقَصْرَ، وهو في دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ، سَقَائِفُهَا وَأَبْوَابُهَا، وَأَغْلاقُهَا وَمَفَاتِيحُهَا منها، تَسْتَقْبِلُهُ جَوْهَرَةٌ خَضْرَاءُ، مُبَطَّنَةٌ

---

(١) القهرمان بلغة الفرس: الخازن والوكيل والحافظ لما تحت يده، والقائم بأمور الرجل. (النهاية في غريب الأثر ج٤/ ص ١٢٩).



بِحَمْرَاءَ، كُلُّ جَوْهَرَةٍ تُفْضِي إلى جَوْهَرَةٍ على غَيْرِ لَوْنِ الأُخْرَى، في كلّ جَوْهَرَةٍ سُرَرٌ وَأَزْوَاجٌ وَوَصَائِفُ، أَدْنَاهُنَّ حَوْرَاءُ عَيْنَاءُ عليها سَبْعُونَ حُلَّةً، يُرَى مُخُّ سَاقِهَا من وَرَاءِ حُلَلِهَا، كَبِدُهَا مِرْآتُهُ وَكَبِدُهُ مِرْآتُهَا، إذا أَعْرَضَ عنها إِعْرَاضَةً إزدادت في عَيْنِهِ سَبْعِينَ ضِعْفًا عَمَّا كانت قبل ذلك، وإذا أَعْرَضَتْ عنه إعراضه ازْدَادَ في عَيْنِهَا سَبْعِينَ ضِعْفًا عَمَّا كان قبل ذلك، فيقول لها: وَالله لَقَدِ ازْدَدْتِ في عَيْنِي سَبْعِينَ ضِعْفًا، وَتَقُولُ له: وَأَنْتَ وَالله لَقَدِ ازْدَدْتَ في عَيْنِي سَبْعِينَ ضِعْفًا! فَيُقَالُ له: أَشْرِفْ. قال: فَيُشْرِفُ فَيُقَالُ له: مُلْكُكَ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ، يَنْفُذُهُ بَصَرُهُ»[1].

وطلب هذا السعيد لا يتأثّر بهول المفاجأة، ولا تعقبه حسرة من التقصير، بل هو سؤال مع قدرة تامّة على معرفة الرغائب، يعقبه التمكين التامّ من حصول المطالب، ولذا قال سهل رحمه الله: إنّ أدنى أهل الجنة منزلة من يُقال له: «سَل»، فيسأل بلسان طَلِق، وعقلٍ: أعطني كذا، وأعطني كذا، فيُقال: لك هذا، ومثله معه[2].

والجنّة على جمالها وعظمتها، وحسنها وبهائها في أصل خِلقَتها.. دائمة التزيّن، كثيرة التجدّد في ذاتها ولذّاتها! ولها مواسم يزيّنها فيها الجليلُ سبحانه، ويبشّرها بقدوم عباده الصّالحين! فكيف وهم اليوم في كنفها، ينهلون من نعيمها، وينغمسون في رغدها؟! عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيان شرف الصّوم عند الله تعالى: «ويزيّن الله عزّ وجلّ كلّ يوم جنّته، ثمّ يقول: يُوشكُ عباديَ الصّالحون أن يُلقوا عنهمُ المؤنةَ والأذى، ويصيروا إليكِ»[3].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن عبدالله بن مسعود، (ج٩/ ص٣٥٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنّة، (ح٢٤٢/ ص١٧٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (ج٢/ ص٢٩٢) وله شواهد صحيحة.

والسّعداء بعد دخول الجنّة، والاستقرار في ممالكهم الوفيرة، والتعرّف على قصورهم وغُرفِهم الكثيرة، وبساتينهم الظليلة.. لا يحيطون بمباهج النّعيم الذي أعدّ لهم، وإن حصلت لهم المعرفة العامّة به أوّل مرّة؛ لأنّ نعيم الجنّة متجدّد في ذاته ولذّاته، ولا يقدرون على استغراق ما أُودع لهم فيه أبد الآباد؛ فما من لذّة إلا وتعقبها أخرى، ولا بهجة إلا تستغرق حواسّ السعيد وقلبَه طوال دهره.. في دار نعيمٍ مقيمٍ لا يزول، ومحلّة فَرَح لا تحول؟!

ولا يزداد السعيد مع هذه البهجة، وهذه السّعة والتجدّد إلا أنساً وسروراً.. وهو يستحضر مستقبل السّعادة، وطيب الإقامة في طريقه إلى مُلكه الخالد، وقصره المنيف، وأهله وغلمانه، وغُرفه وخيامه، ويتخيّل فوق ذلك ما أعدّ الله له من قُرّة العين التي لم تخطر على قلب بشر.

وهكذا يتواصل الحبور في ايّام السعيد الأولى بدار القرار.. حياة هانئة رغيدة، وبهجة متجدّدة أبد الآباد «لا يبصقون فيها ولا يمتخطون، ولا يتغوّطون، آنيتُهم فيها الذّهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرُهم الألوّة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يُرى مخّ سوقهما من وراء اللحم من الحُسن.. لا اختلاف بينهم ولا تباغض. قلوبهم قلب رجل واحد، يسبحون الله بكرة وعشيا»[(١)].. يتزاورون ويتواصلون، ويتنادمون أطيب المنادمة، ويسمعون من ربهم الرّحيم، ومن الملائكة الكرام، ومن زوجاتهم الحسان، ومن سائر الغلمان، ما يُقرّ أعينهم، رضىً ومحبّةً.. وسلاماً وبشارة.. نسأل الله الكريم من فضله.

---

(١) أخرجه البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه، (ج٣/ ص١١٨٣).



عَلَى ضِفَافِ الأنْهَارِ

الاستقبال العظيم داخل القصور قد استتمّ، والأهلون في هذه الساعات الخالدة يترقّبون من الشُرُفات، وعلى الأرائك، ينتظرون القادم من بلاد الدّنيا البعيدة. وبينا يحثّ السعيدُ الخُطى في مسيره الكريم، حيث النّزل الرّغيد.. إذا به يرى من جمال المناظر المبهجة على امتداد الطريق ما لم تر عينه، ولم تسمع أذناه، ولم يخطر على قلبه، كلّ شيء هنا يغريه، ويداعب حواسّه.. مشهدُ التربة المطيّبة والأشجار، والعيون والأنهار.

عبق التربة المِسْكيّة:

منظر العيون والأنهار، والتربة والأشجارِ من أجمل ما يأخذ بالأبصار في جنّات النّعيم؛ فتربة الجنّة من ماهيّة جديدة.. مكوّنة من المسك الأبيض الخالص والزعفران الحُرّ، ولبناتها من جواهر ثمينة. عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ سُئل عن الجنّة، ما بناؤها؟ قال: «لَبِنَةٌ من فضة ولَبِنَةٌ من ذهب، ومِلاطها[1] المسك الأذفر[2]، وحصباؤها[3] اللؤلؤ والياقوت، وتُربتها الزعفران. من دخلها ينعم ولا ييأس، ويخلُد ولا يموت. لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم»[4].

ويزداد جمال تربة الزعفران بلونها ورائحتها إذا خُلِطَتْ في بعض الأماكن بالمسك لتتحوّل معه إلى ماهيّة جديدة فريدة، لا يمكن للعقل البشريّ أن يتخيّل جمال رائحتها، وبهاء منظرها، قال ﷺ فيما أخبر عنه ليلة أسري به: «ثم أدخلت الجنَّة، فإذا فيها جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[5]. والجنابذ: قِباب اللؤلؤ المجوفّة[6]. وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول

---

(١) المِلاط: هو الطين الذي يكون بين اللبنتين، يعني طينتها المسك. (انظر: لسان العرب ج٧/ ص٤٠٦).

(٢) الأذفر: الرائحة الطيبة التي تكاد من شدّة فيحها وانتشارها تعمّ أرجاء المكان.

(٣) الحصباء: الحصى، واحدته حصبة، (لسان العرب ج١/ ص٣١٨).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، (ج٤/ ص٦٧٢).

(٥) متفق عليه من رواية أبي ذَرٍّ: أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١٢١٧)، ومسلم، (ج١/ ص١٤٨).

(٦) النهاية في غريب الأثر، (ج١/ ص٣٠٥) قال بن حجر: والجنابذ شِبهُ القِباب، واحدها: جُنبُذة، وهو ما ارتفع من البناء، فارسيّ معرّب، وأصله بلسانهم: =



الله ﷺ لابن صائد: «ما تربة الجنة؟» قال: درمكة بيضاء، مسكٌ يا أبا القاسم. قال: «صدقت»[1].

فهي تربة زعفرانية في أماكن، وتربة مسكيّة في أماكن، وتربة طينية من زعفران مخلوط بالمسك في أماكن أخرى، ومنها يتكون (المِلاط) وهو الطين الذي يُجعل بين لبنات الذهب والفضة في الحائط[2]؛ يشهد لذلك قوله ﷺ: «ترابها الزعفران، وطينها المسك»[3]، وفي رواية: «ملاطها المسك الأذفر، ترابها الزعفران، حصباؤها اللؤلؤ والياقوت»[4].

كما ورد أنّ أرض الجنّة (مرمرة)، والمرمر هو: الرّخام النّاعم الصقيل، فعن الزميل بن السماك أنه سأل ابن عباس رضي الله عنهما: ما أرض الجنة؟ قال: مرمرة بيضاء من فضة، كأنها مرآة. قال: ما نورها؟ قال: ما رأيتَ الساعةَ التي يكون فيها طلوع الشمس؟ فذلك نورها، إلا أنّه ليس فيها شمس ولا

= كُنبُذة، ويؤيّده ما رواه أنس قال: لمّا عُرج بالنبي ﷺ قال: أتيت على نهرٍ حافّتاه قِباب اللؤلؤ. (فتح الباري، ج١، ص٤٦٣).

(١) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص٢٢٤٣)، قال النووي: معناه أنّها في البياض درمكة، وفي الطيب مسك، والدرمك هو: الدقيق الحوّاري الخالص البياض. (شرح النووي على صحيح مسلم، (ج١٨/ ص٥٢).

(٢) بخلاف تربة الأرض التي تتغير بالماء والسوائل التي تختلط بها لتتحول إلى تربة طينية مؤذية بلونها ورائحتها، ومستنقعات تتجمّع فيها البكتيريا والحشرات المؤذية.

(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه (انظر: حلية الأولياء، ج٢/ ص٢٤٨).

(٤) من حديث بن عمر رضي الله عنهما (انظر: كنز العمال، ج١٤/ ص٢٠٨).

زمهرير. قال: فما أنهارها؟ أفي أخدود؟ قال: لا، ولكنّها تفيض على وجه الأرض، لا تفيض ههنا، ولا ههنا[1].

والجمع بين هذه الأوصاف لأرض الجنّة سهل ميسور؛ فأرضيّة القصور والخيام والمجالس الداخلية من رخام أبيض ناعم، وأمّا في الخارج، وفي المجالس العامّة لأهل الجنّة فتختلف التربة بحسب الأمكنة؛ ما بين تربة طينيّة على حوافّ الأنهار والبحيرات والعيون النضّاخة وأماكن تجمّع المياه، وتربة من المسك الخالص، ومن رمال المسك الأبيض النّاعم وتراب الزعفران الصافي أو المخلوط بالمسك الذي تتناثر على صفحته حبّات اللؤلؤ والياقوت، والله أعلم.

ومن جميل ما ورد في وصايا الأنبياء لطرق دخول الجنّة ما بلَغنا من سلام خليل الله إبراهيم ليلة التقى به نبيّنا محمّد ﷺ وهو في محلّه من السماء السابعة، مسندًا ظهره إلى البيت المعمور، فعن عبدالله بن مَسْعُود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقِيتُ إبراهيم لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فقال: يا محمّد أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ وَأَنَّ غِرَاسَهَا سُبْحَانَ الله، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، ولا إِلَهَ إلا الله، وَالله أَكْبَرُ»[2].

---

(١) انظر: (الدر المنثور، ج١/ ص٩٣)، وعزاه السيوطي إلى ابن أبي الدنيا، في صفة الجنة، وأبي الشيخ في العظمة.

(٢) أخرجه الترمذي، (ج٥/ ص٥١٠) قال المباركفوري في شرح الحديث: قيعان جمع قاع، وهي الأرض المستوية الخالية من الشجر، والغِراس ما يُغرَس أي: يستره ترابُ الأرض من نحو البذر لينبت بعد ذلك، وإذا كانت تلك التربة طيبة وماؤها عذبا كان الغراس أطيب، لا سيّما والغرسُ: الكلماتُ الطيّبات، وهنَّ =



تمايل الأغصان!

الشّجر في طريق السّعيد مدّ البصر! منه ما هو ممتدّ الظلال والأغصان، ومنه ما هو ملتفّ الأوراق والأفنان. تلك هي الأشجار الباسقة على ضفاف الأنهار، كما أخبر سبحانه.. مُدهامّة قاتمة شديدة الاخضرار من شدّة الرّي الذي أترعت به! ويا لهذا الاجتماع البديع بين اللونين الفريدين.. الأخضر البهيج الذي يكسو الأوراق، ويكلّل الأرجاء بتدرّجاته البديعة، والذّهب الخالص الذي يكسو ساق الشجر وأغصانه، وتتنوّع درجاته بين القتامة والنّصاعة!

وأيّ صورة بيانية يمكن أن تعبّر عن حقيقة ما يراه السعيد في طريقه: آكام ثمار نضيجة، مغطّاة بأوراق خضراء نضيرة، تهتزّ من أغصان ذهب، متفرّعة من ساق ذهب!! عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما في الجنّة شجرة الا وساقها من ذهب»[1].

وعلى امتداد الطريق تتهادى الأفنان، محمّلة بأجمل الأوراق، على كثرتها، وتداخلها وتشابكها، وتتدلّى منها الثمار النضيجة بأبهى الألوان، على اختلاف أنواع الفاكهة، وأحجامها وتناسق أشجارها.

مناظر تأخذ بالألباب!! هذه أشجار العنب والرّمان، وتلك ثمارها تتدلّى لكلّ طالب، وهما يختلفان تمامًا عن عنب الدّنيا ورمّانها. وتلك

=الباقيات الصالحات، والمعنى: أعلمهم بأنّ هذه الكلمات ونحوها، سببٌ لدخولِ قائلها الجنّة، ولكثرة أشجاره فيها؛ لأنّه كلما كرّرها نبت له أشجارٌ بعددها. (تحفة الأحوذي، ج٩/ ص٣٠٢).

(١) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٦٧١) وقال: هذا حديث حسن غريب.

أشجار السّدر والموز، وأشجار التفاح والأترج، وذاك النّخل بأشكاله وألوانه الجميلة، وهو ليس كنخل الدّنيا؛ فجذوعه من ذهب مموّه بزمرّد أخضر، وأصل سعَفه ذهبٌ أحمر، وثمرُه أمثال القِلال!! وليس في الجنّة من شجر الدّنيا وثمارها إلا الاسم، وبه يتذكّرها أهل الجنّة!! عن بن عباس رضي الله عنهما، في قوله عز وجل: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٌ وَرُمَّانٌ﴾، قال: «نخل الجنّة جذوعها زُمّردٌ أخضر، وكرانيفها ذهبٌ أحمر، وسَعَفُها كسوةٌ لأهل الجنّة. منها مقطعاتهم وحللهم، وثمرها أمثالُ القِلال، أشدّ بياضـًا من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزُّبد، وليس لها عجم»[(١)].

وممن يُكرمه الله تعالى بجِنان النخيل البديعة أبو الدحداح. وإفراده بهذه الكرامة رضي الله عنه دليل اختصاص دون سائر أهل الجنّة، وإن كان لهم فيها ما يشتهون، عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله، إنّ لفلانٍ نخلةً وإنما أقيمُ حائطي بها فأمره أن يُعطيني حتى أقيم حائطي بها، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أعطها إيّاه بنخلة في الجنة» فأبى، فاتاه أبو الدحداح فقال: بعني نخلتك بحائطي، ففعل، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنّي قد ابتعت النخلةَ بحائطي فاجعلها له فقد أعطيتُكَهَا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كم من عذقٍ رداحٍ لأبي الدحداح في الجنة» قالها مراراً. فأتى (أبو الدحداح) امرأته فقال: يا أمَّ الدّحداح أخرجي من الحائط، فإني قد بعته بنخلة في الجنة، فقالت: «ربح البيع»[(٢)].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، تفسير سورة الرحمن، (ج٢/ ص٥١٧)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) أصله في صحيح مسلم، (ج٢/ ص٦٦٥) ولفظه في الأحاديث المختارة، (ج٥/ ص٥٩).



ومن الشجر الذي يراه السّعيد على ضفّتي الأنهار وفي السهول الممتدّة: شجر جديد لا يعرفه أحد من السعداء، ولا عهد لهم به؛ لأنّه من شجر الجنّة الذي لا ينمو إلا في تربتها، ولا مثيل لها في الدّنيا.. حتى بالاسم.

وأشجار الجنّة على نوعين: نوع لا نعرفه البتّة، وآخر نعرفه بالاسم كالنخيل والأعناب، والتين والزيتون والرّمان. وقد جمع الله سبحانه هذين النّوعين في آية واحدة، قال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾[الرحمن: ٦٨] فأجمل ذكر الفاكهة، ثم فصّل بذكر صنفين معلومين ظاهرين عند أهل الحجاز خاصّة، ممن يخاطبهم السياق القرآني المنزّل: النّخل: فاكهة أهل المدينة، والرّمان: فاكهة أهل الطائف(١).

(١) القرآن الكريم كثيراً ما يخاطب العرب بأشياء يعرفونها في بيئتهم؛ ليقرّب لهم صوراً أخرى لا يعرفونها، وهي كائنة في غير بيئتهم أو في خارج أرضهم، ومن ذلك ذكر النّخل والعنب والرّمان، مدللاً على وجود فاكهة أخرى كثيرة لا يعرفونها، ألذّ طعماً وأطيب ريحاً وأكبر حجماً مما يعرفون، ومنه مخاطبتهم بالنّظر إلى الإبل والسماء والأرض، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]، وكلّها مما يحيط بهم في مقامهم وأسفارهم، مع أنّ الأرض فيها من الحيوانات ما هو أعجب من الإبل. ولما عدّد لهم نِعَمَه بالمراكب التي تنقلهم من مكان لآخر قال: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[النّحل: ٨]، أي: ما لا تعلمون من المراكب الحيوانية كالفيلة ونحوها، والمراكب الآلية البخارية والكهربائية والفضائية التي تكون فيمن بعدكم، مما هو أكثر زينة، وأهنأ مركباً مما تعلمون. وهكذا الأمر هنا، في حديث القرآن عن صنوف النّعيم في الجنّات؛ فذِكر صنوف الثمار التي يعرفونها، دليل على وجود =



وإلا فغير هاتين الثمرتين ألذّ لو كان التخصيص لبيان الأطيب مذاقـًا؛ بدليل أنّ العنب وغيره كان معروفـًا كذلك لهؤلاء وهؤلاء، وهو عزيز لذيذ لا يتوافر على الدوام كالتمر، وكان يُعرض على رسول الله ﷺ في منامه وفي صلاته تشويقـًا له ولأصحابه في الجنّة ونعيمها، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الصبح، فبينا هو في الصلاة مدّ يده ثمّ أخّرها، فلما فرغ من الصلاة قُلنا: يا رسول الله، رأيناك صنعتَ في صلاتك هذه ما لم تصنع فيما قبلها؟! فقال: «إنّي رأيت الجنّة عُرضت عليَّ، ورأيتُ فيها داليةً[1]، قُطُوفها دانية، حبُّها كالدُّبَّاء، فأردتُ أن أتناول منها، فأوحيَ إليها أن استأخري فاستأخَرَت، ثم عُرضت عليَّ النّارُ فيما بيني وبينكم، حتى رأيت ظِلّي وظِلّكم فأومأت إليكم أن استأخروا فأوحي إليَّ: أن أَقِرَّهم؛

= أصناف أخرى كثيرة، سواء في بيئات مجاورة لأرضهم كاليمن والشام وتركيا والعراق ونحوها، أو ما كان من ثمار البلاد البعيدة التي لا يعرفونها، ولا تخطر على بالهم!

ومما يدخل في الأنهار التي تجري في الجنّة: أنهار الماء والخمر والعسل، مما يعرفونه ويتذوّقونه، وهو دليل على وجود أصناف أخرى كثيرة لمشروبات لذيذة لا يعرفونها، من جنس تلك التي توجد خارج بيئاتهم، ولا يعرفونها، أو تلك التي تكون من بعدهم، ولا تخطر على بالهم.

(١) الدّالية: جمع دوال، وتُطلق على الفاكهة المعلقّة المترعة بالماء؛ فإذا كانت من النخل فهي العِذقُ المُدَلّى من البُسر.. أرطب أكل وألذّه، وإن كان من العنب، وهو المراد في الحديث، فهي القِطف المدلّى، وأخصّه العنب الأسود غير الحالك، وعناقيده أعظم العناقيد كلّها. (بتصرف من: النهاية في غريب الأثر، ج٢/ ص١٤١).



فإنك أسلمت وأسلموا، وهاجرت وهاجروا، وجاهدت وجاهدوا»(١).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: خسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فصلّى، قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئا في مقامك هذا، ثم رأيناك كففت! قال: «إنّي أريت الجنّة، فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»(٢).

وثمارُ الجنّة ليست كثمار الدّنيا.. بعيدة المنال؛ بل هي متدلّيةٌ، قريبةٌ من أهلها، أينما كانوا، كما وصفها خالقها جلّ جلاله بقوله: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾[الرحمن: ٥٤]، أي جناها دانٍ، سهل المنال، وقوله سبحانه: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾[الإنسان: ١٣]، أي: متى شاء أحدهم تناولها أمكنه ذلك.. في أي حال كان، من قيام أو قعود؛ فهو ما إن يشتهي ثمرة من الثمار، وينظر إليها نظر رغبة ولذّة حتى يتدلّى إليه غُصنُها، فيكون عند متناول يده، محمّلاً بأنضج الثمار وألذّها، يأخذ منه ما يشاء. فإذا تناوله عاد إلى مكانه(٣).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، (ج٣/ ص٢٠٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج١/ ص٢٦١)، ومسلم واللفظ له، (ج٢/ ص٦٢٦).

(٣) لا يُنكر أبداً هذا التذليل والتفاعل بين رغبات السعداء الدّاخلية، وثمار الجنّة المتدلّية على الأشجار، وطيرها السابحة في جوّ السّماء، وبعض عيونها وأنهارها الجارية، وبخاصة إذا علمنا أنّ ذلك عائد إلى قُدرة الله تعالى التي لا تضاهيها قدرة. والجنّة مخلوقة على غاية الحسن والجمال والإتقان، والفرق بين ما فيها وما في الدّنيا كالفرق بين الجنّة ذاتها وبين الدنيا. وكيف يعجب العقل القاصر والذهن المكدود وقد أرانا الله تعالى من آثار قدرته في هذه الدنيا ما يقرُب من =

= ذلك؟! فهذا جسم الإنسان الدنيوي الضعيف، فيه الكثير من هذا التفاعل الداخلي المُذهل، بين رغائب العقل والفؤاد وبين تجاوب الأعضاء، وبخاصة تلك التي تتحرك إراديـًا؛ فالواحد منا بمجرّد ظهور رغبته في إغلاق عينيه ترد إشارات الدماغ إلى العين بسرعة مذهلة فتنطبق العين، وهكذا لو أراد أن يحرّك يده، أو يتحكم في مضغ طعامه وإطباق فمه، أو تحريك قدمه أو لسانه، أو إخراج فضلاته. وكذا سائر عضلاته الإرادية الأخرى من جسمه. ولو أنّ رجلا آليـًا، من صُنع البشر أنفسهم أُذن له أن يتكلّم ساعة لقال: سبحان الخلّاق العليم الذي جعل لهذا الآدمي كلّ هذه القدرات، وهذا التفاعل بين أعضائه؛ فهو يتكلّم ويتحرّك ويفعل ما يشاء بمجرّد رغبة داخلية، تتفاعل معها حركة رشيقة لأنسجته الرقيقة، وشعيراته الدقيقة التي تجري فيها الدماء كما تجري في أسلاك الكهرباء! يا ليتني كنت مثله! وبمثله يقول القادم من بادية الدنيا لو أذن له بالكلام حين يرى الجنّة أوّل مرّة!

بل إنّ من مظاهر التقدم العلمي المعاصر ما لا يخطر على عقل الأعرابي الذي يعيش بين إبله وغنمه في أكناف الصحراء، فهذا هو جهاز التحكم من بُعد، يمكنه أن يُحرّك الأجسام الثقيلة، ويفتح الأبواب المغلقة المنيعة، ويُنير المدن الكاملة بالضوء ويغمرها بالبرودة أو الحرارة، مع أنّه جهاز ضئيل، لا يخرج منه سوى شعاع أحمر دقيق، لا تكاد العين المجرّدة تراه. وما في الجنّة من أمثال هذا التفاعل العجيب بين الرغبات المعنوية، والحقائق المشاهدة الحسّية أرقى وأكمل، وأحسن وأتقن.. تتجاوب معه أغصان الأشجار المحمّلة بأشهى الثمار، فتتهادى حتى تصلّ ليد السعيد من أهل الجنّة أو فمه، وتتفاعل معه الطير المكتنزة باللحم وهي تسبح في الفضاء.

على أنّ هذه الرغبة لأهل الجنّة في تذليل هذا النوع من الطعام الشهيّ ليست لها قدرة مطلقة، فهم لا يصلون بها إلى تحريك الساكن الراسخ كالقصور والخيام، أو التحكّم في حركة الدائم الذي يجري كالأنهار! وما ورد هذا التجاوب مع =



وهذه الطريقة المحبّبة في تناول الثمار نعيم زائد، ولذّة من جملة اللذات التي يجدها أهل الجنّة حال الأكل، ويتداخل فيها اللون البهيج، بالرائحة الزكيّة، والمذاق الشهيّ.. ولذّات أخرى تقترن معها لا يعلمها إلا الله. قال سبحانه، يصف الجنّة وثمارها: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾[الحاقة: ٢٢ - ٢٣]. فتأمّل هذا التقابل البديع بين: علوّ الجنّة، ودنوّ جناها!! والقطوف لا تكون دانية إلا إذا كانت الأغصان محمّلة بالثمار، مذلّلة سهلة المنال، بما يوافق أحوال السّعداء، على الحال التي يكونون عليها، وهم يمارسون لذّاتهم.. قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم؛ جزاء قيامهم في الدّنيا بذكر الله تعالى على تلك الأحوال، قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾[الإنسان: ١٤].

وما هو إلا أن يشتهي السّعيد ثمرة من الثمار حتى تتجاوب معه أغصانها؛ فإذا قام ارتفعت على قَدْرِه، وإن قعد أو اضطجع تدلّت حتى ينالها بيده أو بفمه، بحسب هيئته ورغبته، فهي مذلّلة له.. متى شاء، على أي حال شاء، لأي صنف يختار من صنوف الفاكهة الشهيّة. قال الله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾[الواقعة: ٢٠].

= رغبات السّعداء في نصوص الشرع إلا في أصناف محدّدة من المطعومات والمشروبات، ونوع أو اثنين من العيون، ورغبتهم في الطيّر مشوياً على طبق، لا تتجاوزه ليحصل التأثير على الملائكة الكرام، مثلا، والتذليل الذي ورد للثمار الشهية، بتدلّي أغصانها، لا يتعدّى إلى الأشجار في جذورها، فهي تظلّ راسخة ثابتة في أصولها، لا تتحرّك إلا بقدرة الله تعالى وحده، وإنّما يتفاعل من الجنّة أصناف بعينها، جعلها الله تعالى قابلة لذلك؛ إسعاداً لأهل الجنّة وإبهاجهم، وإضفاء لنعيم فوق النّعيم، ولذّة ورغد لا عهد لهم بها.

الأشجارُ والفاكهة.. طعومها وألوانها!

أشجار الجنّة في كلّ مكان.. في السّهول الغناء، وعلى ضفاف الأنهار، وبداخل حدائق القصور، منها الغابات الكثيفة ومنها الآحاد الفريدة، وهي على كثرتها: غنّاء.. كثيفة الأوراق، مُثقلة بالفاكهة النّضيجة! ويكفي لبيان شرف الجنّة أنّ ثمار الدنيا هذه عيّنات قليلة من أشجارها الكثيرة المتنوعة؛ فعن أبي موسى الأشعري قال: إن الله لمّا أخرج آدم من الجنة زوّده من ثمار الجنة، وعلّمه صنعة كل شيء، فثماركم هذه من ثمار الجنّة غير أن هذه تغيّر وتلك لا تغيّر[1].

وفاكهة الجنّة ليس بداخلها نوى، كثمار الدّنيا، وهي على كثرتها وحسنها، متنوّعة الألوان والأحجام، يتنعّم السعداء بمنظرها: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، على مختلف الأصناف والأشكال، وبما يناسب هيئات أهل الجنّة وأحجامهم. عن عتبة بن عبد السلمي قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ: «فسأله عن الحوض، وذَكَر الجنّة، ثم قال الأعرابي: فيها فاكهة؟ قال: «نعم، وفيها شجرة تدعى طوبى» قال: أيّ شجر أرضنا تشبه؟ قال: «ليست تشبه شيئًا من شجر أرضك» ثم قال: «أتيت الشام؟» فقال: لا، قال: «تشبه شجرة بالشام تُدعى الجوزة، تنبت على ساق واحد، وينفرش أعلاها» قال: ما عِظم أصلها؟ قال: «لو ارتَحَلَت جَذَعةٌ من إبل أهلك ما أحاطت بأصلها حتى تنكسر ترقوتها هرمـًا»، قال: فيها عنب؟ قال: «نعم» قال: فما عِظَمُ العنقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع، ولا يفتُر» قال: فما عِظمُ الحبَّة؟

---

(١) هذا الأثر صححه الحاكم موقوفًا، في مستدركه، (ج٢/ ص٥٩٢)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأخرجه الخطيب في تاريخ مدينة دمشق، (ج٧/ ص٤٣٨).



قال: «هل ذبح أبوك تيساً مِن غَنَمِه قَطُّ عظيماً؟» قال: نعم. قال: «فسلخ إهابه فأعطاه أمّك، قال: اتخذي لنا منه دلواً؟» قال: نعم. قال الأعرابي: فان تلك الحبّة لتشبعني وأهلَ بيتي! قال: «نعم، وعامّة عشيرتك»[1].

وفاكهة الجنّة ليست كفاكهة الدّنيا التي يعتريها التغيّر ويدبّ إليها العَطَب من طول البقاء على الأغصان، أو فوق الأطباق، ولا يتمكّن أهلها من الاحتفاظ بها إلا بعد معالجتها بوسائل التبريد أو التجفيف أو التخليل!! بل هي فاكهة نقيّة، طازجة لذيذة أبد الآباد.. امتدّت إليها الأيدي، أو بقيت معلّقة في أكنانها، ولا يزيدها طول البقاء إلا نقاء ولذّة ونضارة؛ فالجنّة دارُ الطِّيبِ الخالص، محفوفة بكلّ بهيج متجدّد، مطهّرة من كلّ عارض يؤثّر على ذات النّعيم وصفاته.

والمنظر الفريد لهذه الأشجار على جنبات الطريق، وفي البساتين الخاصّة داخل القصور يتداخل، بثماره النّضيدة، وألوانه الزّاهية المحبّبة، مع خضرة المكان، وحركة الأوراق، وانسياب الماء الرّقراق بصوته الهادئ؛ ليبعث بهجة للعين، وهدوءً وانشراحاً للقلب، وأنساً لا يمكن تخيّله!!

تلك أشجارُ الموز.. منضود ثمرها، ومتراكم[2] بعضه فوق بعض، من أعلاه إلى أسفله، حتى لا تكاد ساق شجرته تبين، وهذه أشجار (السّدر)،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، (ج٤/ ص١٨٣).

(٢) قول أكثر المفسرين أنّ معنى (الطلح): الموز، وهو قول عليّ وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد. وقالت طائفة: بل الطّلح شجر عِظام طوال من البوادي، كثير الشوك، وله رائحة طيّبة وظلّ ظليل. (شرح قصيدة ابن القيم، أحمد عيسى، ج٢/ ص٥١٢).

وهو (النبق) المعروف في الدنيا، ليس لها منه إلا الاسم.. ثمره مخضودٌ، أي مقطوع منزوع الشوك.. قد جُعل مكان كلّ شوكةٍ ثمرة لذيذة المذاق. وفي كلّ شجرة من أشجار السّدر ثمر كثير، وفي كل ثمرة طعم لذيذ يختلف في مذاقه وحلاوته عن الطّعم في الثّمرة الأخرى.. ما فيها طعم يشبه الآخر.

وهكذا سائر أشجار الجنّة وثمارها مما لم يعرفه العرب في بيئاتهم. عن عتبة بن عبد السلمي قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ، فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله، أسمعك تذكر في الجنّة شجرة، لا أعلم في الدنيا شجرةً أكثرَ شوكاً منها!! يعني الطّلح. فقال رسول الله ﷺ: «فإنّ الله يجعلُ مكان كلّ شوكة مثل خِصية التيس الملبود[1]، فيها سبعون لوناً من الطعام، لا يُشبه لونُه لونَ الآخر»[2].

ولأنّ ضياء الجنّة واحد؛ حيث لا شمس فيها ولا قمر، فإنّ ظلال الأشجار لا يتقلّص، بل هو ممدود دائم، قال الله تعالى: «وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ»، وقال سبحانه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾[الرّعد: ٣٥].

ومنظر الظّلال من أجمل ما يبهج أهل الجنّة، وهم يسيرون تحتها، وتربة المسك الأذفر تعبق من تحتهم.. وتتهادى عليهم أنغام الأوراق من فوقهم؛ لتفيض على المجالس أنساً وسروراً!! فيالها من بهجة للسامعين، ومتعة للناظرين!

---

(١) الملبود: مكتنز اللحم الذي لزم بعضه بعضاً فتلبّد. (النهاية في غريب الأثر، ج٤/ ص٢٢٥). وضرب رسول الله ﷺ هذا المثل للأعرابي ليقرّب له الصّورة بشيء مشاهد يعرفه في بيئته.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسند الشاميين، (ج١/ ص٢٨٢).



وقد وصف رسول الله ﷺ طول شجرةٍ واحدةٍ من أشجار الجنّة بوصف يُظهر سعة بلاد الأفراح، وعظيم أشجارها، وكثرة خيراتها، فعن أبي سعيد رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «إنّ في الجنّة لشجرةً يسيرُ الرّاكبُ الجوادُ المُضمّر السريعُ مائة عامٍ، ما يقطعها»[1]. فإذا كان هذا الطّول العظيم للظلّ الممدود الذي لا يقدر على بلوغ منتهاه جوادٌ مضمّر سريع، يظلّ يركض بكلّ قواه مائة عام! فما حال الشجرة ذاتها، في أغصانها وثمارها وأوراقها، وفي طولها وعرضها واتّساع ظلّها؟!

والحديث عن الظلّ الممدود مقترن بالأشجار الأحادية العظيمة، المنفردة بذاتها عن أشجار الغابات الكثيفة المتداخلة. ولظلّ هذا الصّنف من الأشجار مُتعته الخاصّة، فهو مكان جميل تختلط فيه خضرة المكان من تحت أقدام أهل الجنّة، مع سعة المروج من حولهم، بجمال حفيف الأوراق، والتفاف الأغصان وتغريد العصافير من فوقهم، وجريان الماء الرقراق الذي يتخلّل جذع الشجرة، ولذا فهو محلّ اجتماع السّعداء، بمجالسهم الفارهة الكثيرة الوفيرة، التي يتمتعون فيها باللقاء والحديث، وممارسة ما يشتهون من اللهو والرّياضات والمتع. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الظلّ الممدود: شجرة في الجنّة على ساق، قدر ما يسير الراكب الُمجِدّ في ظلّها مائة عامٍ من كلّ نواحيها، فيخرج أهل الجنّة يتحدّثون في ظلّها، فيشتهي بعضهم اللهو، فيُرسل الله ريحاً فيحرّك تلك الشجرة بكلّ لهوٍ كان في الدّنيا[2].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٣٩٨)، ومسلم، (ج٤/ ص٢١٧٥).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في صفة الجنّة، (فتح الباري ج٦/ ص٣٢٧).
وقِلال هَجَر: جرار ماء عظيمة، يضرب العرب بها المثل في كثرة مائها.

والطّير في الجنّة على أنواع وألوان فريدة، وهي تملأ المكان، بأصواتها الجميلة وأشكالها المحبّبة.. دائمة الحركة والطيران.. تسرح فوق الأغصان، وتغيب داخل الأشجار الكثيفة، وتتجمّع فوق العيون، وعلى ضفاف الأنهار. ومن عجيب أمرها أنّها قريبة من أهل الجنّة، سريعة الاستجابة لهم، والاقتراب منهم، بخلاف طيور الدّنيا النّافرة لأدنى حركة!

سِدرة المنتهى:

ومن أشجار الجنّة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم (سدرة المنتهى)، وهي شجرة فريدة مُباركة لا مثيل لها في الدّنيا، رآها النبي ﷺ ليلة المعراج ثم وصفها، فقال: «رُفعت لي سِدرة المنتهى، فإذا نِبقها كأنّه قِلالُ هَجَر، وورقها كأنه آذانُ الفيول. في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان، ونهران ظاهران. فسألت جبريل، فقال: أمّا الباطنان ففي الجنّة، وأما الظاهران النيل والفرات»[1].

ويحفّ بهذه الشجرة ما لم تر عين من المناظر البهيجة، وبخاصة إذا غشيها نور الرّب جلّ جلاله[2]؛ ومنها منظرُ فراشات الذّهب[3] الجميلة التي تطير معًا بشكل بديع لا يعلم حسنه إلا الله وحده، وتنعكس من هذه الشجرة أنوارٌ وألوانٌ غاية في الجمال، لم يقدر النبي ﷺ على وصفها ليلة الإسراء والمعراج. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما أسري برسول الله ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري، من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنهما، (ج٣/ ص١٧٣).

(٢) تفسير ابن كثير، (ج٤/ ص٢٥٣).

(٣) أخرجه مسلم، (ج١/ ص١٥٧).



انتهى إلى السّدرة، فقيل له: إنّ هذه السِّدرة، فغشيها نورُ الخلّاق، وغشيتها الملائكةُ مثل الغربان حين يقعن على الشّجر[1].

ويا لهذا المنظر الفريد، والمشهد البهيج الذي وصفه الله تعالى، في سياق الإخبار عن معراج خليله ﷺ إليه، ودنوّه منه، هناك.. فوق السماوات العلى، حيث لم تطأ قدم ولم يخفق جَناح، قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[النّجم: ١١ - ١٨]. ويكفي هذه الشجرة شرفًا، بين أشجار الجنّة، وصفُ الله تعالى لها ببيان عظمتها، وارتفاعها وحسن منظرها.

وقد سُمّيت سدرة المنتهى؛ لأنها بمثابة العلامة التي يقف عندها أمين الوحي جبريل وكلّ مَلَكٍ مقرّب، فينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها الوحي من الله تعالى. فهي محلّة الأرواح الزكيّة، ومستقرّ الكلمات العليّة، ومنتهى الآمال الرّضيّة[2].

وهكذا كلّ شيء يقرُب من الله تعالى حِسّـًا ومعنى، قولاً وعملاً.. حالاً وعرَضًا، بشراً وملكًا وشجراً: شريفٌ بقدر ذلك القرب، رفيع بقدر ذلك الدّنو؛ ولهذا كان كلّ من اجتمع في تلك الليلة الشريفة، في ذلك

---

(١) تفسير ابن كثير، (ج٤/ ص٢٥٣).

(٢) لما عُرج برسول الله، وبلغ هذه المنزلة الرفيعة.. رأى جبريل عليه السلام على صورته التي خلقه الله تعالى عليها. وهناك رأى (جنّة المأوى)، عند هذه الشجرة الكريمة.. سدرة المنتهى.

المكان المقدّس، يمثّل أشرف أفراد جنسه على الإطلاق؛ فسدرة المنتهى أشرف جنس الأشجار كلّها، ومحمّد ﷺ أشرف بشر في جنس بني آدم كلّهم[1]، وجبريل أشرفُ جنس الملائكة كلّهم، وجنّة المأوى أشرف البقاع والمحلّات على الإطلاق.. وما ذاك إلا لقربهم من الله تعالى، قُربًا لم يحظ به غيرهم من أجناسهم. وبهذا تكون جنّة المأوى وجنّة الفردوس أشرف منازل الجنّة الرفيعة، بل هما أعلى أماكنها.. فوق السماء السابعة.. وقد جمعتا كلّ نعيم، وأصبحتا محلًّا تنتهي إليه الأماني، وتأوي إليهما الإرادات والرغبات، نسأل الله الكريم من فضله.

وفي وصف الله تعالى للحال التي رآها النبي ﷺ في هذه الشجرة المباركة مزيد تعريفٍ بها؛ فقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾، يفيد الفجائية في حصول هذا الأمر، أي: غشاها في تلك الساعة ما يغشى، أو يفيد التعبير عن الحال الملازم لها، الذي لا يفارقها حال ورود الوحي من الله تعالى.

---

(١) في آيات النّجم هذه مبحث يحسن استخراجه لبيان فضل نبي الله محمّد ﷺ؛ إذ يكفي لإظهار شرفه ثناء الله تعالى عليه.. بوصف أدبه وطريقة نظره لما حوله، بين يدي ربّه عزّ وجلّ في تلك الليلة الشريفة، التي تزيغ فيها الأبصار وتطيش فيها العقول والألباب، ويختلّ نظام الوجدان في النفس البشرية الضعيفة، لولا تثبيت الله تعالى لها. قال سبحانه مزكّيًا نبيه ومظهراً شرفه: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ أي: ما تحرّك نظره خلسة يمنة ولا يسرة عن مقصوده، ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: ما تجاوز حدود أدبه مع ربّه في ذلك المقام الذي أقامه إيّاه؛ فما تجاوز بجسده مكانه الذي أنزله إيّاه، وما حاد عنه ببصره، في موطن يسلب العين ما يسلبها، ويأسرها ما يأسرها، وهذا أدب جمّ فاق فيه الأولين والآخرين؛ لأن الإخلال إنّما يكون بأحد هذين الأمرين: أن لا يقوم العبد بما أُمِر به فيزيغ، أو أن يقوم به على وجه التفريط فيطغى، وكلتيهما منفيّتين عنه.



وهذا الذي يغشى السدرة لا منتهى لوصفه، ولا علم لأحد به سوى الله تعالى، حتى إنّ رسول الله ﷺ لم يدر ما هو!! مع أنّه رآه بعينه الباصرة في تلك الليلة، قال ﷺ: «ثم انطُلِق بي حتى انتُهي بي إلى سدرة المنتهى، وغشيها ألوانٌ، لا أدري ما هي، ثم أُدخلت الجنّة فإذا فيها حبائلُ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[1]. وفي رواية: «فلما غشّيها من أمر الله ما غشيها، تغيّرت، فما أحدٌ من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها»[2]. وعن أسماء ابنة أبي بكر أنها سمعت رسول الله ﷺ يصف سدرة المنتهى فقال: «يسير الراكب في ظل الفَنَن مائة سنة، أو يستظلّ في الفنن مائة راكب، فيها فَراشٌ من ذهب، كأن ثمرها القلال»[3].

وقوله ﷺ: «ثم أُدخلت الجنّة» يفيد أنّ هذا الموضع غير متاحِ الدّخول لكلّ أحد، إلا بإذن الله تعالى، على وجه مخصوص لا يعلمه إلا هو سبحانه، وأنّه وإن كان من الجنّة إلا أنّه موضع رفيع فيها، وليس قريباً قُرباً يتيسّر الوصول إليه على الوجه المعتاد في المكان الواحد، ذي الأرجاء والمحلّات المخصوصة» والله أعلم.

وشجرة (طوبى) من أشجار الجنّة كذلك.. نبتت في تربتها، ولا شبيه لها في أشجار الدّنيا. ولهذه الشّجرة خصوصية فريدة؛ فهي من أشجار الجنّة الباسقة المتطاولة بأغصانها وأوراقها وظلالها، وثيابُ أهل الجنّة

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك، (ج١/ ص١٣٥)، ومسلم، (ج١/ ص١٤٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، من حديث أنس، (ج٣/ ص١٤٨).

(٣) تاريخ مدينة دمشق، (ج٥١/ ص١٨٧).

كلّهم تُستخرج من أكمامها النّاعمة[١]. عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أنّه قال له رجل: يا رسول الله، ما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنّة مسيرة مئة سنة، ثيابُ أهل الجنة تخرج من أكمامها»[٢]. وعن جابر رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ثيابنا في الجنة ننسجها بأيدينا؟ فضحك القوم، فقال رسول الله ﷺ: «ممّ تضحكون؟! من جاهلٍ يسألُ عالماً؟! لا يا أعرابي، ولكنّها تشقّق عنها ثمارُ الجنة»[٣].

جمالُ الألوان:

السّعيد برحمة ربه يحثّ الخُطا إلى أهله، وكلّ شيء حوله تعلوه البهجة والجمال، ويداعب حواسّه كلّها، ولا يزداد امتداد الطريق إلا نضارة وبهاء. ولولا الشوق الذي يهيّجه للقاء الأحبّة ورؤية ملكه الكبير، لكفاه من النّعيم أن يجلس في أي مكان.. هنا أو هناك، في ظلال الأشجار؛ ليمتّع ناظره بنعيمها، ويقطف من نضيج ثمارها، ويشربَ من لذيذ خمرها ومائها وعسلها.. المتدفّق في أنهارها، وينعم بما لم تر عينه، ولم تسمع أذُنهُ، ولم يخطر على قلبه!

---

(١) بالإضافة لسعف نخل الجنّة، كما سبق من كلام بن عباس في قوله: «وسَعَفُها كسوةٌ لأهل الجنّة، منها مقطّعاتهم وحُللهم» أخرجه الحاكم، (ج٢/ ص٥١٧) وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، (ج١٦/ ص٤٢٩).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، (ج١/ ص٩٠)، وقال: لم يروه عن مجالد إلا ابنه إسماعيل ولا يروى عن جابر رضي الله عنه إلا بهذا الإسناد. وأخرجه ابن أبي الدّنيا، ص ١٣٢.



ومع بهجة المناظر، وطيب الرائحة، وانسجام البرودة بما ينعش الأبدان، وتغريد الأطيار على الأفنان، وتهادى الأزهار، وتدلّي الثمار من الأغصان، وانتظام الأكواب على حوافّ الأنهار.. يزداد السّعيد بهجة وحُبُورًا، ومُتعةً وسُروراً.. فالروائح معطّرة نديّة، والمناظر منتظمة متناسقة، والألوان متنوّعة متجانسة.. أجمل وأنقى، وأكثر وأصفى من ألوان الدّنيا.

وما يميّز جمال الألوان في الجنّة أنّ أهلها يرون منها ما لم تر أعينهم من قبل.. بجمال لا يُمكن وصفه حُسنًا وانسجامًا، وتدرّجًا وانتظامًا؛ يمايز بشكل بديع ما كانوا يطلقون عليه الألوان الدافئة والباردة، والتدرّجات الكثيرة لكلّ لون منها على حِدة، ويتناسق مع خصوصية المكان، بما يخلب الألباب.. صفاء وبهجة وجمالاً، وألوان أخرى بتصنيفات وتدرّجات لا يعلمها إلا الله تعالى، ولم ترها عين رسّام بشري قطّ!!

وكما أنّ فاكهة الدّنيا لا تُشبه فاكهة الآخرة إلا في الاسم، فكذلك كل أجناس النّعيم الأخرى، ومنها الألوان؛ ولذا فكلّ ما تشتهيه العين من الألوان الدنيوية، بأنواعها، إنّما هو طيفٌ واحدٌ من أطياف الألوان البديعة الكثيرة التي يشاهدها أهل الجنّة، ويتلذّذون بها.. سواءً داخل الغُرف في أكناف قصورهم وخيامهم اللؤلؤيّة، أو في فناء الشّرفات المطلّة على حدائقهم الغنّاء، أو فيما يرونه على امتداد الأفق المُزدان المحيط بهم من جميع الجهات.. فهذه المروج الخضراء، وتلك الثّمار الصفراء، والزهور الحمراء، وحصباء اللؤلؤ الأبيض الناصع على التربة المسكية، وتلك الآنية المذهّبة، والقوارير الصّافية، والأباريق الفضية الحُرّة أو المطعّمة بالذهب، كلّها تتداخل ألوانها بنسَق بديعٍ لا يوصف. وكلّ شيء جميل، بألوان

تنسجم مع المكان، ودرجة من الهدوء والتدرّج، يريح العين، ويبعث الانشراح، ويضفي السعادة والاطمئنان على القلب.

والألوان في الجنّة لها حركة وتفاعل مع ما يحيط بها وهي تنبض بالحيوية، قال الله تعالى عن سِدرة المنتهى، وما يغشاها من الألوان الجميلة بين الحين والآخر: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم: ١٦ - ١٧]. وما أعجب تنوّع الأحجام والملمس والألوان بتدرّجها في الشيء الواحد داخل الجنة، عن سعيد بن جبير قال: نخل الجنة كُرُبُها ذهبٌ أحمر، وجذوعها زُمُرّدٌ أخضر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم وحللهم، وثمرها أمثال القلال والدلاء، أحلى من العسل، وألين من الزُّبد، ليس له عجم(١).

وفي مشهدٍ قرآني بديعٍ يصفُ نعيم أهل الجنّة، وهم في قصورهم.. يأكلون ويشربون، ويستمتعون بقرب الولدان، والحور الحسان، ويشير إلى تعدّد الألوان من حولهم، في محيط مكاني واحد، يقول جلّ جلاله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾[الإنسان: ١٩ - ٢٢].

حياة الطيّب والرّغَد:

حياة الرّغد متجدّدة مع كلّ نعيم الجنّة، وفي كلّ لذّة، والطيب لا يفارق أهلها ظاهراً وباطنـاً، والرائحة الزكيّة لا تنقطع عنهم، بل تصحبهم وتعبق بها لذائذهم، وتزكو أحوالهم، وهيئاتهم السعيدة، أبد الآباد.. عند تناول

---

(١) حلية الأولياء، (ج٤/ ص٢٨٧).



المطعومات والمشروبات، ومع البهجة برؤية الألوان والمناظر، وحال سماع الأصوات النّاعمة من الحسناوات المنعّمات في دار الرَّغَد، وداخل بساتين القصور، وفي الشرفات المطلّة على مياه الأنهار، وتحت أوراق الأشجار.. الوارفة بأغصانها المتدليّة بأطيب الثمار!!

وجمال الألوان في بلاد الأفراح يزداد بهجة حين يقترن به عبق الروائح الزكيّة، والمناظر البهيّة، والأطعمة الشهيّة! وكل ما يحيط بالسعيد طيّب الرائحة، عبِقُ النسائم؛ فالمكان الذي يسير فيه يتضوّع بأصناف الروائح التي لا أزكى منها ولا أطيب.. أريج المروج والأشجار، وعِطر الرياض والأزهار، والشذى الفوّاح على ضفاف الأنهار.. مابين رائحة لطيب خالص زكيّ لم يخالطه شيء، وما بين رائحة نديّة أخرى زاد من جمالها نفثةُ عبَقٍ خالطتها من ثمرة مجاورة، أو شجرة قريبة، أو زهرة متفتّحة.. أضفَت على المكان انتعاشاً وبهجة، وعلى القلوب أُنساً وانشراحاً.

وكلّ شيء في الجنّة بهيجُ المنظر، نديّ الصوت، زكيّ الرائحة.. بنعومة وامتزاج يأخذ باللّذات إلى ذُراها، ويبلغ بالرغائب أعلاها. ولذّة الرائحة الطيّبة في كلّ أرجاء الجنّة نعيم بحدّ ذاته، من جملة النّعيم. وأنداء الجنّة الطيبة، وروائحها الزكيّة تتهادى إلى خارجها حتى إنّها لتوجد (من مسيرة أربعين عاماً)[1]، ومن (مسيرة مائة عام)[2]، وعلى (مسيرة خمسمائة عام)[3]. وهذا البُعد أو القُرب من رائحة الجنّة يختلف باختلاف طريقة

(١) كما ورد في صحيح البخاري، (ج٣/ ص١١٥٥).

(٢) كما في الحديث الذي أخرجه الحاكم، المستدرك، (ج٢/ ص١٣٧).

(٣) كما في مستدرك الحاكم، (ج١/ ص١٠٥)، وسنن النسائي الكبرى، (ج٥/ ص٢٢٦).

السّير إليها، ودرجة القُرب منها؛ فهي بمسير الفارس المُجدّ صوب الجنّة على مسافة أربعين عاماً، وهي بمسير الفارس غير المُجدّ على بُعد مائة عام، وهي على بعد خمسمائة عام بسير الرّاجل المعتدل، وإلاّ فهي مسافة واحدة ثابتة، والله أعلم[1].

والجنّة دار كرامة.. خلقها الله تعالى بيده، وغرس أشجارها، وطيّبها ظاهراً وباطناً، حتى غدت دار الطيّب؛ فلا تُذكر إلا واقترن في الخيال جمالُها من كلّ وجه، بكلّ حاسّة! فكلّ ما فيها من النّعيم طيّبٌ.. حسّاً ومعنى، ولا يدخلها إلا الطيّبون، والطيب فيها مقرون بالراحة المتولّدة من رغد العيش، والأمن والسعادة، قال وهو يصف ما رأى في الجنّة من لذّات العيون بجمال

(١) جمع ابن القيم رحمه الله في نونيته بين هذه الأقوال في تحديد هذه المسافة بقوله:

إمّا بحسب المدركين لريحها ... قُرباً وبُعداً ما هما سيّان
أو باختلاف قرارها وعلوّها ... أيضاً وذلك أوضح التبيان
أو باختلاف السير أيضا فهو أنـ ... ـواعٌ بقدر إطاقة الإنسان
ما بين ألفاظ الرّسول تناقضٌ ... بل ذاك في الأفهام والأذهان

قال شارح النونية: وهذه الالفاظ لا تعارض فيها، وفي الصحيحين من حديث أنس في قصّة عمّه وفيه قوله: لسعد بن معاذ: الجنة وربّ الكعبة، إني لأجد ريحها من دون أحد. وريح الجنة نوعان، ريح يوجد في الدّنيا.. تشمّه الأرواح أحياناً، ولا تدركه العبارة، وريح تُدرك بحاسّة الشمّ للأبدان، كما تُشمّ روائح الأزهار وغيرها، وهذا يشترك أهل الجنة في إدراكه في الآخرة من قُرب وبُعد، وأمّا في الدنيا فقد يُدركه من شاء الله من أنبيائه ورسله، وهذا الذي وجده أنس بن النضر يجوز أن يكون من هذا القسم، وأن يكون من الأول. (انظر: أحمد عيسى، شرح قصيدة ابن القيم، ج٢/ ص٤٨٩).



منظر اللؤلؤ المكنون، وزكاء الرائحة المتحصّلة بالعبق الفوّاح الذي يملأ المكان: «ثم أُدخِلتُ الجنّة، فإذا فيها حبائلُ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك»[1]. وقال ﷺ وهو يصف امتزاج الرائحة الطيّبة بلذّة المذاق للماء العذب في هذا المقام الأمين: «الجنّة طيّبة التربة، عذبة الماء»[2].

والطيْبُ في بلاد الأفراح ليس عارضاً كطيب الدّنيا، يفوحُ لحظةً ثم يزول، بل هو ملازم لتُربتها وأشجارها، وداخلٌ في كُنهِ مادّتها، فالدّارُ دارُ الطّيب الخالص الذي لا يفارق أشجارها وتربتها وأنهارَها، وثيابَها وأكوابها وأرائكها، وحورَها وخيامَها وقصورَها. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيتُ إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمد أقرئ أمَّتك منّي السلام، وأخبرهم أنّ الجنّة طيِّبَةَ التربة، عذبة الماء، وأنّها قيعان، وأنَّ غِراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[3].

وروائح الجنّة ليست حادّة مؤذية، وإنّما تنساب بهدوء، حتى تصل إلى الفؤاد فتفرحه وتسعده، وتنبعث بدرجة متناهية في اللّذة.. تداعبُ الأنوف بلطف وخفّة، ولا تؤذيها، كعطور الدّنيا، المركّبة من أخلاط الكحول والغازات، أو المستخرجة من عصارات الأشجار والحيوانات!!

والروائح الزكيّة في الجنّة تهبّ من كلّ مكان.. من داخل غرف القصر التي تتضوّع طيباً خالصاً، ومن الحدائق الفوّاحة بعبق الأزهار والثمار المتدلّية على الأشجار.. والنسيم الخارجيّ المنعش، الممزوج بالطيب الداخلي الزكيّ، المنبعث من مجامر الألوّة الذي يتهادى في كلّ مكان.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج١/ ص١٣٦)، ومسلم، (ج١/ ص١٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي، (ج٥/ ص٥١٠).

(٣) المرجع نفسه، (ج٥/ ص٥٠٩).

وكلّ شيء في محلّة الطيب يتضوّع طيباً.. من ثياب أهل القصر ومن أبدانهم النقية الطاهرة، ومن الوسائد والأرائك والستائر.. في أجمل مزيج، وأندى عبق يتهادى بانسجام فريد، لم يعرفه قط خبراء العطور، وأهل الذوق المتواضع في دار الدّنيا.. فيا لها من بهجة لقلوب المتّقين في دار النّعيم، وتحفة للسّعداء من ربّ العالمين!

والطيب في بلاد الأفراح على صورتين: صورة مُلازمة لكُنه النّعيم بها، وهو طيبٌ دائم.. لا يزول ولا يحول أبد الآباد؛ لأنّه لا يفارق أصل المادة التي خُلقت منها الجنّة، وكلّ صنوف النّعيم بها. والصّورة الأخرى.. عبق ينبعث من عطور أهل الجنّة الفاخرة، ومن مجامرهم داخل القصور، وفي مجالسهم المحبّبة.. بحسب ما يشتهون، وبما يوافق الحال التي عليها يكونون؛ ففي داخل الغُرف عبق فريد متجدّد ودائم، على أندى وأنقى وأنعش طيب لا يخطر على قلب بشر!!

وجمال النّعيم المطيّب في ذاته يزيد جماله حين يخالطه الطّيب الذي يحيط به، ويغدو عليه ويروح.. بدرجات تتناسب وذلك النّعيم، بخصوصية اللذّة فيه.. فهذا عبَقٌ لطيفٌ لثمرة من الثمار بعينها، وذاك شذى فوّاح من أزهار حدائق القصر الغنّاء، وللتُربة المسكيّة عبقٌ محبّب آخر، ولكلّ نهر من أنهار الجنّة رائحته الزكيّة الخاصّة، وللثياب ما يجمّلها من الروائح، وللجسد الطاهر عِطرُه ومسكُه الخاص الفريد، فهو جسد مطيّب.. حسّاً ومعنى، والعرَقُ منه يتضوّع مِسكاً، والرِّضابُ ينطُف حلاوةً فوّاحة، بخلاف أجساد الدّنيا التي تحتاج للمعطّرات والمجمّلات، ومزيلات الرائحة؛ لكثرة ما يُسرعُ إليها من النّتن بعد الجهد والعَرَق وطول المكث،



ورائحة الفم تتغيّر بعد الصوم أو النوم، وما يخرج من البدن مستقذر لا يطيقه حتى صاحبه!! وهذا مما يظهر شرف الجنّة التي يلازم الطيّب كُنه نعيمها، ويجده السعيد مع أوّل قدم يضعها على أرضها، حال سماعه لخزنتها وهم يرحّبون به وبإخوانه، يقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

ولكلّ حال من أحوال أهل الجنّة خصوصيته ولذّته التي يزيد منها ما يكتنفها من المناظر والإضاءة والروائح؛ فمن الجسد الطاهر للحوراء أريج يعبق بأجمل العطور وأزكى الأطياب، يخالطه ما ينبعث من جميل الثياب، وما يتهادى من بـرْد الرّضاب.. في أشهى وأطيب رائحة تتناسب مع خصوصية الحال التي يكتنفها المكان قبل الوصال. وفي كل مكان من الجنّة عَبَقه الخاص، ومع كل لذة وحالة سعيدة نكهتها الفريدة ونسيمها المحببّ.

وما ألذّ النّعيم وأبهج السرور في هذه الدار الكريمة التي لا منتهى لآمال أهلها، ولا نفاد لمباهجها، ولا انقطاع للذّاتها ومُتَعِها. قال الله عز وجل وهو يصف حال السّعداء، وما يتلذّذون به من مفرحات القلوب ومُتع الأبصار: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ﴾[الواقعة: ٨٨ - ٨٩]. والرَّوح هو: الفرحة في القلب، المتولّدة من الرّاحة والسّلام، والبهجة والاطمئنان، والرّيحان هو: النبات طيّب الرائحة الذي يملأ المكان بعَبَقِه الأخّاذ.

وهذا المزجُ البديع بين شعور اللذّة في النّعيم الباطن، وزكاء الرّائحة في النّعيم الظاهر كثيراً ما يتناغم في مشاهد الجنّة؛ فجمال المكان يتناسب مع بهجة الألوان وهدوء الإضاءة ونعومة الصوت، بمجموع فريدٍ لا مثيل

له.. يزيدُ من بهجة النفس وانشراحها واستمتاعها باللذات من حولها[1].

عيون الجنّة:

يقترب السعيد من نُزله، فذاك قصره المنيف يتلألأ.. قد أعدّت فيه مراسم الاستقبال، والأهل هناك بالأشواق، يترقبون ظهور الحبيب القادم! ومع كلّ خطوة يخطوها يجد أثراً من آثار رحمة ربّه؛ فها هو، بعد أن ذاق لذّة السعادة الكبرى بدخول الجنّة، ونال على أبوابها من التكريم العظيم، لا يزال مذهولاً أمام النّعيم الذي يسلبُ سمعه وبصره على امتداد الطريق، وكلّ منظر فريد تصحبه لذّة تخالط الأفئدة، وتُفرح الأسماع والأبصار.

---

(١) كلّما تذكر السعيد، وهو في كنف النّعيم المقيم، كيف كان يقضي أوقات متعته وراحته في الدّنيا اشتدّ ضحكه على نفسه، وعجب من شدّة تخلّفه، وحقارة الدّار التي كان يعيش بها؛ فقد كان يصرف الأموال ويشدّ الرّحال مع الأهل والعيال صوب مكان يستجمّ فيه، ولربما تغرّب وفارق الأوطان للوصول إلى بغيته! فإذا بلغ مراده لم تستتمّ له الرّاحة من كلّ وجه؛ فهو لا ينعم بهدوء المكان حتى تشوّه نضرته الروائح المنفّرة، فإذا عثر على مكان زكيّ، آذته الأضواء المُبهرة، وأقلقه الخوف النّازل، من ترصّد الأشرار، أو غلوّ الأسعار!! فإذا ظفر بمراده، ونَعِم بطيب الإقامة.. اعتراه الملل بعد ساعات أو أيّام، وأصبح المكان الذي أبهجه أوّل مرّه، رتيباً لا جديد فيه؛ بشمسه وهوائه، وأرضه وسمائه، وأشجاره وثماره، عندها يبدأ بالحنين لداره وعمله، والشوق لأهله وجيرانه!! وهكذا هي أوقات الرّاحة والمتعة في دار الدنيا.. قليلة نادرة إذا ما قورنت ببهجة السعادة المتجدّدة، وطيب الإقامة الرّغيدة في بلاد الأفراح التي يقضيها السعيد مع أهله وأصدقائه وجيرانه، ولا تزداد مع تطاول الزمن إلا أنساً وطيباً، ومتعة وبهجة وتنوّعاً، في دار لا منتهى للنعيم بها، ولا مبلغ لأماكن السعادة والفرح في أكنافها؟!



وقد وردَ ما يشير إلى أنّ أوّل خلق الجنّة بدأ بحائطها العظيم، المبنيّ من الذهب والفضة، ثمّ بتشقيق أنهارها، وتفجير عيونها على درجة من الحُسنِ والإتقان، فلما جرت فيها الأنهار غرَسَ الله تعالى فيها الأشجار من كلّ صنفٍ بديع ولون بهيج، عن أبي سعيد ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ أحاطَ حائطَ الجنّةِ.. لَبِنةٌ من ذهبٍ، ولَبِنَةٌ من فضّة، ثمّ شقّق فيها الأنهارَ، وغَرسَ فيها الأشجارَ، فلمّا نَظَرَت الملائكةُ إلى حُسنِها قالت: طوبى لكِ منازلَ المُلوكِ»[1].

ما أجمله من منظر هذا الذي يتجلّى أمام السعيد برحمة ربّه! الثمار تتدلّى على امتداد الطريق، والأشجار لا تزداد إلا نُضرة واخضراراً، والألوان تزداد تنوّعًا وبهجة وجمالاً. وعلى القرب هناك.. تتدفّق عينٌ نضّاخة جميلة، من عيون الجنّة الكثيرة، كما أخبر عنها الجليلُ سبحانه.. هاهي تفور بالماء البارد[2]، تحفّ بها الأطيار المغرّدة، وتحوطها الحشائش الخضراء البديعة، والورود الجميلة بألوانها المحببة، فلا يملك أن يقف في مكانه.. ليتملّى من جمال المكان، ويتذوّق الماء النّمير، ويتلذّذ بما يُطرب سمعه، ويبهج بصره، ويُسعد قلبه بانشراح وهناء لا يوصف.

والجنّة دارُ الرّيّ التي أُترِعت بكلّ نعيم ظاهر وباطن، وفيها العيون الكثيرة.. حسنة المنظر، لذيذة المذاق. وهي على هيئات وصفات متنوّعة: منها النّضّاخة الفوّارة، ومنها الجارية التي تنبع بالماء الصافي، ثم تسيلُ

(١) صحيح الترغيب والترهيب للألباني، (ح ٣٧١٤).

(٢) ماء الجنّة بارد، ولأهلها ما اشتهت أنفسهم من المشروبات، على اختلاف درجات برودتها. وقد عبّر الصّحابة عن شوقهم لطيب الجنّة وبرودة مائها. قال جعفر: يا حبذا الجنّة واقترابُها.. طيّبةٌ وباردٌ شرابُها.

متدفّقة بين أشجار الجنّة وزروعها، ورياضها وغرفها وقصورها، ومنها العيون التي لا تجري، ويزداد جمالها باستقرارها.

العيون الجارية:

العيونُ الجارية في الجنّة كثيرة لا تُحصى، من أشهرها ثلاثة: عين (التسنيم) التي يدلّ اسمها على شرفها وعلوّ قدرها، فهي ظاهرة اللذّة، رفيعة المكانة بين عيون الجنّة، كما يرتفع السّنام على ظهر الدابّة، وعين (السّلسبيل) وهي عين سهلة، رفيعة القدر، معروفة عند أهل الجنّة، سلسلةُ السبيل، لذيذة حال شربها، حسنةُ المنظر في جريانها لمن رآها. ويكفي لبيان شرف هذه العين ومكانتها بين عيون الجنّة أنّ وفد المتّقين يُسقون من مائها في موائد التكريم الأولى على أبواب الجنّة!

ومن عيون الجنّة الجارية عين (الكافور) التي يشرب منها المقرّبون خاصّة، وهي عينُ ماء عذب، يُخلط معه الكافور، بمقدار محدّد؛ ليزيد من نكهته وعذوبته. وعينُ الكافور لها خصوصيتها الفريدة؛ فهي قريبة المنال، سهلة النّبع والجريان؛ حتى إنّ أهل الجنّة ليُجرونها من حيث شاءوا.. من بساتين قصورهم الفارهة، وخيامهم اللؤلؤية المجوّفة، أو من أيّ مكان في الجنّة يشتهونها فيه. قال الله تعالى في وصف خصوصيتها: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ [الإنسان: ٥ - ٦]، أي: يفجّرون تلك العين كيف شاؤوا، وحيث شاؤوا، من منازلهم وقصورهم، (تفجيراً) أي إسالة وإجراء[1].

---

(١) تفسير الطبري، (ج٢٩/ ص٢٠٧). وقال ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ أي: يتصرّفون فيها حيث شاؤا، وأين شاؤا.. من قصورهم =



العيون النّضّاخة:

ومن عيون الجنّة ما لا يجري على أرضها، وإنّما هي نضّاخة فوّارة، كالنوافير التي يعرفها أهل الدّنيا، وليس لها منها إلا الاسم فقط. والعيون النّضّاخة الفوّارة كثيرة جداً في الجنّة، تتفاوت أشكالها وتصاميمها وارتفاع ما تنضخه من مائها، بحسب الأماكن التي توجد بها؛ فالعيون الفوّارة في الرياض الخارجية والمروج، تختلف عن تلك التي تنضخ بالماء في البساتين الداخلية لأهل الجنّة، وهذه بدورها تختلف عن تلك النوافير الجميلة التي توضع في مداخل القصر أو بداخل الغرف لتضفي بهجة وأنساً لأهلها، والزائرين لهم.

وقد ذكر الله تعالى عينين نضاختين مشهورتين في الجنّة، أعدّهما سبحانه لأصحاب اليمين خاصّة، في جنّتين من فضة.. بنيانهما وحليّهما وما فيهما.. أشجارهما شديدة الخضرة من كثرة الري. ولجمال هاتين العينين يتحدّث عنهما أهل الجنّة، ويعجبون من ارتفاع مائهما وبديع تصميمهما، قال الله تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾[الرحمن: ٦٦]، أي: في هاتين الجنّتين اللتين أعدّهما الله تعالى لأهل اليمين كرامة لهم، عينان فوارتان بالماء،

= ودورهم، ومجالسهم ومحالّهم. والتفجير هو الإنباع، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴾ [الإسراء:٩٠]، وقال: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴾ قال مجاهد: ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ يقودونها حيث شاءوا، وكذا قال عكرمة وقتادة. وقال الثوري: يصرّفونها حيث شاءوا. (تفسير ابن كثير، ج٤/ ص٤٥٥).

تنضخان به[1]. عن أنس رضي الله عنه قال: تنضحان على دُور الجنّة كما ينضخ المطر على دور أهل الدنيا[2].

مزج الكافور والزنجبيل في عيون الجنّة:

وعيون الجنّة العذبة يزيد من طيبها المِزاج الذي يُخلطُ معها؛ فعين الكافور بيضاء اللون، باردة، لذيذة، طيّبة الرّائحة، وهي ليست كافوراً صِرفًا، بل يُخلط الكافور فيها، بمقدار معيّن؛ ليضيف إلى مذاقها، اللذّيذ في ذاته، لَذّة أخرى جميلة لا توصف! ولأنّ نعيم الجنّة ليس فيه من نعيم الدّنيا إلا الاسم فقط؛ فمزج الكافور بماء هذه العين يختلف عن مزج كافور الدّنيا بمائها، وكما أنّ الماء ليس كالماء، فكذلك المِزاجُ لا كالمِزاج. ومما يُخلط كذلك في ماء الجنّة ليطيّب طعمه وريحه: الزنجبيل، وهو يُخلط في عين السلسبيل خاصّة لتَنَاسُبِ نكهتِه مع سهولة ماء هذه العين وسلاسته، قال الله تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾[الإنسان: ١٧ - ١٨].

ولذائذ الحواس مجتمعة.. كثيراً ما تُظهره مشاهد نعيم الجنّة التي يعرضها القرآن الكريم حول الشراب أو بقرب الأنهار، ومنها هذا المشهد البهيج، الذي ينقلك إلى داخل أحد القصور السعيدة، حيث تجتمع العائلة

---

(١) تفسير الطبري، (ج٢٧/ ص١٥٦)، وقال رحمه الله تعالى، بعد أن ذكر أقوال المفسّرين الكثيرة فيما تنضخ به هاتان العينان: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عُني بذلك أنّهما تنضخان بالماء؛ لأنّه المعروف بالعيون، إذا كانت عيون ماء.

(٢) الدر المنثور، (ج٧/ ص٧١٦).



في أبهى صور الفرحة والبهجة، على أكمل مراسم الاستقبال والضيافة والخدمة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[المطفّفين: ٢٢ - ٢٨].

فيا لها من صورة جميلة!! السّعداء يجلسون جلسة الملوك على الأرائك الوثيرة، داخل القصر الكبير الذي اجتمعوا فيه، بعد أن قَدِموا للتوّ من ممالكهم الفارهة. وكلّ منهم مُترع بالنّعيم والبهجة، منغمس في كنف الرّغد والرفاه، حتى إنّ أثر الرّي ليظهر في وجوههم.. نضرة وجمالاً، وفرحةً وتبسّماً، قد استجمعوا نعيمَ الباطن الذي يظهر في وجوههم، ونعيمَ الظاهر الذي يتجلّى في هيئة جلوسهم، وما يُقدّم لهم من لذيذ الطعام والشراب، وهم على هذه الحال يتلذّذون بالنّظر فيما يحيط بهم من النّعيم المقيم، نسأل الله الكريم من فضله.

لذّة النّظر إلى النّعيم!

لمّا أشار القرآن إلى لذّة النظر إلى النّعيم.. مجرّدة بذاتها، عن كلّ لذّة، دلّ ذلك على تعدّد صنوف النّعيم، وتنوّع صور اللذائذ التي يعيشها أهل الجنّة.. فكما يتلذّذون ببهجة القلوب، التي يغمرها الشعور بالأمن والهدوء، والفرحة والسّلام والاطمئنان، وخلوّ البال من كلّ منغّص، وكما يتلذّذون بتناول الطعام والشراب، وزيارة الأقارب والأحباب، وتخيّر أثمن الحليّ وأجمل الثياب، والوصال الشهي بالحور الحسان على الأسرّة الفارهة، وبسائر صنوف النّعيم واللذات.. كما يتلذذون بذلك كله فإنّهم يتلذّذون كذلك بمجرد النظر!!

نعم.. بمجرّد النّظر للنعيم المقيم من حولهم؛ لأنّ كلّ ما في الجنّة جميلٌ غاية الجمال، وكلّ شيء يحيط بهم يُغريهم ويُبهجهم ويأسر حواسّهم؛ فهم يشربون ويأكلون هنا.. جزاء ما أظمأوا أنفسهم في الهواجر هناك، ويرتاحون ويأنسون في بلاد الأفراح.. جزاء ما قاموا في دُجى الليالي، وهجروا لذيذ المنام استجابة للمنادي! فها هم اليوم يأنسون بمجرّد النّظر، وينغمسون في كنف النّعيم الذي يُنسيهم كلّ عناء مرّ بهم في الدّنيا.

ولو أنّ السّعداء استغرقوا نعيم الجنّة في لذّة واحدة.. هي لذّة النظر هذه لكفتهم أنساً وبهجةً وانشراحًا! فكيف والنّظر نعمة من جملة نعيم لا حدّ له، وبهجة في جنب مباهج لا حصر لها؟!

وكلّ نظر في دار النّعيم لذّة.. بل إنّ النظر إلى جزء دقيق من مادّة النّعيم المقيم في بلاد الأفراح يستغرق لذّات حواس أهل الجنّة كلها؛ لشدّة حُسنه، ودِقّة صُنعه، وصفاء ألوانه، وجمال أنواره في ذاته، أو ما ينعكس إليه من غيره، ونعومة ملمسه، أو طريقة تقديمه[1].. كلّ شيء يغري السّعداء بإدامة النظر إليه، والتلذّذ به، وعدم الرّغبة في التحوّل عنه.. قبل أن يباشروا منه لذّة مقصوده التي خلقه الله تعالى لأجلها! ومن هنا تجدهم ينشغلون بلذّة النظر، عن لّذات أخرى جميلة تحفُّ بهم، وما أشغلهم إلا شاغل صواحب

(١) ألا ترى أنّ كثيراً من أهل الدنيا المسافرين إلى البلاد الأخرى تستغرقهم لذّة النّظر فيما يحيط بهم؟ حتى إنّهم من شدّة حرصهم ليرقبون أخلاق النّاس وعاداتهم وتعاملهم، وزينة البلد ومباهجها، وأنظمتها. وتراهم إذا رجعوا إلى أهليهم يفيضون في ذكر ما رأوا لا ما أكلوا وشربوا! وما في الجنّة من النّعيم المتجدّد أعظم من أن يُحاط به، أو يُملّ من النّظر إليه، كرّة بعد أخرى.



يوسف.. حين أنساهنّ النّظر إليه لذيذ الطعام، وسكّن برد اللّذة في قلوبهنّ ما اعترى الحواس من الآلام!!

وما في الجنّة من النّعيم واللّذائذ خير وأبقى.. لذائذ القلوب والأرواح، ولذائذ الأذواق والأسماع والأبصار.. وكلّ لذّة تستغرق العمر كلّه لو شاء صاحبُها، ولكنّه لا يستغرق في نعيم بذاته حتى تؤنسه صنوف أخرى أبدع منه، ولا تبهجه لذّة إلا وأفرحته أخرى، فهو في شُغُلٍ دائم؛ لكثرة ما يخطب ودّه من النّعيم هنا وهناك! قال الله سبحانه، مبيّناً حالَ أوليائه في دار المُقامة: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[الزخرف: ٦٨ - ٧٣].

وهذا المشهد القرآني من مشاهد النّعيم لا يبعد عن سابقه؛ فالسّعداء هنا في غاية السرور والراحة، والاستمتاع واللذّة.. الفرحة تعمُر قلوبَهم وأرواحهم، وأثر الرّضى والبهجة يظهر بوضوح في جوارحهم، بل يُعرف في وجوههم، كما يُعرف الرِيّ في الثمار النضيجة المتدليّة، وفي شدّة اخضرار الأشجار المترعة بماء الأنهار.

وهم، على هذه الحالة السّعيدة من الاستمتاع والبهجة، يطوف عليهم الغلمان بألذّ كؤوس الخمر الزكي المُعتّق، الذي لم تمسسه يدٌ، منذ خلقه الله تعالى، فهو مختوم لأهل الجنّة، مغلق مخبوء، حتى يفُكّه الغلمان خصّيصاً لهم في هذه الساعة! وغيره من الخمر المعتّق كثير، لا يفنى أبد الآباد.

ومن اللذائذ التي يعرضها هذا المشهد القرآني الفريد لحال السّعداء، وهم على الأرائك الوثيرة، وبقربهم الزوجات الجميلة، ما يجدونه في ختام الشّرب، حيث يجدون طعمـاً لذيذاً يفوق الوصف، لا تظهر لذّته إلا مع آخر رشفات يتناولها كلّ منهم في هذا المجلس السعيد!!

التسنيم.. شراب المقربين خاصّة!

أهل الجنّة يكرمون فيها بألوان من شراب الخمر اللذيذ.. الصِّرف في ذاته، أو الممزوج بغيره؛ وقد أشار النّص الكريم إلى نوع منه، يُخلط فيه الزنجبيل بعين السلسبيل، وشراب آخر للأبرار خاصّة، في غاية اللذة، مُزج بالكافور ليبرده ويكسر حدته.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ﴾ مزاج آخر للمقرّبين.. خمرٌ لذيذ معتّق، ممزوج بقدر معيّن من عين التسنيم.. واحدةٌ من أشرف عيون الجنّة التي يشرب منها هؤلاء المقرّبون صِرفًا بلا مزج، كرامةً لهم، وإظهاراً لفضلهم، بينما يشرب منها سائر السّعداء ممزوجة مع سائر شرابهم.

قال ابن القيم رحمه الله يصف هذا التقابل البديع بين شراب المقرّبين، وشراب سائر أهل الجنّة من أصحاب اليمين[1]:

وشرابهم من سلسبيلٍ مزجُهُ الـ ... ـكافورُ ذاك شرابُ ذي الإحسان
هذا شرابُ أولي اليمينِ ولكن الـ ... أبـرار شُـربُهُمُ شـرابٌ ثـانِ
يُدعى بتسنيمٍ سنامٌ شُربُهم ... شُربُ المُقَرّبِ خيرةِ الرّحمن
صَفَّى المُقرَّبُ سعيَهُ فصفا له ... ذاك الشرابُ فتلك تصفيتَان

(١) ستأتي الإشارة إلى تفاوت منازل المتّقين في الجنّة عند الحديث عن: (رِفعة المنازل وعلوّها).



لكـنَّ أصحـابَ اليمين فأهـلُ مز ... جٍ بالمُبـاحِ ولـيس بالعصيـان
مُزِجَ الشرابُ لهم كما مَزجوا هُـمُ الـ ... أعمـالَ ذاك المـزجُ بـالميزانِ
هـذا وذو التّخليطِ مُزجّـىً أمـرُهُ ... والحُكـمُ فيـه لربّـه الـدّيان

ولك أن تعجب من شراب لذيذ معتّق، يجد السعيد حلاوته ونكهته في ذاته، ما يكون حاله إذا مُزج للأبرار من عين (السلسبيل)، وللمتقين من (تسنيم) التي يكفي لبيان عذوبتها وجمال رائحتها، وإظهار اللذّة التي تصاحب مذاقها: أنّ إضافة القليل منها على أيّ شراب من أشربة أهل الجنّة كافٍ لتحلّ في مذاقه اللذّة، والرائحة الطيّبة الفريدة التي تُبهج السّعداء، وتزيد من السرور والهناء الذي يخالط قلوبهم، وحواسّهم، في تلك الحال الكريمة على مجالس الرّغَد والملك الكبير.

فيا له من نعيم ظاهر، ومقام خصيب طاهر.. هذا الذي يتقلّب فيه أهل الجنّة السّعداء! ويا له من عيش هنيء، يُعرف آثار الرّغد فيه بنضرة الوجوه وتلذّذ الأسماع والأبصار.. بين مطعومٍ ومشروب، ومنظورٍ وملموس، ممتزج بطيب الرائحة، ومنشرح بسعة المكان! والسّعداء.. مع كلّ هذا النّعيم.. لم يروا، حتى الآن، إلا القليل مما أخفي لهم من قرّة الأعين.. جزاء ما عمروا الأيام الخالية بصالح العمل، في فسحة الأجل.

أنهار الجنّة:

الجنّة دار الماء والخُضرة، والطيب والجمال، والبهجة التي لا تنقطع. ومشهد جريان الأنهار، وتدفّقها، وتخلّلها الأشجار الكثيفة.. على امتداد الطريق، وتعرّجها في المروج الخضراء، وجريانها من تحت غرف السّعداء بهجة جديدة ولذّة أخرى عجيبة تخاطب حواس السعيد برحمة ربّه، وهو في طريقه إلى لقاء أهله!

تجري من غير أخاديد:

أنهارُ الجنّة بهجةٌ للناظرين، ولذّةٌ للشاربين، ومُتعةٌ للسامعين. وهي ليست كأنهار الدّنيا؛ إذ تجري عذبةً رَقراقة بمسار فريد، في غير أخاديد.. لا تفيض ولا تنساح في غير مجراها. وقد ورد عن أبي هريرة ﵁ ما يفيد جريان هذه الأنهار على أرض مستوية مرصوفة بحبّات اللؤلؤ الصغير البديع، قال ﵁: حائط الجنة، مبنيّ لبنةً من ذهبٍ، ولبنةً من فضّةٍ، ودَرَجُها الياقوت واللؤلؤ. قال: وكنّا نتحدث أنّ رضراضَ أنهارِها لؤلؤٌ، وتُرابُها الزعفران[1].

وأنهار الجنّة تتخلّل مساكن أهل الجنّة بنظام بديع، ومنظر غاية في الصّفاء والجمال، وعلى حوافّها كيازين الذهب والفضة. عن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «لعلكم تظنّون أنّ أنهار الجنة خُدود في الأرض؟! لا والله.. إنّها لسائحة على وجه الأرض، حافّتاها قِباب اللؤلؤ، وطينها المسك الأذفر» قلت: يا رسول الله، وما الأذفر؟ قال: «الذي لا خَلْط معه»[2]. وعن أنس بن مالك ﵁ أنّه قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت الكوثر، فإذا هو نهر يجري، ولم يُشقّ شقّـًا، فإذا حافّتاه قِبابُ اللؤلؤ. فضربت بيدي إلى تُربته، فإذا هو مِسكَةٌ ذَفِرةٌ، وإذا حصاه اللؤلؤ»[3]. وفي رواية: «حافّتاه قصبُ الذّهب،

---

(١) الجامع في الحديث لعبدالله بن وهب بن مسلم القرشي، (ج١١/ ص٤١٦). والرّضراض: الحصى الصغير.

(٢) حلية الأولياء، (ج٦/ ص٢٠٥).

(٣) أخرجه الإمام أحمد، (ج٣/ ص٢٤٧). قال سفيان عن مسروق في قوله تعالى: ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾: هي أنهار تجري في غير أخدود.



مجراه على الدرّ والياقوت، ماؤه أشدّ بياضًا من الثلج، وأشدّ حلاوة من العسل، وتربته أطيب من ريح المسك»[1].

قال الله عزّ وجل في وصف مشهد بديع من مشاهد النّعيم الكثيرة التي لا تنقطع عن قصور أهل الجنّة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة:٢٥].

وما أجمل هذا المشهد الكريم المُفعمِ بالحركة.. الذي يبدأ بمنظر الأنهار، وهي تجري رقراقةً، صافيةً، باردةً، من تحت أشجار الجنّة العالية، وغُرف أهلها المرتفعة، يتبعه مشهد جميل آخر للثمار اللّذيذة النضيجة، وهي تتدلّى من أغصان الأشجار، المُترعة على ضفاف هذه الأنهار، يليه مشهدُ الولدان، في حدائق القصر الغنّاء، وهم يقطفون هذه الثمار، ويضعونها في أطباق الذّهب والفضة، ويطوفون بها على السعيد، ونُزلاء قصره الكبير! ويُختم المشهد الجميل بأهل الجنّة السّعداء وهم في مجالسهم الوثيرة.. داخل القصر، أو على الشُرفات أو في ظلال هذه الأشجار.. يأكلون ويتضاحكون.. كلّما فرغوا من صنف من الفاكهة، جاءهم الغلمان بمِثلها في الشّكل واللون، ولكن بلذائذ جديدة، ومذاقات جميلة.. تختلف في حلاوتها عمّا تناولوه من قبل، فإذا قُدّمت لهم قال بعضهم لبعض: رُزقنا هذا الصنف من قبل؛ لما يرون من الشبه بينهما في

(١) أخرجه الترمذي، (ج٥/ ص٤٤٩)، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة، ص ٦٦، موقوفًا على ابن عمر، والصحيح رفعه.



اللون والحجم، فإذا ذاقوه وجدوا له لذّة أخرى لم يذوقوا مثلها، فيبادروا بالثناء على ربّهم، ويتذاكروا عظيم قدرته، فتجيبهم الغلمان، والملائكة الكرام في ذلك المجلس: هذا بعض ما أعدّه لكم ربكم.. جزاء ما صبرتم في أيّام الدّنيا. ثم يُختم مشهد النّعيم بأهل الجنّة السّعداء.. وقد فرغوا من مجالسهم السعيدة، في كنف اللذائذ الأخرى مع أزواجهم المطهّرة الحسان، بدار الخلود الدائم، الذي لا ينقطع!!

أنهار الجنة كثيرة متنوّعة:

أهل الجنّة لا يشربون من ظمأ، كما يشرب أهل الدّنيا، بل أكلهم وشربهم تلذّذاً واستمتاعاً.. بجمال اللون والمذاق والنكهة! والجنّة بلاد الأنهار.. إذ قلّما يُذكر نعيمها في القرآن العظيم إلا وذُكرت معه الأنهار.. بوصفٍ جميلٍ، تجتمع فيه لذائذ الأسماع والأبصار، وبهجة الرائحة والأذواق.

وأنهارُ الجنّة الجارية ليست كلّها من الماء، بل هناك أنواع كثيرة لا حصر لها، ولا يعلمها إلا الله تعالى. ومما وردت الإشارة إليه: أنهار الماء العذب، وأنهار اللبن الذي لم يتغيّر طعمه، وأنهار الخمر اللذيذ، وأنهار العسل المصفّى، قال الله عز وجل: ﴿**مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ**﴾[محمد: ١٥].

وأنهار الجنّة مما يُستلذّ ويُستطاب، وروائحها زكية منعشة أبد الآباد.. ولا يدخلها الأَسَن، ولا يطرأ عليها التغيّر، كما هو الحال في أنهار الدّنيا. وقد نوّع الله تعالى هذه الأنهار لتناسب جميع الأذواق، وتروّي جميع



المطالب؛ فالجنّة دارٌ جميلة طيّبة، حلّاها الله تعالى بكلّ جميل، وعدّد فيها صنوف النّعيم لترضى الأذواق وتُشبع الحواس. ولكلّ صنف من هذه الأنهار الأربعة خصوصيته، وله لذّته ومذاقه ونكهته، التي تختلف عن النّهر الآخر[1].

١) أنهار اللبن:

تتدفّق أنهار اللبن غزيرة منعشة متجدّدة، بيضاء اللون، نقيّة. وطعمها يظلّ على صفائه ولذّته ونكهته، لا يتغير أبد الآباد؛ لأنّها ليست كألبان الدّنيا المستخرجة من ضروع الأنعام التي يصيبها المرض والعجاف، وتختلف طعوم ألبانها وفائدتها بحسب جودة الكلأ ورائحة المكان ونظافة الحظيرة ومن يتعاهدها.

وأنهار اللبن طيّبة المذاق، زكيّة الرائحة.. في ذاتها بدون شوب، أو بحسب ما تُشاب به وتُخلط فيه من: الزنجبيل أو الكافور أو السلسبيل، أو بحسب النّكهة التي تكتسبها من عبق المكان الذي تجري فيه، وإن لم يخالطها شيء.

---

(١) جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «سيحان وجيحان، والفرات والنيل، كلّ من أنهار الجنّة» (ج٤، ص٢١٨٣). وللعلماء تأويلان في معنى الحديث: أحدهما على ظاهره، وهو الأصحّ الأظهر من سياق النصّ، والآخر: أنها سيقت على وجه المقارنة بأنهار الجنة للتقريب والتشبيه بمادتها أو بشكلها، أو لذكر بركة هذه الأنهار الدنيوية ونفعها ودوامها، كما ضرب المثل بأشجار النخيل والعنب والرمان في بلاد العرب لتقريب أشجار الجنة، ولو كان في جزيرة العرب أنهار ظاهرة لضُرب بها المثل، والله أعلم. (للاستزادة، انظر: شرح النووي على مسلم، ج١٧، ص١٧٧).

٢) أنهار الخمر:

والخمر اللذيذ، الذي يجري في أنهار الجنّة الكثيرة، لم تدنّسه الأيدي والأرجل، ولم يتمّ قطفه وتصنيعه من كروم العنب ونحوه، كخمر الدّنيا، بل هو نوع آخر من الخمور لم يذقه آدمي قطّ، ولم يخطر على قلبه.. لذيذ الطّعم، حسن المنظر، طيّب الرائحة، يتلذّذ به أهل الجنّة كلما شربوا منه. خمر لا يَذهب العقل بعد شربه، ولا تصيبه الآفات، أو التغير الذي يصحب خمر الدّنيا. قال الله تعالى في وصف خمر الجنّة ولذّته، ونقائه، وسلامته للعقول: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾[الصافات: ٤٦ - ٤٧]؛ فهو أبيض اللون، لذيذ الطّعم، ليس في شُربه ضررٌ على الجسم أو العقل، كخمر الدّنيا.

وحديث القرآن الكريم عن مشاهد الشرب من كؤوس الخمر النقية الطاهرة، يقترن كثيراً بالحديث عن الكواعب الأتراب، ومجالس الأهل والأصحاب. قال الله تعالى واصفـًا حال السعداء في مشهد النّعيم مع زوجاتهم، أو في كنف الأهل والأصحاب، وبين أيديهم أطباق الفاكهة.. مسترسلين في أحاديثهم وذكرياتهم: ﴿وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[الطور: ٢٢ - ٢٣].

ويصف سبحانه مشهداً آخر من مشاهد النّعيم، وقد اجتمع فيه الأهل والأصحاب على شرب الخمر في حال آمنة رضيّة، لا يسمعون فيها إلا الطيّب من القول، والكواعب الأتراب ينتظرن في غرفهنّ الخاصّة، فيقول جلّ جلاله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَـٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّ ٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾[النبأ: ٣١ - ٣٥]، والكأس الدّهاق هي المملوءة،



وذلك أبلغ في لذّة الشرب والاستمتاع. وقال جلّ شأنه في مشهد بديع آخر من مشاهد النّعيم: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾[الصّافّات: ٤٠ – ٤٨].

٣) أنهار العسل:

والعسل في الجنّة يجري بلا انقطاع، في أنهار معروفة.. مصفّى من جميع الشوائب والرواسب، وهو لا يشبه أبداً عسل الدّنيا؛ إذ لا يخرج من بطون النحل، ولا يخالطه الشّمع والفضلات، ولا يُصفّى قبل التناول، وإنما هو عسل خلقه الله تعالى ابتداء، هكذا.. سائلاً يجري جريان الماء، لا كَدَر فيه ولا عَكَر، رقراقًا، في غاية الصفاء، مع حسن اللون، وطيب الطّعم والنكهة، واللذّة التي تطرَب منها الأبصار، وتهفو إليها الأسماع، ولا تملّ منها الأذواق.

٤) نهر الكوثر:

ومن أجمل أنهار الجنّة منظراً، وأرفعها قدراً، وأعذبها مذاقًا.. نهرُ الكوثر، الذي أعطاه الله تعالى نبيه محمداً ﷺ خاصّة، قال سبحانه: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[الكوثر: ١]. والكوثر مأخوذ من الكثرة، وهو نقيض القِلّة، واسمه دالّ على حقيقته وعظمته ومكانته بين سائر أنهار الجنّة.

وقد وصف رسول الله ﷺ لصحابته هذا النهر وصفًا دقيقًا، وبيّن لهم كثرة مائه، وصفاته، من حيث اللون والطّعم والرّائحة في أحاديث كثيرة؛ فعن أنس رضي الله عنه قال: بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أُغفى إغفاءة



ثم رفع رأسه متبسّماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «أنزلت عليّ آنفاً سورة فقرأ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾» ثم قال: «أتدرون ما الكوثر؟» فقلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنّه نهر وعَدَنيه ربي عزّ وجلّ، عليه خيرٌ كثيرٌ، هو حوض ترد عليه أمّتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم»[1]. وفي رواية أخرى: «نهر وعَدَنيه ربّي عزّ وجلّ في الجنّة، عليه حوض». كما وصف ﷺ المجرى الذي يتدفّق فوقه هذا النّهر العظيم، والتُربة التي يسيل عليها، فعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثرُ نهرٌ في الجنّة، حافّتاه من ذهب، مجراه على الياقوت والدُرّ، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل، وأشدّ بياضاً من الثلج»[2].

وهذا النهر العظيم من أنهار الجنّة له خاصّية أخرى فريدة لا يشترك معه فيها نهر آخر من أنهارها البديعة؛ ذلك أنّ الله تعالى أجرى له ميزابان من الجنّة يصبّان في حوض عظيم على عرصات القيامة؛ كرامةً يتحف الله تعالى بها نبيّه محمّداً ﷺ وأمّته يوم الفزع الأكبر، قبل أن ينزلوا منازلهم في دار النّعيم، ولذا فالمتّقون، على أرض المحشر، يجدون في ماء الكوثر القادم من أرض الجنّة.. عبق نسائمها المطيّبة، وروائحها الزكية، وبرودتها المحبّبة، وكلّ ما فيه يهيّج قلوبهم إلى بلاد الأشواق، ويحدوهم إلى حيث الفرحة الكبرى!

---

(١) أخرجه مسلم، (ج١/ ص٣٠٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه، (ج٢/ ص١٤٥٠).



وقد وصف رسول الله ﷺ هذا الحوض، الذي أعطاه ربّه إيّاه، بوصف دقيق، أحاط بطوله، وطعم مائه العذب، ولونه، ورائحته المطيّبة، وأخبر عن كرامة المؤمنين من أهل اليمن خاصّة في ذلك اليوم، وأنّه ﷺ يذود لهم النّاس عن حوضه، كما يقدّم الرّاعي كِرام إبله للشرب، ويذود لها سائر الإبل في طريقه حتى تصل إلى الحوض. عن ثوبان رضي الله عنه أنّ نبي الله ﷺ قال: «إنّي لبعُقر حوضي أذود النّاس لأهل اليمن، أضرب بعصاي حتى يرفضّ عليهم». فسُئل عن عَرضِه فقال: «من مقامي إلى عُمان» وسُئل عن شرابه فقال: «أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، يغُتّ فيه ميزابان[1] يُمِدّانه من الجنّة، أحدهما من ذهب، والآخر من ورِق»[2].

وقال ﷺ مبيّناً سعة هذا الحوض، وعظمته وبعض خصائص مائه المبارك: «إنّ أمامكم حوضاً كما بين جربا وأذْرُح. فيه أباريق كنجومِ السّماء، من ورَده فشرب منه لم يظمأ بعدها أبداً»[3]، وفي رواية أخرى: «ما

---

(١) أي: يدفقان فيه الماء دفقاً دائماً متتابعاً. (النهاية في غريب الأثر ج٣/ ص٣٤٢).

(٢) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص١٧٩٩) والورِق: الفضّة.

(٣) المرجع نفسه، عن عبد الله بن عمر، (ج٤/ ص١٧٩٨). وجرباء: موضع من أعمال عمّان بالبلقاء، من أرض الشام، قرب جبال السّراة، من ناحية الحجاز، وقيل: الجرباء: ماء لبني سعد بن زيد مناة بن تميم بين البصرة واليمامة. (معجم البلدان ج٢/ ص١١٨). وأذرح: اسم بلد في أطراف الشام، من أعمال الشراة، في نواحي البلقاء وعمان، مجاورة لأرض الحجاز. (ذكره صاحب معجم البلدان، ج١/ ص١٢٩)، وقال: في كتاب مسلم بن الحجاج: بين أذرح والجرباء ثلاثة أيام.. وقد فتحت أذرح والجرباء في حياة رسول الله ﷺ سنة تسع، وصولح أهل أذرح على مائة دينار جزية. (معجم البلدان ج١/ ص١٣٠).

بين صنعاء والمدينة.. تُرى فيه الآنية مثلُ الكواكب»[1]. وبوصفٍ أكثر دقّة، بيّن ﷺ شكل هذا الحوض، وأنّه مربّع[2]، ولون الماء بداخله ورائحته، والأكواب الموضوعة حوله، بقوله ﷺ: «حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورِق، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من شرب منه فلا يظمأ بعده أبداً»[3].

كما وصف ﷺ ما يحفّ بهذا الحوض على ضفّتيه، فقال: (إنّ حوضي أبعد من أيلة من عدن، لهو أشدّ بياضـًا من الثّلج، وأحلى من العسل باللبن، ولآنيته أكثرُ من عدد النجوم)[4]. وعن أنس رضي الله عنه قال: لما عُرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال: «أُتيت على نهر حافّتاه قِباب اللؤلؤ.. مجوّفـًا، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر»[5]. وعن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله، ما آنية الحوض؟ قال: «والذي نفس محمّد بيده لآنيته أكثرُ من عدد نجوم السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المُصحِية.. من شَرب منها لم يظمأ آخر ما عليه.

---

(١) المرجع نفسه، (ج٤/ ص١٧٩٧). ويقال هنا ما سبق من توجيه لروايات المسافة التي توجد فيها رائحة الجنّة.

(٢) لو تأمّلنا في مجموع هذه الأحاديث لظهر لنا أنّها تدور على أنّ مساحة هذا الحوض مربّعة الشكل، وأنّ طولها وعرضها واحد.. بمسافة محدّدة، وإن اختلف تحديدها مراعاةً لحال السائل عنها ومعرفته.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٤٠٥)، ومسلم، (ج٤/ ص١٧٩٣).

(٤) أخرجه مسلم عن أبي هريرة، (ج١/ ص٢١٧).

(٥) أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٩٠٠). وفيه عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت في الكوثر: نهر أُعطيه نبيكم، شاطئاه عليه دُرّ مجوّف، آنيته كعدد النجوم.



يشخُب فيه ميزابان من الجنّة، من شرب منه لم يظمأ. عُرضه مثلُ، طولهما بين عمّان إلى آيلة، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل»[1].

وأمّة محمد ﷺ خاصّة، هي التي ترد هذا الحوض، يُعرف أفرادها بآثار الوضوء والسجود، ومنهم من تردّه الملائكة عن الحوض؛ جزاء انحرافه عن سنّة رسول الله ﷺ، ووقوعه في البدع المُحدثة. عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول، وهو بين ظهراني أصحابه: «إنّي على الحوض أنتظر من يَرِدُ عليّ منكم، فوالله ليُقتطعنّ دوني رجالٌ فلأقولنّ: أي ربِّ.. منّي ومن أمتي[2]، فيقول: إنّك لا تدري ما عملوا بعدك؟ ما زالوا يرجعون على أعقابهم»[3]. وإذا كان هذا الحوض لمحمّد ﷺ وأمّة، فلا يمنع ورودَ أشراف المؤمنين عليه، من غيرهم، وبخاصّة الأنبياء والمرسلون، إن لم يكن لكل منهم حوضٌ يخصّه، أقلّ قدراً ومكانة من حوض النبي ﷺ، كما جاء في بعض الروايات، والله أعلم.

٥) نهرُ الحياة:

ومن الأنهار المعروفة نهر يُدعى (نهر الحياة)، يجري بقرب أبواب الجنّة.. أبيض شديد البياض. وإذا ذُكِر هذا النّهر ورد الحديث عن عتقاء الرّحمن، من الموحّدين العصاة.. الذين يُخرجون من النّار، ويوردون الجنّة، وقد احترقوا وتفحّموا، وتغيّرت ملامحهم من شدّة العذاب؛ فإذا

---

(١) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص١٧٩٨).

(٢) وهذا من الأدلّة على أنّه ﷺ عبد رسول، لا يعلم من الغيب إلا ما علّمه ربّه.

(٣) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص١٧٩٤).

دخلوا الجنّة ووردوها بحالهم الفظيعة المخيفة أمرتهم الملائكة أن ينزلوا في هذا النهر.. (نهر الحياة)، فيغتسلوا، ويشربوا، ويُفيضوا على أجسادهم من مائه؛ فإذ بالحياة الكاملة تدبّ في أرواحهم وأجسادهم، كما تدبّ الحياة في الأرض الجرز بعد زخّات المطر، ومعه ينسون كلّ بؤس مرّ بهم في الدّنيا وفي دار الجحيم التي صدروا عنها.

وقد وصف رسول الله ﷺ، في حديث الرؤيا الطويل، مشهداً حياً لما يحدث لأهل الجنّة هؤلاء الذين يقدمون من النار، وكيف تتبدّل صورهم وأشكالهم بعد الاغتسال من هذا النهر، فقال: «فانطلقنا، فانتهينا إلى روضةٍ عظيمةٍ، لم أر روضةً قطّ أعظم منها، ولا أحسن. قال: قالا لي: ارقَ فيها، قال: فارتقينا فيها، فانتهينا إلى مدينةٍ مبنيّةٍ بلبِنِ ذهبٍ ولبِنِ فضّة، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففُتِحَ لنا فدخلناها، فتلقّانا فيها رجالٌ شطرٌ من خَلقِهم كأحسنِ ما أنت راءٍ، وشطرٌ كأقبح ما أنت راءٍ، قال: فقالا لهم: اذهبوا، فقعوا في ذلك النهر، وإذا نهر مُعترضٌ يجري، كأنّ ماءه المحضُ في البياض، فذهبوا، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهبَ ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة» وفي آخره: «وأمّا القومُ الذين كانوا شطراً منهم حَسَن، وشطراً منهم قبيح، فإنّهم قومٌ خلطوا عملاً صالحاً وآخرُ سيئاً، تجاوز الله عنهم»[1].

كما أخبر ﷺ عن مشهد آخر أكثر تفصيلاً لما يجري للعتقاء على ضفاف هذا النهر، وما يُكرمهم الله تعالى به، بعد أن يخرجوا منه، فقال ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٦/ ص٢٥٨٣).



بعد حديث الشفاعة: «فيقول الله عز وجل: شفعتِ الملائكةُ، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضةً من النّار فيُخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قطّ، قد عادوا حِمَماً، فيُلقيهم في نهر في أفواه الجنّة، يُقال له (نهر الحياة) فيخرجون كما تخرج الحبّة في حميل السيل. ألا ترونها تكون إلى الحَجَر أو إلى الشَجَر؟ ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها إلى الظلّ يكون أبيض؟ فقالوا: يا رسول الله، كأنّك كنت ترعى بالبادية. قال: فيخرُجون كاللؤلؤ، في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنّة: هؤلاء عتقاءُ الله الذين أدخلهم الله الجنّة، بغير عمل عملوه، ولا خيرٍ قدّموه، ثم يقول: «ادخلوا الجنّة، فما رأيتموه فهو لكم»، فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من العالمين، فيقول: «لكم عندي أفضلُ من هذا»، فيقولون: يا ربّنا أيُّ شيء أفضل من هذا؟ فيقول: «رضاي، فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً»[1].

فهو إذن نهرٌ مباركٌ، له هذه الخاصيّة التي أودعها الله تعالى فيه، فوق خاصّية الشرب، وماؤه يُقال له: (ماء الحياة).. يكفي أن يُصبّ منه على رؤوس العتقاء ليعودوا على صور أهل الجنّة، نضارة وبهاء، وسلامة من الآفات الظاهرة والباطنة!! قال ﷺ في خبر العتقاء، وهو يقارن بين حالهم قبل الانغماس في ماء هذا النّهر، وحالهم بعد أن يخرجوا منه: «فيخرجون من النار قد امتحشوا فيُصَبّ عليهم ماءُ الحياة، فينبتون تحته كما تنبت الحَبَّة في حَميل السيل»[2].

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٦/ ص٢٧٠٧)، ومسلم، واللفظ له، (ج١/ ص١٦٩).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٦/ ص٢٧٠٤)، ومسلم، (ج١/ ص١٦٣).



٦) نهر بارق:

ومن أنهار الجنّة التي ورد ذكرها، نهر بارق، والبارق: اللامع المتلألئ، وبذا تظهر خصوصية هذا النّهر ومكانته، إضافة لخصوصية أخرى فريدة، هي أنّ قبّة خضراء تُضرب عليه بقرب أبواب الجنّة، يُحتفى فيها بالشهداء خاصّة، ممن يدخلون الجنّة واحداً تلو الآخر؛ كرامة لهم وتمييزاً عن سائر السعداء المكرمين على أبواب الجنّة(١). وفي هذه الخيمة الخضراء، بالقرب من نهر بارق مزيد عناية وتكريم، من حيث: فخامة النّزل والخدمة، وجمال ما يقدّم من الأطعمة والأشربة والكساء.. قبل أن ينطلق الشهداء إلى منازلهم التي عرّفها الله لهم. فإذا ارتفعوا في منازلهم التي أعدّها الله لهم جرت عليهم بكرة وعشيّاً، الهدايا الرفيعة، والوجبات اللذيذة التي ذاقوها في هذه القبّة خاصّة.. يحملها إليهم الغلمان بين الحين والآخر.. كرامة لهم من ربّهم! عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الشهداء على بارق.. نهرٌ بباب الجنّة، في قبَّةٍ خضراء، يخرج عليهم رزقهم بُكرة وعشيّاً»(٢).

ولا يمنع، والله أعلم، أن تكون هذه القبّة الخضراء هي ذاتها تلك التي كانت تأوي إليها أرواحهم في البرزخ؛ فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنّ أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنّة حيث شاءت، وأنّها تأوي لنُزل كريم فيه قناديل معلّقة بالعرش. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال في

---

(١) جرت عادة الملوك في الدنيا على ما يشبه ذلك؛ فهم يحتفون بكبار الضيوف خاصّة، ويعدّون لهم نُزلاً يرتاحون فيه بعد الوصول، يليق بهم دون سائر الضيوف المكرمين.

(٢) أخرجه الحاكم، (ج٢/ ص٨٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.



هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾: «أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديلُ معلّقة بالعرش.. تسرح من الجنّة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربّهم اطّلاعة فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي، ونحن نسرحُ من الجنّة حيث شئنا؟! ففعل ذلك بهم ثلاث مرّات[1] فلمّا رأوا أنّهم لن يُتركوا من أن يُسألوا قالوا: يا ربّ، نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجةٌ تُركوا»[2].

٧) نهر البيدَح أو البيدخ:

من أنهار الجنّة نهر البيدَح أو البيدخ الذي ورد ذكره في معرض رؤيا قُصّت بين يدي رسول الله ﷺ، وكأنّه اسم آخر لنهر الحياة، الذي سبق خبره، أو نهرٌ آخرُ قريبٌ منه خاصّ بالشهداء في سبيل الله تعالى، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يُعجبه الرّؤيا الحَسَنة، وربما قال: «هل رأى أحدٌ منكم رؤيا؟» فإذا رأى الرّؤيا الرَّجُلُ الذي لا يعرفه رسول الله ﷺ سأل عنه؛ فإن كان ليس به بأسٌ كان أعجبَ لرؤياه إليه، فجاءت إليه امرأة فقالت: يا رسول الله، رأيتُ كأنّي دخلتُ الجنَّة فسمعت وجْبَةً ارتجَّت لها الجنّة، فنظرتُ فإذا قد جيء بفلان بن فلان، وفلان بن فلان، حتى عَدَّت أثنى عشر رجلاً، فجيءَ بهم، عليهم ثيابٌ طُلْسٌ تشخبُ أوداجُهم دمًا، فقيل: اذهبوا بهم إلى نهر البيدخ أو البيدح فغُمِسوا فيه، فخرجوا منه..

---

(١) أي: يسألهم في كلّ مرة أن يطلبوا ما يشتهون، وهم في عالم الأرواح.

(٢) أخرجه مسلم، (ج٣/ ص١٥٠٢).

وجوهُهُم مثلُ القمرِ ليلةَ البدر، ثم أتوا بكراسي من ذهب فقعدوا عليها، وأتوا بصَحفة فأكلوا منها، فما يقلّبونها لشقٍّ إلا أكلوا فاكهة ما أرادوا. وجاء البشير من تلك السرية فقال: كان من أمرنا كذا وكذا، وأُصيب فلانٌ وفلان، حتى عدَّ اثني عشر رجلاً، الذين عَدَّتِ المرأةُ، فقال رسول الله ﷺ: «عليَّ بالمرأة، قُصِّي على هذا رؤياكِ» فقصَّت، فقال: «هو كما قالت»[1].

أنهار الجنّة غزيرة متدفّقة:

أنهار الجنّة الجارية، على اختلاف أصنافها، لا تنضب، ولا تتوقّف أبداً، بل هي غزيرة متجدّدة على الدوام، وتغذّيها روافد عظيمة، تصبّ فيها بغزارة. وأصول هذه الروافد من بحار عظيمة؛ فأنهار الماء تنشقّ من بحر الماء، وأنهار اللبن تنشقّ من بحر اللبن، وأنهار الخمر تنشقّ من بحر الخمر، وأنهار العسل تنشقّ من بحر العسل، قال رسول الله ﷺ: «إنّ في الجنّة بحر الماء، وبحر العسل، وبحر اللبن، وبحر الخمر، ثم تشقّق الأنهارُ بعد»[2].

وفي الجنّة أنهار وبحار أخرى، لم تر عينٌ مثلها ولم يخطر على بشر.

كما وردت أحاديث تبيّن المكان الذي توجد فيه هذه البحار العظيمة التي تغذّي أنهار الجنّة المتجدّدة الكثيرة، وأنّها تتفجّر بقوّة من الفردوس الأعلى، ثمّ تسيل باتجاه منازل أهل الجنّة على اختلاف درجاتهم، بمنظر بديع لا يعلمه إلا الله تعالى، قال ﷺ: «إنّ في الجنّة مائة درجة، أعدّها الله

(١) أخرجه الإمام أحمد، (ج٣/ ص٢٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي، من حديث حكيم بن معاوية عن أبيه، (ج٤/ ص٦٩٩). وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنّة بإسناد حسن، (ص٨٨).



للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنّه أوسطُ الجنّة، وأعلى الجنّة، فوقه عرش الرّحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنّة»[1]. وعن سمرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «الفردوس: ربوة الجنّة، وأعلاها، وأوسطها، ومنها تُفجَّر أنهارُ الجنة»[2].

بل ورد تحديد أدقّ للمنابع التي تتفجّر منها هذه الرّوافد العظيمة للبحار الكبيرة في داخل الفردوس ذاتها، وأنّها من تحت جبال عظيمة، مشهورة عند أهل الجنة بجبال المسك!! عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنّة تفجّر من تحت تلال، أو من تحت جبال، المسك»[3].

فهي بحار عظيمة جداً، منبعها يتفجّر بقوّة من تحت جبال المسك التي لا تخفى شهرتها عند أحد من أهل الجنّة.

وهذه الرّواية المهمّة مع ما تمدّنا به من معرفة دقيقة لمنبع أنهار الجنّة، فإنّها تُظهر كذلك منظراً فريداً يتلذّذ أهل الفردوس بالنّظر إليه، وهو غزارة الماء، وتدفّقه بقوّة من تحت جبال المسك، حتى لكأنّه، بصوته وارتطام أمواجه، يشبه الانفجار الكبير، إضافة لجمال آخر ولذّة أخرى تتمثّل في خروجه مطيّبًا، زكيّ الرائحة من جذور جبال المسك. والمسك أطيب الطيب، ومنه تُشاب أنهار الجنّة مع دفقتها الأولى، ثم يصحبها العبق الزكيّ، مروراً بأشجار الجنّة وتعرّجات مروجها، حتى تصبّ في البحار العظيمة القريبة من هذه الجبال، ومنها إلى أماكن جريها الكثيرة الأخرى في درجات الجنّة، ويظلّ العبق الزكيّ يحفّها ويزفّها في رحلتها البهيّة إلى

(١) أخرجه البخاري، من حديث أبي هريرة، (ج٣/ ص١٠٢٨).

(٢) أخرجه الإمام أحمد، (ج٤/ ص٣١).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، (ج١/ ص٦٥).

روافد الأنهار والجداول في الدرجات العليّة، كما تُزَفّ العروس إلى خِدرها، حتى تصل في آخر المطاف إلى بساتين القصور، ومنها إلى كؤوس الغلمان، لتدار بعد ذلك على السّعداء في مجالسهم الكريمة، وتستقرّ في مكنون الطيب الخالص الذي طهّره الله تعالى وزكّاه.. فيا لها من رحلة نقيّة، ما أجملها! ودورة حياة ما أبهجها!

ماء الجنّة عذب لا يتغير!

ما في الجنّة شيء من مسبّبات التغيّر أو موجبات التعفّن والكدر، كما كان يحدث في الدّنيا؛ فالجنّة دار الطيب الخالص، وهي مطهّرة من الأذى والحشرات، والبكتيريا والميكروبات، وما فيها استحالة النّعيم الطاهر أو النضيج أو النظيف أو الطازج إلى ضدّه، لا بسبب طول المُكث، ولا بسبب تغيّر درجة الحرارة وتلوث الهواء، بل على العكس من ذلك.. لا يزيد طولُ مكث النّعيم في الجنّة إلا نعيماً، ولا الطيّب إلا طيباً، ولا الطاهر إلا طهارة، ولا الجميل إلا بهاء وجمالاً، ولا اللذيذ إلا لذّة وحلاوة! وكلّ ما يحيط بأهل الجنّة.. من مطعوم ومشروب وملبوس.. نقيٌّ بارد، وطاهرٌ مطيّب، ونضيج لذيذ طازج، وزكيّ عذب نمير، أو فاخر ليّن ثمين.

والنّقاء باقٍ في الأكواب والكؤوس، وإن دارت على السّعداء في المجالس، وتعاطوها فيما بينهم على بساط المودّة والتكريم. ومع أن من مهامّ الغلمان في تعاهد الأكواب والآنية.. التنظيم والترتيب والتقديم، فلا يبعُدُ كذلك، والله أعلم، أن يتعاهدوها بالغَسل.. لا غَسْل تنظيف وتطهير؛ كما كان يحدث مع أكواب الدّنيا وآنيتها؛ إذا أصابها التغيّر بعد الشرب، ولكنّه غَسل آخر لا يعدو إزالة ما في الإناء من مادّته السابقة فحسب، وإلا فلكلٍ آنيته الخاصّة،



ولو ترك أحد السّعداء كوبَ الماء أو اللبن أو الخمر على حاله لظلّ طاهراً نظيفًا نقيًا، أبد الآباد، كما كان! بل إنّ بقاء مادّة الطعام والشراب في الإناء أدعى لزيادة نقائه وطيب رائحته وعذوبة طعمه، بخلاف ما كان في الدّنيا!!

وكما كان يستحيل الطّاهر إلى ضدّه في الدّنيا، بطول اللبث، أو التعرّض للهواء؛ فإنّ هواء الجنّة الطيّب المطيّب لا يزيد الممازج والمخالط له إلا طيبًا! وما بالك بمعدن نقيّ طاهر، يُصب فيه سائل نقيّ طاهر، يُقدّم على أطباق الذهب والفضة التي لا أصفى منها، ويرشفه السّعيد بشفتين مطيّبتين عذبتين، ويجيله في فم يحرّكه لسان غاية في الطيب والطهر، ثم يُترك الكأس والشراب بعد ذلك على حاله، في دارٍ هي معدن اللذة والطيب، والنقاء!! أفيصيب هذا الإناء تغيّرٌ يعاف شاربه من بعده؟ أم أنّ منظومة الطهر هذه تكسبه نقاءً وطيبًا ولذّة جديدة.. أجمل وأزكى، وأعذب وأحلى؟!

ولهذا فلا تعجب إذا سمعت عن تعاطي السّعداء الكؤوسَ في مجالسهم، على حال من الرّضى القلبي.. بصفاء المودة والأرواح، واستشعار الأنس الاجتماعي بلذيذ الصحبة والمجالسة وجميل الحديث، مع كمال اللذّة في مذاقات الشراب ونكهته، واستشعار تمام الطهر، والنقاء الحسيّ.. بطهارة الأفواه والشراب، والآنية والأكواب، والهواء، والثمار، والأشجار(١).

---

(١) أهل الجنة في دار نقاء وطهر، لا يمكن أن يتصوّره بعدُ أهل الدّنيا، الذين أزعجهم دخول الوسواس في غسل آنيتهم، وتغطية طعامهم، وتطهير أكوابهم، وتنظيف أجسادهم وأطرافهم، وتعقيم دورات مياههم، ومعدّات جراحاتهم؛ لئلا تدبّ فيها البكتيريا والميكروبات والفيروسات، أو تسقط فيها القاذورات والحشرات.

وتعاطي أهل الجنّة السّعداء كؤوس الشراب في مجالس الأنس والصفاء نعيمٌ كذلك من جملة النّعيم الذي لا خَطَر له، قال الله تعالى واصفاً حال السّعداء وهم حول مائدة عامرة من موائد الجنّة في سياق النّعيم المقيم: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٢ - ٢٣].

وجمال هذا المشهد يظهر في تشويقه؛ حيث يبدأ بعرض موائد الطّعام الكثيرة العامرة.. ثم ينقلك مباشرة لمشهد الغلمان وهم يمدّون هذه الموائد ويحملون الأطباق الفاخرة، وعليها صنوف الفاكهة اللذيذة، ثم يضعونها على المائدة التي أودع فيها من كلّ صنف لذيذ. وفي المشهد تركيز على الوجبة الرئيسة في هذه المائدة، وهي اللحم، بأنواعه الكثيرة.. من أسماك وأطيار وأنعام.. على صحون خاصّة تتوسّط المائدة، بطريقة الإعداد التي يشتهونها.. مشويّاً أم حنيذاً أم نحوه، وهم في حال أكلهم.. يطوف عليهم الولدان المخلدون بكؤوس الرّحيق المختوم، والخمر اللذيذ! وكلّ سعيد منهم يقدّم أخاه في أحقّيّة الشرب قبله؛ فما إن يناوله الغلام كأساً إلا وناوله من بجواره.. تقديراً وإكراماً، على حال من الأمن والسّلامة التامّة من كلّ لغو وتأثيم[1] حسّي.. في أقوالهم وشرابهم وطعامهم، ومعنويّ في قلوبهم ومشاعرهم، وليس في الجنّة إلا السلام والطيب الذي تُسرّ به النفوس، وتفرح له القلوب.. نسأل الله الكريم من فضله.

---

(١) الفرق بين اللغو والتأثيم، أنّ كليهما يطلق على الكلام الذي لا فائدة فيه، ويضاف في التأثيم حصول الإثم.



مَبَاهِجُ الغُرَفِ والْخِيَامِ

حين يتبدّى لأهل الجنّة مقدّمات النّعيم، وتغمرهم حقائق السعادة والفرحة وتلوح في أذهانهم ذكريات الأيام الخالية، مقرونة بحقائق الدّنيا الفانية، تتجلّى أمامهم آثار رحمة ربّهم سبحانه؛ حيث بصّرهم بعاقبة المآل، وثبّتهم على الطيّب الحلال، ونجّاهم من المحرّمات، وعصمهم من المشتبهات، وهداهم للطيب من الأقوال والأعمال.

ورفعة النّعيم تظهر في طيب السكنى بدار القرار؛ فالمساكن عالية، والخيام فارهة واسعة، والغرف مبنية بطراز فريد لا مثيل له، والغلمان كاللؤلؤ المنثور، جمالاً وحركة.. يذرعون القصر جيئة وذهاباً؛ محمّلين بآنية الذهب والفضة، على كمالات التنظيم والترتيب. والسعداء على حال الرّغد والبهجة يعلمون أنّ كلّ ما حولهم، وما خفي عنهم، إنّما هو بعض عطاء ربّهم الكريم وإنعامه، وجوده وإحسانه، حيث أنالهم فوق ما يستحقون، وأكرمهم بما لم تر أعينهم، ولم تسمع آذانهم، ولم يخطر على قلوبهم.

المساكن الطيبة:

إذا اقترب السعيد من قصره المنيف.. ولاحت شُرفاته الجميلة، وتماوجت أشجار بساتينه الخضراء البهيّة، واستقبلته أبوابه الضخمة، ودّعه المَلَك الذي كان يرافقه وانصرف عنه. فيدخل السّعيد وهو يعرف منزله، ويتلقاه الولدان فيستبشرون برؤيته كما يستبشر الأهل بالحميم يقدُم من الغيْبة، فينطلقون إلى أزواجه فيخبرونهنّ بقدومه، فيقلن للخادم: أنت رأيته؟ فيقوم السعيد إلى الباب فيدخل بيته فيتكئ على سريره، فينظر إلى أساس بيته فإذا هو قد أسّس على اللؤلؤ، ثم ينظر في أخضر وأحمر وأصفر، ثم يرفع رأسه إلى سماء بيته، فلولا أنّه خُلق له لالتمع بصرُه، فيقول: «الحمدُ لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله»[(١)].

لسانه في هذه اللحظات لا يفتُر عن حمد الله تعالى والثناء عليه، وهو يستعرض بعض فضل ربّه وكرمه وإنعامه؛ حيث نجّاه وأدناه، ثم أحلّ عليه رضوانه وأدخله الجنّة، وها هو برحمة ربّه يجد الأمان في قلبه، ويسمع ويرى من جمال الدار العليّة، وحسن الاستقبال على أبوابها، وفخامة الحياة الرغيدة.. ما لا قُدرة له على إحصائه وشكره.

ولذّة السّكنى في دار النّعيم تتنوّع وتبهج أهل الجنّة، فما بين متعة الكثرة والهدوء؛ وما بين جمال التصميم والسّعة والفخامة.. فهذا قصر مشيّد من قصب الذهب، وتلك قباب مجوّفة من اللؤلؤ الخالص، وهذه خيامٌ عالية! وبداخل هذه الخيام والقباب والقصور.. غُرفٌ وحُجُرات، ومرافقُ وممرّات، وأدوارٌ وشُرفات.. يحارُ العقل في وصف جمالها!

---

(١) حادي الأرواح، (ج١/ ص٤٥).



ومع بهجة المسكن في ذاته، تزداد لذّة النّعيم بالنظر في نفيس مقتنياته، وبديع نظامه وجميل بنائه؛ فالأنهار تجري من تحت الغرف العالية، والبساتين الغنّاء تلقي بظلالها داخل القصور، وتتدلّى أغصانها بأطيب الثمار، والغُرف الكريمة، والساحات الواسعة الفارهة.. مزيّنة من الداخل بثمين الآنية، وجميل الأثاث، وبهيج الألوان، وكريم الوسائد والسرائر، والأرائك والمياثر.. نعيم فوق النّعيم، ومُتعة تتمّ بها راحة المقيم، وتزداد غبطته.. أبد الآباد!

ومساكن أهل الجنّة طيّبة القرار.. حَسَنة البناء، يطيب لأهلها المقام بها، في ظلّ الرّوْح والريحان، والرحمة والرضوان. قال الله عز وجل: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

ولو تخيّل الآدمي المسكين كلّ صنوف الطيب والحُسن، والبهاء والجمال، في أفخم منازل الدّنيا وفنادقها وقصورها فإنّ ذلك لا يعدو ذرّة هباءٍ واحدة في جنب ما يجده أدنى أهل الجنّة منزلة، في حُجرة واحدة بداخل قصره الكبير، من بين المنازل الكثيرة، والقصور والخيام الفارهة التي يملكها، وله فوق ذلك ما يشتهي من الممالك والحور، والخيام والقصور!!

وهذه المساكن جمعت في ذاتها وصفاتها كلّ طيبٍ يتّصل بجميل السّكنى، من: السعة والرّفاه، والطُهر والمتعة، والعلوّ والزخرفة، وحسن البناء، وعَبق الطّيب، ونفيس الآنية، وجميل الثياب، وفخامة الديباج والحرير، ولذّة الثمار، ومتعة الإقامة، والنسائم الزّكية التي تتهادى عبر الشُرُفات والنوافذ، محمّلة بعبق الأشجار، مع ما يغمر المكان من جميل

الأصوات، وتناسق الألوان والأنوار، ونعومة الأرائك والزّرابيّ، وبديع الآنية والتحف.. على اختلاف أشكالها، متوافقاً مع الذوق الرّفيع، والجوّ العام داخل القصر وخارجه، نسأل الله الكريم من فضله.

وفي هذه المساكن الطيّبة من السّعة والتكريم، والتّحف والتنظيم، والإضاءة والتصميم ما لا يقدر على وصفه الواصفون، ولم يخطر على قلب أحد من العالمين.

ومع أنّ سائر المساكن.. بغرفها وخيامها مؤّثثة وفق الذّوق الرفيع الذي لا مثيل له، فإنّ لكلّ سعيد بعد ذلك خصوصيته التي يشاء؛ فله أن يضيف في أثاث مسكنه ما شاء، ويزيّنه بما شاء، ويغيّره متى شاء، بالطريقة التي يريد، وله أن يعيد توزيع المجالس والمقتنيات؛ فيقرّب هذه التحفة الثمينة قليلاً، ويضيف شيئاً في تلك الزاوية، ويبسط الزرابيّ هاهنا، ويزيد من عدد القناديل هناك.. بما يناسب ذوقه، ويوافق رغبته!

ومن كان صاحب مهنة في الدّنيا أضاف في منزله لمسات جديدة، على درجة من كمالات المهنة وخاماتها لا تخطر على قلب بشر؛ فللنّجّارأن يُبدع في تزيين مساكنه الفخمة الكثيرة بإضفاء لمساته الخاصّة بخامات الجنّة وكمالات التعامل معها: تصميماً وقطعاً، وصبغاً ولصقاً، على درجة من الإتقان والجمال لا يمكن أن يتخيلها عباقرة النّجارة من أهل الدّنيا!! وكذلك الرّسام، والمهندس والمصمم، والمتخصص في فنّ الطلاء، ونحوهم.. لكلّ لمسته الخاصّة وذوقه الرّفيع في تأثيث مسكنه، وإضافات لمساته الخاصّة عليه كما يشاء. ولهذه الخصوصية لذّة بهيجة وتنوّع فريد، يجدها الزائرون والضيوف في أشكال المجالس الكثيرة المتنوّعة التي يعقدون فيها اجتماعاتهم بين الحين والآخر.. عند هذا السّعيد أو ذاك!



ولو نظر الصالحون من أهل الدّنيا لِما أعدّه الله تعالى لهم في دار النّعيم من: المساكن والملبوسات، والمطاعم المشروبات، والمراكب والزوجات، ومن رغد العيش ولذّته، ورفاه السُّكنى وسعادتها.. لما طاب لهم المُقام في الدّنيا، ولا الحَزَن على ما فات منها، ولما اشتدّ فرحهم بما جمعوا من رخيص متاعها، ولا تعلّق قلب عاقل منهم بغير مولاه، ولا زاغ عقله عن الصواب جراء تحكّم القوّة الغضبية، ولا طاشت بصيرته لفرط القوّة الشهوانية[1] ولا دلّس مدلّس، ولا طفّف مطفف، ولا ارتشى وغشّ وكذب أحدٌ، من أجل ذرّة هباء زائلة، لا قيمة لها في جنب نعيم مقيم لا نفاد له أبد الآباد.

وكلّ بقعة في الجنّة، مهما كانت يسيرة، تعدل ملك الدنيا بأكمله، فكيف ولأهل الجنّة من الممالك ما لا يحصونه عدداً؟! عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنّ في الجنَّة لشجرةً يسيرُ الرّاكبُ في ظِلِّها مائةَ سنةٍ، واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمۡدُودٍ﴾، ولقاب قوسُ أحدكم في الجنّةِ خيرٌ مما طلعت عليه الشمس أو تغرب»[2].

---

(١) وهذه الثلاثة: (تعلّق القلب بغير الله تعالى، وطاعة القوة الغضبية، والقوة الشهوانية) هي أصول المعاصي كلها، كبارها وصغارها، ومنها ينبعث الشرك، الذي غايته التعلّق بغير الله، والقتل، الذي غايته طاعة القوة الغضبية، والفواحش بأنواعها، التي غايتها الاستسلام للقوة الشهوانية، ولذا جمع سبحانه بينها في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾. (بتصرف من: كتاب الفوائد، لابن القيم رحمه الله، ج١/ ص٨٠).

(٢) أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١١٨٧). وفي هذا الحديث ملمح بياني جميل فبعد أن ذكر هذه المسافة الشاسعة في أرض النعيم ناسب أن يذكّر أنّ البقعة اليسيرة منها خير وأحب.

رفعة المنازل وعلوّها:

درجات أهل الجنّة تتفاوت في رفعتها وحُسنها بحسب أعمالهم الصالحة ومكانتهم عند ربّهم: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوٓاْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾[الأنعام: ١٣٢] ولكلّ حظّه الأوفر من النّعيم والرّغد: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةً وَرَحۡمَةًۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ٩٦]. ومع كثرة المباهج في داخل القصور، إلا أن السّعداء يجدون في اجتماع الشعور بالرّفعة والعلوّ والرّفاه لذّة متجدّدة تزيد من قيمة السكنى في المنازل الكريمة.

والملائكة الكرام تشير إلى هذا التفاوت في الدّرجات، وهي ترحّب بالسّعداء على أبواب الجنّة، قائلة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[النحل: ٣٢]. عن أبي سعيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ أهلَ الدّرجات العُلى ليراهم مَن تحتَهم كما ترون النّجم الطالعَ في أفق السماء، وإنّ أبا بكر وعمر منهم وأنعما»[(١)].

وأرفعُ درجات الجنّة وأشرفها، وأقربها من منازل النبيين والصديقين والشهداء: الفردوس، سمّيت بذلك لكثرة بساتينها وأشجارها[(٢)]. قال الله جلّ جلاله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾[الكهف: ١٠٧].

ومن شرف هذه المنزلة الرّفيعة أن آدَم عليه الصلاة والسلام نزل فيها يوم أدخل الجنّة[(٣)]. وممن يحظى بها على وجه الخصوص: المجاهدون

(١) أخرجه الترمذي، (ج٥/ ص٦٠٧).

(٢) قال بن جرير رحمه الله: الفردوس هو البستان بالرومية. (تفسير الطبري ج١٦/ ص٣٦).

(٣) ذكره الحافظ في الفتح، وعزاه إلى رواية ثابت عند سعيد بن منصور من قول آدم يوم القيامة، حين يسأله الخلائق الشفاعة: «إني أخطأتُ وأنا في الفردوس، فإن يُغفر لي اليوم حسبي»، (ج١١/ ص٤٣٣).



في سبيل الله تعالى، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.. إيمانـًا واحتسابًا، عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من آمَنَ بِالله وَبِرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ؛ كان حَقًّا على الله أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، جَاهَدَ في سَبِيلِ الله أو جَلَسَ في أَرْضِهِ التي وُلِدَ فيها»، فَقَالُوا: يا رسول الله، أَفَلَا نُبَشِّرُ الناس؟ قال: «إِنَّ في الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا الله لِلْمُجَاهِدِينَ في سَبِيلِ الله، ما بين الدَّرَجَتَيْنِ كما بين السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ. فإذا سَأَلْتُمُ الله فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فإنّه أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرحمن، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»[1]. وعن كعب ﵁ قال: ليس في الجنان جنّة أعلى من جنة الفردوس، وفيها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر[2].

وممن بُشَّر بهذه المنزلة السنيّة، والدّرجة المباركة العليّة حارثة بن سراقة بن الحارث بن عدي الأنصاري البدري ﵁، وكان يومها غلامـًا حَدثـًا فجاءه سهم فقتله، عن أَنَسُ بن مَالِكٍ ﵁ أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ الْبَرَاءِ ﵂، وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ بن سُرَاقَةَ أَتَتْ النبي ﷺ فقالت: يا نَبِيَّ الله، ألا تُحَدِّثُنِي عن حَارِثَةَ، وكان قُتِلَ يوم بَدْرٍ أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ، فَإِنْ كان في الْجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كان غير ذلك اجْتَهَدْتُ عليه في الْبُكَاءِ. قال: «يا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ في الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأعلى»[3].

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١٠٢٨). قال بن حجر رحمه الله: وفي الحديث فضيلة ظاهرة للمجاهدين، وفيه عِظَم الجنة، وعِظَم الفردوس منها، وفيه إشارة إلى أنّ درجة المجاهد قد ينالُها غير المجاهد، إمّا بالنيّة الخالصة، أو بما يوازيه من الأعمال الصالحة؛ لأنه ﷺ أمر الجميع بالدعاء بالفردوس بعد أن أعلمهم أنه أعد للمجاهدين. (فتح الباري ج٦/ ص١٣).

(٢) تفسير الطبري ج١٦/ ص٣٦).

(٣) أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١٠٣٤). والسهم الغَرْب: هو المجهول، الذي لا يُدرى مصدره.

ومما يُظهِرُ شرف المصطفى ﷺ أنّه أُتي بالمعراج من هذهّ الدّرجة الرّفيعة.. من الفردوس الأعلى، جيء به منضّداً باللؤلؤ، وعن يمينه ملائكة، وعن يساره ملائكة(١).

مقام الرِّضى المحمّديّ:

أكرمُ أهل الجنّة منزلة، وأرفعهم قدراً.. محمّد ﷺ. ومن شرفه: اختصاص الله تعالى له بالمقام المحمود، وبالمكانة والعلوّ والرّفعة؛ فهو بين ولد آدم السيّد المكرّم، وهو بين النبيين الإمام المُقدّم(٢)، الذي أظهر شرفه في الملأ الأعلى حين عرج به إلى السّماء، ثم لم يزل يعلو به ويعلو حتى بلّغه درجة رضيّة، وأنزله بقعة قدسيّة عليّة.. لم تطأها قدم، ولم يخفق فيها جناح!

ومنازل نبيّنا محمّد ﷺ في الجنّة رفيعة القدر.. في ذاتها ودرجاتها؛ مصداقاً لما وعده خليله سبحانه، بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]. وقد أخبر ﷺ أنّ النبي لا يُقبَضُ حتى يرى مقعده من الجنّة؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول وهو صحيح: «إنّه لم يُقبَض نبيٌّ قطُّ حتى يرى مقعده في الجنّة، ثم يُخيَّر» قالت: فلما نُزل برسول الله ﷺ ورأسُه على فخذي، غُشي عليه ساعةً ثم أفاق، فاشخص بصَره إلى السّقف، ثم قال: «اللهم الرّفيق الأعلى». قالت عائشة رضي الله عنها: قلتُ إذاً لا يختارُنا، وعرفتُ الحديثَ الذي كان يحدّثنا به وهو صحيحٌ في قوله: «إنّه

(١) فتح الباري، (ج٧/ ص٢٠٨).

(٢) حيث جمعهم الله له في بيت المقدس، ليلة الإسراء، فصلّى بهم بعد نزوله من السماء، قبيل عودته إلى مكّة.



لم يُقبَض نبيٌّ قطُّ حتى يرى مقعده في الجنّة، ثـم يُخيَّر» قالـت عائشـة رضي الله عنها: فكانـت تلـك آخرَ كلمـةٍ تكلّـم بهـا رسـول الله ﷺ قولـه: «اللهـم في الرّفيـق الأعلى»[1].

كمـا أخـبر ﷺ عـن مقامـه المحمـود في عرصـات القيامـة، وعـن مقـام الرّضى في الجنّة، وأنّه في الرّفيـق الأعلـى.. بمنزلـةٍ فريـدة اختصّـه الله تعـالى بها، لا ينافسه فيها أحدٌ من بني آدم؛ فقـال ﷺ: «إذا سـمعتم المـؤذّن فقولـوا مثل ما يقول، ثم صلّوا عليّ فإنّه من صـلّى علـيّ صـلاة؛ صـلّى الله عليـه بهـا عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنهـا منزلـة في الجنّـة لا تنبغـي إلا لعبـدٍ مـن عبـاد الله، وأرجـو أن أكـون أنـا هـو؛ فمـن سـأل لـي الوسـيلة حلّـت لـه الشفاعة»[2].

وأخـبر جـلّ شـأنه عـن بعـض صـور النّعـيم الموجـودة في هـذا المقـام الكريم، الذي يظهر فيه الخيـر الكثيـر، والبهجـة والرغـد، والجنّـات الغنّـاء، والأنهار الجارية، والقصـور الفارهـة التي لا مثيل لها في سائر المنازل، فقـال جـلّ شـأنه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾[الفرقان: ١٠].

وقد أخبر ﷺ أنّـه دخـل الجنّـة، وسـار في ملكـه العظـيم، برفقـة جبريـل عليه الصلاة والسلام، وأنّه رأى قصره الأبيض، وأبصر نهـره.. نهـر الكـوثر، ووصفهما لأصحابه أبلغ الوصـف، فقال ﷺ: «بينما أنا أسير في الجنة إذا أنا بنهر حافّتاه قباب الدرّ المجوّف، قلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هـذا الكـوثر

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٦١٣)، ومسلم، (ج٤/ ص١٨٩٤).

(٢) أخرجه مسلم، (ج١/ ص٢٨٨) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

الذي أعطاك ربّك، فإذا طينه (أو طيبه) مِسكُ أذفر»[1]. وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني الليلة آتيان، وإنهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق. وإني انطلقت معهما» وفيه: «فانطلقنا، فأتينا على روضة مُعتمة، فيها من كلّ لون الربيع، وإذا بين ظهري الرّوضة رجلٌ طويلٌ لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء، وإذا حول الرّجل من أكثر ولدان رأيتهم قطّ، قال: قلت لهما: ما هذا؟ ما هؤلاء؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق. قال: فانطلقنا، فانتهينا إلى روضةٍ عظيمةٍ، لم أر روضةً قطّ أعظمُ منها، ولا أحسن. قال: قالا لي: ارقَ فيها، قال: فارتقينا فيها، فانتهينا إلى مدينةٍ مبنيةٍ بلبِنِ ذهبٍ ولبِنِ فضّة، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففُتِحَ لنا فدخلناها، فتلقانا فيها رجالٌ شطرُ من خلقِهم كأحسنِ ما أنت راءٍ، وشطرٌ كأقبح ما أنت راءٍ، قال: قالا لهم: اذهبوا، فقعوا في ذلك النهر، وإذا نهر معترضٌ يجري كأنّ ماءه المحضُ في البياض، فذهبوا، فوقعوا فيه، ثم رجعوا إلينا قد ذهبَ ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة، قال: قالا لي: هذه جنّة عدن، وهذاك منزلك، قال: فسما بصري، صُعُداً، فإذا قصرٌ مثلُ الربابة البيضاء، (أي: السحابة)، قالا لي: هذاك منزلك، قال: قلت لهما: بارك الله فيكما، ذراني فأدخله، قالا: أمّا الآن فلا، وأنت داخله، قال: قلت لهما: فإنّي قد رأيتُ منذ الليلة عجباً، فما هذا الذي رأيت؟ قال: قالا لي: أما إنّا سنُخبرك» وفيه قولهما: «وأما الرّجلُ الطويل الذي في الروضة فإنّه إبراهيم، وأما الوّلدان الذين حوله فكلّ مولودٍ مات على الفطرة». فقال بعض المسلمين: يا رسول الله، وأولاد المشركين؟ فقال ﷺ: «وأولاد المشركين.

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٤٠٦) عن أنس.



وأمّا القومُ الذين كانوا شطراً منهم حَسَن، وشطراً منهم قبيح، فإنّهم قومٌ خلطوا عملاً صالحاً وآخرُ سيئاً، تجاوز الله عنهم»[1].

كما أخبر ﷺ عن ألفِ قصر فريدٍ في مادّة بنائه، وفي صنوف النّعيم بداخله، وله فوق ذلك ما لا يُحصى كثرةً، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: عُرض عليَّ ما هو مفتوحٌ لأمّتي بعدي فسرّني، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ أعطاه الله في الجنّة ألفَ قصرٍ من لؤلؤ، ترابها المسك، في كل قصر ما ينبغي له)[2]. أي: من الحور والغلمان، والتحف والرّفاه، والنعيم المقيم.

فإذا علمنا أنّ منابع أنهار الجنّة تتفجّر من تحت جبال المسك في الفردوس الأعلى، كما سبق، وتحقّق أنّ منزلة سيدنا رسول الله ﷺ في أعلى الدرجات وأشرفها، فلا يبعد أن يكون مصبُّ نهر الكوثر من قرب قصوره، أو قريباً منها، وحوله أو قريباً منه مجلس لرسول الله ﷺ مع الصفوة من إخوانه الأنبياء أو أصحابه الأوفياء، وأتباعه الأجلاء.. ثم يأخذ النهر من هناك مسيره باتجاه منازل الجنّة، على اختلاف درجاتها. والله أعلم بحال النعيم، وكرامة السادة المتقين في بلاد الأشواق.

جوار السّعادة:

من أشرف السعداء حالاً ومآلاً من يحظى بقرب نبيّ الله محمد ﷺ في منازل الأفراح، جزاء حبّه إياه، واتّباع سنّته في الدنيا. والنّاس، من حيث القرب الحسيّ من مجالسه ﷺ يوم القيامة، على درجة القرب المعنوي منه

(١) أخرجه البخاري، (ج٦/ ص٢٥٨٣).

(٢) انظر: السلسلة الصحيحة، (ح٢٧٩٠).

في الدنيا؛ فمن تملّك حبُّ النبي ﷺ قلبَه، وشغله الشوق إليه، حتى كان من أكثر الناس صلاةً وسلامـًا عليه، ثم وَفَى بالعمل الصالح الذي يقرّبه من تلك المنازل العالية، بقدر طاقته ووسعه، واجتهد بكثرة الصلاة والسجود خاصّة، وبالصدقة والإحسان للخلق، والتزم سنة حبيبه، واقتفى أثره، واتّبع هديه، ولم يبتدع بدعة يستحقّ عليها العتاب، والطّرد، والحرمان من اللحاق بمنازل المقربين، وإن دخل الجنّة.. من كان هذا حاله؛ كان أقرب السعداء من المجالس العليّة والمنازل الرّضيّة، وأولاهم به ﷺ في الدنيا والآخرة.

وكم شَغَل الصادقينَ في حُبِّ محمدٍ ﷺ التفكيرُ في بُعد المنازلِ عن حبيبهم في الجنة إذا دخلوها، وبخاصّة من نَعِم بالنظر إليه وأَنِس بالحديث معه من أصحابه، حتى إنّ أحدهم ليكون في بيته، مع أهله وولده، ثمّ يتفكّر في هذا البُعد فيشتدّ حزنه لذلك. عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، والله إنّك لأحبُّ إليّ من نفسي، وإنّك لأحبُّ إليَّ من أهلي، وأحبُّ إليَّ من ولدي، وإنّي لأكونُ في البيتِ فأذكُرُك فما أصبر حتى آتيكَ فانظر إليك، وإذا ذكرتُ موتي وموتك عرفتُ أنَّكَ إذا دخلتَ الجنَّةَ رُفعت مع النبيين، وإنِّي إذا دخلتُ الجَنّة خشيتُ ألا أراك. فلم يردَّ عليه النبي ﷺ حتى نزل جبريل بهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾[النساء: ٦٩ - ٧٠][(١)]. وعن عبدالله بن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: جاء رَجُلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، (ج١/ ص١٥٣).



كَيْفَ تَرَى فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ قال رسول الله ﷺ «الْمَرْءُ مع من أَحَبَّ»[1].

رفعة منازل المحبّين العاملين:

منازل الأصحاب في الدنيا لن تفترق في الجنّة، ومجالسهم في الآخرة أرغد وأنعم، وأقرب وأكرم. وأشرفهم رسول الله ﷺ وصاحباه الذيْن لن يفترقا عنه بأجسادهما ومجالسهما. عن أَنَسِ بن مَالِكٍ خادم رسول الله ﷺ، وأعلم الناس بحاله قال: جاء رَجُلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله مَتَى السَّاعَةُ؟ قال: «وما أَعْدَدْتَ لِلسَّاعَةِ؟»، قال: حُبَّ الله وَرَسُولِهِ. قال: «فَإِنَّكَ مع من أَحْبَبْتَ». قال أَنَسٌ: فما فَرِحْنَا بَعْدَ الْإِسْلَامِ فَرَحًا أَشَدَّ من قَوْلِ النبي ﷺ: «فَإِنَّكَ مع من أَحْبَبْتَ». قال أَنَسٌ: فَأَنَا أُحِبُّ الله، وَرَسُولَهُ، وَأَبَا بَكْرٍ، وَعُمَرَ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ، وَإِنْ لم أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ[2].

وهذا من فقه أنس رضي الله عنه، فإنّه قرن في حديثه بين منازل هؤلاء الصحب الثلاثة، ثم أعقب طمعه في اللحاق بمنازلهم؛ لحبّه إيّاهم، وإن لم يعمل بعملهم؛ وما ذاك إلا لعلمه بأنّ هؤلاء الصحب الكرام لن تفترق منازلهم، ولن تبتعد مجالسهم وقصورهم في الآخرة، كما لم تفترق في الدنيا، وثقته بأنّ أقرب الناس منزلة لرسول الله ﷺ في الجنّة: مَن كان أحبّهم إليه في الدنيا، وأدناهم مجلسًا وأقربهم منه.. أحياء وأمواتًا: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وعثمان وعلي، وسائر العشرة المبشرين رضي الله عنهم أجمعين، واللهُ أعلم بمنازل السعداء وأعطياتهم. ومما يؤكد ذلك ورود تخصيص اثنين

(١) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص٢٠٣٤).

(٢) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص٢٠٣٢).

من هؤلاء العشرة بجوار السعادة هذا، فعن علي ﵁ قال: سمعت أذني من فِي رسول الله ﷺ وهو يقول: «طلحة والزبير جاراي في الجنة»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ في الحديث السابق، وقول الصحابي: «لم أَعْمَلْ بِأَعْمَالِهِمْ» «وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ»، يفيد بأنّ جوار السعادة هذا لا ينالُه إلا من كان صادق الشّوق، وصادق العمل معـًا، أما من كان حالُه الخمول في أحدهما فإنّه ينزلُ عن درجات هذه المعيّة بقدرِ نزوله من درجات الشوق، أو درجات العمل أو هما معـًا.

والسعداء من حيث القرب في جوار السعادة على منازل: فمنهم الصفوة من النبيين والصحب المكرمين، من ينالُ القرب بالمرافقة في درجة الفردوس.. أعلى درجات الجنّة منزلاً، وأكثرها خيراً وشرفـًا، ومنهم من ينال القرب أكثر حتى إنّه ليتراءى له من شرفات قصره، قصور النبي ﷺ وخيامه، ومنازله الكريمة، ومنهم من يحظى بنوع آخر من القرب، هو القرب من مجالس النبي ﷺ، فما إن يعقد مجلسه في ظلّ الأشجار، أو على حوافّ الأنهار، أو في بساتين قصره الكبير، العامر بكلّ لذّة؛ حتى يكون هذا السعيد ممن يُدعى للحضور، وينال شرف المجيء الميمون، والأنس في مجلس السادة المتقين.. نسأل الله الكريم من فضله.

وكل درجة من درجات القرب هذه: قرب الدّرجة، وقرب المنازل، وقرب المجالس، وردت فيه أحاديث صحيحة صريحة. وممن اشتُهِر خبره

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، (ج٣/ ص٤٠٩)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير، (حديث ٣٦٢٧).



في سؤال قرب المنزلة مطلقا غلام بني سلمة: رَبِيعَةُ بن كَعْبٍ الْأَسْلَمِيُّ ﵁ حيث قال: كنت أَبِيتُ مع رسول الله ﷺ فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَتِهِ، فقال لي: «سَلْ»، فقلت: أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ في الْجَنَّةِ. قال: «أو غير ذلك؟»، قلت: هو ذَاكَ. قال: «فأعنّي على نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[1].

كما أخبر ﷺ عن سمات من يحظى بالقرب الخاص في مجالسه ﷺ في الجنّة، فعن عن عَمْرِو بن شُعَيْبٍ عن أبيه عن جَدِّهِ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأحبّكم إليّ، وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة؟»، فسكت القوم، فأعادها مرتين أو ثلاثًا، قال القوم: نعم يا رسول الله، قال: «أحسنكم خلقًا»[2].

وهذا ظاهر؛ فقد أخبر ﷺ بأن منازل الأخلاق في الدرجات العُلى، عن أبي أمامة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة، لمن ترك المراء وإن كان محقّـًا، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه». فيا لسعادة أهل الخلق الجميل، والشمائل الكريمة بهذا الوعد النبوي الصادق من جوار محمّد ﷺ، وبلوغ الممالك العليّة في الجنّة.

وممن يحظى بهذا النُّزُل الكريم.. كافلُ اليتيم الذي بشّره بدرجة من القرب لا يكاد يدانيه فيها أحد؛ فعن سَهْلٍ ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا

---

(١) أخرجه مسلم، (ج١/ ص٣٥٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد، (ج٢/ ص١٨٥)، وصححه الألباني (السلسلة الصحيحة، ٢/ ٤١٨).

وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شيئًا[1].

وإذا كانت مجالس السعداء جميعـًا، حتى ذلك الذي يدخل الجنّة أخيراً.. مجالس فارهة في فخامتها، وما يقدّم للسعداء فيها، فما بالك بمجلس تعقده الملائكة لسيّد ولد آدم.. بحضور مئات، بل ألوف الضيوف المكرمين من السّادة المرسلين، ومن الصحب والتابعين، وسادة هذه الأمّة إلى يوم الدّين؟ كيف يكون قدر هذا المجلس العامر؟ وما تراه يقدّم فيه من صنوف الإكرام على بساط الأدب والنظام؟ وأيّ برنامج سيحويه من كلام سادة الدنيا والآخرة ومداخلاتهم، وما حالُ الموائد التي تُبسط لهم بعد ذلك؟ إنّ هذا فوق ما يقدر عقل الآدميّ على تخيّله، والفكر عن إدراك كنه النّعيم الذي يصاحبه!

وكما أخبر ﷺ عن أقرب الناس منزلاً من منازله، وأحظاهم بشرف الدعوة إلى مجلسه، فقد جاء في رواية أخرى نافعة زكية، كسائر الأنفاس العطرة النبوية، الحديث عن أبعدهم عنه منزلاً ومجلساً، فعن جابر رضي الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ من أحبّكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقاً. وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم منّي مجلساً يوم القيامة:

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٠٣٢). وليس المراد في هذا الحديث وأشباهه أنّ منزلتهما واحدة، بل هو أقرب لحديث: «بُعِثْتُ أنا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ». وَضَمَّ السَّبَّابَةَ وَالْوُسْطَى. (متفق عليه، أخرجه البخاري، ج٥/ ص٢٠٣١، ومسلم، ج٤/ ص٢٢٦٩). والمراد: قرب زمان مبعثه ﷺ من الساعة.



الثرثارون، والمتشدقون، والمتفيهقون». قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبّرون»[1].

منازل النبيين والصِّدِّيقين:

منازل النبيين والصدّيقين، والشهداء والمقربين، منازل شريفة عالية، تناسب رفيع مقامهم عند ربّهم، قال الله عزّ وجل: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾[الواقعة: ٨٩]. وفي مشاهد الجمال السرمدي يباين الرّحمن جلّ جلاله بين مآل السعداء ومآل الأشقياء، ثم يمايز بين منازل السابقين وأصحاب اليمين، قال تعالى: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ۝١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١ وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝٢٦ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾[الواقعة: ٨ - ٣٤] ويا لها من مشاهد عظيمة تصوّر الملك الكريم للمتّقين.. ابتدأت بالاستفهام الذي يرادُ منه تعظيمُ شأن هؤلاء السعداء، وتحقير حال أولئك الأشقياء، ثم بذكر منازل أهل السعادة أنفسهم، وتفاوت ما هم عليه من (الرَّوح)، وهو نعيم القلب وراحته واطمئنانه، و(الرّيحان) الذي يشمل لذائذ الحواس البدنية من

(١) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٣٧٠).

أنواع المآكل والمشارب وغيرها، ويدخل فيه النّبات المعروف.. طيّب الرائحة[1].

وقد جاء التصريح بخصوصية النعيم لثلّة من أصحاب النبي ﷺ الكريم عليهم الرّضوان، بما يُظهر رفيع منازلهم وعظيم شرفهم، وكريم منقلبهم عند ربّهم، فعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء.. امرأة أبي طلحة. وسمعت خشَفَة فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال. ورأيتُ قصراً بفنائه جارية، فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لعمر، فأردت أن أدخله فانظر إليه، فذكرتُ غيرتك». قال: وعليك أغار يا رسول الله [2]؟ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريلُ النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، هذه خديجة قد أتتكَ، معها إناء فيه إدامٌ، أو طعام، أو شراب. فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السّلام من ربّها عزّ وجلّ ومنّي، وبشّرها ببيتٍ في الجنّةِ من قصَب، لا صخب فيه ولا نصب»[3]. والقصب هاهنا: الدرّ الرّطب المرصّع بالياقوت، وعلى فرض كونه من الخشب فبيوت القصب الخشبيّة المزيّنة في الدّنيا بهجة للناظرين، فكيف بقصب الجنّة الذي مادّته من اللؤلؤ والجوهر، ومصّمم على درجة من الفخامة تليق بهذه البشارة التي جاء بها جبريل عليه الصّلاة والسّلام؟! ولو كان قصراً من جنس سائر القصور الفخمة في الجنّة لم تكن للبشارة به خصوصيتها الفريدة. ويشهد لذلك ما ورد من سؤال فاطمة رضي الله عنها بقولها: أمن هذا

---

(١) تفسير السعدي، (ج١/ ص٨٣٧).

(٢) أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١٣٤٦).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١٣٨٩)، ومسلم، (ج٤/ ص١٨٨٧).



القصب؟ فقال: «لا، بل من القصب المنظوم بالدرّ والياقوت واللؤلؤ»[1].

ومن القصب ما يكون منظومًا كذلك من الذّهب، وهذا ما ورد التصريح به في وصف نهر الكوثر، بقوله ﷺ: «حافّتاه قصبُ الذّهب»[2].

وليس في الجنّة مكان وضيع دنيء، فأهل الجنّة كلّهم في رفعة ونعيم، وملك ورضى، ورفاه مقيم، لا مثيل له، وإن وجد بينهم التفاوت في المنازل والدرجات! وهذا سرّ من أسرار نعيم الجنّة، عند المقارنة بين كمالاتها، وما كان عليه تفاوت أهل الدّنيا في منازلهم الوضيعة!!

منازلُ الشّهداءِ والصالحين:

المجاهدون عمومًا، والشهداء خصوصًا إذا دخلوا الجنّة ظهر فضلهم، وسمَت منزلتُهم عند ربّهم، وقد بيّن ﷺ مكانتهم تلك بوصف منازلهم، في قوله: «من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصّلاة، وصام رمضان، كان حقًّا على الله أن يُدخله الجنّة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي وُلِد فيها»، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشّرُ النّاس؟ قال: «إنّ في الجنّة مائة درجة، أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنّه أوسطُ الجنّة، وأعلى الجنّة[3]، أراه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، (ج٢/ ص١١٧)، والطبراني في الأوسط، (ج١/ ص١٣٩).

(٢) أخرجه الترمذي، (ج٥/ ص٤٤٩) وابن أبي الدنيا في صفة الجنة، ص٦٦، موقوفًا على ابن عمر، والصحيح رفعه.

(٣) وهذا يظهر أنّ بناء الجنّة العام على شكل قبّة حسنة عظيمة، قال بن القيم في نونيته عن الفردوس:

وَسَطَ الجنانِ وعُلوها فلذاك كا ... نت قبّة من أحسن البنيان

فوقه عرش الرّحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنّة»[1].

وقد ورد ما يفيد بأنّ مساكن الشهداء منازل عالية رفيعة، فعن سهل بن حنيف رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من سأل الله الشهادة بصدقٍ بلّغه اللهُ منازل الشهداء، وإن مات على فراشه»[2]. كما ثبت أنّ للشهداء داراً خاصّة بهم، لم ير أهل الدنيا أجمل منها ولا أفخم، أعدّها الله تعالى لهم.. تجتمع فيها أرواحهم في البرزخ، ثم يجتمعون فيها بعد دخول الجنّة، والله أعلم، يتعارفون ويتذاكرون ويتباذلون كؤوس الشراب، قريباً مما كانوا يجتمعون في خنادقهم وثُكُناتهم للرّاحة في أعقاب كلّ معركة، فعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلّى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «من رأى منكم الليلة رؤيا؟» قال: فإن رأى أحدٌ قصّها، فيقولُ: «ما شاء الله»، فسألنا يوماً فقال: «رأيتُ الليلةَ رجلين أتياني فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدّسة» الحديث، وفيه: «وأدخلاني داراً لم أر قطُّ أحسنَ منها، فيها رجالٌ شيوخٌ وشبابٌ ونساءٌ وصبيانٌ ثم أخرجاني منها، فصعدا بي الشّجرة، فأدخلاني داراً هي أحسنُ وأفضلُ، فيها شيوخٌ وشبابٌ، قلتُ: «طوَّفتُماني الليلةَ فأخبراني عمّا رأيتُ» وفي آخر الحديث: «وَالدَّارُ الْأُولَى التي دَخَلْتَ دَارُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمَّا هذه الدار فدارُ الشهداءِ، وأنا جبريل، وهذا ميكائيل، فارفع رأسك، فرفعتُ رأسي، فإذا فوقي مثلُ السحاب، قالا: ذاك منزلُك، قلت: «دعاني أدخلُ منزلي» قالا: إنّه بقي لك عمرٌ لم تستكمله، فلو استكملتَ أتيتَ منزلك»[3].

---

(١) أخرجه البخاري، من حديث أبي هريرة، (ج٣/ ص١٠٢٨).

(٢) أخرجه مسلم، (ج٣/ ص١٥١٧).

(٣) أخرجه البخاري، (ج١/ ص٤٦٥).



ومن أصحابِ المنازل الرّفيعة.. قارئ القرآن، العامل به، فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يُقال لصاحب القرآن إذا دخل الجنّة: اقرأ، واصعد. فيقرأ، ويصعدُ بكلّ آيةٍ درجة، حتى يقرأ آخر شيءٍ معه»[١]، ومنهم المتحابّون في الله عزّ وجلّ، فعن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ المتحابّين لتُرى غُرفهم في الجنة كالكوكب الطالع الشرقي أو الغربي، فيُقال: من هؤلاء؟ فيقال: هؤلاء المتحابّون في الله عز وجل»[٢].

وفي حديث آخر رفيع القدر، وكلّ أحاديث المصطفى رفيعة القدر، بيّن ﷺ كرامة أدنى أهل الجنّة منزلة، مقارنة بكرامة أعلاهم وأرفعهم، ومبيّنًا التفاوت في الإكرام، والحفاوة والإنعام، فعن المغيرة بن شعبة قال: سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول: «سأل موسى ربّه: ما أدنى أهل الجنّة منزلة؟ قال: هو رجلٌ يجيءُ بعد ما أُدخل أهلُ الجنّة الجنّة، فيقال له: ادخل الجنّة. فيقول: أي ربِّ كيف؟! وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذاتهم. فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلكِ مَلِكٍ من ملوك الدّنيا؟ فيقول: رضيتُ ربّ. فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة: رضيتُ ربّ. فيقول: هذا لك، وعشْرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذّت عينك. فيقول: رضيت ربّ. قال: ربِّ فأعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردتُ.. غرستُ كرامَتَهم بيدي، وختمتُ عليها، فلم تر عينٌ، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر» قال: ومصداقه في كتاب الله عز وجل: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[٣].

---

(١) أخرجه ابن ماجه، ج٢/ ص١٢٤٢. ولذا قيل: إنّ درجات الجنّة بعدد آي القرآن، وهي أكثر من ذلك، والله أعلم.

(٢) أخرجه الإمام أحمد، (ج٣/ ص٨٧).

(٣) أخرجه مسلم، (ج١/ ص١٧٥).

وللسعيد في الجنّة من النعيم والممالك ما لا يُحصى كثرة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة لرجل ينظر في ملكه ألفي سنة.. يرى أقصاه كما يرى أدناه، ينظر في أزواجه وخدمه وسرره. وإن أفضل أهل الجنة منزلة لمن ينظر في وجه الله تعالى كلّ يوم مرّتين»(١).

وتفاضل ما بين أهل الجنّة رفيع لا يدرك مكانته إلا الله سبحانه! وقد شبّه رسول الله ﷺ ترائي السعداء لأهل الدرجات فوقهم بمثَل حِسّي بديعٍ، فقال: «إنّ أهل الجنّة ليتراءون الغُرَف في الجنّة كما تتراءون الكوكب في السّماء»(٢). وفي رواية: «إنّ أهل الجنّة ليتراءون أهل الغُرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدّريّ الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم. قال: «بلى والذي نفسي بيده.. رجالٌ آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين»(٣). وفي رواية: «إنّ أهل الدّرجات العُلي يراهم من أسفل منهم، كما يرى الكوكب الطالع في الأفق من آفاق السماء، وإنّ أبا بكر وعمر منهم، وأنعما»(٤).

تفاوت النّعيم في الجنّة:

كلّ درجة من درجات الجنّة واسعة فارهة، تحوي كلّ رغَد، وتسع أهل الجنّة كلّهم لو اجتمعوا فيها! ولذا لا يشعر أحد من أهل الجنّة أنّ أحداً

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، (ج٢/ ص٥٥٣)، وأصله عند مسلم، (ج١/ ص١٧٦).
(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٣٩٩)، ومسلم، (ج٤/ ص٢١٧٧).
(٣) أخرجه مسلم، من حديث أبي سعيد الخدري، (ج٤/ ص٢١٧٧).
(٤) أخرجه ابن ماجه في السنن، (ج١/ ص٣٧).



أسعد ولا أوفر حظاً منه. وهذا الشعور الذي يفيض على القلب لذّة بحدّ ذاته، وهو دليل على سعة رحمة الله وعظيم كرمه. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ في الجنة مائة درجة، لو أنّ العالمين اجتمعوا في إحداهنّ لوسعتهم»[1]. ولذا ناسب أن يذكّر سبحانه بالفرق بين الدّارين، حين قرن تفاوت أهل الدّنيا في متاعهم الفاني، بما أعدّ للمتّقين من الكريم الباقي، ثم دعى عباده للمسابقة إلى الدرجات الرّفيعة، والشرف العظيم بقوله جل جلاله: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ﴾[الإسراء: ٢١].

ومن تأمّل سبب التفاوت والرّفعة والعلوّ في درجات أهل الجنّة ومنازلهم وجده عائداً إلى سرّ لطيف بديع مقترن بمصدر النّعيم ابتداء؛ إذ لما كان نعيم الجنّة لا يُنال إلا برحمة الله جلّ جلاله، كانت الرّفعة في درجاته بعد ذلك عائدة للعمل الصالح، وكمالات تحقيق الإيمان، وبهما تتحدد منازل السّعداء.

ومنازل السعداء، بالنّظر في كمالات الإيمان والعمل الصالح مكونة من ثلاث منازل: فأعلاها وأشرفها منازل السابقين المقرّبين الذين حقّقوا أصل التوحيد وتمامه وكماله، وبلغوا أعلى درجات الإحسان، وأرفع كمالات العبودية واليقين، والزهد والتوكّل والإنابة، وهم الذين ناسب أن يكون عطاؤهم لدُنّياً محضاً، يفوق إدراك البشر وتخّيلهم.. نعيمٌ لم تُحِط به قلوبُهم، ولم تُدركه أعينهم، ولم تسمع به آذانهم.

---

(١) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٦٧٦) وقال: هذا حديث غريب.

وأهل هذه المنازل هم أصحاب القلوب السليمة الذين: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النّساء: ٦٩]. وأكمل مراتب الرّضى حاصل في هذه المنزلة، وأهلها يتفاوتون فيما بينهم في الدرجات كذلك، بحسب مراتب الإيمان والإحسان. ومن أهلها أبو بكر رضي الله عنه ؛ لبشارة الله تعالى له بقوله: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[الليل: ٢١]؛ ولسبقه النّاس بما وقر في قلبه من تمام الإيمان واليقين[١]، ولما صحّ من أنّه يُنادى عند دخول الجنّة من أبواب الجنّة كلّها[٢].

ودون هذه المنزلة الرفيعة في الجنّات منزلة المقتصدين، وهم الذين حقّقوا أصل التّوحيد وتمامه، على قصور في أعمال القلوب والجوارح، واكتفاء بالفرائض دون النوافل، ولم يرتقوا بسبب قصور العمل، الذي به زيادة الإيمان، فناسب أن يُعاملوا بالعدل، ولذا نزلت درجتهم وظهر التفاوت فيما بينهم وبين السابقين.

---

(١) قال القاري رحمه الله: حديث: «ما فضلكم أبو بكر بفضل صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر في قلبه» ذكره الغزالي بلفظ: «ما فضُل أبو بكر الناسَ بكثرة صلاة ولا بكثرة صوم» وقال العراقي: لم أجده مرفوعاً، وهو عند الحكيم الترمذي من قول بكر بن عبد الله المزني. واعتبار الأسبقية في أكثرية الثواب الأخروي مع المشاركة في سائر الأبواب له وجه وجيه إلى الصواب، فقد قالوا: المعتبر في السبق هو إيمان أبي بكر وإن شاركه علي وخديجة وزيد رضي الله عنهم، إذ إيمان الصغير والمرأة والمولى، ليس له شأن عند الأعداء، ولهذا قوي الإيمان بحمزة، وعزّ بإسلام عمر رضي الله عنهما كما قال عز وجل: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾[يس: ١٤] (مرقاة المفاتيح، ج١١/ ص٢٧٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٢/ ص٦٧١)، ومسلم، (ج٢/ ص٧١١).



وهنـاك منزلـة ثالثـة أعـدّها الله تعـالى للظـالمين أنفسـهم مـن السـعداء المرحومين، والعتقاء النّاجين، الذين حقّقوا أصل التوحيد، ولم يرتقوا إلى تمامه كحال الأوّلين، وأقعدتهم هممهم عن اللحاق بالمقتصدين، ففرّطوا في الفرائض وهجروا النوافل ثم اقتحموا المحرّمات. ومن بين هؤلاء من تظهر منزلته بسؤال ربّه إيّاه أن يتمنى ما يشاء من النّعيم، فيبدأ بالتمنّي والطلب، ويكون نعيمه في الجنّة مطلوب ذاته ابتداء، بخلاف السابقين الذين أنالهم ربّهم جزاءً من لدنه، بغير سؤال!

وفرق بين عطاء الإحسان المحض، وعطاء العدل، وعطاء الطلب. وهل يساوي مطلوب البشر شيئًا، مما عهدوه في بادية الدّنيا، في مقابل العطاء الإلهي المحض، وإن فاض مطلوبهم في بساط الجنّة حتى يستغرق مُلك الدّنيا بأكمله، ومثله ومثله، وعشرة أمثاله؟!

ومما يشهد على هذا السرّ اللطيف في تفاوت المنازل والممالك أنّ النصوص أثبتت أنّ عطاء الرّب سبحانه لأهل الجنّة يكون ابتداء من غير طلب، وأنّه لواسع كرمه جلّ جلاله يُلهمهم على أبواب الجنّة، في ساعة التجلّي، أن يسألوه رضوانه فحسب، ولا يزيدون، ولا يطمعون في شيء من صنوف النّعيم فوق ذلك، وهو يقول: «سلوني» «تريدون شيئًا أزيدكم؟» وهم لا يزيدون على استحضار الأدب في بساط الطلب فيقولون: «ألم تبيّض وجوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنّة؟ وتنجّينا من النار؟»[1].

فإذا انقطع الحوار أفاض عليهم من النّعيم ما لا يخطر على قلوبهم، مما لا تدركه عقولهم، ولم تشهده حواسّهم، ولم تكن لتبلغه أمنياتهم، لو أنّهم شغلوا أنفسهم باستحضار مفردا ت النّعيم التي لا انتهاء لها!!

---

(١) أخرجه مسلم عن صهيب رضي الله عنه، (ج١/ ص١٦٣).

كما أخبر ﷺ أنّ سبب دنوّ آخر السّعداء في منازل الرّفعة، جهله بأنّ رضوان ربّه أكبر من كلّ نعيم يقدر على استحضاره؛ فهو ما إن يسمع ربّه يقول: «تمنَّ» حتى يشرع في سرد قائمة طويلة من النّعيم الذي يستحضره في الدّنيا، وما يراه في طريقه. بل ورد أنّ ربّه سبحانه، لواسع كرمه، يذكّره.. يقول: أذكر كذا، أذكر كذا!! وورد أنّه سبحانه، يجمعه بأصحاب له يتلقّونه فيذكّرونه! فإذا نفدت مطالبهم أكرمه الله تعالى بكلّ ما سأل هو وأصحابه من نعيم، وفوق ذلك عشرة أمثاله! ولكنّه يظلّ، على الرّغم من ذلك، الأدنى في ميزان النّعيم، وما في الجنّة دنيء؛ لأنّ أولئك إنّما نالوا أعطياتهم بعلم ربّهم الكريم سبحانه، والكريم إذا أعطى أدهش وأرضى. عن ابن سيرين قال: إنّ أدنى أهل الجنّة منزلة لمن يُقال له: تمنَّ، ويُذكّره أصحابه، فيُقال له: هو لك، ومثله معه[1]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «يكون في النّار قومٌ ما شاء الله، ثم يرحمُهم الله، ثم يُخرجهم فيكونون في أدنى الجنة، فيغتسلون في عينِ الحياة، فيسمّيهم أهلُ الجنة الجهنميّون، لو طاف بأحدهم أهلُ الدّنيا لأطعمهم وسقاهم وفَرشهم، «قال: وأحسبه قال: وزوّجهم»، لا ينقص ذلك مما عنده»[2].

بيوت الأعمال الصّالحة!

بالإضافة لهذه القصور والمساكن الكريمة الكثيرة التي ينعم الله تعالى بها على المؤمنين من غير عوض، يتفضّل الله تعالى بمساكن أخرى، غاية في الرّفاه والجمال، لطائفة من المتّقين؛ جزاء أعمال صالحة بعينها قاموا بها

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنّة بإسناد صحيح، ص٦٢.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، (ج١٦/ ص٤٤٩).



في الـدّنيا. وهـي مسـاكن خاصّـة لا مثيـل لهـا، معروفـة في الجنّـة بجمالهـا وبأسمائها التي تطلق عليها، ومن أرفعها (بيتُ الحمد) الـذي يُبنى للعبد الصّابر على فقد ولده؛ مباشرة بعد أن يحمد ربّه على المصيبة ويسترجع في غمرة الحزن والأسى فيقول: الحمد لله، إنّا لله وإنّا إليه راجعون. عن أبي موسى الأشعري ﵁ ، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ولد العبد، قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي[1]؟ فيقولون: نعم. فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع. فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتا في الجنّة، وسمّوه بيت الحمد»[2].

ولك أن تتخيّل درجة البهاء والجمال، والشرف والمكانة لبيت الحمد هذا الذي يأمر الله تعالى ملائكته ببنائه للتوّ؛ كرامة لعبده المكلوم الصّابر، الذي أحسن الظنّ بربّه، وفوّض إليه أمره!! ولا يبعد أن يكون في كنف بيت الحمد هذا تمامُ اللقاء بين العبد الصابر وحبيبه الذي فقد، والله أعلم؛ فخصوصية النعيم في الجنّة من جنس ما أُعدّ له من العمل الصالح في الدنيا.

ومن بيوت الأعمال الصّالحة التي يشتهر فضلها ويعظم عند أهل الجنّة شرفها وكريم منزلتها (بيوتُ المساجد)، التي أرصدها الله تعالى لكلّ من بنى له مسجداً يُذكر فيه اسمه، فعن عثمان بن عفان ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجدًا لله تعالى، يبتغي به وجه الله، بنى الله

---

(١) وهو به أعلم سبحانه.

(٢) أخرجه الترمذي، (ج٣/ ص٣٤١) وقال: هذا حديث حسن غريب.

له بيتًا في الجنة»[1]. ومنها: «نُزُل الغادين إلى المساجد»، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من غدا إلى المسجد وراح، أعدّ الله له نُزُله من الجنّة كلّما غدًا أو راح»[2].

ومنها (بيوت الإخلاص) جزاء قراءة سورة الإخلاص، بالوِرد اليومي الذي أخبر عنه ﷺ فعن أنس رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «من قَرَأَ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ عَشْرَ مَرَّاتٍ بنى الله له بَيْتًا في الْجَنَّةِ»، فقال عُمَرُ بن الْخَطَّابِ: إِذًا نَسْتَكْثِرَ يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «الله أَكْثَرُ وَأَطْيَبُ»[3].

ومن بيوت الأعمال الصالحة الشهيرة في الجنّة (بيوتُ السُّنُنِ الرَّواتب) التي يُكرم الله تعالى بها عباده المحافظين على السنن الرواتب في اليوم

---

(١) أخرجه مسلم، (ج١/ ص٣٧٨) وفي رواية أخرى عنده: (من بنى مسجدًا لله بنى الله له في الجنة مثله) (ج٤/ ص٢٢٨٧) والمماثلة هنا في الجزاء ومقدار النّفع بهذا المسجد ومن يؤمّه من المسلمين كثرة أو قلّة، وليست المماثلة في مقدار البناء ومساحته؛ لأنّ مساكن الجنّة من السّعة والفخامة بحيث لا تصلح معها المقارنة بمساكن الدّنيا من أي وجه، إضافة لما ورد من أنّ الأجر حاصل لكلّ مسجد يُبنى في سبيل الله تعالى، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من بنى لله مسجدًا، ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتًا في الجنة» (أخرجه ابن حبان، ج٤/ ص٤٩٠). والقطاة، ضرب من الطير صغير الحجم، ومفحص القطاة: حيث تفرخ فيه من الأرض، (لسان العرب، ج٧/ ص٦٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج١/ ص٢٣٥)، ومسلم، (ج١/ ص٤٦٣).

(٣) أخرجه الطبراني (ج٢٠/ ص١٨٣)، وصححه الألباني (الصحيحة، ٥٨٩).



والليلة. عن أمّ حبيبة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنّها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد مسلم يصلّي لله كلّ يوم ثنتي عشرة ركعة، تطوّعا غير فريضة، إلا بنى الله له بيتاً في الجنّة» قالت أم حبيبة: «فما برحتُ أصليهن بعدُ»[1].

وهذا الجزاء ورد في سياق الحديث عن سعة فضل الله تعالى ورحمته، ولذا يدخل فيه كلّ من حقّ عليه القيام بالعمل، على درجات كماله، والله أعلم بحال عباده ومآلهم؛ فيدخل فيه أشرفُهم من أهل كمالاتِ هذه العبادة، الذين عُهد عنهم الاستدامة والمواظبة عليها، كما يدخل فيه من كانت المداومة عليها سمته الغالبة في ليله ونهاره، وإن أصابه الكسل والنسيان أحياناً، ويدخل فيه كذلك أصحابُ الجزاء اليومي؛ فيُبنى لأحدهم كلّ يوم بيتاً في الجنّة، جزاء صلاته في ذلك اليوم.. كلّ هؤلاء داخلون في كرم هذا الوعد الإلهي، ولا يخرجون عنه، مع حصول التفاوت بينهم من حيث سعة النّعيم وخصوصيته، وكثرته وفخامته؛ كما هو الحال في شأن سائر الأعمال الصالحة التي أرصد الله تعالى الجزاء لأصحابها.. من الأبرار أصحاب اليمين على غالب الحال، وللمقربين على استدامته، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾[الأنعام: ١٣٢].

ومن أشهر بيوت الأعمال الصالحة (بيوت الآداب والأخلاق) التي أشار النبي ﷺ إلى ثلاثة منها بقوله: «أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقّاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن

(١) أخرجه مسلم، (ج١/ ص٥٠٣).

كان مازحـاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه»[1].

ومن أشرف بيوت الأعمال الصالحة (بيوت الدّعوات المستجابة) التي لا تُنال إلا بالدّعاء المستجاب، حيث يُنزل الله تعالى أصحابها منازل كريمة ببركة دعائهم؛ لسابق فضلهم وكريم منزلتهم عند ربّهم، ومن أرفع هذه البيوت وأشرفها بيتُ امْرَأَة فِرْعَوْنَ رضي الله عنها، التي آثرت جوار الله تعالى على جوار فرعون وقصوره، حين قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[التحريم: ١١]. وقد استجاب الله تعالى دعاءها، وجعل لبيتها خصوصيّته الفريدة، من حيث القرب والرّفعة والجمال؛ فقد ورد أنّ بيتها في أعلى درجات الجنان.. بقرب بيت خديجة بنت خويلد، وبيت مريم بنت عمران، رضي الله عنهنّ أجمعين[2]، كما سيأتي.

خصوصيّةُ النّعيم داخل (الغُرَف):

من المساكن الجميلة ذات الخصوصية الفريدة (الغُرف) التي أعدّها الله تعالى لعباده؛ جزاء صبرهم في الدّنيا، قال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾[الفرقان: ٧٥]. والغُرَف يراد

(١) أخرجه أبو داود، (ج٤/ ص٢٥٣). عن أبي أمامة رضي الله عنه، وهو حديث حسن، (انظر: الصحيحة ٢٧٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد، (ج٢/ ص١١٧)، وأخرجه الطبراني في الأوسط، (ج١/ ص١٣٩). وكانت امرأة فرعون رضي الله عنها تُعذَّب في الشمس، فإذا انصُرِف عنها أظلّتها الملائكة بأجنحتها، وكانت ترى بيتها في الجنة. (تفسير ابن كثير، ج٤/ ص٣٩٤).



بها: العِلّيّة من البناء[1]، وعند التأمّل في وصفها نجدها تقترن بهيئة فريدة من هيئات السّكنى في دار النّعيم، ألا وهي العلوّ والارتفاع، وأنّ أهل الجنّة، على أرضها، يتراءون أهل هذه الغرف، كما يتراءى أهلُ الدّنيا الكوكب في السماء! قال الله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[الزمر: ٢٠].

كما نجد في وصف هذه الغرف ما يبيّن أنّ لها نظاماً خاصّاً في طريقة البناء، يختلف عن القصور والخيام، وسائر المساكن؛ فهي في غاية الجمال والرّفعة، ومبنيّة من الدرّ والياقوت[2]، على هيئة طبقات وأدوار، يرتفع بعضها فوق بعض بإحكام! والعجيب في شأن هذه الغرف أنّ الحديث عن الأنهار التي تجري من تحت مساكن أهل الجنّة كثيراً ما يقترن بها، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨ – ٥٩].

---

(١) قال في لسان العرب (ج٩/ ص٢٦٤): الغُرفة العُليّة، والغُرفة: السّماء السّابعة. إشارة لقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾[الفرقان: ٧٥] قال الرّاغب: الغَرفُ: رفعُ الشيء وتناوله، يقال: غرفتُ الماء والمرق.. والغُرفَة عِلِّية من البناء. (المفردات في غريب القرآن، ج١/ ص٣٦٠). وقال الطبري: ﴿غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ علالي بعضها فوق بعض، تجري من تحتها الأنهار. (تفسير الطبري، ج٢٣/ ٢٠٨)، وقال الألوسي: والغُرف جمع غرفة، وهي العِلّيّة، أي: لهم علالي كثيرة، جليلة بعضها فوق بعض، (مبنية)، بناءاً يتأتّى معه جري الأنهار من تحتها، وذلك على خلاف علالي الدنيا. (روح المعاني ج٢٣/ ص٢٥٤).

(٢) كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، (روح المعاني ج٢١/ ص١٠).

ومن جميل بناء هذه الغرف العالية: أنّ جدرانها شفّافة كالزّجاج.. بحيث يرى مَن بداخلها ما يحلّق فوقها، وما يدور حولها، وما يتحرّك تحتها. ومن خصوصيتها أنّ السعيد يُلقّى فيها التحية والسّلام من الغلمان والملائكة الكرام.. كلّما اقبل إليها، أو استقرّ فيها.

وبهذا تجتمع في هذه الغرف العالية الجميلة الشفّافة أصناف من النّعيم واللذّائذ لا حصر لها: لذّة القلوب بالأمان والهدوء، ولذّة الأبصار، فيما يراه السعيد من مناظر فريدة وهو مستقرّ على الأرائك، ولذّة الأذواق فيما يطوف به من المُتع التي يشتهيها، ولذّة الأسماع فيما يتبادر إليه في مكانه ذاك من السّلام والتحية والإكرام!! فيا له من عيش رغيد ما أحسنه! وبهجة فريدة ما أجملها! نسأل الله الكريم من فضله! قال الله جلّ شأنه: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾[سبأ: ٣٧].

ومما يُظهر مكانة هذه الغرف، وعظيم شأنها، وشريف قدرها: أنّ الله تعالى خصّها لفئام من أهل الجنّة، يتراؤون فيها كما يتراءى أهلُ الأرضِ الكوكبَ الدُّرّيَ الغابر في السماء، وهؤلاء هم أصحاب الهمم العالية، من المؤمنين الذين اجتهدوا في دفع مهر هذه الغرف، بالمحافظة على أربعة أعمال صالحة مخصوصة أخبر عنها رسول الله ﷺ، فعن علي رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إنّ في الجنّة غُرفاً تُرى ظهورها من بطونها، وبطونها من ظهورها»، فقام أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال: «لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلّى لله بالليل والنّاس نيام»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٣٥٤)، والحاكم (ج١/ ص١٥٣).



وحين يقترن حديث المتعة والرّغد بالعلوّ والشفافية، في بلاد الأفراح والأطيار، والأشجار والأنهار، والمناظر الخلاّبة التي لا توصف حسناً وجمالاً؛ فلا بد أن تكون خصوصية اللذّة المتحصّلة في سكنى هذه الغرف فريدة لا مثيل لها!! فهي من العلوّ والرفعة بحيث يُطلّ السعيد، وهو متّكئ على الأرائك والمياثر بداخلها، على مساحة شاسعة من رياض الجنّة وأشجارها، ومروجها وأنهارها الجميلة، ويرى من أحوال أهلها ما لا يخطر له على بال!

ومع اشتراك مساكن الجنّة في صنوف الرّفاه والنّعيم، من لذيذ الطعام والشراب، والمجامر والثياب، والآنية والأثاث، والأسرّة والزرابيّ، إلاّ أنّ الاختلاف يظهر بجلاء في خصوصية كلّ نُزُلٍ بعينه، في الألوان والنّقوش، والإضاءة والتصاميم، التي تختلف بحسب الجوّ العام للمكان، وما يحيط به، إضافة لخصوصية السّعيد ذاته؛ فلّذة النّعيم المتولّدة من السّكنى في داخل الخيام اللؤلؤية البيضاء المجوّفة تقترن بلذّة وصال الحور ومعاشرتهن، في كنف من الجمال، الظاهر في لون اللؤلؤ البرّاق الذي يزهو معه كلّ لون آخر، وفي الهدوء والنّقاء، والخصوصيّة التامّة التي لا يكدّر صفوها شيء!

ولّذة النّعيم المتولّدة من السّكنى في داخل القصر الكبير الفاره بأثاثه وحدائقه الغنّاء، وتصميمه وشُرُفاته، وجميل مقتنياته، تقترن كثيراً باستقبال الأهل والأصحاب، وحركة الغلمان وخدمتهم وهم يطوفون بالطعام والشراب في الصحاف والأكواب، كما يقترن به الحديث عن المجالس الرائعة في شرفات القصر، المطلّة على البساتين، وتتدلّى عليها غصون الأشجار محمّلة بأطيب الثمار، وتعبق فيها على أهل المجلس روائح

الطّيب المنبعثة من داخل القصر، ومن المجامر الفارهة في البساتين، ممزوجة بنفحات الأزهار الجميلة هنا وهناك!

ولّذة النّعيم المتولّدة من السّكنى في الغرف العالية الشّفافة لها خصوصيتها الفريدة كذلك، وهي تقترن كثيراً برؤية المناظر الخلّابة التي تطلّ عليها؛ وبخاصّة منظر الأنهار، وهي تجري رقراقة، متعرّجة بين السهول والغابات!

ومن نُزُله الرّفيع ذاك يرى السّعيد ما لا يراه في المساكن الجميلة الأخرى؛ ويجول ببصره متأمّلاً في أشجار الجنّة الوارفة الباسقة، ويبصر طيورها وهي تحلّق في سمائها، وتتجمّع بمنظر بديع فوق غاباتها وبحيراتها، وينظر إلى دوابّ الجنّة، وهي تسرح في مروجها الخضراء، ويرقُب الحركة الدؤوبة لأهل الجنّة في الأسفل، وهم في مجالسهم السعيدة بقرب الأشجار، أو يتجوّلون ويمارسون رياضاتهم وهواياتهم المفضّلة وأعمالهم المحبّبة التي تعوّدوا عليها في الدّنيا، إضافة لهوايات ورياضات لم تخطر على قلوبهم، فوق مساحات الجنّة الواسعة، البهيجة الخضراء، ومروجها المحفوفة بكلّ لذّة ونعيم، كما يُبصر من مكانه الرفيع حركة الغلمان وتحليق الملائكة الكرام، ونحو ذلك مما يراه الناظر من هذه المنازل العالية!!

وأهل الجنّة، على أرضها، يتراءون أهل هذه الغرف العليّة، الفريدة في جمال تصميمها، وكفى بذلك شرفًا ورفعة. عن سهل بن سعد ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ أهل الجنّة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم»[١].

(١) أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١١٨٨).



وإذا كان كلّ ما في الجنّة جميلٌ غاية الجمال، والنّظر للنعيم المقيم فيها لذّة مجرّدة بذاتها عن بقية اللذّات، حتى إنّ أهل الجنّة ليتلذّذون بمجرّد النظر لما يحيط بهم من النّعيم، كما يتلذّذون بهناء القلب والأمان، والهدوء والفرح والسعادة، والأكل والشرب، ووصال الحور، والاستمتاع بصنوف النّعيم الأخرى.. إذا كان هذا حالهم على أرض الجنّة وفي شرفات القصور والبساتين.. فما بالك بلذّة النظر التي يجدونها وهم في هذه الغُرَف الشّفافة البهيجة.. المطلّة على مشهد النّعيم الوارف تحتها؟!

وبهذا يجتمع للسعيد بداخل هذه الغرف من الرّفاه واللذّة والبهجة مالا يعلمه إلا الله.. لذّة متحصّلة بالنظر إلى ما يكون على أرض الجنّة من الرّوضات والأشجار، والبحيرات والمروج والأطيار، وحركة أهلها في الحقول والغابات، والأنهار التي تجري وسط المروج. ولذّات أخرى متحصّلة في داخل الغرف، جرّاء السعة وكثرة النّعيم وتنوّعه، وهو متّكئ على الأرائك الحريرية الناعمة، في أبّهة الملك، يحفّ به الغلمان.. يكرمونه ويسارعون لخدمته ويجلبون ما يسعده ويبهجه، ومجامر الأُلوة تعبق بأطيب الطيب، وأطباق اللحم والفاكهة والحلوى، وكؤوس الخمر تدور عليه بلذّات ومذاقات لا توصف؛ زيادة في الإسعاد والإبهاج أبد الآباد. فيا له من نعيم ما أحلاه، وحبور ما أزكاه. نسأل الله الكريم من فضله.

جمال الخيام وسعتها:

يقف السعيد برحمة ربّه مبهوراً أمام ممالكه الواسعة!! فكلّ هذه البساتين والثمار، والحدائق والأشجار، والمساكن والغرف.. بما فيها، ومن فيها.. مُلكُه وحده، وتحت تصرّفه!؟



والسّعة والفُسحة في دارِ النّعيم تظهر بجلاء في قصورها المُنيفة، ومساكنها العالية. ومع هذه السّعة يزداد الحُبُور بشعور الخصوصية التي لا ينازعُ السعيدَ فيها أحدٌ من أهل الجنّة.. ولكلّ فيها ما يشتهي من النّعيم، وفوق ما يتصوّر من المباهج واللذات، لا يمنعه منها أحد!

والمساكن اللؤلؤية المجوّفة.. المنحوتة على شكل الخيام، من أجمل مساكن أهل الجنّة منظراَ، وأكثرها سعةً، وأرغدها عيشاً وفخامة. وقد أخبر عنها رسول الله ﷺ، وأنّها في غاية الجمال والصفاء، والفخامة والبهاء، وبيّن سعتها، وجانباً من العيش الرّغيد بداخلها، فقال: «إنّ في الجنّة خيمة من لؤلؤة مجوّفة، عرضها ستّون ميلاً، في كلّ زاوية منها أهلٌ ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون، وجنّتان من فضّة، آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من كذا آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكِبر على وجهه، في جنة عدن»[(١)]. وفي رواية عند مسلم: «إنّ للمؤمن في الجنّة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوّفة، طولها ستون ميلاً[(٢)]، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً». فهي خيام فارهة الحسن، واسعة الأرجاء:

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٨٤٩)، ومسلم، عن عبدالله بن قيس رضي الله عنه، واللفظ له، (ج٤/ ص٢١٨٢).

(٢) عند الجمع بين هاتين الرّوايتين الصحيحتين يتحصّل لنا أنّ هذه الخيمة اللؤلؤية الفارهة مربّعة الشكل، متساوية الطول والعرض.. ستّون ميلاً من كلّ جانب، سعتها تبلغ ما يقرب من تسعة وتسعين كيلو متراً، ومساحتها الكليّة تبلغ (٩٨٠١) كيلو متر مربّع تقريباً! فما أعظم النّعيم، وما أكرم البرّ الرّحيم وأوسع جوده، وأكثر عطاءه.



سـكّانها أهـلُ القيـام مـع الصيـ ـام وطيّب الكلمات والإحسان

سـتون مـيلا طولهـا في الجـوّ في كـلّ الزوايـا أجمـل النسـوان

يغشى الجميع فلا يشاهِد بعضهم بعضـًا، وهـذا لاتسـاع مكـان

فيهـا مقاصير بهـا الأبـواب مـن ذهـب، ودرّ زِيـن بالمُرجـان

وخيـامها منصـوبة برياضـها وشـواطئ الأنهـار ذي الجريـان

ما في الخيام سوى التي لو قابلت للنيِّـرين، لقلـتَ: منكسـفان

للّـه هاتيـك الخيـام فكـم بهـا للقلـب مـن عُـلَقٍ ومـن أشجـان

فيهنّ حور قاصرات الطرف خيـ ـرات حسـان هـنّ خيرُ حسـان

فيها الأرائك وهي من سُرُرٍ علي هـنّ الحجـال كثيـرة الألـوان[1]

وهناك نوعٌ آخر من الخيام الفخمة.. أصغرُ حجمـًا، بخلاف الأولى، ولكلّ ما يميّزها، من حيث الرّفاه، بحسب المكان الذي تُنصبُ فيه. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الخيمة دُرّةٌ مُجَوّفةٌ.. فرسخٌ في فرسخ، لها أربعةُ آلافِ مِصراعٍ من ذهب[2].

---

(١) الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم رحمه الله، (ج٣/ ص٣٦٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، (ج٧/ ص٤١)، وهو في صحيح الترغيب والترهيب (٣٧١٦). والمصراع: الباب الواسع ذو الدّفتين. وأمّا الفرسخ فمسافة من الأرض تعدل ثلاثة أميال، كما يقول ابن منظور، والميل يساوي (١.٦٠٩٣٤) كلم تقريبـًا بمقاييسنا الحالية، وبذا تكون مساحة هذه الخيمة قرابة خمسة كيلو مترات مربّعة تقريبـًا!

وللخيامِ، أيًّا كان حجمُها، خصوصيتها التي تنفردُ بها عن القصور والغُرُف؛ فهي تُضرَبُ لأهلِ الجنّة خارجَ مساكنهم، وتُنصب على الرياض النّضِرة، وبقرب شواطئ الأنهار والبحيرات؛ للاستمتاع بالعيش في كنف المناظر الجميلة.. على ضفاف المياه، وفي داخل البساتين، وفوق المروج المرتفعة.

وفي وصف الخيام من الداخل ما يُشيرُ إلى دقّة التنظيم، والسّعة والجمال، لدرجة أنّ خيمة واحدةً مضروبةً في الهواء الطّلق لتعدلُ قصراً منيفًا فارهًا من قصور الجنّة، بل قصوراً كثيرة، بل مدينة بأكملها من مُدُن الدّنيا.. في سعة غرفها وممرّاتها، وفي آنيتها وأسرّتها، وأرائكها وبساتينها الدّاخلية التي تتخلّلها الأنهار، وتتدلّى فيها القناديل الرائعة.

وللخيام اللؤلؤية من الرّفاه والسّعة وجميل التصميم ما يحفظُ الخصوصيةَ التامّة لأهلها؛ حتى إنّ السّعيد ليطوفُ على زوجاته الكثيرات فلا يشعُرن ببعضهنّ، ولا يسمعن ما يدور معهنّ. وقد أخبر أبو الدرداء ﵁ أنّ لخيمة لؤلؤية واحدة سبعون بابًا، كُلّها من الدُرّ[1].

ومن بديع ما ورد في وصف هذه الخيام من الداخل حديثُ عبدالله بن مسعود ﵁ الذي يصف خيمة لؤلؤية فارهة، ينزلُ بها آخر أهل الجنّة دخولاً. وفيه أنّ كلّ أجزائها مصنوع منها، وأنها مقسّمة من الدّاخل بتصميم بديع، وأنّ غُرفها من جواهر فريدة، يدخل السعيد جوهرة منها فيجد فيها من النعيم والرّفاه والأزواج ما لا يجد في غرف الجواهر الأخرى، قال في

---

(١) انظر: عمدة القاري للعيني، (ج١٥/ ص١٥٣). وهذا الكلام من أمور الغيب التي لا مجال فيها للرأي؛ فإذا صحّ عنه، فله حكم الرّفع من هذا الوجه.



خبر هذا السعيد: «فَيَنْطَلِقُ يَرْمُلُ في الْجَنَّةِ، حتى إذا دَنَا مِنَ النّاسِ رُفِعَ له قَصْرٌ من دُرَّةٍ، فَيَخِرُّ سَاجِدًا، فَيُقَالَ له: ارْفَعْ رَأْسَكَ.. مالك؟! فيقولُ: رأيتُ رَبِّي، أو: تَرَاءَى لي رَبِّي، فَيُقَالُ له: إنما هو مَنْزِلٌ من مَنَازِلِكَ. قال ثُمَّ يَلْقَى رَجُلًا، فَيَتَهَيَّأُ لِلسُّجُودِ له، فَيُقَالَ له: مَهْ؟! مالك؟! فيقول: رأيتُ أَنَّكَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلائِكَةِ! فيقول: إنّما أنا خَازِنٌ من خُزَّانِكَ، عَبْدٌ من عَبِيدِكَ، تَحْتَ يَدِي أَلْفُ قَهْرَمَانٍ على مِثْلِ ما أنا عليه. قال: فَيَنْطَلِقُ أَمَامَهُ حتى يَفْتَحَ له الْقَصْرَ، قال: وهو في دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ، سَقَائِفُهَا وَأَبْوَابُهَا، وَأَغْلاقُهَا وَمَفَاتِيحُهَا منها، تَسْتَقْبِلُهُ جَوْهَرَةٌ خَضْرَاءُ، مُبَطَّنَةٌ بِحَمْرَاءَ، كُلُّ جَوْهَرَةٍ تُفْضِي إلى جَوْهَرَةٍ على غَيْرِ لَوْنِ الأُخْرَى، في كل جَوْهَرَةٍ سُرَرٌ وَأَزْوَاجٌ، وَوَصَائِفُ أَدْنَاهُنَّ حَوْرَاءُ عَيْنَاءُ عليها سَبْعُونَ حُلَّةً يُرَى مُخُّ سَاقِهَا من وَرَاءِ حُلَلِهَا»[1].

والنّفس البشريّة تأنس بسكنى الخيام في الدّنيا وترتاح بها، هذا وهي خيام متواضعة الحجم، مصنوعة من القماش والليف والشعر، فكيف بخيام اللؤلؤ المجوّفة الواسعة الفارهة، التي يخرج منها السعيد مباشرة على البساط الأخضر والحشائش أو يطلّ منها مباشرة على النهر أو البحيرة أو الغابة أو السّهل، بحسب المكان الذي تُضرّب فيه، وحوله الأشجار والأطيار، وعوالم من الحركة البهيجة التي تضفي على المكان سعادة وأنسًا وانشراحًا، فإذا أراد الدخول انتقل مباشرة لعالم آخر من الهدوء والخصوصية.. بأنواره وفخامته، وروائحه العطرة، وموائده العامرة، وأقسامه الكثيرة التي يجد في كلّ منها زوجة بلغت الغاية في جمالها ورقّتها، وأناقتها ودلالها. وله في كلّ زاويةٍ من هذه الخيمة الواسعة لذّات لا تخطر

(١) أخرجه الطبراني في الكبير، (ج٩/ ص٣٥٧).

على قلبه! فهو ما بين مباهج داخل الخيام ينالها كيف شاء، فإذا خرج انتقل إلى مباهج أخرى لا يقدر على إحصائها!!

ومن أَنِسَ في الدّنيا بخيام الشّعر واللّيف واشتهاها في دار إقامته هنا، كان له ما أراد، على درجة أرفع، وبهجة أمتع مما كان يجد في الدّنيا! ولكل سعيد في الجنّة من الخيام بحسب مكانته وعمله الصالح. قال تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[الزخرف: ٧١ - ٧٣].

الخدمة داخل القصور:

لا يكاد صاحب القصر السعيد يفرغ من لذّة حتى تخالط قلبه وسمعه وبصره لذّات أخرى من لذائذ الجنات، لعل أسعدها: ما يجده في مساكنه وممالكه الكثيرة من العيش الرّغيد وأبّهة الملك؛ جرّاء كثرة الغلمان الذين خلقهم الله تعالى لخدمته، وتلبية رغباته، وتنظيم جدول لذّاته، ومباشرة تقديم طعامه وشرابه، وتحليته بجميل الحُلل، وتعاهد قصره وممالكه بكل رغيد، وإتحافها من النّعيم بكل جديد، وتحقيق أمنياته التي تُسعده وتُفرحه في دار كرامته.

ومن حكمة العليم الخبير، مراعاة خصوصيات السكنى داخل القصور؛ ولذا وكَل مباشرة الخدمة لغلمان صغار السنّ، تسرّ رؤيتهم، ويطوفون على السعيد وأهله، ويدخلون عليهم، ويأتونهم بما يدّعون وتطلبه نفوسهم، آمنين من تبعتهم.



وهؤلاء الغلمان[1] خلقٌ حسان من خلق الله تعالى.. صغار السنّ، لا تزيد أعمارُهم، ولا يتغيّرون؛ لأنّهم مخلّدون كأسيادهم، قال الله عز وجل: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾[الطور: ٢٤]. واللؤلؤ المكنونُ هو الذي لم تمرّ عليه الأيدي[2]. وعندما قُرئت هذه الآية في مجلس للنبي ﷺ، قيل: يا رسول الله، هذا الخدمُ مثلُ اللؤلؤ! فكيف بالمخدوم؟ قال: «والذي نفسي بيده إنّ فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[3]. فيا رُبّ خادمٍ في الدنيا مخدومٍ في الآخرة، ومملوكٍ في الدنيا ملك في الآخرة!!

---

(١) الغلام يطلق على الصبيّ الذكر من حين يولد إلى أن يبلغ، (فتح الباري: (٩/ ٤٣٢)، وجمعه غِلمان. والوليد هو المولود حين يولد، والجمع ولدان، والولد اسم يجمع الواحد والكثير، والذكر والأنثى، (لسان العرب ج٣/ ص٤٦٧). كما يطلق الوليد على الطفل، (لسان العرب ج٣/ ص٤٦٨). وقد ورد ذكر الغلمان في موضع واحد من القرآن الكريم، وجاء ذكر الولدان في موضعين. فهل هما بمعنى واحد؟ أم أنّ لفظ (الولدان) يشمل الذكور والإناث من الأطفال، مما يعنى احتمال وجود بنات صغار للخدمة، في الأحوال الزوجية الخاصّة؟!

والرّاجح، والله أعلم، أنّهما بمعنى واحد، لكن لمّا كان الغلام في عُرف من تنزّل عليهم الوحي يُطلق على الصّبي من حين يولد إلى أن يبلغ، ورد تقييدهم بالولدان، صغار السنّ، فأصبح المعنى: ويطوف عليهم غلمان صغار السّن. ومما يؤيّد ذلك أنّ بعضهم يطلق الوليد على الذكر دون الأنثى (لسان العرب ج٣/ ص٤٦٧). فكأنّ أسنانهم، عند الجمع بين اللفظين، فوق سنّ التمييز ودون المراهقة، أي: ما بين السّابعة إلى العاشرة، والله أعلم.

(٢) أورده ابن المنذر عن ابن جريج، (الدر المنثور ج٧/ ص٦٣٤).

(٣) ذكره ابن جرير عند تفسير هذه الآية، وانظر كذلك (الدرّ المنثور ج٧/ ص٦٣٤).



وكأنّ حال الغلمان، في دخولهم وخروجهم على السّعداء وزوجاتهم، حالُ الأطفال الصّغار في الدّنيا، الذين لم يظهروا على عورات النساء، ولم يكنّ يحتجبن منهم؛ لصِغَر سنّهم. وهذا من تمام الإكرام والإنعام. وعلى هذا فإنّ الحوراء لا تتحرّج من دخول الغلمان، ولا تحتجبُ منهم حال رؤيتهم! وكفى بالحجاب شرفاً أن وكل الله أمر الخدمة في الجنّة لهؤلاء الصغار؛ حفاظاً على خصوصية الأزواج، وإيناساً لهم، مع ما في الخدمة من أعمال تناط غالباً بالرّجال دون الأطفال!

ومن أسرار اختيار هذا السّن، والله أعلم، أنّ الولدان فيه أقرب للقلوب من حيث تحبّبهم، وأوعى لخطاب من يناديهم ويأمرهم؛ فكأنّ مقامهم مقام الأطفال المحبوبين، الذين يأنس بهم الأزواج، وبخاصّة النساء في الجنّة.. دار الطهر التي لا حيض فيها ولا نفاس، والله أعلم.

ومما يقوّي هذا المذهب إيراد لفظ (التّمليك) والخصوصية عند الإشارة لهؤلاء الغلمان، وهو ما يبعث بشعور حميمي فريد بين السعداء وغلمانهم، على وجه العطف والمحبّة، والأنس والمودّة، قال الله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾[الطور: ٢٤] أي: مخلوقين مملوكين لهم، لا ينازعهم فيهم أحد، أنشأهم المولى سبحانه في الجنّة كما أنشأ الحور، وخلَقهم لمهمّة واحدة فقط هي خدمة أسيادهم. والخيام والغرف والقصور التي بها الغلمان والحور، لهؤلاء السعداء كذلك؛ بتمليك الله تعالى إيّاهم، يوم خلق الجنّة بيده! وللسعيد فوق ذلك ما يشاء، ومن النّعيم والزّينة ما يريد!!



جمال الغِلمان، ودقّة عملهم:

ما أجمل التّعبير عن حسن الذات والصفات في حديث القرآن عن الغلمان!! فقد جاء تشبيههم (باللؤلؤ) كالحور العين؛ بجامع الحسن والجمال، وصباحة الوجوه، ثمّ باين بينهما في مجال التعبير عن الخدمة؛ فوصف الحور الحسان باللؤلؤ (المكنون) أي: المحفوظ المصان على أكناف الرّغد والنّعمة لأجل أزواجهنّ، لم يمسسهنّ قبلهم أحد، بينما وصف الغلمان باللؤلؤ (المنثور) على بساط الخدمة داخل القصور وخارجها؛ وهو أدقّ وصف لبيان حالهم، وكثرة حركتهم، وهم يذرعون أرجاء القصر في بساط ملك أسيادهم!!

وتشبيه الغلمان باللؤلؤ يدلّ على أنّه مصون، باقٍ على نقائه وصفائه.. لم تمسسه يدٌ من قبل، ولم تُذهِب نضارته وبهاءه خدمةٌ سابقة، أو عملٌ قديم، فكأنّهم أخرجوا من مكنونهم ليُنثَروا في بلاط سيّدهم، فهم معه، لا يفارقونه إلا ساعة الوصال والخصوصية، قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾[الإنسان: ١٩]. فإذا كان هذا جمالُ الخادم، فما بالك بجمال المخدوم؟!

ومهمّة الغلمان في أكناف القصور: تلبية أوامر السعداء، والطواف بهم من أجل خدمتهم وإسعادهم، وتلبية أوامرهم في أيّ لحظة، وجلب ما يسعدهم وأهليهم وضيوفهم من الطعام والشراب، والتُحف والحلي والثياب، وتحقيق رغباتهم بما فيه سعادتهم، إضافة لرعاية القصر من الداخل بإرخاء السُتُر وتنويع الأثاث، وإذكاء المجامر، وترتيب الآنية،

وجلب الشراب من الأنهار الجارية، وتعاهد الغنمِ في مرابضها، والإبلِ في مباركها، والخيل في اصطبلاتها[1]، والدوابّ في حظائرها، وقطْف الثمار من الغصون الدانية، وتهيئة المجالس تحت الأشجار العالية، وعلى شُرفات القصور والخيام الكثيرة.

وصفات هؤلاء الغلمان في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ كثيرة، ويمكن جمعها في سبع ظاهرة: صِغَرُ سنّهم، وكثرة عددهم، وشدّة جمالهم، وبياضهم، وخلودهم، وتسابقهم لخدمة أسيادهم، وعدم تذمّرهم أو مللهم. فهم باقون على سنّهم لا يكبرون، قائمون بمهمّتهم لا يفترون، سعداء مسرورون بالخدمة التي ما خُلقوا إلا لأجلها، مبتهجون بها؛ لأنهم إنما يُكرمون وفدَ الله المكرمين، ويُسعدون حزبه المؤمنين؛ ولذا تجدهم حاضرين معهم في كلّ محفل، قائمين في كلّ منزل، يطوفون عليهم في المجالس بكلّ بهيج.. من مطعم ومشرب، وملبس ومركب، على جمال التقديم، وحسن الطلب، وبهاء الصّورة والتنظيم، وكمال الأدب، الذي يظهر في طريقتهم عند تقديم الطعام على الموائد، وصبّ الشراب في الكؤوس.

بين غلمان الجنّة وأطفال أهل الدّنيا:

الغلمان كالحور العين، مخلوقون في الجنّة؛ ولذا فهم ليسوا بأولاد الكفّار الذين ماتوا صغاراً قبل التكليف[2]، ولا بأولاد المؤمنين كذلك[3]. ووفد الله المتّقين أكرم عند ربّهم من أن يجعل صغارهم الذين ماتوا قبل

---

(١) في الجنّة غنم وخيل وإبل، كما سيأتي.

(٢) هذا رأي سلمان الفارسي رضي الله عنه.

(٣) وهذا رأي علي بن أبي طالب رضي الله عنه ورأي الحسن البصري.



سنّ التكليف خدماً لأهل الجنّة! وأيّ قرار للسعيد أو هناء وهو يرى صغيره خادماً مأموراً عند غيره؟! حاشا للهِ الكريمِ القائل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾[الطور: ٢١].

ومن رحمة الله تعالى وواسع كرمه أنّه يجمع الآباء الصالحين والأزواج والذريّة إذا دخلوا الجنّة في درجة واحدة، ويقرّب بينهم، ويؤنسهم؛ لتستمرّ وشائج القربى والمودّات، وتدوم الزيارة والصلات، وتعبق المجالس بجميل الذكريات.

والأطفال الذين ماتوا قبل سنّ التكليف، سواء أكانوا أولاد مسلمين أم كافرين،[١] بخلاف هؤلاء الغلمان من كلّ وجه؛ فالغلمان مخلوقون في الجنّة، وأولئك خُلقوا في الدّنيا، والغلمان مخلّدون بعد خلقهم، والأطفال جرى عليهم الموت بعدما خُلقوا، شأنهم شأن بني آدم، والغلمان صغار السنّ، لا يكبرون، وأولئك يُبعثون صغاراً ويدخلون الجنّة ثم لا يزالون يكبرون حتى يبلغون سنّ أهلها، كما سبق، والغلمان خدم مأمورون، وأولئك مخدومون آمرون مع آبائهم؛ كرامة لهم، والغلمان كثير عددهم؛ لا يحصي ما للسعيد منهم إلا الله، وأولئك قليل، لا يقوم لأحد السعداء منهم إلا واحد أو اثنين.. لو كانوا خدماً[٢].

---

(١) سبق الحديث عن أنّ مصير أولاد المشركين إلى الجنّة في (مراسم الاستقبال العظيم).

(٢) قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله: الولدان الذين يطوفون على أهل الجنة هم خلق من خلق الجنّة، ليسوا أبناء أهل الدنيا. (مجموع الفتاوى، ج٢/ ص٢١٠).

والولدان على كثرتهم متخصّصون في الخدمة؛ ولكلٍّ منهم عمل يقوم به لإبهاج السعيد وتلبية أوامره: فهؤلاء مختصّون بترتيب الوسائد وتصفيفها، وأولئك مهمّتهم قطفُ الثمارِ وتجهيزها، وتسليمها لمن يقدّمها على الأطباق الفاخرة! وهذا يعتني بثياب صاحب القصر وتطييبها وتنظيمها، والآخر بقرب مجامر الألوّة، وعدد منهم مهمّتهم إلباس السعيد الحُليّ، واختيارها له بما يناسب المقام في داخل القصر، أو طبيعة المناسبة الخارجية.. للزيارة، أو النزهة، أو حضور الملتقيات العامة، ونحوها.

ومنهم الموكلون بالأبواب حال خصوصية السعيد مع أهل بيته، لا يدخل عليه أحد إلا آذنوه بذلك. وفي مشهد فريد من مشاهد النّعيم المقيم ورد ما يجمع بين لذّة التنويع في الطعام، وأبهة المُلك المتمثل في الاستئذان قبل الدخول؛ فعن الضحاك بن مزاحم رحمه الله قال: بينا وليُّ اللهِ في منزله، إذ أتاه رسولٌ من الله عزّ وجلّ، فقال للآذن: استأذن لرسول الله على وليّ الله، فيدخلُ الآذن فيقول له: يا وليّ الله، هذا رسولٌ من الله يستأذن عليك، قال: ائذن له، فيأذنُ له، فيدخلُ على وليِّ الله، فيضعُ ما بين يديه تُحفةً، فيقول: يا وليّ اللهِ.. إن ربَّك يقرا عليك السلام، ويأمرك أن تأكل من هذه. قال: فيشبِّههُ بطعامٍ أكَلَه أيضاً، فيقول: إنما أكلتُ هذا الآن! فيقول: إن ربك يأمرك أن تأكلَ منها، فيأكلُ منها، فيجدُ منها طعمَ كلِّ ثمرةٍ في الجنّة، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾[1].

ومن هنا فلا يمنع أن تكون للغلمان أسماء معلومة يُعرفون بها، وأنّ يتولّى كلّ واحد منهم مهمّة بعينها، لا يقوم بها الآخر، نظراً لكثرتهم. قال ﷺ: «ما

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنّة، (ح ٢٠٤)، وسنده لا بأس به.



من أهل الجنّة من أحد إلا ويسعى عليه ألفُ غلام، وكلّ غلامٍ على عمل غير ما عليه صاحبه»[١].

ولكلّ ساكن في الجنّة من الغلمان والحور، والممالك والقصور بحسب عمله الصالح. عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أدنى أهلُ الجنّة الذي له ثمانون ألف خادم، واثنتان وسبعون زوجه، وتُنصب له قُبّة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، كما بين الجابية إلى صنعاء»[٢]. وأكرم الناس يومئذ عند ربّه محمّد ﷺ، وهو أكثر أهل الجنّة نعيمـًا، وأحسنهم مستقرّاً ومُقامـًا. عن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول النّاس خروجـًا إذا بُعثوا، وأنا خطيبُهم إذا وفَدوا، وأنا مبشّرهم إذا أيسوا. لواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربّي ولا فخر»[٣]. «يطوف عليَّ ألف خادمٍ، كأنهم لؤلؤ مكنون»[٤].

---

(١) أورده ابن أبي الدنيا في صفة الجنّة، ص ١٥٤، والمنذري في الترغيب والترهيب، (٦/ ٢٨٢) وعزاه للبيهقي، وذكره ابن كثير في تفسيره (٨/ ٣١٧).

(٢) أخرجه الترمذي (ج٤/ ص٦٩٥)، وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث رشدين.

(٣) أخرجه الترمذي، (ج٥/ ص٥٨٥).

(٤) ذكره السيوطي في الدرّ المنثور (ج٧/ ص٦٣٤)، وعزاه للترمذي، ولم أجد هذه الزيادة عنده. ولا شكّ في حصول هذه الكثرة له وأعظم منها؛ فهو أكرمُ الخلق عند ربّه، وأكثر ممالك من أمّته، عن أبي عبدالرحمن المعافري قال: إنّه ليُصَفّ للرجل من أهل الجنّة سماطين، لا يُرى طرفهما من غلمانه، حتى إذا مشى مشوا وراءه. (أخرجه ابن ابي الدنيا في صفة الجنّة، ص١٥٦).

وكثيراً ما يقرن المولى جلّ شأنه بين طواف الغلمان وحركتهم، وبين حال الرّغد التي يكون عليها أهل الجنّة، وهم في قصورهم على الأرائك، وبقربهم زوجاتهم الحسان. ومن المشاهد الفريدة التي وصف الله تعالى فيها بعض الأحوال الداخلية السعيدة لأهل الجنّة، قوله تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۝٤٢ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٤٣ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٤ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾[الصافات: ٤٠ - ٤٨]. وقوله سبحانه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[الزخرف: ٧٠ - ٧٣]. وقوله جلّ شأنه وتقدّس: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾[الطور: ٢٢ - ٢٣]. وأهل الجنّة، في هذا المشهد الفريد، على مجالسهم البهيجة.. يتباذلون كؤوس الشراب اللذيذ، يقدّمها بعضهم لبعض على حال من السّرور والمحبّة والإكرام، فهو نزاع حبّ وتباذل، وتجاذب فرحة وسرور، لا نزاع استئثار وتباغض كحال أهل الدّنيا[1].

وكلّ من يحفّ بهذا السعيد ويغشاه ويزوره في قصره.. مخدومٌ لخدمته، ومُكرَم لكرامته. وأمّا التّحف واللطائف التي يطوف بها الولدان المخلّدون، والأواني التي يقدّمون عليها الطعام والشراب فمتعدّدة

---

(١) وأقرب صور هذا النّوع من تجاذب الحبّ ما يكون بين العروسين، حين يتنازعان كؤوس الشراب بينهما تنازع لذّة ومحبّة، ومنادمة ومودّة.



ومُبهجة، منها ما ذكره الله تعالى عن حال السعداء المكرمين في مشهد جميل من مشاهد النّعيم، بقوله: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ۝١٦ يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴾[الواقعة: ١٦ - ٢١].

وهذا المشهد القرآني الكريم مفعم بالحركة، مليء بالحيوية؛ الغلمان فيه يذرعون القصر جيئة وذهابًا.. يطوفون على أهله بأصناف الطعام، من: اللحوم، والفواكه، والحلوى، وأصناف الشراب من: الماء، والخمر، واللبن، والعسل.. يقدّمونها في الصحاف الجميلة، والكؤوس والأكواب والأباريق! وهم يختارون ألوانها ومعادنها بحسب المكان والحال الذي يكون عليه السّعداء؛ فتارة يطوفون: ﴿بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ﴾، وأحيانًا: ﴿بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ﴾، وأخرى بآنية الذهب المشوب بالفضّة!

ومن أحوال السّعداء داخل قصورهم في كنفِ الرّغد والرّفاه ما نجده ماثلاً في مشهد فريد آخر من مشاهد النّعيم داخل القصور، يصف الله تعالى فيه عباده المتقين، وهم على الأرائك الفاخرة، تحت ظلال الأشجار، ومن حولهم الغلمان يجوبون المكان بمنظر بديع، ويطوفون على السّعداء بكؤوس الخمر المشوبة بالزنجبيل، والغلمان، لفرط حسنهم، وانتشارهم اللطيف المنظّم في المجالس والغُرف، على أرضيّة القصر الذهبية المغطّاة بالزرابيّ المخملية الحمراء أو الخضراء.. كاللؤلؤ المنثور على البساط الجميل.

وتأمّل تشبيههم باللؤلؤ (المنثور) بدلاً من (المنظوم) للدلالة على كثرتهم، وحركتهم الدؤوبة، ولتصوير المشهد المحبّب لمجموع هذه اللآلئ المنثورة على البساط المخملي الذي يزداد جمالاً بحركتهم عليه،

وبيان جمال كلّ غلام منهم بذاته من حيث صفاء اللون وحسن المظهر. قال تعالى واصفاً هذا المشهد الحيّ الفريد: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[الإنسان: ١١ - ٢٢]. فما بالك بمنظر لؤلؤ أبيض منثور على بساط حرير أحمرٍ أو أخضر، كيف يكون حسنه وبهاؤه؟

ومشهد النّعيم هذا، مشهد جميل.. مُفعم بالحركة التي تتخلّلها صنوف اللذات والمباهج، وأهل الجنّة فيه نَضِرَةٌ وجوههم، مسرورةٌ قلوبهم، متكئون على الأرائك الوثيرة، في كنف الرّغد والرّفاه، وبقربهم زوجات طاهرات طيّبات.. غاية في الحسن، خيّرات يملأن القلب سروراً ولذّة وحبوراً؛ لجمال منظرهنّ، وطيب حديثهن، وحسن تبعّلهن. ويطوف عليهم بصحاف الفضة وآنيتها، وبالأكواب الزّجاجية المطهّمة بالفضة.. ولدان مخلّدون، لا يتغيّرون ولا يكبرون، في غاية الحسن، إذا رأيتهم منتشرين في خدمتهم، حسبتهم لؤلؤا منثوراً، وإذا تجوّل ناظرك فيما عليه أهل الجنّة من النّعيم، رأيت نعيماً وملكاً كبيراً[1].

(١) ومن ظهور مُلكهم وعظيم مكانتهم: استئذان الملائكة والولدان، فلا يدخلون عليهم إلا بإذن.



فهذه المسّاكن الواسعة والغرف المُزخرفة، وتلك البساتين الزاهرة، والثمار الدّانية، والفواكه اللذيذة، والأنهار الجارية، والرياض النَّضِرَة، والطيور المغرّدة.. كلّها تأسر القلوب، وتُفرح النفوس! وحول السّعيد من أصناف النّعيم ما تحصُلُ به الرّاحة، وتتمّ اللذّة وتكمُل الطمأنينة.

وفوق ذلك وأعظمه.. الفوز برضى الرّب الرحيم، وسماع كلامه، ولذّة قُربه ومناجاته، وتتابع الخيرات منه.. مدداً إثر مدد، في كلّ وقت وحين! فسبحان مالك الملك.. الحقّ المبين الذي لا نفاد لخزائنه، ولا منتهى لخيره وإحسانه، ولا إحصاء لبِرّه وكرمه.

والسّعداء في مشهد الرّغد هذا يتبدّون في لباس الفخامة والملك.. قد جلّلتهم ثيابُ السّندس والإستبرق الأخضرين، وهما أرفع أنواع الحرير وأفخمه.. الإستبرق الجميل الناعم، والسُّندس الأكثر نعومة ورقّة!! وفي أيديهم أساور الفضة.. ذكورهم وإناثهم.. وفاء بوعده سبحانه لهم في الدّنيا، وكان وعد الله مفعولاً. وهم في هذه الحالة من الرّغد والنّعيم.. يُسقون شَرَاباً طَهُوراً، لا كدَر فيه بوجه من الوجوه، جزاء من الرّبّ الرّحيم، على ما أسلفوا في أيام المُهلة من صالح العمل، وكان سعيهم مشكوراً.

فإذا اجتمع للسعداء هذا البهاء في منظر الغلمان الذين يطوفون لخدمتهم في القصور والمجالس، مع وافر الأدب والاحترام، وتمام الطاعة والابتسام، وجمال المشاعر، ومداومة السلام، مع ما يخالط قلوب الغلمان من حبّ لأسيادهم، وصدق يظهر في عباراتهم وهمّتهم، ودوامهم على الخدمة بلا سأم، ومبادرتهم لتلبية الطلب بلا ملل.. إذا اجتمع للسعيد هذا،

وهو يستحضر الملك العظيم، وينظر في صنوف المتع والمباهج التي تسلب الأبصار، وتداعب الأسماع.. فإنّ النّعيم لا يكاد يوصف، والرّفاه لا يكاد يُعرف؛ لأنّه مما لا يقوى على مجرّد إدراكه عقل بشري، وإنّ تقلّب صاحبه في النّعيم الدنيوي الزائل طوال حياته، واستجمع ملك الدّنيا كلّه عشر مرات.

الآنية:

الحديث عن جميل خدمة الغلمان، وكريم العناية، وأصناف الأطعمة والأشربة اللذيذة يتصل به كذلك حديث كريم آخر عن جمال الآنية التي تُقدّم عليها بين يدي أهل الجنّة، في كل وقت. وهذه الآنية، على كثرتها، والمواد التي خُلقت منها، متعدّدة الأشكال، ومتنوّعة الوظائف والاستعمال. وقد جاء في كتاب الله تعالى التنصيص على أربعة أنواع منها؛ لكثرتها وشهرتها: الصحاف، والأباريق، والأكواب، والكؤوس.

أولاً - الصّحاف:

أصناف الطعام اللذيذ الذي يشتهيه أهل الجنّة يُقدّم على الصِّحاف، وصحاف الجنّة من مواد شتّى، منها الذّهب والفضة، قال رسول الله ﷺ: «إنّ في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا، في كلّ زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمنون، وجنّتان من فضة.. آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من ذهب.. آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه، في جنّة عدن»[1].

---

(١) أخرجه البخاري عن عبد الله بن قيس، (ج٤/ ص١٨٤٩).



والصَّحفة كالقصعة، والجمع صحاف، وهي إناء تقديم يقرّب فيه الطّعام خاصّة، ولم يرد ذكره في القرآن إلا مرّة واحدة، في سياق من الخصوصية يجمع السعداء بزوجاتهم[1]. والتعبير بالصّحفة يشير إلى هيئة غالبة لمجلس رغد متكرّر يجتمع فيه السعيد بزوجته، أو بخاصّة أهله من والدٍ وولد[2]، ويقدّم على الصّحاف المذهّبة ألذّ أنواع الطعام، وبقربها أكواب الشراب، في منظر بهيّ تشتهيه الأنفس وتلذّ لمنظره الأعين! قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۝٦٩ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝٧٠ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا

---

(١) الصّحفة إناء لتقديم الطعام، وهو أوسط الصحون وأعدلها. وقد نزل القرآن بلغة العرب، وما فيه من أسماء وأمثال، إنّما سيق لتقريب ما عهدوه وأبصروه. ولذا فالصحفة يُراد بها، من حيث الحجم والعدد، ما كان معروفاً عندهم، على اختلاف في النّسبة والتناسب لا يخفى، بين حجمها هنا وحجمها هناك، وبين من يجتمع عليها هنا ومن يجتمع عليها هناك. وقد أشار الكسائي إلى أنّ في الصّحفة القدر الأوسط المعتدل من الطّعام بقوله: أعظم القِصاع الجفنة، تليها القصعة، تشبع العشرة، ثم الصّحفة تشبع الخمسة، ثم المئكَلة تشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصُّحيفة تُشبع الرجل. (مختار الصحاح، ج١/ ص١٥٠).

والصحفة في تصنيف الصحون المتعارف عليها في مطاعم هذا العصر، وبخاصة ما أعدّ للمشويات منها، أقرب للصحن الأوسط الذي يكفي الخمسة، وهو أعدل الصحون، وأكثرُها طلباً.

(٢) إذ المجالس الأخرى للأهل والأصحاب تتفاوت من حيث العدد والغاية، فتارة تكفيها الصّحفة، وتارة ما هو أكبر منها، أو عدد أكثر من الصّحاف، بحسب عدد المجتمعين، وهيئة المجالس وأنواعها.

خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾[الزُّخرُف: ٦٩ - ٧٣].

وفي هذا المشهد البديع سرّ من أسرار الجمال؛ حيث اقترن فيه نعيم الظاهر والباطن في دار الجزاء بالتسليم الظاهر والباطن في دار العمل؛ فهؤلاء السعداء لمّا حقّقوا كمال التصديق الباطن وكمال الانقياد الظاهر، كان الجزاء في حقّهم شاملاً لظاهر النعيم وباطنه. وهذا النوع من المقابلة يتكرّر كثيراً في القرآن العظيم.

ويبتدئ هذا المشهد الكريم بالنّداء الخالد للسعداء على أبواب الجنّة: « ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ »، أي تُكرمون بأعظم أنواع الإكرام في منازلكم الرّفيعة بقرب زوجاتكم، ثم ينتقل سريعاً إلى مجلس رفاه من مجالسهم السعيدة الخاصّة داخل القصور والغرف والخيام، متجاوزاً ما حصل لهم من مراسم الاستقبال على الأبواب، والبهجة والتكريم حال اللقاء بالأحباب، فيصوّرهم على حالة من الحبور والسرور.. منعّمين مكرمين، يطوف عليهم الولدان المخلّدون بالخيرات واللذات.. في صحاف وأكواب من ذهب. وفي هذه الصحاف والأكواب من الشّراب والطّعام اللذيذ ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾.

وهذا اللفظ الجامع معجزٌ بحقّ؛ فهو يشمل ما في الصّحاف والأكواب، كما يأتي على كل نعيم وفرح، وقرة عين وسرور في الجنّة؛ فكل ما يشتهونه من مطاعم ومشارب، وملابس ومناكح، وما تلذّه العيون من مناظر حسنة، وأشجارٍ محدِقة، ونعمٍ مؤنَّقة، وفواكهه كثيرة متنوّعة، ومبان مزخرفة، حاصل لهم في الجنّة، متيسّر بلا مؤونة، معدّ على أكمل الوجوه



وأفضلها، بخلود دائم في كنف النّعيم، وزيادة وكثرة وتجدّد، لا نقص معه ولا نفاد؛ جزاء أعمالهم الصّالحة.

ثانياً - الأكواب:

وفي مشهد النّعيم هذا، المليء بالحركة والرّفاه.. يظهر النوع الثاني من آنية أهل الجنّة الكثيرة، ألا وهي (الأكواب) التي يطوف بها الولدان المخلّدون. والأكواب هي: الأقداح التي تستدير أفواهها، ولا آذان لها ولا خراطيم، ويمكن تشبيهها بما تقدّمه الفنادق الفخمة لنزلائها في مطاعمها، من الشراب اللذيذ، بمقدار لا يروي نهمة الشارب غالباً من المرّة الأولى، ويتكرّر فيها التقديم؛ تعبيراً عن الحفاوة والإكرام.

ثالثاً - خليطٌ فريد من المعادن:

وأكواب الجنّة تظهر رفعتها من حيث الشراب اللذيذ الذي يقدّم فيها، ومن حيث ما هيّتها في الشكل والتصميم، والمعادن الكثيرة المتنوّعة التي تتشكّل منها؛ فهناك أكواب الذّهب، وأكواب الفضّة، وهناك أكواب القوارير، وأكواب أخرى لا يعلمها إلا الله تعالى، ومنها خليط فريد وعجيب من المعادن، لم يعرفه السّعداء في بادية الدّنيا، وورد ذكره مرة واحدة في القرآن الكريم، بأسلوبه المعجز، الذي قلّما نقف عنده بالتأمّل والبيان. قال الله تعالى يصف مشهداً من مشاهد الإكرام، في مجلس من مجالس الرّفاه الخالد: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾[الإنسان: ١٥ - ١٦].

فيا للعجب!! أيّ نوع من الأكواب هذه التي يطوف بها الولدان في مجلس الرّغد هذا؟! إنّها ليست من الزّجاج الخالص، ولا من الفضّة

الخالصة، بل خليط ممزوج منهما بمقدار معلوم، يجعل منها أكواباً بيضاء قويّة نقيّة؛ لوجود الفضة، شفّافة صافية؛ لوجود الزّجاج؛ لتكتمل معها الحقائق الجمالية في الجنّة بنوع جديد من أنواع النّعيم لا مثيل له في حقيقته ولا في اسمه[1].

---

(١) في صيف عام ١٤١٦هـ، أثناء عملي السابق بهيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنّة بمكة المكرمة، وقفت على مقال في مجلة science، يتحدّث عن (أخلاط المعادن)، وكيف أنّه بات حُلُماً من أحلام البشريّة، سيغيّر من حياتها لو تحقّق. وأشار كاتب المقال إلى أنّ العلماء يسعون من خلال هذه الفكرة إلى المزج بين مادتين أو أكثر من خلال الصهر، ووفق درجات حرارة محدّدة؛ لتشكيل معادن جديدة، بخصائص فريدة، لم يعرفها البشر من قبل.. تظهر في كلّ معدن جديد صفات المعدنين اللذين تشكّل منهما!!

ويشير كاتب المقال إلى فشل العلماء عن تحقيق ذلك، على الرغم من كثرة البحوث والتجارب التي قاموا بها. والعجيب أنّه أشار إلى أصناف محدّدة من المعادن يُراد الوصول إليها عبر هذا المزج، ومنها مزج الزجاج بالذهب، والزجاج بالفضة لإنتاج معادن خيالية تتمتّع بصفاء الزجاج، ومتانة الذهب أو الفضة!!

فسبحان الذي جعل هذا النوع من المعادن، التي يحلم بها أساطين العلم الماديّ في هذا العصر، مجرد نوع واحد من معادن الجنّة الكثيرة.. بكمالات موادّها، والرفاه الذي يقترن باستخداماتها، وصنوف اللذائذ التي تقدّم بها، وكثرتها.. بحيث يطاف بها على أهل الجنّة في كلّ مكان، ويجدونها على أيّ حال، مع الفرق الكبير بين حقائق الجنّة الكريمة الغالية، والمقتنيات الرخيصة المتواضعة التي يستعملها البشر في الدنيا، أو يحلمون بها!!



عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لو أخذتَ فضّة من فضّة أهل الدنيا فضربتها حتى جعلتها مثل جناحِ الذّباب لم تر الماء من ورائها، ولكنّ قوارير الجنّة في بياض الفضّة، في صفاء القوارير[1]. قال قتادة رحمه الله: لو اجتمع أهل الدنيا على أن يعملوا إناء من فضّة يُرى ما فيه مِن خلفه كما يُرى في القوارير ما قدروا عليه[2].

وأهل المجلس السعيد، في مشهد النّعيم هذا، يظهرون على حال من الرّفاه والفرحة والهناء؛ فالغلمان يطوفون عليهم، يصبّون الشراب اللذيذ في الأكواب الفارهة، على قدر ريّهم، بلا زيادة ولا نقصان!! وهذا التقدير أبلغ في التشريف والتكريم؛ حيث لا ملل من الكثرة، ولا نقص في اللذة.. على كنف من النّعيم لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر!

وسرّ الجمال والرّفاه الذي ينعم به أهل الجنّة في هذا المشهد القرآني الفريد، رغم قصر مبناه، يظهر في اشتماله على فخامة مركّبة من ثلاث لذائذ مجتمعة: رفاه الآنية في ذاتها؛ فهي فخمة مصنوعة من هذا المزيج الفريد من الزّجاج والفضة، ورفاه الشّراب اللذيذ في ذاته، ورفاه المقدار المحدّد الذي يناولهم إياه الغلمان المخلّدون، على قدر الرّيّ فحسب!!

والأكواب الفارهة، من هذا المزيج الفريد، وغيره، ليست قليلة في الجنّة، بل كثيرة.. وموجودة في كل مكان، والشراب كذلك، متوافر بألوان

(١) أخرجه ابن أبي الدّنيا في صفة الجنّة بإسناد رجاله ثقات، ص ١١٨، والسيوطي في الدر المنثور، (ج٨/ ص٣٧٥).

(٢) الدر المنثور، (ج٨/ ص٣٧٥). وفي كلامه رحمه الله قدر كبير من الصحّة؛ لأنّ جزيئات الفضّة غير قابلة للتمدّد لدرجة الشفافية عمّا وراءها، بخلاف الزّجاج.

ومذاقات لا حصر لها، مع زيادة البهجة بالرائحة الزكية التي تشوب الآنية وتمتزج في الشراب ذاته، كسائر صنوف اللذائذ في بلاد الأفراح! قال الله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾[الغاشية: ١٤]. أي مُمتلئة بأنواع الأشربة اللذيذة التي وضعت بين أيدي السّعداء، وأعدّت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم أينما كانوا! وهي، على كثرتها وامتلائها، مصفوفة بطريقة جميلة، داخل القصور وخارجها، وعلى حافّة العيون والأنهار، وبقرب المجالس الكثيرة لأهل الجنّة.. في ظلال الأشجار، وحول البحيرات، وفوق المروج!

رابعاً - الأباريق:

الأباريق جمع إبريق، وهي آنية كبيرة، لها مقابض جانبية وخراطيم، يُصَبّ فيها الشراب أولاً، ثمّ يصبّ منها في الكؤوس والأكواب، حيناً بعد حين. ومن مشاهد النّعيم الفريدة التي يظهر فيها أشرف أصناف المشروبات والمطعومات مع أرفع أنواع الآنية التي تقدّم لأهل الجنّة، ما ذكره سبحانه عن حال الرّغد والسعادة التي ينعم بها المقرّبون خاصّة، وأنّهم: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا﴾[الواقعة: ١٥ - ٢٦].

وهذا مشهد فريد آخر من مشاهد النّعيم الكثيرة في القرآن الكريم.. تمتزج فيه الحالة النفسية الهانئة السعيدة بحال الاتّكاء الرغيد المعبّر عن أرفع درجات الملك، المقترن بهدوء البال وراحة الفؤاد، وخلوّ الشواغل..



في كنف الرفاه الكبير من حولهم.. وطواف الغلمان عليهم، بكلّ بهيج من التّحف يتخيّرون، ولذيذ من الطعام والشراب يشتهون!

وفي هذا المشهد تظهر(الكؤوس)، وهي الآنية عموماً إذا صُبّ فيها الشراب، وبخاصّة الخمر. والخمر في مشهد النّعيم هذا ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي أنّها خمر جارية، من منبع لا ينقطع أبداً: لذيذة، ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾أي: لا أثر فيها لما يغتال عقولهم ويذهب بها، وهم ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي لا يسكرون، ولا يهذون ولا يتغيّرون بسبب شربه، كخمر الدّنيا.

وكما أن الحديث عن الكؤوس في الجنّة يرد مقترناً بالخمر اللذيذ النقيّ[1]، فإنّ الحديث عن الخمرة ذاتها كثيراً ما يقترن بحديث جميل عن الحور الحسان!! وقد اجتمع هذا المزيج الثلاثي الفريد من اللذات في هذا المشهد الواحد! حيث نجد الطواف بالكؤوس المترعة بالخمر النقيّ الطاهر، المجلوب من معين دائم متدفّق، لا ينضب، على حال من الرّغد فوق الأرائك.. مقابل الحور الحسان، اللائي يضاهين اللؤلؤ المكنون.. نقاء وصفاء وبهاء!

---

(١) قال الرّاغب، في قوله سبحانه: ﴿كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ الكأس: الإناء بما فيه من الشّراب، وسُمّي كلّ واحد منهما بانفراده كأسا، يقال: شربت كأسا، وكأس طيّبة، يعني بها الشراب. (المفردات في غريب القرآن ج١/ ص٤٤٣). ومن العلماء من قصر الكّاس على مشروب الخمر خاصّة، عن الضحاك قال: كلّ كأسٍ ذكره الله في القرآن إنّما عني به الخمر، (الدرّ المنثور، ج٧/ ص٨٧). وقال الألوسي: إناء الخمر لا يسمى كأساً حقيقة إلا وفيه خمر، فإن خلا منه فهو قدح (روح المعاني، ج٢٣/ ص٨٧). والأولّ أصحّ، والثاني أشهر، والله أعلم.

الأمان والسّلام داخل القصور:

والنّعيم، الذي تتعدّد مصادره وتتنوّع لذائذه، يزداد بهجة وجمالاً إذا اكتنفه الأمن، وظهرت فيه مراتب: الخصوصية والهدوء والراحة، في مساكن الخلود التي أعدّت للمتعة والرفاه!! وأهل الجنّة آمنون منعّمون، يكتنفهم الرّغد، وتغشاهم اللذائذ في غرفهم العالية الرفيعة، وقصورهم الفارهة المنيفة، وخيامهم اللؤلؤية الواسعة، التي لا يخرجون منها إلا لقضاء لذّة أخرى في مسكن آخر أو في جنّة أخرى داخل ملكهم الواسع الكبير الذي لا حدّ له، أو في أرجاء الجنّة الفسيحة؛ ليعودوا بعدها إلى لذّات القصور الكثيرة.. منعّمين مرفّهين أبد الآباد.

والأمن في بلاد الأفراح لذّة تحلو بها كلّ لذّة أخرى، ويزداد بها كلّ نعيم، ويتولّد منها شعور الفرحة الذي يخالط القلوب. قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾[سبأ: ٣٧]. وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾[الدخان: ٥١].

وهذه الآية أصل في كلّ ما يصلح للسكن؛ إذ المسكن إنما يطيب بأمرين اثنين: أن يكون (مُقامًا) أي: مكانًا طيّبًا يصلح للإقامة، وأن يكون (أمينًا) أي: آمنا من جميع ما يُخاف منه ويُحذر. فلما ذكر تعالى هذين الشرطين في مساكن أهل الجنة دلّ على أنّهما الغاية المطلوبة في كلّ ما يصلح للسكن في الدّارين، وأنّهما لا يتحققان بكمالهما إلا في مساكن الجنّة.

والأحوال الكريمة التي ينعم بها السعداء تكتنفها معاني الأمن والسّلام، ومن أظهرها حال البهجة والسرور، والراحة والحُبور حين تغشاهم



الملائكة، مرحّبة ومسلّمة، تقول: سلاماً.. سلاماً، ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾، طبتم يا أهل الجنّة، وطاب مكانكم.

وفي مشهدٍ فريد من مشاهد النّعيم، يصف الله تعالى طريقة دخول الملائكة على أهل الجنّة، وهم مع أهليهم وأقاربهم، ويخبر عما يسمعونه من عبارات الترحيب والحفاوة التي تُدخِلُ السرور والاطمئنان في نفوسهم، قال سبحانه: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد: ٢٣ - ٢٤]، أي: سلامٌ عليكم في هذه الدار الكريمة؛ جزاء صبركم على طاعة ربّكم، وصبركم عن معصيته، وصبركم على أقداره المؤلمة في الدّنيا؛ فهنيئاً لكم هذا الخيرَ العميم، من الرّبّ الرحيم.

ولعل كلمة (سلام) من أكثر الكلمات شيوعاً في دار النّعيم؛ فهي تتكرر على ألسنة الأهل والغلمان، والملائكة الكرام، في كل مكان، ويستشعر بها أهل الجنّة السلامة التامّة المُطلقة.. السلامة التي حصلت لهم يوم القيامة، والسّلامة من أهوال النار، والسّلامة الدّائمة بدخول الجنّة، ثم السلامة فيها من كل ما ينغّص لذّتهم.. فلا موت ولا أذى، ولا هَرَم ولا سَقَم. وكثرة السلام شعارٌ ظاهر للسعداء فيما بينهم، مع كونه شعارًا للملائكة حين يلقونهم. قال الله جل جلاله عن أهل الجنّة: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾[الواقعة: ٢٥ - ٢٦].

هذه هي الجنّة.. دار الطيب الحسي والمعنوي، المطهّرة من الإثم والباطل، وكل صنوف الأذى، لا يسمع أهلها فُحش الكلامِ ولا إثمه، إن هي إلا التحية والإكرام، والدعاء والسّلام. وكل ما كان يُدخل السرور على

النّفس البشريّة في الدّنيا، وكلّ نعيم ظاهر كان يتنعّم به أهلها ففي الجنّة أضعافه وأشرف منه وأكرم، مما لم تر عين، ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب. وكلّ ألوان البشارة بأنواع الخير كلّه ففي الجنّة أضعافه. والبشارة في الجنّة متعدّدة المصادر؛ فهناك البشارة الكبرى من الرّحيم الرحمن، والبشارة من الملائكة الكرام، وهناك البشارة من الحور الحسان، ومن الأحبّة والخلان، ومن الحَشم والولدان.. نسأل الله الكريم من فضله.

بهجة التنظيم والترتيب:

يتقلّب السعيد في لذّات النّعيم، ويبهجه الشّعور المتولّد من سعة المكان، داخل الخيام اللؤلؤية الواسعة، والقصور الكريمة الفارهة.. بتُحفها الجميلة، وآنيتها المنوّعة التي لا حصر لها، والغرف العالية المطيّبة.. بأثاثها الفاخر، ومناظرها الفريدة.

والجنّة خلقها الله تعالى بيده. وهل أحكم وأجمل، وأدقّ وأحسن مما خلق الرحمن بيده؟! ولذا فكل ما فيها مرتّب منظّم.. في ذاته وفي لذّاته. ومن تأمّل في وصف الله سبحانه لجنات النعيم ازدادت معرفته، واشتد شوقه بقدر إيمانه وتسليمه، ومعرفته بقدرة ربّه سبحانه وكمال علمه وإحكامه.

ومن دلائل قدرة الله تعالى في خَلق الجنّة: أن جعلها على درجات.. ما بين الدّرجتين كما بين السماء والأرض، وأنهارها تنبُع من الفردوس، وهو أعلى درجات الجنّة وأجملها وأشرفها، ثم تنزل على سائر درجات الجنّة بنظام ودقّة لا يقدر أحد من أهل الدّنيا على تخيّلها! ولأهل الجنّة من النّعيم الخاص في القصور والغرف والغلمان وسائر المقتنيات الأخرى، ما لا يشاركهم فيه أحد من إخوانهم، على كثرة الممالك، واتّساع النّعيم وتنوّعه!



ولـذّة (النّظـر) مـن جملـة اللذائـذ البهيجـة في بـلاد الأفـراح؛ فالقصـور والأنهار، والمروج والأشجار، والبحيرات الكبيرة، والجبال الجميلة كلّ ذلك مخلـوق بتناسـق بـديع ونظـام لـم يـر أهـل الـدّنيا مثلـه! وقصـور الجنّة وغرفهـا وخيامهـا غايـة في البهـاء والعظمـة.. سـواء في جمـال تصـميمها واتّساعها وكثرة النّعيم بها، أو في مقتنياتها وأثاثها ومرافقها من الداخل.

والتنظيم البديع في جميع الأرجاء متوافق مع الجمال الباهر، ويتناغم مع كمالات الـذوق الرفيع وتمازج الألـوان والـروائح الزكية والأصوات الجميلـة؛ فالأنهـار تجـري بسلاسـة وعذوبـة تلـذّ بهـا الأبصـار والأذواق، والقصور مبنيّة في أماكن جميلة مختارة مـن الجنّة.. والمروج والسهول الغنّاء يغطّيها اللون الأخضر البديع، وتتـوزع فيهـا ألـوان الأزهـار الجميلـة، وتفـوح روائحهـا العطـرة.. بطريقـة تبعـث علـى البهجـة والسـعادة التـي لا تنقضي! والترتيب والنظام في الجنّة لـذّة بهيجة مـن جملـة اللذائـذ الكثيـرة التي يتنعّم بها السّعداء، ويجدون أثرها في قلوبهم وأبصارهم.

وهي لذّة ظاهرة، في كلّ ما يحيط بهم من النّعيم ويخالط حواسّهم مـن اللذائـذ؛ ففـي داخـل القصـور تصـطفّ الآنيـة بألوانهـا الزاهيـة، ومعادنهـا النفيسـة.. بطريقـة محبّبـة تُفـرح العـين. والوسـائد النّاعمـة ذوات ألـوان متناسقة.. مصفوفة في المجالس، وعلى الأسرّة، بطريقة جميلة.

والغُرف في داخل القصور والخيام والمساكن غاية في الجمال.. ألوانها ودرجة إضاءتها، وتوزيع الأثاث بـداخلها. والأنهار تتخلّل حدائق القصر وأشجاره بطريقة محبّبة، وتجري بسلاسة وهدوء لا أجمل منه، والأصوات عذبـة متناسـقة.. خاليـة مـن الضوضـاء أو النشـاز، أو فحـش القـول وإثمـه

ولغوه. والأشجار غنّاء، متناسقة، محمّلة بكلّ زوج بهيج. وهي تتطاول علوّاً في أفق السماء.

وكلّ شيء في الجنّة يكتنفه النّعيم، وتخالطه اللذة.. في ذاته وصفاته، قال الله تعالى، واصفـاً مشهد نعيم أخّاذ، يمتزج فيه كمال التنظيم، مع الذّوق الرّفيع داخل القصور، التي يطلع السعيد من شرفاتها على البساتين الغنّاء والأنهار الجارية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾[الغاشية: ٨ - ١٦].

والنّعيم يزداد بهجة وقيمة إذا أودع في كنف التنظيم والترتيب، وامتلأ فضاؤه بتناسق جميل في الألوان والأحجام والأشكال.. وحفّت به الروائح الزكيّة التي تتناسب وطبيعة المكان!!

والمنظرُ الحيّ البهيج الذي يراه أهل الجنّة لا مثيل له: بساتين القصور الداخلية مرتّبة أشجارها، مهذّبة حشائشها، فسيحة ممرّاتها، بهيجة مجالسها.. على طراز بديع يتوافق مع تصميم القصر العام، وتتدلّى أغصانها، بشكل محبّب وجميل على الشرفات وأماكن الجلوس، محمّلة بصنوف الثمار التي تتنوّع في طعومها وألوانها! ما إن يقطف منها السعيد أو الغلمان ثمرة حتى تعود مكانها أخرى، بمذاق جديد ونضارة فريدة! وظلال الأشجار ترسم لوحة جميلة على شرفات القصر، وردهاته الواسعة.

والإضاءة في داخل القصور والغرف والخيام، وفي أرجاء الجنّة كلّها، متناسقة على شكل محبّب وهادئ، وكذلك الألوان.. متناسقة مع بعضها البعض.. بشكل جميل يُبهج القلوب التوّاقة، والأعين الذوّاقة، وهي مع تناسقها، متدرجّة بشكل هادئ في كل الأرجاء.



والتّحف، بكافّة أشكالها وأحجامها، موضوعة هنا وهناك، والغلمان في داخل القصر يتحرّكون بترتيب وانضباط، وجمال وتوزيع أدوار.. كأنّهم، من بعيد، لؤلؤ منثور، وهم مع القرب لا يزدادون إلا حسناً وبهاءً.. بجمال طلعتهم، وطيب روائحهم، وحسن أدبهم. وكلّهم بنسق واحد من كمال الأدب، وعلى درجة رفيعة من النظام والطاعة، والانضباط ومراعاة الدّقة.. يظهر ذلك في طريقة كلامهم، وفي تنقّلهم للخدمة، وتقديمهم للطعام والشراب، وصفّ الوسائد، وترتيب الآنية والتحف، وقطف الثمار، وجلب الشراب اللذيذ من العيون والأنهار، وفي المقدار من الشراب اللذيذ الذي يصبّونه في الأكواب.. ويقدّرونه تقديراً، بحسب رِيّ أهل الجنّة، وبما تحصل لهم به اللذّة.. لا أقلّ منه، ولا أكثر!!

والأنهارُ الرّقراقة تجري من تحت الغرف، وتتخلّل حدائق المنزل، بنظام بديع يفرح النفوس ويأخذ بمجامع القلوب، والملائكة لهم نظامهم وأدبهم الجمّ في الدّخول والخروج، والتحية والسّلام، ويعبّرون عن مشاعرهم بأجمل الكلام، ويحترمون خصوصية أهل القصور، ويرافقونهم في تنقّلهم، ويخدمونهم، ويحملون عنهم، ويغشونهم في مجالسهم بالبشارة والسّلام والإكرام!

والسّعداء مع كلّ ذلك موعودون بالمزيد من ربّهم، قال سبحانه واصفاً بعض ما يكتنف أهل الجنّة من صور النّعيم في مشهد رغدٍ كريم ومجلس سعادة لا نظير له: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾[الرّعد: ٢٢ - ٢٤].

والأثاث في داخل القصور على درجة رفيعة من الترتيب؛ فالوسائد الوثيرة مصفوفة بقرب بعضها، والبُسط الأرضية الجميلة موضوعة بمقدار المكان المُنسدلة فيه.. بشكل بهيج، وفخامة لم يعرفها ذوق المترفين المرفّهين، القادمين من بادية الدّنيا. والآنيةُ المعدّة للطعام والشراب موضوعةٌ على صحون تقديم نفيسة، مصنوعة من الذهب والفضة الخالصين، أو الممزوجين بالزجاج النقي الصافي.

جدول اللذّات.. عامر بكلّ بهجة[1]:

وكلّ شيء في الجنّة يسير وفق نظام دقيق مُحكم، وترتيب بديع، مملوء بصنوف اللذائذ المُبهجة.. للعين والسمع والفؤاد، وسائر الحواس، ومصحوب بشعور الأنس والأمان، والراحة والهناء!

وجدول اللذّات اليوميّ.. المُعدَّ للسعيد في بلاد الأفراح لا ينقضي أبدَ الآباد، ولا يصاحبه ملل أو كدر، وهو متنوّع من حيث البهجة والإسعاد، حافل بالمتعة والإيناس.. يتجدّد كل يوم، بل كلّ لحظة.. وفق نَسَق جميل، مليء بالتشويق والرّفاه في كلّ لذّة، ومع كلّ مطعوم ومشروب، وتتداخل فيه المجالس والزيارات المحببّة، والأعمال والهوايات والألعاب الممتعة، وتتنوّع فيه الموائد والرحلات، والمجالس والمناسبات، والقراءات والمشاهدات.. داخل القصر وخارجه، مع كمالات الدّقة في التنظيم، وجمال التهيئة والتنفيذ، وحسن الخدمة والإكرام.. بانسجام تتجاوب معه

---

(١) مسكين ابن آدم.. ما أجهله حين لا يفرّق بين الذرّة والمجرّة، والصخرة والدرّة، والنّور والظلمة.. يعيش في دار الضيق والعناء، والكدح والشواغل، ثم تراه يعبّر عن مخاوفه من الملل أو الرّتابة في دار الفرح والسرور، والبهجة واللذة!



الألوان الجميلة، والمناظر البهيّة، والروائح الزكيّة، والأصوات العذبة، مقرونة بتحيّات الملائكة الكرام، ومؤانسة الزوجة المحبّة الحسناء، وطواف الغلمان الحسان بما يشتهي ويرغب من النّعيم، والمباهج الكثيرة التي لا نفاد لها!

وكلّ من يحيط بالسعيد من الملائكة الكرام، والحور الحسان، والولدان.. مخلوقون لأجل إسعاده فحسب، ومهامّهم التي أوكلها الله تعالى إليهم لا تجاوز ذلك؛ فما بين خدمة وإكرام، وتحية وسلام، وإغراء وتحبّب، وطاعة ومطاوعة، وتقديم وترتيب، وتهيئة وتجديد.. وتنافس بكل مفرح للقلوب والحواس؛ لتتمّ اللذّة ويظهر النّعيم على السعيد من كلّ وجه؛ فهم يحلّونه بأجمل الحُليّ قبل خروجه من القصر، ويعدّون له مركبه الوثير الفاخر، ويهيئون له متطلبات الخروج بحسب المراد؛ سواء أكان خروجاً لزيارة الأهل والجيران أو الأصحاب والخِلاّن، أو خروجاً لنزهة تأخذ وقتاً أطول.. برفقة الأهل والأقارب الذين جمع الله شملهم في الجنّة، أو كان خروجاً برفقة الأصحاب من أهل مودّته في الدّنيا، أو ممن تعرّف عليهم في الجنّة لنزهة، أو لممارسة هوايات أو مهن أو رياضات كان يحبّها في الدّنيا، وغير ذلك في جدول اللذائذ اليومي الذي لا يخطر على قلب، ولا يقدر على تنظيم مثله أحد من أهل الدّنيا[1].

---

(١) من قُدّر له أن يطّلع على جدول لذّاته العامر في الجنّة، وأبصر حياته المنظّمة المترعة بكل فرحة وبهجة داخل القصور والخيام والغرف العالية، واطّلع على قائمة مواعيده الطويلة لزيارة الحدائق والأسواق والملاعب، وحضور المناسبات والمجالس الكثيرة، والخروج مع الأهل أو الأصحاب في رحلات =

وكل سعيد في الجنّة له مُلك ظاهر، في كثرة خدمه وقصوره، ومراكبه ومياثره، وله أن يستمتع بممالكه كما يشاء، وأن يتجوّل في دار النعيم إلى حيث شاء، بالكيفية التي يشاء.. لا يمنعه مانع، ولا يكدّر صفوه مكدّر.. لا يخاف في دار الأمن على نفسه وذريّته، ولا يقتّر في طلب اللذائذ الغالية بدار السّعة والرّغد، ولا يحتاج للحجز المسبق في الأماكن الجميلة الرائعة؛ لأنّ الدّار كلّها دار نعيم متنوّع، وبهجة وسعة لا يحيط بها إلا خالقها، وهي مخلوقة له، ونعيمها متاح بين يديه، ورهن إشارته، بلا حجز أو استئجار أو شراء كما كان عليه الحال في الدنيا.

ومن كانت المناظر الطبيعية مبتغاه ومنتهى عشقه في أيّام إجازاته الدنيوية نسي كلّ منظر وذُهل عن كلّ لذّة مرّت به وهو يستمتع في الجنّة

= أنس وحبور على سفوح المروج، وضفاف الأنهار، وتحت ظلال الأشجار.. لضحك مما كان عليه حاله في الدنيا، حيث لم يكن يخطط لجدول لذّاته إلا أيام الإجازات القصيرة التي يختلس فيها وقت المتعة من بين ركام الأعمال والشواغل، ثمّ يقوم بتوزيع الأيام القليلة هنا وهناك؛ ليظفر بالمناظر الجميلة، والأجواء المعتدلة، والتنقّل في الأسواق والمتاحف، والسكن في الفنادق والمدن السياحية، وهو مع ذلك لا يكاد يهنأ بمتعة إلا ونغّصها ما يجد بعدها أو ما تقدّم بين يديها من السّفر الطويل والرحلات المضنية المليئة بالنفقات الباهضة، والخوف والتعب، والغربة والمفاجآت المزعجة!

أين هذا من متعة الأرواح التي لا تنقطع في بلاد الأفراح، وإجازة السّعادة الكبرى المملوءة بكلّ لذّة يأنس بها الفؤاد، وتشتهيها النفس، وتتجاوب معها الحواس، في دار نعيم كامل.. كلّ ما فيها طيّب فاره الجمال، بجدول لذّات متنوّع، عامر بكلّ متعة أبد الآباد؟!



بلذّة العيش في الخيام اللؤلؤية المضروبة على ضفاف الأنهار، والتنقّل مع أهله وأصحابه في أحضان الغابات والمروج الواسعة، يصعدون شوامخ الجبال، ويمخرون عُباب البحار، ويخيّمون على ضفاف البحيرات والأنهار، متنعّمين بالمباهج التي لا مثيل لها، مستغرقين في بديع المناظر، ومنغمسين في لذائذ الأسماع والأبصار، محفوفين بالرعاية والإكرام في كل مكان يفدون إليه أو يحلّون فيه.

وفي يوم الجمعة مزيد من كلّ نعيم.. مزيد في جمالات الصّور والأشكال، والتحف والهدايا، ومزيد في الدّقة والتنظيم، والسّلام والتكريم، والرّغد والهناء، والسعادة والحبور.

وحين يجتمع السّعداء بربهم عز وجلّ، يظهر القدر الأرفع في كمالات النّعيم، وفي مظاهر الترتيب والتنظيم؛ ابتداء من طريقة انطلاقهم من ممالكهم التي يكونون فيها، فقُربهم من ربّهم، وطريقة جلوسهم في الوادي الأفيح.. على الكراسي، أو على كثبان المسك، مروراً بنعيم المحادثة ولذّة المناجاة التي هي أعظم لذائذ الجنّة وأغلاها، إلى ما يتحف به الرّب الرّحيم وفده الكريم في ختام اللقاء، من جميل الصّور وكريم الهدايا التي لم تقع عليها عين آدميّ من قبل؛ جزاء عملهم الصالح في الدّنيا، ثم ينقلبون إلى أهليهم مكرمين، محفوفين بالرّعاية والتنظيم الذي تتجاوب معه النفوس الطاهرة، وتسعد به القلوب النقية الرّضية.. نسأل الله الكريم من فضله!

قاصِرَاتُ الطَرْفِ

يتجوّل السعيد برحمة ربّه في ملكه الفسيح، ويتقلّب في عيشه الرغيد داخل الخيام اللؤلؤية، والغرف العالية البهيّة، ويستمتع باللذات الكثيرة والنِّعم الوفيرة في المساكن الجميلة. ومباهج النّعيم داخل القصور والغرف والخيام لا تنقطع، والرّفاه فيها لا نفاد له في ذاته، ولا منتهى للذّاته. غير أنّ حياة الخصوصية بقرب الحور العين.. في الخيام اللؤلؤية، والقصور والغرف العليّة من أعذب أحاديث الجنّة وأغلاها.

ولولا تنويع القرآن الكريم لصنوف النّعيم لذهب حديث الحور الحسان بنعيم الجنان[1]. والجنّة شريفة القدر، متنوّعة النّعيم، كثيرة المباهج واللذائذ، ولا يمكن معرفة قدرها بنعيم واحد فيها، وإن كان بهيجاً كريماً في ذاته. وأرفع لذّات الجنّة وأشرفها وأغلاها.. رؤية الرّبّ جلّ جلاله.. به تسعد القلوب وتهنأ الأرواح وتلذّ الحواسّ.

---

(١) كثيرٌ من القُصّاص والوعّاظ، بل والدعاة في هذا العصر، إنّما يشرعون بتعداد صنوف النّعيم في الجنّة توطئة لحديث الحور العين، ويجوزون سائر اللذّات على عجل ليتفرغوا لوصفهنّ وبيان حسنهنّ ولذّة وصالهنّ!! وليس الحديث هنا عن رغبات الأشواق التي يبوح فيها المحبّ بصبابته قائلاً: «لا تعذل المشتاق في أشواقه»، وإنّما هو التوجيه لمنهجيّة العرض الموضوعي، والتنويع في إظهار لذّات الجنّات ومباهجها كما وردت في نصوص الوحي، وإلا فمن يزهد عن حديث الحور الحسان وما يجد السّعيد بقربهنّ في دار السّلام؟!



بهجة الحياة الرغيدة!

يتجوّل السعيد في منازل النّعيم التي يمتزج فيها الجمال والرّفاه الكبير، ويتنقّل في أبّهة الملك وكنف الرّغد الذي يظهر في طريقة جلوسه على السُرر الموضونة، المنسوجة بقضبان الذهب والجوهر، وفي أحواله النفسية الرّضية الهانئة، وطواف الغلمان عليه، وعلى أهل المجالس السعيدة، محمّلين بالأباريق والأكواب، والكؤوس المترعة بألذّ الشراب.. يقول الله جلّ شأنه في وصف مشهد لأحد هذه المشاهد الفريدة:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ﴾[الواقعة: ١ – ٨].

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾[الواقعة: ١٠ –٣٨].

ويا لجمال هذا المشهد الحيّ من مشاهد العيش السرمديّ الرغيد!! فها هم السّعداء داخل القصور الفارهة.. يتضاحكون في حال الفرحة والأنس والهناء، متّكئين على الأسرّة الجميلة التي لا نظير لها.. متقابلين، يحدّث

بعضهم بعضـاً، والغلمان يتنقّلون لخدمتهم، يطوفون عليهم بأصناف الطعام والشراب، في الكؤوس والصحاف والأكواب! والخمر اللذيذ مجلوب للتوّ من منبعه الدّائم النقيّ الذي لا ينقطع.

ومع صنوف الشراب التي يطوف بها الولدان، تـدور على السّعداء أطباق الفاكهة المنوّعة، بأشكالها وأحجامهـا، وألوانهـا وطعومهـا.. مـن كـلّ صـنف تشتهيه نفوسـهم، وتلّـذه أعيـنهم، وأطبـاق اللحـم، وبخاصّـة الطَّيْـر المشـويّ اللذيذ. وهم، في هذه الحال السعيدة الرّغيـدة، متّكئين بقـرب زوجـاتهم مـن الحور العين.. آمنين، لا يسـمعون فاحشـاً مـن القـول، ولا إثمـاً، إن هـي إلا التحيّة بالسلام في كلّ مكان.. سلاماً يسمعونه في داخل قصورهم، وفي جنبات خيامهم، وسلامـاً يتردّد في أرجاء الجنّة الواسعة التي يتنقّلون فيهـا.. مستمتعين بالفاكهة المتراكمة التي تتدلّى عليهم من الأشـجار الكثيـرة، بظلالهـا الدّائمـة في محيط السكون والضياء الهادئ الذي يتخلّله النسيم العليل، والظلّ الظليـل، على امتداد الأفق الجميل.

ومن شـرفات القصـر الرّفيـع، بقـرب الأشـجار المثمـرة يبصـر السّـعيدُ جريان المـاء العـذب في أنهـاره.. رقراقـاً بـارداً، وعلـى حـوافّ النّهـر أقـداح وأكـواب ممتلئـة مهيّئـة لإسعاد المتّقين قبـل طلـبهم! والفاكهـة علـى تنـوّع صـنوفها وألوانهـا وطعومهـا، كثيـرة مـن حـولهم.. لا مقطوعـة في زمـن، ولا ممنوعة بثمن، والفُرُش، في قصور السعادة ومجالس البهجة، مرفوعـة علـى السُّـرر الموشّـاة بالـذهب والفضــة، وعلـيهنّ الحـورُ العـينُ، الزوجـات الجميلات اللائي بلغن في الحسن سناه، وفي الخلـق الكـريم منتهـاه. فيـا لـه من نعيم ما أغلاه، ومجلس رغد ما أحلاه!



﴿حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾:

قلّ أن يخلو نعيم الجنّة ومشاهد العيش الرغيد في قصور السعادة من ذكر الحور العين.. نساء أهل الجنّة الرّاضيات المرضيّات، ذوات الحسن الخلّاب، والخُلُق الوافر! وحوَرُ العين سعتها مع شدّة سوادها في بياضها[1]، وهو من علامات الحسن والجمال التي تأسر الأفئدة وتسبي القلوب والأبصار. والحوراء، مع حسنها، عذراء لم يمسسها أحد قبل زوجها.. مفطورة على العفّة والحياء، مطهّرة حسّاً ومعنى، لم يقع الطّرف على أجمل منها حُسناً، ولا أكمل منها صباحة وبهاءً. فاتنة، لا يملّ المحبّ النّظر إليها، ولا تسأم الأذنُ حديثَها وغناءها، فهي النّاعمة الخالدة الباقية معه في دار النّعيم، الراضية به فلا تطمع في سواه، المَرضّية فلا تُغضبه ولا تُسخطه، بل تحمد الله عليه، كما يحمد الله عليها. عن أسامة بن زيد بن أسلم عن أبيه في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾[الدخان: ٥٤] قال: «الحُور»: التي يحار فيها الطرف، و«عِينٖ»: حِسانُ الأعين[2].

وهنّ مع هذا الحسن مصونات في قصورهن كأمثال اللؤلؤ المكنون الذي لم تمسّه يد من قبل، وعلى خُلُق كريم، لا تسل عن منتهى كماله، ورقّته ودلاله إلى أن يجتمعن بأزواجهنّ[3].

---

(١) حَوَر العين: اشتدادُ بياضها وسوادها، واستدارةُ حدقتها ورقّة جفونها، مثلُ أعين الظباء. (المعجم الوسيط ج١/ ص٢٠٥) وهو سرّ الجمال الآسر في المرأة.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة، (ح ٣٠٤/ ص٢٠٩).

(٣) لسائل أن يسأل: هل سبيل المتّقين إلى نساء الجنّة: عقد التزويج أم التمليك؟ وفي المسألة تفصيل يجدر بسطُه، وهو التفّريق بين حور الجنّة والمؤمنات =

وما من لذّة غالية في الجنّة، مطلوبة لذاتها، إلا وتحفّ بها لذّات أخرى تتجاوب لها سائر الحواس، مقدّمة بين يديها، وممهّدة إليه! ومن هنا فإنّ لذّة الوصال المتولّدة من لقاء الكواعب الحسناوات ليس مقصوراً على المعاشرة والجماع فحسب، وإنّما تسبقه وتحفّ به لذّات أخرى تخاطب جميع الحواس.. يطرب القلب لها، وتزداد بهجة النفس بها؛ فالنظر إليها

= الصالحات فيها؛ فحور الجنّة اللائي خُلقن فيها سبيلهنّ التمليك، بدون عقد التزويج، والله أعلم. ويكون معنى ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾: أي قرناهم بهنّ، لأنّ العرب لا تقول: تزوجت بها وإنّما تقول: تزوجتها (انظر: التفسير الكبير للفخر الرازي، ج٢٧/ ص٢١٧). وهنّ مع هذا التمليك زوجات، لحديث معاذ بن جبل ﵁: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدّنيا، إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله..» (أخرجه الترمذي، ج٣/ ص٤٧٧)، (وابن ماجه، ج١/ ص٦٤٨)، وهذا هو الفارق بينهنّ وبين مُلك اليمين في الدّنيا. وأمّا بنات آدم من الأيامى.. سواء أكنّ فتيات أم عجائز دُرد، أم زوجات مات عنهنّ زوج فأكثر، فإنّ النصوص تظهر وجود تخيير بإيجاب وقبول، قريبٍ من عقد النّكاح في الدنيا، كما في سؤال أمّ سلمة ﵂ لرسول الله ﷺ، قالت: قلت: يا رسول الله، المرأة منّا تتزوج الزّوجين والثلاثة والأربعة، ثم تموت فتدخل الجنّة، ويدخلون معها، من يكون زوجها منهم؟ فقال ﷺ: «يا أمّ سلمة أنّها تُخيّر فتختارُ أحسنهم خُلقاً، فتقولُ: أي ربّ، إنّ هذا كان أحسنهم معي خُلقا في دار الدّنيا فزوجنيه. يا أمّ سلمة ذهب حُسن الخُلق بخير الدّنيا والآخرة». (أخرجه الطبراني في الأوسط، ج٣/ ص٢٧٩، وقال: لم يروه عن هشام إلا سليمان تفرد به عمرو). (ورواه الهيثمي في مجمع الزوائد، ج٧/ ص١١٩). وهو في كنز العمال، (ج١٦/ ص٢٠٢).. وأمّا سائر أهل الجنّة فإنهم يقترنون بزوجاتهم الصالحات بموجب العقد الأوّل في الدّنيا، والله أعلم.



لذّة، والتملّي في حسنها لذّة، وسماع حديثها ومنادمتها وجميل غنائها لذّة، وطيب رائحتها، وحسن تبعّلها، وكريم معشرها.. كلّها لذّات تزيد من حبّه لها، وعشقه إياها، وشوقه إليها[1].

(١) اللذّات المتحصّلة بقرب الحوراء كثيرة متنوّعة، لا تقتصر على لذّة النكاح ووصال الجسد فحسب. والشوق للنعيم يحلو بمعرفة مقدّماته وما يحفّ به من لذّات أخرى. والقرآن الكريم، كعادته، يُكني عن الجماع ودواعيه ولا يصرّح، وتصريحه باللذائذ الأخرى أكثر من كنايته عن الجماع؛ ولذا تجده يصف الحوراء ويذكر محاسنها، وقصر طرفها على زوجها، ويصرّح بجمالها ويضرب له الأمثلة المقرّبة، وفي السنة بيان لعذوبة صوتها وغنائها، وحسن عشرتها، وكمال حيائها وكريم تعاملها، ونحو ذلك من لذائذ الروح والحواس! ووصال الحور متعة لا تُدرك لذّتها بدون مقدّماتها التي تقرّب منها وتحبّب فيها. ومن استحضر الغاية وهيّج الناس إليها، من غير أن يستحضر الأسباب المقدّمة لها، ولم يحرّكه ما يحفّ بها لم يُحسن التحبيب على الحقيقة، بل لربما وقع في الإعنات لا التشويق؛ فمن النّاس من يزداد شوقه إذا حدّثته عما يجد السعيد بقرب الحوراء من لذّة السماع، ومنهم من يشوّقه إليها استحضار جمالها الباهر، ومنهم من يشتاق للحياء والتودّد وحسن المداعبة، ولذا نوّع الله تعالى نعيم الجنّة ولذائذها ليسع جميع الخلق. وهل اللقاء الجسدي بذاته كاف لبلوغ كمالات اللذّة؟ ألا ترى أنّ المرأة الجميلة الحسناء من نساء الدنيا تستحضر الدّلال، وتتزيّن لزوجها بما يزيدها جمالاً في نظره، ثم تتخيّر عبارات الغرام، وتستكثر من الأصباغ والمساحيق، وتنتقي من الألبسة ما يناسب الحال، ويزيد من حظوتها على الرّغم من جمالها، وإلا لم يُقبل إليها فؤاده ولم تسعد بها حواسّه؟! وكم من حسناء أخذت بمجامع الملاحة والبهاء وتحدّث الناس عن حظوة زوجها بها، ثم لم يلبث معها إلا يسيراً، ولم يدم الوصال إلا قليلاً، =

والحور العين خلقهن الله تعالى في كنف الرّغد والنّعيم على غاية الحسن والجمال، وطرح عليهنّ البهاء والدّلال، والملاحة والجمال، وشقّ لهنّ السمع والبصر، وطيّب منهنّ الباطن والظاهر. وأخبر سبحانه أنّه أنشأهنّ إنشاءً [(١)]، ولذا فهنّ لم يخرجن من رحم أنثى، كنساء الدّنيا، ولا يخالط جوهرهنّ النقيّ قذرٌ ولا أذى.. وهنّ على الأبد جميلات جمالاً لا مثيل له، طاهرات مؤْمِنَات، حسناوات كاملات، طيّبات وَأَبْكَارا. ما خُلقن إلا لمتعة أهل الجنّة السّعداء في دار الفرح والرّغد.. عذارى، كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ على حال البكارة أوّل مرة، أتراب، متساويات في السنّ والحسن، قد جمعن مع جمال الخَلق كمال الخُلق؛ فالواحدة منهنّ عفيفة، حيّية، لا أحبّ لها بعد ربّها من زوجها الذي لا تبغي به بدلاً.. تمامُ سعادتها في إسعاده، وفرحتها في إبهاجه وإيناسه، ولذا تجدها أبد الدّهر متحبّبة إليه، عاشقة له، لا تبغي غيره، ولا تريد سواه. وهذه لذّة معنوية رفيعة فوق لذّة حسنهن الظاهر. قال الله عز وجل ممتنّـًا على المتّقين في دار النّعيم:

= وفارقها إلى من هي أقلّ حُسناً وأدنى صباحة وجمالاً!! وما هو إلا الدّلال قبل الوصال، وروعة المعنى قبل جمال المبنى، وملاحة الخُلق والحياء، والبسمة الصادقة، والكلمة الطيّبة، وصفاء القلب وحسن الحديث الذي يعطي للخَلْق الجميل حقيقته، ويُضفي على الوصال عذوبته. والقلب يعشق قبل العين، وباعثُ الروحِ يُغري باعثَ الجسدِ.

(١) المخاطب بهذا الإنشاء بنات آدم اللاتي كنّ في الدنيا عجائز شمطًا رمصًا، لورود آثار مرفوعة في ذلك. وعلى هذا القول يكون معنى ﴿أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ﴾ أي: خلقناهن خلقًا جديداً. (انظر: أضواء البيان ج٧/ ص٥١٩).



﴿وَعِندَهُمۡ﴾ أي: في القصور والغرف ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾، أي: جميلات كاملات، قد جمعن أكمل مراتب العفّة في ذواتهنّ، وأعلى درجات الحياء في تصرفاتهنّ مع أزواجهنّ. وفي هذا الوصف ملمح جميل؛ إذ لمّا عَدَل سبحانه عند وصفهنّ بأي صفة جميلة أخرى سوى هاتين الصفتين: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ﴾، تبيّن أنهما أشرف وصفين للحور العين وأكملهما وأظهرهما؛ فقصرُ الواحدة منهنّ طرفَها على زوجها دليل محبّتها وتعلّقها، وكفايتها وشوقها، وبديع حسنها الظاهر يزداد عند استشعار كمال خُلُقها الباهر، وعدم تعلّق قلبِها وطرفِها بغير زوجها!

الحياء.. سرّ الجمال في الدّنيا والآخرة!

الحسن يزداد رفعة، إذا صاحبه تواضع وحياء[1]. والجمال يتسامى منزله حين تكتنفه صيانة وعفّة، وتمتزج فيه اللذة الحسيّة باللذّة المعنوية. وآثار كمالات العفّة في تصرّفات الحوراء يمكن استخراجها مما اقترن به وصفها، وأظهره وصف (القَصْر) الذي تعلّق به كمالان اثنان للعفّة: الأول: كمال متولّدٌ من حفظ الحوراء في ذاتها عن أن تتعرّض للّمس أو للنظر من قِبل الآخرين، وهذا ما أشار إليه وصف القرآن الكريم لها مع أخواتها، من كونهنّ ﴿حُورٌ مَّقۡصُورَٰتٌ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾[الرحمن: ٧٢]. والثاني: كمال يظهر في حفظ صفاتها، هي وسائر أخواتها، وأنّهن لكمال عفّتهنّ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ على أزواجهنّ، أي: عيونهن قاصرات على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم؛ لشدّة اقتناعهنّ واكتفائهنّ بهم[2].

---

(١) وينقص قدر الجمال ويذهب رونقه إذا صاحبه ترفّع واستعلاء، وتكبّر وغرور.

(٢) أضواء البيان، (ج٦/ ص٣١٣).

وكمالات العفّة الثانية إنما تسمو بكمالات العفّة الأولى، وآثارها تظهر في غلبة الحياء، ورفيع الأدب والاستكانة التي تقترن بها الاستجابة الفطريّة لكلّ موقف! وحريّ بمن كانت مقصورة عن الرّجال، مصونة عن أنظارهم وأصواتهم من كلّ وجه، أن تكون قاصرة الطّرف، فطريّة الخُلُق، نقيّة الطباع، حَسَنة التبعّل، قنوعًا، شاكرة.. لا ترى لأحدٍ عليها فضلاً، بعد ربّها، إلا زوجها. ولو أنّ نساء الدّنيا كنّ كذلك، وغلب عليهنّ سلطان الحياء الذي يروّض طباعهنّ، ويصلح تعاملهنّ لأصبحن أكثر أهل الجنّة، وأسعدهم بالتكريم والقُرب والحفاوة.

وأجمل ما في المرأة الحياء، بل هو مادّة حياة القلب، ومنه يكتسب الجمال حلاوته، وتستمدّ العفّة طاقتها؛ حتى إنّ الخدودَ به لتتورّد حُمرةً، والطّرْفَ ليذبُل خَجَلاً، واللسانَ ليُقوّم، والأطرافَ لتسكن وتستقرّ.

وكلّ خُلقٍ حميد ظاهر لا يكون لولا الحياء؛ فهو رسول القيم، وبريد الفضائل، ولولاه لتهارج الرّجال والنساء في الطرقات، ولتعادوا على بعضهم كالبهائم؛ ولذا قال ﷺ: «إنّ مما أدرك الناس من كلام النّبوة الأولى، إذا لم تستح فاصنع ما شئت»[1]. أي: ما شئت من القبائح والرذائل التي لن تكون في منظورك كذلك بعد خلع جلباب الحياء!

الحياء رسول العفّة الأمين!

الحياء خادم العفّة الأمين ورسولها النّاصح، يأوي إلى معينها بعد كَلال النّهار في عالم الأغمار الظاهر. والعِفّة ملكة الجمال الحقيقي في عالم الباطن، ولها وصيفاتها اللائي يُحِطن بها، وخطّابها اللذين يلتمسون

(١) أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٢٦٨) عن أبي مسعود رضي الله عنه.



موافقتها؛ فإذا زفّها الحياء إلى بلاط القلب كرّة بعد أخرى، أَنِسَ بها وتوّجها على عرش مملكته، فإذا استقرّت كلِمَتُها، وظهرت سُمعَتُها، بعث إليها القلبُ رسول الحياء؛ ليفوّضها بمراسم أوامره إلى سائر رعيّته، فأمرت فيهم بعلمه، وأصلحت بمعرفته، وارتقت فيهم كلمتها لسابق فضله على سائر الجوارح. فإذا استقرّ مرسوم التمكين الظاهر للعفّة، بعثت رسولها إلى الجوارح الشاردة، وأعلنت مرسومها المختوم بختم الملك؛ فبدأ بترويض الأعين الخائنة، والفَلتات المستهجنة، وتهذيب الطباع النابية، حتى تخضع لسلطان العفّة.

والمرأة أكثر فخراً بتسنّم العفّة مكانها من القلب، وأكثر تقمّصاً لأخلاق العفّة في الظاهر، وهي أسرع في الاستجابة لترويض الحياء، الذي لا يزال يصونها عن القبائح، ويحفظها من حدود التماس مع الرجال، ويكلّلها بالمواقف الحميدة في سيرها، حتى يقرّبها من حِمى العفّة، فإذا دخلته استقبلتها العفّة بجميل شمائلها، ثمّ غمستها في معين فضائلها، وتوّجتها بتاجها الذي تُعرف به.

فإذا خرجت المرأة (العفيفة) إلى عالم الظاهر، فلا تسل عنها حين تكون (العفّة) شعارها، ثم تترقى في كمالات الحياء حتى تصبح بعد ذلك رسول العفّة الصادق إلى بنات جنسها! ولا تسل بعد ذلك كيف يكتسي فكرها ومنطقها، وصمتها، وسائر أعمالها أحوالاً ملكية راقية، وكيف يتقرّب إليها الجميع؛ ليتعرّفوا منها صفات (العفّة) ويتحلّوا بأخلاقها وشمائلها!! ثمّ لا تزال تترقّى في مراتب الحياء حتى تصبح هي ذاتُها عينُ العفّة، ووصيفاتُها، هنّ: القناعة والرّضى والطّهر.. وصيفات العفّة نفسها،

وترى في منطقها وأخلاقها صفحة بيضاء نقيّة، يظهر فيها على الخدّ احمرارُ الورد مصاحباً لاضطراب القلب، وكلال العين نابع من زكائه، وعلى قسمات الوجه علامة كرهه أو حبّه؛ فإذا الطَرْفُ قاصرٌ على الزّوج المحبوب، واللسانُ لا ينظمُ إلا جميل الجوهر، والغرامُ صادق وكذلك الشّوق، والحبّ لازمٌ وكذلك الودّ.

وأعظمُ من توّج بتاج العفّة، وأنِس بهما رسولُ الحياء من الأزواج في تاريخ بني آدم: محمّدٌ ﷺ وعائشة رضي الله عنها! ومن تأمّل في وصفهما، وسيرتها، وأحوالهما أبصر وشاح العفّة وتاجها، وخيوط الوصال القلبيّ ظاهرة في مواقفهما؛ أمّا رسول الله ﷺ فقد اكتسى قلبُه ولسانُه بالأخلاق الملكية، حتى كان أصحابُه يرونها عليه في كلّ موقف؛ فإذا أحبّ صَدَق، وإذا كره صَدَق، ضَحِكاتُه نابعةٌ من صميم قلبِه النّقيّ الطاهر.. وكذلك دمعته. عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ أشدّ حياءً من العذراء في خِدرها، وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه[1].

فلمّا زُفّت إليه عائشة رضي الله عنها، وكانت جارية لم تؤثّر فيها بعد طِباع النّساء، وبِكراً.. والبِكر لم تؤثّر فيها أخلاط الرّجال، أخذت تتطبّع بطباعه، وتنهل من كمالات شمائله، وسريعًا ما تدفّقت عليها أوشحة العفّة القلبية، وتنزّلت عليها غيوث العفّة السماوية[2]، حتى أصبحت أحبّ النّساء إليه؛

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٢٦٣) ومسلم (ج٤/ ص١٨٠٩).

(٢) التي غسلتها بمعين الماء والمسك، وأخرجتها طاهرة مبرّأة من حديث الإفك، وأغرقت سيول فضائلها الخبثاء الظالمين، وهدّمت سقوف المرتابين، وكشفت ندوبها، بعد الانحسار، آثار الأفّاكين الحاقدين إلى يوم الدّين.



لطهارة قلبيهما، وتوافق طبعيهما، وامتزاج روحيهما، وبلغ من ائتلاف منشور العفّة بينهما أنّه كان يرى حبّها ورضاها في كلال طرفها، وعلى فلتات لسانها، وقد حدّثت بذلك ﵂ في معرض ذكر مكانها من رسول الله ﷺ فقالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إنّي لأعلم إذا كنتِ عنّى راضية وإذا كنت عليّ غضبي» فقلتُ: ومن أين تعرف ذلك؟ قال: «أمّا إذا كنت عنّى راضية فإنّك تقولين: لا، وربّ محمّد، وإذا كنتِ غضبي قلتِ: لا، وربّ إبراهيم» قالت: قلتُ: أجل، والله يا رسول الله ما أهجر إلا اسمك[1]. ﷺ، ورضي عنها.

وسلطان العفّة في القلب كلّما قوي غلب على تصرّفات الجوارح! وما أجمل كمالات هذه الغلبة على قلب الحوراء الحسناء وجوارحها في هذا الوصف القرآني: ﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ حتى إنّ الحياء ليبلغ بها مبلغـًا يُعرف في كَلال طرفها الذي تقصُره على حبيبها الذي لا تعرف غيره، ولا تطمع في رؤية سواه!

ومن رحمة الله تعالى ببنات آدم، ومعرفته بما يصلحهنّ، وإرادته الخير لهنّ، وهو أعلم بخلقه سبحانه، أن جعل في أصل خلقتهنّ ما يميل إلى الحياء بالطبع ويهفو إليه، من الرّقّة والرّحمة والعاطفة واللين، وأرشدهنّ فوق ذلك إلى القرار في بيوتهنّ، وأوصاهنّ بحفظ مكنون العفّة في ذواتهنّ من كلّ ما يشوّهه أو يعكّر صفاءه في الخارج، وأخبرهنّ أنّ الجنّة دارهنّ ما دُمن على الوفاء بحقّه عليهنّ، وما دامت هذه الصفات الكريمة في مكنونهنّ القلبي، لم تتغير، وما دام البيت مكنون ذواتهنّ النّقية المصونة، لا يخرجن منه لمزاحمة الرّجال[2].

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٠٠٤) ومسلم (ج٤/ ص١٨٩٠).

(٢) العفّة في المرأة أنقى من الماء العذب الصافي في الإناء الشفاف النقيّ، ولا أضرّ =

بين قرار البيوت، وقصر الخيام!

ما أكمل الدّارين للصالحين.. دار الجنّة الصغرى، المليئة بالسّكون والهناء والدّعة والحفظ، ودار الجنّة الكبرى، المليئة بالنعيم والرّغد والمتع واللذّات. وحقائق جنّة الدّنيا لا تظهر إلا بالنّظر في آثار حبّه سبحانه لكرائم الذوات والصّفات، والتأمّل في جريان أمره ونهيه على الأفراد والمجتمعات، ونتائج تحبيبه سبحانه للطاعات وتحذيره من المنكرات.

وكما لا يجمع سبحانه لعبده بين خوفين وأمنين[1]، فكذلك الأمر في سائر المتناقضات؛ فمن هتكت جلباب الحياء في الدّنيا لم يُسدَل عليها

= عليه من تلويثه بأكدار الاختلاط، الذي يُفسد الذّات الطاهرة بخواطر الأمنيات المريضة، واقتراب الأجساد الملتهبة، وشوائب الأنظار الخائنة، وقاذورات الفروج الطائشة، ويشوّه الصفات الكريمة بكثرة ما يُحدث من المجاراة والتنافس، والنفاق والتصنّع، الذي يتطلّبه تقمّص دور الرّجولة الخشنة؛ لمصاولة الطباع الذكورية الكاسرة في ساحة الاختلاط. وهذه الخدوش المؤثّرة على مكنون الذات وصفاتها لا يجري إلا على نساء الدّنيا، وأمّا نساء الجنّة فمصونات في ذواتهنّ وصفاتهنّ بأصل الخلقة الأولى. وقد أخبر ﷺ عن الندوب الكثيرة التي تشوّه جوهر العفّة جرّاء هذا الخروج بقوله ﷺ: «إنّ الله كتب على بن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة؛ فزنا العينين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهى، والفرج يصدق ذلك ويكذبه». (أخرجه أبو داود عن أبي هريرة، ٢/ ٢٤٦). قال الألباني: صحيح.

(١) لما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ عن ربه جلّ وعلا: «وعزّتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمّنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة» (صحيح ابن حبان ج٢/ ص٤٠٦).



كنف السّتر يوم القيامة(١)، ومن لزمت مستقرّ العفّة أجارها الله تعالى في ظلّه من سحائب الخوف والهلع، وهذه بعض آثار رحمته سبحانه ببنات آدم حين أوصاهنّ بالقرار، وأمرهنّ بحفظ الفروج والأبصار.

وأعظم محلّة تظهر فيها آثار حبّ الله تعالى لكرائم الذوات والصفات: الجنّة، ولذا جعل نعيمها ذاتيـًا، غير متولّد من سبب وسيط يشوّه نقاءه ويؤثّر على لذّته، كما كان عليه نعيم أهل الدّنيا في أشربتهم ومطعوماتهم، وألبستهم ومركوباتهم، ومنها تطهيره سبحانه لقلوب الطيبين والطيبات من عباده.. في ذواتهم وصفاتهم. قال الله جلّ شأنه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[التوبة: ٧٢]. عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقيتُ إبراهيم ليلة أسري بي فقال: يا محمّد، أقرئ أمّتك منّي السلام، وأخبرهم أنّ الجنّة طيّبة التّربة،

(١) عن خزيمة بن ثابت رضي الله عنه قال: كنا مع عمرو بن العاص في حجّ أو عمرة فإذا امرأة في يدها خواتيمها، وقد وضعت يدها على هودجها، فدخل عمرو بن العاص شِعبًا ثم قال: كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الشعب، فإذا غِربانٌ كثيرة، وإذا غرابٌ أعصم أحمر المنقار والرّجلين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنّة من النساء إلا كقدر هذا الغراب في هذه الغربان» (أخرجه الحاكم: ج٤/ ص٦٤٥)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، وصححه الألباني في الصحيحة، ح١٨٥٠). قال ابن القيم رحمه الله: أراد قلّة من يدخل الجنة من النساء؛ لأن هذا الوصف في الغربان قليل عزيز. وفي حديث آخر: «المرأة الصالحة مثل الغراب الأعصم»، قيل: وما الغراب الأعصم يا رسول الله؟ قال: «الذي إحدى رجليه بيضاء». (حادي الأرواح ج١/ ص٨٧).

عذبة الماء، وأنّها قيعان، وأن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[1].

وأسعد نساء الدّنيا بنعيم الجنّة من اشتركت مع الحور العين في جنس صفاتهنّ وأخلاقهنّ، ولا يجري ذلك إلا على ذوات الخدور، الملازمات لبيوتهنّ، الحافظات فروجهنّ، المطيعات لأزواجهنّ، القائمات بعبادة ربّهنّ، بخلاف الناشزات، الخرّاجات الولّاجات اللائي تغيرت طباعهنّ؛ فجرحن الحياء بنظرات الخيانة، وخدشن سكون العفّة بضجيج الكَدْح والشقاء الذي خصّه الله تعالى للرجال.

وبين (مقصورات الخيام) في الجنّة (ومقصورات البيوت) في الدّنيا نوع تشابه في الصّفات يحبّه الله تعالى ويباركه ويرضى عنه؛ ولذا لم تزل الحورُ مكنونات في خيامهنّ، كاملات الخَلق والخُلُق قبل أن يفد عليهنّ أزواجهنّ، وهنّ كذلك بعد مجيئهم. وأهل الجنّة كلّهم طيبون أطهار، أنقياء أبرار، على درجة سواء من العفّة والكفاية والرّضى، ولكلّ منهم لذائذه التي تغنيه، ومباهجه التي تكفيه، ولهم من الحور الحسان، ومن النّعيم المقيم كثرة وتجدّداً واتّساعاً ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

والإخبار عن قرار الحوراء في خيام اللؤلؤ، على الرّغم من عدم تغيّر صفاتها إذا خرجت منها، يُظهر كمالات الطهر، ودرجات العفّة؛ لتقتدي بهنّ نساء الدّنيا الصّالحات في حفظ ذواتهنّ وصفاتهنّ، والفخر بمكنون العفّة بلزوم البيت والقرار فيه، والخفاء داخل الحجاب السّاتر حال خروجهنّ لما لا بدّ منه.

---

(١) أخرجه الترمذي، (ج٥/ ص٥١٠).



والحافظ لذاته وصفاته على سبيل المجاهدة والمصابرة في دار الخوف والشهوة والفتن أرفع من الحافظ لهما على سبيل الرّفاه والرّغد في دار الأمن والسّلامة، ولذا كانت منزلة المؤمنة الصالحة في الجنّة أرفع من الحور العين أنفسهنّ!! بل الحور وصيفاتٌ عند الصالحات من نساء الدّنيا، كما سيأتي. وهذه هي الجنّة، لو تأمّلنا في حقائق النّعيم بها.. منازل رفعة وكمالات، في الاستمتاع والرغد واللذات، بحسب درجات المجاهدة والصبر، والتوكل واليقين.

من لطائف الغيرة في الدّارين!

وليس قصرُ الحور وقرارهنّ في الخيام صيانةً لذواتهنّ وصفاتهنّ من الآفات الخارجيّة، كما هو حال نساء الدّنيا[1]، ولكنّ الغيرةَ لمّا كانت صفةَ كمال يحبّها الله تعالى جعل لها مُتعَلّقًا في الجنّة بقرار الحور في الخيام، وإن لم يكن ثمّة رّيبة أو شكّ أو خوف عاقبة. ولا يمنع ذلك ورود الغيرة بين الحبيبين، بسبب اختلاف الدارين، حوراء بين قريناتها تغار على زوجها وتدافع عنه وهو لا يزال في دارا لدّنيا، وفاروقٌ يُعرض رسول الله ﷺ عن رؤية زوجته في الجنّة؛ لِما علم من غيرته!!

وهذه من اللطائف النّادرة التي يحسُن ذكرُها في باب الغيرة؛ فقد أخبر ﷺ عن غيرة الحور العين على أزواجهنّ من صالحي المؤمنين في

(١) اللاتي حفظهنّ الله تعالى في مكنون عفّتهنّ: بالقرار في بيوتهنّ، وفي حجابهنّ الساتر حال خروجهنّ، وصانهنّ من كيد الشياطين الذين يراودونهنّ على الخروج؛ لقضاء أوطارهم، وإشباع غرائزهم عبر النّيل من ذواتهنّ، وتشويه كريم صفاتهنّ.

الدنيا؛ لما يرين من سوء خلق زوجاتهم، عن معاذ بن جبل ﵁ أنّ النبي ﷺ قال: «لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا، إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنّما هو عندك دخيل، يوشك أن يفارقك إلينا»[1]. كما أخبر رسول الله ﷺ عن تذكّره لغيرة عمرَ ﵁ على زوجة لم يصل إليها، بل لم يرها، ولم يعرفها بعد!! فعن جابر ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «رأيتُني دخلتُ الجنّة، فإذا أنا بالرّميصاء امرأة أبي طلحة، وسمعتُ خشفة فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال، ورأيتُ قصراً، بفنائه جارية، فقلت: لمن هذا؟ فقالوا: لعمر، فأردت أن أدخله فانظر إليه، فذكرتُ غيرتك» فقال عمر: بأبي وأمّي يا رسول الله، أعليك أغار؟[2].

ومما يؤكّد أنّ إعراضه ﷺ كان لمراعاة نفسيات أصحابه الكرام عليهم الرّضوان، بحسب ما يعلم من شخصياتهم، أنّه ﷺ أخبر عن لقائه بجارية أخرى لأحد أصحابه، هو زيد بن حارثة، وأنّه سألها فأجابته، عن بريدة أن رسول الله ﷺ قال: «دخلتُ الجنة فاستقبلتني جاريةٌ شابّةٌ، فقلتُ: لمن أنتِ؟ قالت: لزيدِ بنِ حارثة»[3]، وما سؤاله إياها، وحواره معها إلا لأنّ زيداً ﵁ كان عنده من القرب بحيث كان يسمّى قبل البعثة زيد بن محمّد، فكيف به وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟

---

(١) (أخرجه الترمذي، ج٣/ ص٤٧٧)، وأخرجه ابن ماجه، ج١/ ص٦٤٨).

(٢) (أخرجه البخاري، ج٣/ ص١٣٤٦).

(٣) أورده الهندي في كنز العمال، (ج١١/ ص٣١٣)، وهو في الصحيحة للألباني، (ح ١٨٥٩).



ولا حرج في هذه الغيرة ما دامت الدّار مختلفة، لأنّ غيرة المُحبّ على حبيبه أظهر ما تكون في ثلاثة أحوال: حين يفارقه، أو يغلب على الظنّ حصول المشاركة فيه، أو عند تعرّضه لما لا يليق به، على أيّ وجه من الوجوه. وغيرة الحوراء الكاملة في خلقها وخُلقها صادقة، حين ترى زوجها التقيّ يؤذى على يد امرأة دنيوية، ناقصة العقل والدّين، والخَلق والخُلُق! حتى إنّها، على الرّغم من كمال أدبها وحيائها، لتدعوا عليها بالويل والهلاك!!

في المقابل تزداد غيرة الزوج الصالح من أهل الدّنيا على عِرضه، وإن كان مصوناً مكنوناً، بقدر كمالات إيمانه واكتمال رجولته والصفات الحميدة في نفسه! وكلما زاد الإيمان ارتفع منسوب الرجولة الحقيقي، وبارتفاعها تظهر مساحة واسعة من فضاء العفّة والغيرة، حتى يفيض منسوبها على الجوارح ويتجلّى بعد ذلك مزيج فريد من الحياء والسّتر، والنقاء والطهر، لدرجة يستحيل معها ورود مجرّد التعريض بما كان بينه وبين زوجته. وينقص من رجولته بقدر نقصان دينه! ولا عجب من مكتمل الرّجولة والعفّة أنّ يستهين بالنفس والمال في سبيل العرض، وأن يترفّع عن مشاركة أحد حتى في مجرّد النظر إلى زوجه أو ذكر اسمها، حتى قال أحدهم محذّراً:

فإيّاك واسم العامريّة إنّني ... أغار عليها من فمِ المتكلّم!!

وكامل الغيرة هذا قد يقتل أو يُقتل في سبيل عِرضه! ولحُبّ الله تعالى للغيرة، نُزّل قتيلها منزلة الشهيد؛ لأنه إنما أتلف روحه في سبيل عرضه. هذا في حقّ كلّ غيور، على كلّ عرض يُغار عليه، مهما كان خلقه وخُلُقه، فكيف بمن كانت امرأته من حور الجنّة؟! فكيف لو كان هذا الغيور عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟!

والغيرة المحمودة التي تعتري الصالحين يحبّها الله تعالى ويرضى عنها؛ لأنّه سبحانه يغار، ويرضى عن عبده أن يشاركه كمالاً يليق به، وهي دليل كمال لا نقص؛ إذ لا يستقيم الطيّب مع الدّياثة التي لا يغار صاحبها على عرضه إذا نالته عيون الرّجال أو أبعد من ذلك! واقتران الإيمان بالغيرة ظاهر، ولذا لا يدخل الجنّة ديّوث[1].

وباتّقاد الغِيرةِ المحمودة نضوجُ الرّجولة الحقّة، وقطع الشكّ والرّيبة، وحفظ النّسب على طهارته، وصيانة للجوهر المكنون بالمَنون، وذود الدّنس عنه كما يُذاد الذباب عن الوجه الشريف والإناء النظيف! والنفس الغيورة لها نفرة وثورة وثّابة. إذا حيل بينها وبين الظهور أحرقت صاحبها وأتلفت صحّته، وأكثر ما يعانيه المتّقون الأحرار في بلاد الغربة مع الكفار هذا الصنف من البلاء، وكثيراً ما يموت الأغيارُ لأجلِ العار، وفي إشاحة رسول الله ﷺ عن جارية عمر رضي الله عنه برهان على كمال إيمانه ورجولته وعفّته، مع قربه من رسول الله ﷺ، وحبّه إيّاه، وتحقّق ولايته له، وتأكيد الفاروق بالقسم المغلّظ أنّه أحبّ إليه أكثر من أهله وماله ونفسه!! ولكنها الغيرة.. مادّة كلّ فضيلة، ومعدن كل نقاء.

واستشعار الحُسن المحفوظ بلحظ جفونه، مع النّقاء الباقي في مكنونه، والخُلُق الكريم الدائم على أصل فطرته.. لذّة من جملة اللذّات التي تزيد الحبّ الصادق، وتبعث الشوق والغرام.

وليس الوصال الجسدي ذاته مكمن السرّ، وإنّما بواعثُه ومحبّباته، وليس الجمال وحده باعث الوصال، إنّما مجموع الحسن والحياء، والرّقة

---

(١) مصنف عبد الرزاق عن معمر عن رجل من قريش يرفعه، (ج١١/ ص٢٤٣).



والدلّ والنّقاء، وقد بلغت الحوراء منازل الكمال في ذلك كلّه؛ فهي فارعةُ الجمال، قد بلغت من الحسن غايتَه، عروبٌ دَرَجَت على كنَف الرّغد والأدب، كاملةٌ في خَلْقها وخُلقها، لم تُبصرها عينٌ قبل زوجها، ولا مسّتها يدٌ منذ أصل خلقتها، مقصورةٌ في نُزُلها، مكنونةٌ في مخدعها، كالدرّةِ النقية.. ريّانةٌ من مناهل الإنعام، خيّرةٌ في أخلاقها، قاصرةُ الطّرف.. كأَنها الياقُوت والمَرجان.

وما تقول في قصر واحدٍ مُنيف من قصور الجنّة الفارهة.. تعدل مساحته الكلّيّة مساحة دولةٍ بأكملها، وتجوزُ غُرَفُهُ العُلويّةُ أرفعَ ناطحات السّحاب في هذا العصر[1]، كيف تكون حدائقُه وساحاته، وغُرَفُه ومباهجه، ولذائذه الداخلية المتجدّدة التي تنهل منها الحوراء، وهي تتنقّل في الرّفاه الكبير بين غرف القصر الفارهة، وبساتينه الواسعة.. وتسير في حدائقه، وتجلس في مجالسه، بمفردها أو مع أخواتها من نساء الدّنيا الصالحات، أو وصيفاتها، وتستظلّ بأشجاره، وتتناول من فاكهته، وتتلذّذ بنعيم المباهج، وجمال المناظر، وحلاوة الأصوات، وعبق الروائح ونفيس المقتنيات.. حتى يعود إليها زوجها؟!

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾:

وصَف الله تعالى الحور العين بصفات كريمة تُجلّي حُسن مظهرهنّ، وجمال ألوانهنّ، واكتمال قوامهنّ، واعتدال أعمارهنّ، فقال سبحانه:

---

(١) سبقت الإشارة إلى أنّ الخيمة اللؤلؤية الواحدة من خيام الجنّة متساوية الطول والعرض.. ستّون ميلاً من كلّ جانب، أي ما يقرب من ٩٩ كيلو متر، وأنّ مساحتها الكليّة تبلغ ٩٨٠١ كيلو متر مربّع!

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾[الصافات: ٤٨ - ٤٩]. أي: كأنهنّ لؤلؤٌ أبيضُ جميلٌ مكنونٌ في أصدافه؛ لحسنه ونفاسته؛ إذ لا يُخزن ويُصان إلا الجوهر النفيس، ولذا أبيح للأمة أن تكشف وجهها، وأمِرت الحرّة أن تستره وتصونه.

كما ورد تشبيه الحور الحسان بالياقوت والمرجان، لجامع الصّفاء والبهاء وجمال المنظر؛ فهنّ ﴿عِينٌ﴾، جمع عيناء، وهي النّجلاء الجميلة، واسعة العين. وكثيراً ما يقرن سبحانه بين جمال الحوراء في ذاتها، وبين جمال عينيها، بل يكفي، لتصوّر جمالِ عينيها، أنّ اسمها مأخوذ من حُسنهما!!

وهنّ بِيض الألوان ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾.. صافيات، مشروب بياضهنّ بحُمرة تزيد من جمالهنّ ونقائهنّ، ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، إذا لبست إحداهنّ حُلّة تبدّت محاسنها من فوقها، وإذا تجلّت للمحبّ تبدّت له مفاتنها، كما يتبدّى الشّراب اللذيذ في الزّجاجة البيضاء النقية!

والحوراء شابّةٌ حسناء، مُكتملةُ الخَلْق، جميلةُ القوام، قد بَلغت في الجمال أعلاه، وفي الملاحة رفيع منازلها.. ريّانةٌ لا تشكو من الهُزال، ولا يكتنزها لحم يُخفي تفاصيل الإغراء ومكامن الجمال، خلقهنّ الله تعالى بيده، حتى غار الجمالُ منهنّ لفرط حُسنهنّ؛ فهن الكواعب الأتراب «اللاتي جرى في أعضائهن ماءُ الشباب، فللورد والتّفاح ما لبسته الخدود، وللرّمان ما تضمّنته النهود، وللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور، وللرّقة واللطافة ما دارت عليه الخصور. تجري الشمس من محاسن وجهها إذا بَرَزت، ويضيءُ البرقُ من بين ثناياها إذا ابتسمت، إذا قابَلت حِبّها فقل ما تشاء في تقابُلِ النيّرين؟ وإذا حادثته فما ظنّك بمحادثة الحِبّين؟ وإن ضمّها



إليه، فما ظنّك بتعانق الغُصنين؟ يرى وجهه في صحن خدها كما يرى في المرآة التي جلاها صقيلها، ويُرى مُخّ ساقها من وراء اللحم، ولا يستره جلدها ولا عظمها ولا حُللها. لو اطّلعت على الدّنيا لملأت ما بين الأرض والسّماء عَطراً، ولاستنطقت أفواه الخلائق تكبيراً وتسبيحًا وتهليلاً، ولتزخرف لها ما بين الخافقين، ولا غمضت عن غيرها كل عين، ولطمست ضوء الشمس، كما تطمس الشّمس ضوء النجوم، ولآمن مَن على ظهرها بالله الحي القيوم. ونصيفها على رأسها خيرٌ من الدّنيا وما فيها. ووصالها أشهى إليه من جميع أمانيها. لا تزدادُ على طول الأحقاب إلا حُسنًا وجمالاً، و لا يزداد لها طول المدى إلا محبّة ووصالاً. مبرّأة من الحَبَلِ و الولادة، والحيضِ والنّفاس، مطهرةً من المُخاط والبصاق، والبول والغائط وسائر الأدناس. لا يفنى شبابها، ولا تبلى ثيابها، ولا يَخْلَقُ ثوبُ جمالها، ولا يُملّ طيبُ وصالها. قد قَصَرت طرفها على زوجها فلا تطمح لأحد سواه، وقصَر طَرفَه عليها فهي غاية أمنيته وهواه. إن نظر إليها سرّته، وإن أمرها بطاعته أطاعته، وإن غاب عنها حفظته، فهو معها في غاية الأماني والأمان، هذا ولم يطمثها قبله إنس ولا جانّ. كلما نظر إليها ملأت قلبه سروراً، وكلّما حدّثته ملأت أذنه لؤلؤا منظومًا، وإذا برزت ملأت القصر والغرفة نوراً»[1]. قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾[الواقعة: ٣٥ – ٣٧].

فما بالك بُحسنٍ يصفه الله تعالى ويُثني عليه، ويرغّب فيه، هل حُسنٌ أرفع منه وأجمل، وأبهى وأكمل؟! والحورُ العين.. بيضٌ حسانٌ، يُرى

(١) حادي الأرواح، لابن القيم رحمه الله، (ج١/ ص١٩٣).

بياض ساقها من وراء لباسها، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنّ المرأة من نساء أهل الجنة ليُرى بياضُ ساقها من وراء سبعين حُلّةً، حتى يُرى مخّها، وذلك بأنّ الله يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ فأمّا الياقوت فإنّه حجرٌ لو أدخلتَ فيه سلكاً ثم استصفيته لرأيته من ورائه»[1].

وهنّ (كواعب) أي: نواهد، قد برزَت أثداؤهنّ؛ فصرن كالرّمان، لسن بمتدلّيات ولا غائرات، وافرات الحُسن، كاملات الوصف، دائمات النّضارة والبهاء:

حمرُ الخدود ثغورهن لآلئ ... سود العيون فواتر الأجفانِ

كمُلت خلائقها وأُكمِل حُسنها ... كالبدر ليل الست بعد ثمانِ

والشمس تجري في محاسن وجهها ... والليل تحت ذوائب الأغصانِ

فتراه يعجب وهو موضع ذاك مِن ... ليلٍ وشمس كيف يجتمعانِ

فيقول: سبحان الذي ذا صُنْعُهُ ... سبحان مُتقن صنعة الانسانِ[2]

وهنّ على شدّة حسنهنّ.. في أوج الشباب، ﴿أَتۡرَابٗا﴾، أي في سنّ واحدة، لا فرق بينهنّ، ذوات ثلاث وثلاثين، وهو سنّ الكمال، وأعدلُ ما يكونُ من الشباب، ولا يبعد أن تكون لهنّ أسماء يُعرفن بها، وبخاصّة أنّ نساء الدّنيا الصالحات يُنادَيْن يوم القيامة بأسمائهنّ اللاتي عُرفن بها في

(١) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٦٧٦).

(٢) الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم، (ص٣٦٧).



الدّنيا، وإذا دخلن الجنّة لم تزُل عنهنّ أسماؤهن تلك. ومن تأمّل الفرق بين الدّارين، ظهر له الفرق بين الجمالين[1]!

وجمالُ أهل الجنّة متجدّدٌ على الدّوام، وهم يزدادون كلّ أسبوع حُسناً وجمالاً، ونضارة وبهاء.. بعد عودتهم من لقاء ربّهم في سوق الجمعة، حين تهبّ عليهم في المجمع العظيم ريحُ الشَّمال، وتحثو في ثيابهم ووجوههم ما شاء الله تعالى من الطّيب والرّغد والبهاء والنضارة، فيزدادون فرحة وسعادة، وطيباً وحُسناً وجمالاً، ثم يرجعون إلى أهليهم فيجدونهنّ كذلك.. قد ازددن حُسناً وجمالاً! فيقول المحبّ لحبيبه: قد ازددتِ بعدي حُسناً وجمالاً! فتقول له: وأنت والله، لقد ازددتَ بعدي حُسناً وجمالاً! وهكذا تتواصل الهبات، وتتجدّد اللذات، وتهبّ النسائم بالنفحات من الربّ الكريم سبحانه.

---

(١) شتّان بين جمال أهل الجنّة الصادق.. رجالاً ونساء، وجمال أهل الدّنيا الكاذب الذي تعلوه التجاعيد مع مرور الزمن، وتنتشر في محاسن وجهه الترهلات والأثاليل والبقع التي لا تزول إلا بكثرة الأصباغ والمساحيق، ويشوّهه الشيب والصّلع، ويشوبه البهاق والبَرص، وتغيّره الرّوائح والسوائل الكريهة، والطباع والآفات الرديئة!! وجمال أهل الجنّة تامّ كامل، لا في ظاهره فحسب، بل في باطنه وما يتولّد منه؛ لأنّها دار الحُسن والطيب، وكلّ ما تحويه بداخلها.. من نعيم مقيم، وساكن كريم متولّد من جنس طيبها وجمالها، بخلاف دار الدّنيا!

النساء في الجنّة أكثر من الرجال!؟

من عجيب أمر الجنّة أنّ الحور الحسان فيها من الكثرة بمكان[1]، ويكفي لبيان هذه الكثرة ما أخبر به ﷺ عن عددهنّ في القصور العالية الذّهبية، والخيام اللؤلؤيّة الفارهة التي يُتحف الله تعالى بها كلّ ساكن في الجنّة، مهما كانت منزلته، قال ﷺ: «إنّ في الجنّة خيمة من لؤلؤة مجوّفة عرضها ستون ميلاً، في كلّ زاوية منها أهلٌ ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن»[2].

والسعيد إذا دخل الجنّة برحمة ربّه ارتقى في منازلها، ونال صنوف النّعيم من اللذائذ والغلمان، والتّحف والحور الحسان، بحسب إيمانه وعمله الصالح.

واستحضار كثرة النّعيم يظهر حين نعلم أنّ المؤمن في الجنّة يرث الكافر في جنس النّعيم الذي أرصده الله تعالى له، لو أنّه أطاع الله تعالى، وهذا نعيم زائد فوق ما يكرم الله تعالى به المتّقين جزاء عملهم، وما يفيض به سبحانه من وافر كرمه عليهم! عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من أحدٍ يُدخله الله الجنّة إلا زوّجه الله عزّ وجل ثنتين وسبعين زوجة،

---

(١) قال القرطبي رحمه الله، في حديث الخيام اللؤلؤية المجوّفة وما فيها من الحور العين: يُعلم من هذا الحديث أنّ نوع النساء المشتمل على الحور والآدميات في الجنّة أكثر من نوع رجال بني آدم، (عمدة القاري، للعيني، (ج١٥/ ص١٥٣).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٨٤٩)، ومسلم، (ج٤/ ص٢١٨٢).



ثنتين من الحور العين، وسبعين من ميراثه من أهل النار»[١]. وبهذا يتمّ الجمع بين كثرة من يدخل النّار من نساء الدّنيا، وكثرة الحور العين من نساء الجنّة.

حورُ الجنّة يتفاوتن في الشّرف والمكانة:

أقلّ ساكني الجنّة نعيماً، من له مع الملك العظيم زوجتان من الحور العين، لهنّ من الفضل والمكانة، والجمال والبهاء، والملاحة والنضارة ما يفوق سائر الحور، قال رسول الله ﷺ، وهو يصف دخول أدنى أهل الجنّة منزلة إلى قصره المنيف: «ثم يدخل بيته فتدخلُ عليه زوجتاه من الحور العين، فتقولان: الحمدُ لله الذي أحياك لنا، وأحيانا لك، فيقول: ما أُعطي أحدٌ مثلَ ما أُعطيت»[٢]. كما أخبر ﷺ عن كرامة الشهيد عند ربّه سبحانه، وأنّه لرفيع منزلته يزوّج باثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، قال ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يُغفر له في أوّل دفعة، ويُرى مقعده من الجنّة، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدّنيا وما فيها، ويُزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشفّع في سبعين من أقاربه»[٣].

واختصاص آخر أهل الجنّة دخولاً بالزّوجتين من الحور العين، والشهيد بالاثنتين والسبعين حوريّة؛ مع ما عُلم من كثرة الحور الحسان

---

(١) أخرجه ابن ماجه، (ج٢/ ص١٤٤٧).

(٢) أخرجه مسلم، عن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، (ج١/ ص١٧٥).

(٣) أخرجه الترمذي عن المقدام بن معد يكرب، (ج٤/ ص١٨٧)، وابن ماجه، (ج٢/ ص٩٣٥)، والإمام أحمد، (ج٤/ ص١٣١).

لجميع أهل الجنّة مما ينالونه جزاء أعمالهم أو يرثونه من نصيب أهل النّار، أو يجدونه من كرم ربّهم في الخيام الفارهة والقصور العالية مما لا يخطر لهم على بال.. هذا الاختصاص يدلّ على الرفعة والشرف؛ فهاتان الحوريتان لآخر السّعداء، والاثنتين والسبعين لكِرام الشهداء: لهنّ خصوصية من حيث الفضل والمكانة، والجمال والنضارة، والحسن والملاحة لا تماثلهن فيه سائر الحور العين. كما ورد في النّصوص التفريق بين مراتب الحور أنفسهنّ، وأنّ منهنّ الغاليات فارعات الحُسن، لكّل واحدةٍ منهنّ وصيفات يطُفن بها ويخدمنها! والكلّ كريم القدر، رفيع البهاء، ولكنّه فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقدّ تجلّت حكمته سبحانه في اصطفاء أفرادٍ من كلّ جنس، وأعيانٍ من كلّ صِنف.. ظهرَ ذلك في دار الدّنيا، وهو أشدّ ظهوراً في بلاد الأفراح، في جنس أفراد الحور الحسان، والمساكن والمطاعم والملابس، ومن الملائكة الكرام الذين اختصّ الله تعالى بعضهم بالقرب منه ومن أوليائه، تفضلاً منه وإظهاراً لكريم عطائه!

وفي كلّ مكان من جسد الحوراء لذّة يتمتع بها زوجها؛ فالشعرُ والخدّ، والصَّدرُ والنّهد، والعُنُق والخِصر، والقَدمُ والساعد.. كل ذلك مركّب على غاية الحسن والجمال والصفاء، والبياض والرّقة والنعومة.

وما ظنّك بجمالٍ زيّنة الله تعالى في كنف الرّغد الظاهر، وركّب فيه من اللذة ما تشتاق إليها الأرواح قبل العيون، ثم غمسه في النّعيم المكنون المصون، وقصره في الغرف والخيام زمناً طويلاً كما يُكنز الطيب المعتّق الثمين لصاحبه، ثمّ زيّنه في الباطن بكريم الشمائل، وصدق المشاعر، حتى



أضحت الحوراء أجمل ما خلق الله تعالى من النساء.. حسّـاً ومعنى؛ فهي كاعب ودود، تنتظر قدوم حِبّها بفارغ الصبر، وتغار عليه وهو في الدّنيا.. فإذا أقبل عليها لم يكن أحدٌ أسعد منها، ولذا تراها ترافقه ولا تفارقه، وتطيعه ولا تخالفه.. تطوف به عند النزول، وتهنّئه بسلامة الوصول.. تقول: الحمد لله الذي سلّمك لي وسلّمني لك! فسبحان من أعطى، وسبحان من أرضى، وسبحان من ظهرت آثار حكمته ورحمته في جميع مخلوقاته!

وللسعيد في كلّ غُرفة من الغرف نعيمٌ مقيم، وفي كلّ زاوية من الزوايا مُنقلب كريم، وله فوق ذلك ما لم تر عينه ولم يخطر على قلبه، قال الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق: ٣٥]. عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يدخل الرّجل على الحوراء فتستقبله بالمعانقة والمصافحة.. فبأي بَنان تُعاطيه؟ لو أنّ بعض بَنَانها بدا لغلب ضوؤه ضوءَ الشّمس والقمر، ولو أنّ طاقةً من شعرها بدت لملأت ما بين المشرق والمغرب من طيب ريحها، فبينا هو متكئ معها على أريكته، إذ أشرف عليه نورٌ من فوقه، فيظنّ أن الله عز وجل قد أشرف على خلقه، فإذا حوراء تناديه: يا وليّ الله، أما لنا فيك من دُولة؟ فيقول: ومن أنتِ يا هذه؟ فتقول: أنا من اللواتي قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، فيتحوّل إليها فإذا عندها من الجمال والكمال ما ليس مع الأولى، فبينا هو متكئ معها على أريكته، إذ أشرف عليه نور من فوقه، وإذا حوراء أخرى تناديه: يا وليّ الله، أما لنا فيك من دُولة؟ فيقول: ومن أنتِ يا هذه؟ فتقول أنا من اللواتي قال الله عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، فلا يزال يتحوّل من زوجة إلى زوجة»[1].

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، (ج٨/ ص٣٦٢)، وحكم عليه الألباني بأنه منكر في ضعيف الجامع، (حديث ٢٢٢٢).

والحور العين، على تفاوت منازلهنّ، غاية في الكمال والجمال، ومكامن اللذّة فيهنّ تخاطب جميع الحواس! وكلّ شيء في الحوراء يبهج السعيد ويهيّجه، ويُغريه بما لا يخطر له على بال، فعينه تلتذّ برؤيتها، ويطرب سمعه لصوتها، وينشرح فؤاده لحسن أخلاقها.

ولا أجمل من حسن تبعّل الحوراء على الرّغم من بديع جمالها! ويظهر اجتماع الكمال في الحسنين حال تلقّيها لخليلها عند أبواب القصر، فهي تنتظر قدومه إذا قَفَل، وترافقه مودّعة إذا رَحَل.. مخدومةً من خدمته، مُكرّمةً لكرامته، ليس عليها مؤونةُ الكدّ والعمل كنساء الدّنيا.. إن هو إلا التنعّم فوق الأسرّة، وإسعاد المحب على الأرائك، والتفرّغ لجميل الخطاب، ولذيذ الغناء، وبديع الثياب، والتفنّن في الإغراء، والتلذّذ بصنوف المتع في دار الكرامة.

شرفُ منازلِ الصالحات في الجنّة:

المرأة الصالحة من أهل الدّنيا أرفعُ قدراً، وأوفر جمالاً، وأكثر ابتهاجاً وتنعّماً من حور الجنّة إذا دخلتها! كيف والجنّة في حقّها دار جزاء، ولها ما اشتهت نفسها في دار السلام! وهي وافدة على ربّها، وحقّ الوافد الإجلالُ والإنعام.

ومن كانت الجنّة لها دار جزاء فإنّ الأحوال والهيئات والمسائل الخاصّة بها تختلف قطعاً عن تلك المتعلّقة بنساء الجنّة اللاتي خُلِقن فيها. ومن ذلك ما روي عن أمّ سلمة رضي الله عنها أنها قالت: قلت: يا رسول الله ﷺ: نساء الدّنيا



أفضل أم الحور العين؟ قال: «بل نساء الدّنيا أفضل من الحور العين، كفضل الظّهارة على البطانة»[١].

وليس الفارق بينهنّ في الجمال فحسب[٢]، بل في منازل الجزاء والتمليك والإكرام. والحديث عن فارق الحسن والجمال فقط بين الحور العين والصالحات من بنات آدم، دون التذكير بحقيقة الجزاء والمآل، يوحي بأنّ نساء الجنّة إذا دخلنها أصبحن في منزلة كالحور العين.. سواء بسواء، وهذا التصوّر لا يردّه إلا احتمال أن تكون منزلة المتّقين الأسياد كالخدم من الغلمان.. سواء بسواء!! وبما أنّ الغلمان من جملة المُلك العظيم الذي يتفضّل اللهُ به على السّعداء القادمين من المتّقين، فكذلك الحور العين بالنّسبة للصالحات المؤمنات.

وكما لا يُعقل في ميزان أهل الدّنيا ان تكون الخادمة كالمخدومة، والملكة كالمملوكة، فكذلك الحال في دار القرار[٣]، وإن كُنّ زوجات على

(١) أخرجه الطبراني، (ج٣/ ص٢٧٩)، والهيثمي في مجمع الزوائد (ج٧/ ص١١٩). وهو في كنز العمال، (ج١٦/ ص٢٠٢). وحكم عليه الألباني بأنه منكر في ضعيف الجامع، (حديث ٢٢٣٠).

(٢) درج على هذا بعض من يصف نعيم الجنّة إذا شرع يعدّد فضل المؤمنات وما لهنّ فيها إذا دخلنها برحمة ربّهنّ.

(٣) في غياب هذا الفارق الكبير بين من كانت الجنّة لها دار جزاء وإكرام نتيجة صبرها ومجاهدتها، ومن كانت الجنّة لها دار قرار.. لم تتضح بجلاء صنوف النّعيم المقيم الذي يكرم الله تعالى به المرأة الصالحة في الجنّة، حتى اضطر بعضهن أن يسأل عمّا لهنّ إذا دخلنها؟! وحتى تصوّر البعض أنّ الجنّة ما خُلِقت إلا للرجال =

الحقيقة بعقد التمليك، كما سبق بيانه. وإذا كان الصالحات داخلات في خطاب التكليف في الدّنيا؛ فإنّهن داخلاتٌ كذلك في خطاب المتّقين الذين زكّاهم الله تعالى، وثبّتهم حتى جازوا الصراط؛ فهنّ معهم في أرض القنطرة، ويشملهنّ التصافي ونزع الغلّ من الصدور، ويجري عليهنّ من المشاعر ما يجري على المتّقين. وكلّ مؤمنة تنال بطاقة دخول الجنّة من ربّها، ويُنادى عليها من أبواب الجنّة بحسب عملها؛ فمنهنّ من يُنادى عليها من باب واحد، ومنهنّ من ينادى عليها من بابين، ومنهنّ من يُنادى عليها من أبواب الجنّة الثّمانية.

فإذا دخلت التقيّة الجنّة نالها على الأبواب من التكريم ما ينال سائر المتّقين، حيث يسلّم عليها ملائكة الرّحمن، ويبشّرونها بالرضى والرّضوان والرّوح والريحان، يقولون: سلامٌ عليكِ يا أَمَةَ الله.. طبتِ وطاب ممشاكِ، سلامٌ عليكِ، ادخلي الجنّة لا خوفٌ عليكِ بعد اليوم ولا حَزن. فإذا بُسِطت موائد الضّيافة نالَت منها أرفع الدّرجات، وصوّرت بصورة نساء أهل

= فحسب!؟ وهذا التصوّر الهزيل القاصر يدفعه اليقين برحمة الله تعالى وعدله وإحسانه، والنّظر في النّصوص الدالّة على كرامة أهل الجنّة عند ربّهم. ومن ذا الذي يخرج النّساء عن الخطاب الإلهي الكريم لأهل الجنّة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق: ٣٥] وقوله سبحانه في الحديث القدسيّ: «أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر..» (متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١١٨٥)، ومسلم، (ج٤/ ص٢١٧٥). وحاشا الكريم سبحانه أن يُجري على النّساء في دار الأمن والفرح والسلام، ما كان عليه الحال في دار المشقّة والحزن. وقضاؤه في الدّارين قضاء علم ورحمة، وعدل وحكمه، سبحانه ما أكثر مِننه، وما أعظم كرمه!



الجنّة، وأغدق عليه المولى من الثيابِ والحُلل، والبهاء والجمال ما لا يقدر أحد على وصفه، واشتركت مع الوفد الكريم في حوار الجليل سبحانه حين يقول: «يا أهل الجنّة، تريدون شيئًا أزيدكم؟» فتجيب ربّها مع السعداء: وأيّ شيء نريد يا ربّنا؟! «ألم تبيّض وجوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنّة؟ وتنجّينا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النَّظر إلى ربّهم عزّ وجل»[1].

وللمؤمنة بعد ذلك من رفيع الدرجات، ومن الممالك والنّعيم، والقصور والخيام، بقدر عملها الصالح، وهي تشفع في أهل بيتها من المؤمنين؛ فيرفعهم الله تعالى لمنزلتها أو يُخرجهم من النّار بسببها. ولها جنسُ النّعيم ذاته؛ فيطاف عليها بصحاف الذهب، وآنية الذهب والفضة، وتُذلل لها قطوف الثمار، وهي من جملة السّعداء الذين يفدون على الرّب الرّحيم في يوم المزيد، كما سيأتي، والله أعلم بحال عباده.

خروجُ الصّالحات من القصور والخيام!

الجنّة دارُ فسحةٍ لا ضيق، وفيها ما تشتهيه الأنفسُ من الخصوصية والرّاحة. والصالحات فيها فارهاتُ الحُسن، كاملاتُ الحياء، وافراتُ العَفَاف، تحفّ بهنّ صنوفُ الرّفاه والإمتاع، والبهجة والرّغد.. في الخيام الواسعة، والرياض النَّضِرة، وعلى ضفاف الأنهار، وتحت ظلال الأشجار. لسن بولاّجات ولا خرّاجات ولا طّوافات في الطرقات، كما كان عليه حال نساء الدّنيا، وقرارهنّ في خيامهنّ أو خروجهنّ إلى ممالكهنّ منزّه عن النّقص، وهو على تمام الحشمة والأدب!

---

(١) أخرجه مسلم عن صهيب رضي الله عنه، (ج١/ ص١٦٣).

ومن أبصر شرور الفسّاق في بادية الدنيا الهزيلة، ولم يعرف قدر الجنّة في مساكنها وأحوالها الجميلة، ولم يتخيّل ممالكها الواسعة الفارهة إلا من نافذة الضيق الدنيوية التي اعتاد عليها.. حبَس عقلُه كلّ امرأة بدار السلام في خيمتها؛ وأجرى عليها ما كان يُجري على بنات آدم في الدنيا.. وشتّان بين المنزلين.

والقصرُ في الخيام واردٌ في سياق الحديث عن حور الجنّة الحسان أنفسهنّ اللاتي خُلِقنَ فيها، قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾[الرحمن: ٧٢]. والتعبير بهذا القصْر لا ينافي الخروج إلى بساتين الخيام الفسيحة الفارهة، ورياضها الغناء الكثيرة، ومباهجها المتنوّعة المتجدّدة التي يُكتفى بها أبد الآباد!

بل لا يمنع أن يكون التعبيرُ عن قصر الحور العين في الخيام يرادُ به ما مضى من أعمارهنّ، قبل مجيء أزواجهنّ، لِما ورد من أنّ الحور يُنشّأ خلقُهُنّ إنشاءً، فإذا تكامل خلقُهنّ ضَربَت الملائكةُ عليهنّ الخيام(١)، فإذا دخل أهل الجنّة الجنّة، واجتمع شملهم بأهليهم خرجن معهم إلى ضفاف الأنهار، والمروج وأماكن الجلوس الكثيرة، على كنف الرّغد والخصوصية والعفّة(٢).

---

(١) من ارتقت في رفيع الدرجات، وسمت في كمالات القرب والهبات، بسبب عملها الصالح، تملّكها الضّحك كلّما تذكّرت حالها في الدّنيا.. محلّة الضيق والتعب؛ فقد كانت تنظر هاهنا وهاهنا، حال إحرامها بالحج أو العمرة، فإذا لم تر أحداً كشفت عن وجهها ثمّ تنفّست الصّعداء؛ فإذا اقترب راكبٌ بدابّته أو سيّارته أو حاذاها الرّجال سارعت إلى تغطية وجهها، كما أمرها ربّها؛ صيانة لها أن تسرقها الظنون، وتأكلها العيون!! فكيف بها اليوم وهي تتنقّل في ممالكها الكثيرة التي لا حدّ لها، بدار فسحة أدنى أهلها منزلة من له ملك الدّنيا عشر مرّات.. يظلّ يسير في ملكه ألفي عام لا يقطعه ولا يحيط به؟!

(٢) قال ابن القيم رحمه الله: إن الله سبحانه وصفهن، أي الحور، بصفات النساء =



والسِّتر جلبابُ الصالحين في الدارين، وتنقّل المرأة الصالحة في ممالكها، وتطوافها في نعيمها وخروجها مع زوجها يكلّله الحياء، تاج الصفات الملكيّة، وعُرف الأخلاق الفاضلة السّنيّة، في الدنيا والآخرة. وجلبابُ الحياء لا يُنزع البتّة عن الأتقياء هنا أو هناك. ولذا أشار النبي ﷺ إلى كمال الحشمة التي تكون عليها نساء الجنّة بقوله: «ولو أنّ امرأة من أهل الجنّة اطّلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحاً، ولنصيفها على رأسها خير من الدّنيا وما فيها»[(١)]؛ فعبّر عن تغطيتها لشعرها بخمارها، في معرض الحديث عن ظهورها على أهل الدّنيا؛ لو أنّها اطّلعت عليهم؛ فدلّ ذلك على أنّ هذا عهدُها حالَ خروجها، وبخاصّة مع زوجها لدواعي الرّفاه والسعادة، والله أعلم. ولا يقول قائل بأنّها إنّما تضع خمارها حال لقاء زوجها؛ فحالُ الزّوجين على غير ذلك من إبداء المحاسن، وكشف مواطن الجمال والتخفّف عمّا ثَقُل من اللباس، وإن كان حريراً يشفّ!

وأهلُ الجنّة جميعاً مشغولون بلذاتهم، فاكهون منعّمون بالطيّبات، منغمسون في اللذّات، لكلّ منهم من كثرة الممالك والمباهج التي تُفرح القلب، وتُبهج الحواس أبد الآباد ما يُشغله ويفي بحاجته وزيادة. والذّهول بهذا النعيم الخاصّ في الدّار العليّة صارفٌ عن التفكّر في كلّ نعيم سواه،

= المخدّرات المصونات، وذلك أجمل في الوصف، ولا يلزم من ذلك أنّهنّ لا يفارقن الخيام إلى الغُرف والبساتين، كما أنّ نساء الملوك ودونهم من النساء المخدّرات المصونات لا يُمنعن أن يخرجن في سفر وغيره إلى منتزه وبستان ونحوه، فوصْفُهُنّ اللازم لهنّ.. القصرُ في البيت، ويعرض لهن مع الخدم الخروج إلى البساتين ونحوها. (حادي الأرواح، ج١/ ص١٥٤).

(١) أخرجه البخاري عن أنس بن مالك، (ج٣/ ص١٠٢٩).

أكثر من الذهول العام بالأهوال الحاصلة يوم القيامة. فإذا كان الذّهول بالأهوال صارف عن مشاهدة الأجساد العارية، كما أخبر ﷺ [(١)]، فإنّ الذّهول بكثرة النّعيم وتتابع اللذات صارف ولا شكّ عن التطلّع لما سوى ذلك[(٢)]، والله أعلم. فكأنّ السّعيد في الجنّة قد اكتسى نعيماً مُجللاً، صرف قلبه وعينه عما عند غيره من السعداء.. نعيمٌ يكفيه ويغنيه ما دامت السماوات والأرض، فهو شغله الذي يصرفه عن التطلّع لكلّ نعيم سواه، قريباً من شُغل تلك الجموع التي اكتست همّا ثقيلاً مجلّلاً، يغشى العيون فلا ترى سواه!

ولا يُنكر هذا في أحوال بني آدم؛ فقد عُلم بالمشاهدة أنّ اللّذة الدنيوية الواحدة يختلف الانصراف عنها بحسب حال الشّخص نفسه.. رغبة أو رهبة، وكم وجد من تعلّق قلبُه بلذّة المشاهدَة حتى صُرفت حواسّه عمّا سواها، واستغرق في كنف نعيم عظيم لم يقدر على الانقطاع عن لذّاته أو تفويتها، وانصرف به عن كلّ مُترقب أو مخوف، والله أعلم. قال تعالى في قصة امرأة العزيز مع يوسف: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[يوسف: ٣١].

---

(١) من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُحشر الناس يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرلاً» قلت: يا رسول الله، النّساء والرّجال جميعاً؟! ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال ﷺ: «يا عائشة، الأمر أشدّ من أن ينظر بعضهم إلى بعض» (متفق عليه: أخرجه البخاري، ج٥/ ص٢٣٩١، ومسلم، ج٤/ ص٢١٩٤).

(٢) سبقت الإشارة إلى أنّ المرأة في الجنّة تخرج بكامل حشمتها، وقد غطّت شعرها بنصيفها.



وليس في الجنّة استشرافُ أحد لشيء لم يخصّه الله تعالى به؛ فالرّضى لذّة غامرة يجدها المؤمن في قلبه عند أوّل قدم يضعها على أرض الجنّة؛ تحقيقاً لموعود الصّدق للمؤمنين، من أنّ لهم: ﴿مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ وأنّ جزاءهم ﴿عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[البينة: ٨].

زوالُ القوامة في الجنّة!!

من كرامة المرأة الصّالحة عند ربّها أن وكل بها في الدّنيا من يحفظها ويقوم على أمورها حتى تفِدَ إلى ربّها، سليمةً طاهرةً نقيّة. وزوال القوامة أظهرُ ما يكونُ عند الخروج من الأجداث على عرصات القيامة: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

ويتجلّى زوال الدّاعي للقوامة عند أول قدم تضعها السعيدة برحمة ربها في أرض الأمن والسّلام، حيث تمارس حياة الرّغد وتتنعم بسائر صنوف النّعيم بحسب عملها الصالح. ولها من الممالك ما يخصّها الله تعالى بها دون سواها؛ فقصورها لها، وكذلك خيامها وأنهارها وممالكها الكثيرة. قال سبحانه في ختام دعاء المؤمنين: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[آل عمران: ١٩٥]، أي: النّساء والرجال سواء في الأجور والخيرات يوم القيامة. قد «أجاب الله دعاءهم، دعاء العبادة ودعاء الطلب، وقال: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾، فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملا موفوراً، أي: كلّكم على حدّ سواء، في الثواب والعقاب»[١].

(١) تفسير السعدي، (ج١/ ص١٦٢).

والدّنيا دار ابتلاء واختبار للذكر والأنثى على السّواء؛ ابتلى الله تعالى كلاً بصاحبه؛ بأن جعل فيه ميلاً غريزياً إليه، وانساً به، وحرّك هذا الميل بدواعي الشهوة والوصال، ثم ضبط مسار الحلال بالزواج، وبيّن عاقبته الحميدة، وجلّى مداخل الحرام وبيّن عواقبه الوخيمة، وأوصاهما بالصّبر وغضّ البصر، ومجاهدة النفس ومدافعة سَورةِ الشهوة بالصوم والعمل النّافع، وأن يختار كلٌ منهما صاحبَه على الدِّين والصلاح. فإذا التقيا بالحلال ابتلاه الله بها: أن يُحسن معاملتها ورعايتها، وتربيتها وتعليمها، وابتلاها به: أن تحفظ حقّه ودأبه في صيانتها، وسعيه لأجل إكرامها، وتأمين احتياجاتها. والمآل يوم القيامة بحسب الحفظين.. حفظ الفروج قبل الزواج، وحفظ الأمانات بعده. ونصوصُ الوعد والجزاء للزوجين دائرة بين هاتين المنزلتين: فالجنّة عِوضاً لها إن أطاعته بالمعروف، والجنّة عِوضاً له إن رعاها بالمعروف!! فاعجب كيف جمع الله تعالى العدل بالرّحمة، والجزاء بالحكمة، وتأمّل كيف جعل كلا منهما سائقاً لصاحبه معيناً له.. هي تَدخلُ الجنّة بسببه، وهو يدخلُ الجنّة بسببها، ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ﴾[الأنعام: ١٣٢]. فسبحان من بهر العيون بجميل خلقه، وسلب العقول ببديع حُكمه!

ومن الأسرار الخفيّة لقوامة الرّجل على المرأة: إظهارُ حقارةِ الدّنيا وهوانها عند الله تعالى؛ إذ لمّا كَدُرَت في ذاتها، وكانت دار خوفٍ وحزَن، يجتمع فيها الشيءُ ونقيضُه: الأمانةُ والخيانة، والصدقُ والكذب، والبرُ والفُجور، والوفاءُ والنُّكران: أوجبَ سبحانه على الوليّ من الرجال رعايةَ حقّ الضعيف الذي لا يقدر على مجابهة المكر والكيد بنفسه. والمرأة في



أصل فطرتها الكريمة: بريئةٌ، طاهرةٌ، ضعيفةٌ، يغلُب عليها العطف والرّقة، وتتملّكها الشفقة والرّحمة[1]؛ ولذا كانت أسعدَ بمكارم الأخلاق، وأقربَ للصدق، وأميلَ إلى اللين، وأرغبَ في حُبّ الأمانة، وأدعى إلى الوفاء والبِرّ، وسلوكُها يظهر فيه الحياء أكثر من الرّجل. والمرأة في أصل فطرتها الطِيْبُ، ولذا فهي أقرب إلى الجنّة من هذا الباب، لكنّها لمّا كانت أسرعَ في التقلّب بسبب العاطفة والضّعف، كان كيدُ الشيطان عليها أقوى منه على الرّجل، بل اتّخذها سبباً لفتنته وغوايته، ودخل عليها من جوانب ضعفها بمكر الليل والنهار ليصرفها عن مسارات كمالها، ويبعدها عن صراط ربّها.

وإذا ضعُف باعثُ الإيمان في قلب المرأة تمكّن الشيطان من قيادتها أكثر من تمكّنه من قيادة الرّجل، ووجّهها لإفساد ما حولها، وجرّأها على التمرّد، وأغرقها في الملذّات، ولم يرضى منها إلا أن تهوي في دركات الرذيلة التي لا تكاد تخرج منها، حتى تبيت أقرب إلى النّار وأسرع إليها، وإن كانت في أصل فطرتها التي خلقها الله عليها أبعدَ عنها وأبعد[2].

---

(١) ليس في ضعف المرأة نقص، بل القوّة كلها مكنوزة في هذا الضعف الجِبلّي، والحنوّ الفِطري.. ألا ترى أنّ الكريمة إنّما تُخدع من جهته، وإنّما يستميلها الغادر بسببه، ولو كانت خبيثة أو مسترجلة ما ألجأته لذلك بسبب تشاكل طباعهما، وفساد أخلاقهما، قال تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ (النّور:٢٦).

(٢) الله تعالى أعلم بما يصلح عباده، ولذا كان الخروج من البيت للكدح أنسب لمعدن الرّجل لما جُبل عليه من القوّة والجلد، والقرارُ في البيت أنسب لمعدن المرأة لما جعل الله فيها من اللين والرحمة والحياء، وكفاها بالقوامة مؤونة المجالدة والكدح. فإذا دخلت الجنّة زالت قوامة الرّجل عليها؛ لزوال أسبابها؛ =

والجزاءُ في الآخرة من جنس العمل في الدّنيا، ولما كان الغالب على النساء الضعف بسبب عاطفتهنّ، وإليهنّ يسرع الميل إلى مغريات زينة الحياة الدّنيا، فإنّ إحداهنّ إذا جاهدت نفسها، ووفت بحقّ ربّها، ومن له فضل عليها، وألجمت هواها بلجام الحياء، وتدرّعت بوشاح العفّة ثمّ وفدت على ربّها.. مؤمنة قانتة، تائبة عابدة، كان جزاؤها عنده عظيماً، ومنقلبها إليه كريماً، وما أسرع ما يُغدق عليها عند أبواب الجنّة من الإكرام الذي تنسى معه كلّ شقاء وحرمان مرّ بها.

والطاعة إنّما يعظُم قدرُها عند الله تعالى بسبب حبّه إيّاها، ومغالبة النّفس عليها؛ ولذا كانت النّفقة من الفقير أعظم، والرجوع للحق من الغضوب أفضل، والبِرّ ممن أساء له قرابته أحبّ وأجمل.. يستوي في ذلك الرّجل والأنثى!

والمرأةُ تكون أقرب إلى ربّها في جنس عبادات المجاهدة الخاصّة بها، على الرّغم من ضعفها، ومنها عبادة الصّبر؛ فصبرها عن الجزع مع توافر دواعيه، ومدافعتها المعصية مع غلبة الهوى واضطرام الشهوة، أعظم عند الله تعالى وأحب من صَبر الرَّجل، وصبرها على طاعة ربّها، مع كثرة الصوارف والشواغل والأعذار في حقّها، أعظم من صَبر الرَّجل، وصبرها على أقدار الله المؤلمة، مع رقّة قلبها الذي يُسرع بها إلى الضعف والجزع والانكسار والسّخط أعظم من صَبر الرَّجل! فإذا غالبت ضعفها ورقّتها وعاطفتها، وحفظت لسانها وبصرها وفرجها، وقامت بحقّ ربها وحق

= فقد أُخِذ بالخونة الأشرار، والفسّاق اللئامِ إلى النّار، ولم يبق إلا الطيّبون المتّقون. المشغولون بلذّاتهم ومباهجهم، ومن عاد منهم بعد مدّة التهذيب فإنّه يعود طيباً نقيا.. حسّاً ومعنى.



زوجها وولدها، كانت أسعد برحمة ربّها، وأوفر حظّاً من كثير من الرجال. وما أعزّ هذا الصنف من النساء وأكرم أثره!

والجنّة دار إكرام ووفاء للصابرات على أزواجهنّ وأولادهن، أمّا أولئك الذوّاقات اللائي يُسرع إليهنّ الطيش، ويستعجلن فراق الزوج وشتات الأولاد بدون بأس وسبب حقيقي فقد جاء الوعيد بتأخيرهنّ عن دخول الجنّة ابتداء.. إمّا تأديباً على أرض القنطرة، وإمّا تهذيباً في النار بحسب حالهنّ وأعمالهن. عن ثوبان، عن النبي ﷺ قال: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة»[1].

بركةُ المرأة الصّالحة على سائر أهلها:

والصالحات في الجنّة مع أزواجهنّ إن كانوا صالحين، أو يزوّجن بغيرهم إن كانوا من أهل النّار الخالدين. وأسعد نساء الدّنيا الصالحات بأزواجهنّ في الجنّة.. زوجات الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام، وعليهنّ الرّضى والرّضوان؛ عن عائشة رضي الله عنها أنّ جبريل جاء بصورتها في خِرقة حرير خضراء إلى النبي ﷺ فقال: «إنّ هذه زوجتُك في الدّنيا والآخرَة»[2]. وعن أنس وقيس بن زيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «قال لي جبريل: إنّ الله يُقرِئك السّلام، ويقول لك: راجع حفصةَ فإنّها صوّامةٌ قوّامةٌ، وهي زوجتك في الجنة»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣/ ٤٨٤)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي، (ج٥/ ص٧٠٤)، واصله في البخاري، (ج٣/ ص١٤١٥): «أريتُك في المنام مرّتين، أرى أنّك في سُرَقَةٍ من حرير ويُقال: هذه امرأتُك، فاكشف عنها فإذا هي أنتِ، فأقول: إن يكُ هذا من عند الله يُمضه».

(٣) الأحاديث المختارة ج٧/ ص٩٥ وهو في صحيح الجامع (٤٣٥١).

ومن مات عنها زوجها ثم تزوجّت غيره كانت مع أحبّهم إليها وأكرمهم خلقاً وشمائل! ولا أحدٌ أسعد بزوجته الصالحة من عصاة الموحّدين الذين قُذِف بهم في طيّات الجحيم؛ فهم يرون آثار بركتهنّ عليهم في ذلك اليوم، أعظم من بركتهنّ في الدّنيا[1]؛ إذ لا تزال الصالحة في محاورة ربّها، وسؤاله سبحانه حتى يشفّعها في زوجها! فإذا شفّعها فيه أقبلت فَرِحةً مسرورة حتى تستخرجه من النّار، فتأخذه وقد عاد فحمةً سوداء، لا يُعرف من شدّة العذاب. ثم لا تزال معه حتى يُغمَسَ في نَهر الحياة، ويُكسى ويحلّى بثياب أهل الجنّة وحُليّهم، فإذا عادت له الحياة بتمامها أخذت بيده من درجته إلى نُزُلِ الكرامة، والنّعيم المقيم الذي بلغته!

فهل أحد، بعد الأنبياء والآباء والولدان، تدوم بركته على أحد كبركة هذه الزوجة الصّالحة على زوجها في الدنيا والآخرة؟! عن أمّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قلت: يا رسول الله ﷺ: نساء الدّنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: «بل نساء الدّنيا أفضل من الحور العين، كفضل الظّهارة على البطانة». قلت: يا رسول الله، وبم ذاك؟ قال: «بصلاتهنّ وصيامهنّ وعبادتهنّ لله عزّ وجل ألبس الله عز وجل. وجوههنّ النور، وأجسادهنّ الحرير، بيضُ الألوان، خضرُ الثياب، صُفرُ الحُليّ. مجامرهنّ الدّر، وأمشاطُهنّ الذّهب،

(١) حين كانت الصالحة تنصح زوجها وتعظه، وتذكّره بربّه، وتعينه على أداء الطاعات والحفاظ على الصلوات، وتوقظه لها، وتحذره من موارد الهلكة، وتعينه على ترك المحرّمات بأنواعها: المطعومة والمرئيّة والمسموعة، وتعينه على بدائلها، وتدعوا له، وتحفظ سرّه، وترعى ولده، وتصبر عليه ما دام كريم الشمائل، قابلاً للنصح، غير مكابر ولا مجاهر.



يقُلن: إلا نحن الخالدات فلا نموتُ أبداً.. نحن النّاعمات فلا نبأس أبداً.. نحن المقيمات فلا نظعن أبداً.. نحن الرّاضيات فلا نسخط أبداً؛ طوبى لمن كنّا له، وكان لنا». قلتُ: المرأة منّا تتزوج الزّوجين والثلاثة والأربعة، ثم تموتُ فتدخل الجنّة، ويدخلون معها، من يكون زوجها منهم؟ فقال: «يا أمّ سلمة أنّها تُخيّر فتختارُ أحسنهم خُلقًا، فتقولُ: أي ربّ، إنّ هذا كان أحسنهم معي خُلقا في دار الدّنيا فزوجنيه. يا أمّ سلمة ذهب حُسن الخُلق بخير الدّنيا والآخرة»(١).

وكم من امرأة صالحة أدركت بعملها الصالح من الدرجات العلى والممالك والنّعيم، والقصور والجنات الغنّاء ما لم يدركه زوجُها وولدها، وأمّها وأبوها، فترفعهم منازلَ عالية في الجنّة لم يكن لهم أن يصلوها بدونها، وتشفع لمن له حقّ عليها من قرابتها فيشّفعها الله فيهم، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾[الطور: ٢١].

وكم من امرأة صالحة عرف لها أهلُها الفضل في رفعة الدرجات، بعد فضل الله تعالى بدخول الجنّات! فهم لا يدخلون قصراً مُنيفاً إلا ذكروها بعد ذكر الله تعالى، ولا يتنعّمون بعيش رغيد لم يكونوا ليجدوه في درجاتهم السابقة إلا شكروها بعد شكر الله تعالى؛ والجنّة دار الشكر والإحسان، والوفاء والامتنان.

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، (ج٣/ ص٢٧٩)، والهيثمي في مجمع الزوائد (ج٧/ ص١١٩). في كنز العمال، (ج١٦/ ص٢٠٢)، وضعفه الألباني كما سبق.

وهنّ في بلاد الأفراح يتنعّمن بكلّ نعيم ظاهر وباطن، ويستمتعن بزيارة آبائهنّ وأمهاتهنّ وأولادهنّ، وأقاربهنّ، وجاراتهنّ، وصديقاتهنّ، واستزارتهنّ في ممالكهنّ الكثيرة اللاتي يتنعّمن بها؛ فنعيمُ الجنّة متاح لجميع السّعداء، الرّجال والنساء فيه على السواء! قال تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾[الواقعة: ٢٧ - ٣٣].

وسلامة الصدر في الجنّة يسري على الجميع.. رجالاً ونساءً.. وهو ظاهر جليّ بين الحور من وصائف الجنّة، وأخواتهنّ القادمات من بلاد الدّنيا، فلا تباغض بينهنّ ولا شحناء، ولا غيرة ولا حسد، إن هو إلا السلام والابتسام، وطيبُ الكلام. ولمّا كان الكلامُ ممّا حُبّب للمرأة في مجالسها الدنيوية كان من أمتع لذّاتها التي يُكرمها الله تعالى به في مجالس الجنّة، على ظهور الفارق بين طبيعة الكلام هنا وطبيعته هناك، ومادّة الإكرام هنا، ومادّته هناك!

ولا تسل عن تجمّل المرأة الدنيوية الصالحة التي قدمت من باديتها البعيدة قبل أن تعقد مجالسها مع قريناتها وأهلها وجاراتها.. ولا عن تطيّبها، وترفّلها وتنويعها بين الثياب، ولا عن الحال الرّغيد الذي تتبدّى به، وهي محلاّة بأنفس الحُلي والخِلال.. قد تخيّرت من الطيب أزكاه وأعجبه، وفرش لها الولدان في ظلال الأشجار ما يبهج النفوس في المجالس.. من لذيذ الطعام والشراب، وصنوف الفاكهة والحلوى، وما اعتادت تناوله في مجالس الدّنيا، باسمه فقط، ولكن على مذاقات لم تجد مثلها، وألوان ولذائذ أخرى لم تقع عليها عينها من قبل، مع بهجة في القلب، وانشراح في الصّدر لم تجد مثله!



ولا تسل عمّا يدور في مجلس الرّفاه والرّغد الذي تعقده هذه السعيدة حال اجتماعها بأهلها وصديقاتها، وهي بين وصيفاتها من الحور العين، ولا عن إسهابها في الحديث عمّا كان يدور معها في الدّنيا، على كمال في تذكّر التفاصيل والأسماء، والأزمنة والأماكن! والحورُ بين يديها قد وضعن أكفَّهنَّ على خدودهنّ، وأطرقنَ يستمعن ويتعجّبن، وأمّها تصدّق قولها، وتضيف عليه ما يناسب المقام، وجاراتُها وأخواتها يزِدن من عبق المجلس بأحاديث كريمة بعيدة عن آفات مجالس الدّنيا؛ إذ ليس في الجنّة كذب ولا غيبة، ولا همز ولا نميمة.. ما ثمّ إلا مادّة الرّضى والشكر، والثناء والذّكر، ومساحة المباح الكثير من الحديث الطويل الذي لا يفنى كثرة وتجدّداً.. بقلوب زكيّة صافية، في ظِلال القصر المنيف. ويتعالى الضّحك والانشراح، وتزداد البهجة والفرحة في مجالس الرغد هذه، بين الأشجار العالية، وتحت الثّمار المدلاّة.. وعبَقُ الأزهار يسري محمّلًا بنسيم الأشجار، وخريرُ الأنهارِ ينسابُ مع تغريدِ الأطيار، والمجامرُ الفوّاحة تعبق في المكان بأطيب العود وأغلاه!!

والرّجال في مجالسهم الأخرى هناك.. يتنعّمون، وفي مباهج الجنّة يتقلّبون.. فرحين بهذا الفوز المقيم، كلٌّ في شُغُله مع أقرانه من جنسه، نسأل الله الكريم من فضله، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥].

التّفاضل في درجات النّعيم بحسب منازل التقوى:

وكلّ نعيم ذكره الله تعالى في بلاد الأفراح يشترك فيه الرّجال والنساء معــاً؛ إذ التفاضل والرفعة في درجات الجنّات بحسب التقوى والعمل

الصالح، وما ثمّ إلا الإنعام والإكرام في دار الرّغد والرّفاه؛ قال سبحانه: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾[آل عمران: ١٩٥].

وكثير من الصالحات، إذا دخلن الجنّة، يرتقين في منازلها العالية التي لا يقدر على بلوغها كثير من الرجال، ولا يظلم ربك أحداً. وحاشى لله أن يساوي بين المرأة الصالحة العفيفة القانتة وبين امرأة أخرى أقلّ منها، أو بينها وبين رجل آخر لم يُدرك منازلها في الصلاح والتقوى.

ولمّا كانت الجنّة دار جزاء لا عمل فإنّ كل عبادة كان يتقرّب بها الرجال والنساء في الدنيا مرفوعة لا تكليف بها، ومنها الحجاب الشرعي الساتر لجميع أجزاء البدن الذي هو في حقيقته عبادة من جنس العبادات التي أمر الله تعالى بالحفاظ عليها في الدّنيا[1].

---

(١) بل الحفاظ على هذه العبادة أصبح، في بعض الأماكن والعصور المتأخّرة، أشقّ من الحفاظ على الصلاة والزّكاة والصوم والحجّ؛ إذ تتعرّض الصالحة بسببه للنقد والمحاربة والاستهزاء، ولا يستقيم لها الحفاظ عليه إلا بعد الصّبر والمصابرة، والمجاهدة.. بل والتضحية! والحجاب كالأذان، كلاهما شعار الدّين الظاهر، ولا تزول عن الدِّينِ غُربتَه حتى يعودان من جديد.. معلمين قائمين على ظهور الدّين. وما أعظم شبه المرأة في حفاظها على حجابها، والمؤذّن في حفاظه على أوقات الصلاة بالمجاهدين المرابطين على ثغور الإسلام! فإذا أسعدها ربّها بدخول الجنّة كان حجابُها من أسباب رفعتها في درجات النّعيم، كسائر العمل الصالح، وأنزلها بسببه منازل ما كان لها أن تصل إليها بدون حفظه، ومجالدة عدوّها عليه لإظهار شعار دينها.



وللصالحات المنعّمات من لذائذ الجنّات صبوح وغبوق[1]، على كمال الرّاحة والبهجة والسعادة، لا يكدّر صفو لذّاتهنّ مكدر، ولا ينغّص عليهنّ منغّص. ومن كانت الجنّة لها دار جزاء، فلا تقييد عليها ولا خوف ولا حزن.

وليس في دار السّلام خائنة أعين، ولا فتنة، ولا مخوف، كما كان عليه الحال في الدّنيا؛ فالخبيثون من الكفّار والفساق قد أُخِذ بهم إلى الدّار التي تهذّبهم.. على سبيل التأبيد أو التأديب، وكذلك الخبيثات من الكافرات والفاسقات!

ولو ظلّت المرأة الصالحة من نساء الجنّة هكذا.. تطوّف في كنف الرّفاه والرّغد، والحُبور والسَّعَد، دهرَ عُمُرِها الخالد لم تقدر على الإحاطة بالنّعيم المتجدّد الذي يمدّها الله تعالى به، وهي في غمرة رفاهها تظنّ أنّ ليس أحدٌ أسعد منها!! فكيف، ولها في كلّ جمعة ما للسعيد برحمة ربّه من اللذّات، والهبات الكثيرة التي لا يعلمها إلا الله تعالى.. في كلّ زاوية من زوايا القصر المنيف، بنضارة متجدّدة في وجهها وحسن ثيابها وعبق طيبها! وكلّ مؤمنة ترى ربها وتجد في قلبها لذّة الرؤية والحوار الخالد.. تماماً كالرجال، قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٢ - ٢٣][2].

---

(١) الصَّبوح: الشربُ بالغداة (مختار الصحاح، ص١٤٩)، والغَبوق: ما يُشرب بالعَشيّ، (القاموس المحيط ج١/ ص١١٨٠).

(٢) بسطت الحديث عن هذه المسألة في مبحث: لبيك اللهم لبيك من (يوم المزيد).

المؤمنات في الجنّة أجمل من الحور العين وأرفع:

الشرف الخالد على أبواب الجنّة يظهر بعدد الأبواب التي يُنادى منها المؤمنون.. واحداً تلو الآخر؛ فمنهم من يُنادى عليه من باب واحد، ومنهم من يُنادى عليه من بابين، ومنهم الذي ينادى عليه من أبواب الجنّة كلّها! والملائكة الموكلون بالنّداء يحملون السجلّات، ويرحّبون بالسّعداء من الصالحين والصالحات، مبشّرين بالسعادة السّرمدية في جنّات النّعيم!

وشرفُ صِدّيق هذه الأمّة.. أبي بكر أنّه ممن يتردّد اسمُه في أبواب الجنّة كلّها، وقليل من يحظى بهذا الفضل، يليه من خُيّر في دخول الجنّة من أيّ أبوابها شاء، دون المناداة عليه بإظهار شرفه ومكانته، وهم يومئذ قليل كذلك[1]، ومنهم المرأة الصالحة التي وفت بحقّ ربّها وحقّ زوجها، عن

(١) ومن هؤلاء السعداء كلّ من مات على التوحيد، وحافظ على إسباغ الوضوء وإقام الصلاة، عن عبادة ﵁ عن النّبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله وأنّ عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنّة حقّ، والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» وزاد الرّاوي: «من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء» (أخرجه البخاري، ج٣/ ص١٢٦٧). وعن عقبة بن عامر ﵁ قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نوبتي فروّحتها بعشيّ، فأدركت رسول الله ﷺ قائماً يحدّث النّاس فأدركت من قوله: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه ثم يقوم فيصلّي ركعتين، مُقبلٌ عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة» قال: فقلت: ما أجود هذه! فإذا قائل بين يديّ يقول: التي قبلها أجود، فنظرت فإذا عمر، قال: إنّي قد رأيتك جئت آنفاً، قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبد الله ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء» (أخرجه مسلم، ج١/ ص٢٠٩).



عبدالرحمن بن عوف ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صلّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: أدخلي الجنّة من أيّ أبواب الجنّة شئت»[1].

وما يُغدق الله تعالى به على المرأة الصالحة إذا دخلت الجنّة أعظمُ وأكمل مما يتصوّر؛ حيث يطهّرها باطنًا من كل صنوف الأذى والنَّجَس والسوائل التي كانت تعاني منها في الدّنيا.. ثمّ يحلّيها سبحانه ويجمّلها بنضارة تفوقُ نضارة الحوراء نفسها.. حُسنًا وجمالاً، وبهاء ودلالاً! فما ثَمّ إلا الطّيب الخالص.. الطيبُ في بدنها وفي عَرقها، وفيما يعبق من ثغرها، وفي الشّذى الذي يفوح من سائر ثيابها، كما تجده في طيب آخر يزيّن الله تعالى به قلبها بالرّضى والرضوان، والسّلامة والأمان، وبالسعادة والبهجة التي لا تفارقها أبد الآباد؛ فهي أحقّ بالبهاء والجمال، والنّقاء والدلال من الحوراء نفسها، وهي أكمل منها في مقام الشّرف والرّفعة، والتكريم والرّضى، وأحظى بالحُسن الذي أخبر عنه بقوله: «ولو أنّ امرأة من أهل الجنّة اطّلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحًا، ولنصيفها على رأسها خير من الدّنيا وما فيها»[2]. وليس ذلك بغريب؛ فالفرق كبير بين من كانت الجنّة لها دار سكنى وإقامة، تتفاوت منازلها بحسب درجة زوجها، ومن كانت لها الجنّة دار جزاء.. تدخلها برحمة الله تعالى، فترتفع بحسب عملها الصالح وترفع معها زوجها في درجتها! والحور وصائف لنساء الجنّة اللائي إذا دخلنها حظين بأعظم مما تحظى به

(١) أخرجه الإمام أحمد، من حديث عبد الرحمن بن عوف، (ج١/ ص١٩١).

(٢) أخرجه البخاري عن أنس بن مالك، (ج٣/ ص١٠٢٩).

الحور الناعمات في العيش الرّغيد، ورُزِقنَ من النّعيم المقيم، واللّذات والمُتع، والمساكن والثياب، والمشارب والمطاعم والمراكب ما لم يخطر على قلوبهنّ؛ جزاء صبرهن في الدّنيا. ولكلّ شرفه ومكانته، وقدره ورفعته عند ربّه!

منزلة الأيّم الصالحة عند ربّها[1]:

لا تنقطع ولاية الله سبحانه للمؤمنين في الجنّة، بل هي أعظم وأقرب، وأزكى وأرحب! ومن ولايته سبحانه: هداية عباده في الدارين للتي هي أقوم، واختيار الأصلح لهم، وصرف السوء عنهم، وكل ما يجلب لهم المشقّة والعنت. وممن يسعد بهذه الولاية كلّ أيّم في الدّنيا، لا زوج لها.. أقامت على طاعة ربّها، ونهت نفسها عن الهوى، وتدرّعت بلباس العفاف، وآنسها سكون العبادة، وسمت همّتها في منازل العلم النّافع والدّعوة والعمل الصالح، حتى أتاها الموت وهي على ذلك! فما أعظم كرامتها حين تَقدُم على ربّها فيحادثها بعظيم المنّة، ويذكّرها بجميل الإحسان، ثم يُحلّ عليها رضوانه، ويرفع درجتها، ويُسعدها، ويتولّى تزويجها، ويحقّق لها آمالها في كنف النّعيم، ويُسعدها، ويلبّي رغباتها المقترنة بأحلام الأمّومة التي فقدتها في دار الدّنيا، ويُغدِقُ عليها من مشاعر الحبّ والرضوان، والسّعادة والإكرام حتى ترضى! ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا﴾.

---

(١) الأيامى: الذين لا أزواج لهم، من الرجال والنساء، الواحد منهما أَيِّم، سواء تزوج من قبل أو لم يتزوج، وامرأة أيِّم.. بكراً كانت أم ثيّباً. (مختار الصحاح، ج١/ ص١٤).



وإذا كانت المرأة في الدنيا لا تُزوّج إلا بإذنها؛ لكريمِ قدرها وشريف منزلتها، فإنّها إذا دخلت الجنّة أيّمـًا، لا زوجَ لها كانت أحظى بالرّعاية والكرامة عند ربّها، منها حين كانت في الدّنيا عند أهلها. والسعداء من الأيامى المتّقين.. ذكوراً وإناثـًا يزوّجون؛ فالجنّة لا يدخلُها أعزب[1].

وللسعداء في بلاد الأفراح لذّائذهم ومُتعهم التي لا تخطر على قلوبهم، مما يكتمل به حُبُورُهم، وتطيب نفوسهم. والصالحات الصّابرات على مرارة الوحدة في الدّنيا، ولم يتقدّم لهنّ الأزواج، أحظى بمراسم الزواج من نساء الدّنيا بين أهلهن! وهل يعُقل أن تكون فرحة من زوّجها أهلُها كفرحة من يتولّى الرّب الرّحيم بنفسه تزويجها؟! ولئن كانت الوليمة مما شرعه الله تعالى لإظهار الفرحة بالزواج وإعلانه فإنّها في بلاد الأفراح أحرى وأزكى؛ لأنّ الجنّة دارُ مُتعة لا عمل، ومحلّة سرورٍ وحُبور، ومجالسَ ومناسبات، وبها يُفرغ على القلوب التقيّة من جنس النّعيم الذي فقدته في الدّنيا وزيادة!

مراسم الزفاف في بلاد الأفراح!

لك أن تتخيّل ما ينتظر المرّأة الصالحة الأيّم في الجنّة يوم زفافها!؟ بعد أن كانت تتزيّن وتحضر ولائم أهل الدّنيا فتبارك لأخواتها، ثمّ تعود إلى منزلّها، وحسرات الألم تقطّع نياط قلبها الذي لم يأنس بشريك حياة صالح حتى أتاها اليقين! أفتدخلُ الجنّة على حالها الذي يعلمُه ربّها وقد شكر لها صبرها، ووعدها بأعظم البشارة على لسان الملائكة حال نزع الروح وفراق الجسد؟!

---

(١) هذا المعنى صحيح في ذاته، وإن لم يصحّ رفعه إلى رسول الله.

ومراسم التتويج والفرحة في دار السعادة أعظم وأكمل، وأبهى وأجمل مما عرف أهل الدنيا في حفلات زفافهم الهزيلة. ومن هنا فللأيّم التي أدركتها رحمة ربّها فرحتان غامرتان.. فرحةٌ بدخولِ الجنّة وحلول الرّضوان، وفرحةٌ يوم زفافها على من اختار لها ربّها من الأزواج الكرام، ومعه توافي الفرحة الكبرى يوم المزيد.

وإذا كانت ولائمُ الدّنيا يحضُرُها أخلاط الناس، التّقي والشقيّ، والمحبّ والمبغض، والشائن والعائن فإنّ البهجة بحضور المدعوّين لوليمة الجنّة، من الأنبياء والصّديقين والشهداء، ومن الأهل والأقارب والصديقات والجارات؛ في أنّ الجميع هنا من المتّقين الأزكياء الذين طهّر الله قلوبهم، ويظهر الصّدق في فرحتهم وعبارات تبريكهم! وإذا كانت إجابةُ الدّعوة لولائم أهل الدّنيا واجبة[1]، لإبطال الأعذار بكثرة العوارض والأشغال، فما حال من كان شُغُله في بلاد الأفراح: حضور المناسبات الكثيرة السعيدة التي يلتقي فيها السّعداء من كل مكان، ويتجمّعون معًا على موائد الإكرام العامرة بكلّ لذيذ؟! وشتّان بين الفرحة والإكرام في هذه المناسبة الغالية ببلاد الأفراح، وما كان يحصل في دار الحزن والضيق! والله أعلم بأحوال عباده في الدّارين.

وأحظى المؤمنات بهذه الكرامة وذلك الإسعاد في يوم زفافها.. مريمُ بنتُ عمران رضي الله عنها، ثمّ كلّ صالحة فارقت الدّنيا ولم تشهد فرحة الزّفاف التي عاشتها قريناتها! وقد ورد ما يُستأنس به على زواج النبي ﷺ من مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون إذا دخلتا الجنّة، وذلك بذكرهما في سياق

---

(١) وهي من حقّ المسلم على أخيه؛ لقوله ﷺ: «وإذا دعاك فأجبه» (أخرجه مسلم عن أبي هريرة، ج٤/ ص١٧٠٥).



الحديث مع خديجة رضي الله عنهنّ أجمعين، فعن فاطمة بنت محمّد رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: أين أمّنا خديجة؟ قال: «في بيت من قصب، لا لغو فيه ولا نصب، بين مريم وآسية امرأة فرعون» فقالت: أمن هذا القصب؟ فقال ﷺ: «لا، بل من القصب المنظوم بالدرّ والياقوت واللؤلؤ»[1]. والقصب هاهنا: الدرّ الرّطب المرصّع بالياقوت.

ومما يستأنس به كذلك ما ورد عند مسلم في قوله ﷺ عن الوسيلة: «فإنها منزلة في الجنّة لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو»؛ فإذا كانت هذه المنزلة محجوبة عن كلّ عبد سواه فإنّ من يرافقه فيها لا يخرُجُ ولا شكّ عن كونه من الزّوجات أو الذرّية الذين يُلحقهم الله تعالى به، ويرفعهم إلى منزلته.

ومما يستأنس به كذلك الإشارة إلى امرأة فرعون ومريم بنت عمران في سياق سورة التحريم، التي أُخلصت للحديث عن الشأن العائلي في بيت النّبوّة، والإخبار عمّا حدث من زوجات نبيّه المصطفى ضدّه؛ فكأنّه سبحانه ضرب المثل بهما في الجنّة حين قال مخاطباً زوجاته في الدّنيا: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾، إضافة إلى أنّ دعاء امرأة فرعون: ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾[التحريم: ١١]، يفيد بأنّ تحقيق طلبها في بيتٍ له خصوصيته، دون سائر بيوت الجنّة، أشدّ ما يكون قرباً لله تعالى، وليست هذه المنزلة إلا لعبدٍ واحدٍ من عباد الله تعالى، هو محمّد الذي يرفعها الله تعالى لمنزلته؛ تشريفاً لهما وتعظيماً، والله أعلم.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، (ج٢/ ص١١٧)، والطبراني في الأوسط، (ج١/ ص١٣٩) وقال: لا يروى هذا الحديث عن فاطمة إلا بهذا الإسناد، تفرد به: صفوان.

لذّة الحديث، وطيب المحاورة:

اللذات المتحصّلة بلقاء الأزواج والزوجات في الجنّة لا تنقطع، ولـذّة النظر في وجه الحوراء، والتأمّل في محاسن جسدها، وكريم أخلاقها وعظيم حيائها، تزداد عند سماعها والحديث معها. فما تراه يكون حديث الحبيبين بعد طول الفراق؟ وكيف يكون اللقاء بعد طول العهد واضطرام الأشواق؟

ومـن تأمّـل في مـادّة الحـديث بـين الـزّوجين في الجنّـة، ومـا يـدور مـن أساليب التعبير عن مشاعر المحبّة استخرج الأصول الكريمة لمـادة الحـبّ والغرام في الدارين. وحديثُ العشّاق في بلاد الأشواق صادق مفعم ببلاغتـه ورقّته، ومكلّل بالحمـد والثنـاء علـى الـرحيم الـرحمن الـذي جمـع بينهمـا، وسـلّمهما حتـى التقيـا في هـذه المحلّـة الآمنـة، ومليـء بالمشـاعر الفيّاضـة، والغزل الرّفيع المتدفّق بأكرم العبارات وأصدقها، وأجمل الألفاظ وأرقّها[١].

ومما روي عن علي رضي الله عنه يرفعـه أنّ كـل حـوراء إذا بلغهـا قـدومُ زوجهـا استخفّتها العجلة فتبعث أحدَ غلمان القصر فيفتَح له الباب، ثـم تخـرج مـن خيام الدرّ والياقوت، فتعتنقه وتقول: «أنـتَ حِبّـي وأنـا حِبّـك.. أنـا الرّاضـية فلا أسخط أبداً، وأنا النّاعمة فلا أبأس أبـداً، وأنـا الخالـدة فـلا أمـوت أبـداً، وأنا المقيمة فلا أظعن أبداً»[٢]. «الحمد لله الذي أحيـاك لنـا، وأحيانـا لـك».

---

(١) ما أحرى الزوجين من أهل الدّنيا بمعرفة مادّة الحبّ والعشق والغرام التـي يعبّـر عنها الحبيبان في الجنّة، واستخراج الغزل العفيف والحوار الكريم المتضمّن لمعـان سامية وآثار قلبية رفيعة لا توجد في أحاديث العشّاق في هذه الدّار الرّخيصة!

(٢) انظـر: كنـز العمـال، تفسـير سـورة مـريم، (ج٢/ ص ١٩٦)، وفي الحـديث أنّ السعيد إذا رأى خادمه «خرّ له ساجداً فيقول له: ارفـع رأسـك إنّمـا أنـا قيّمـك، =



فلا يملك إلا أن يقول لها: «ما أُعطي أحدٌ مثلَ ما أُعطيتُ»[1].

ومع الحوار والمنادمة يحلو الضحك والمداعبة، وبخاصّة حين يحدّثها بما كان عليه حاله في الدّنيا! عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «سطع نورٌ في الجنّة فرفعوا رؤوسهم، فاذا هو من ثغر حوراء ضحِكت في وجه زوجها»[2].

ومادة الضّحك والتبسّم غزيرة في الجنّة.. ضحك في المجالس والغُرفات، وعلى الأرائك والشّرفات. قال ابن القيم رحمه الله في وصف الحوراء حال ضحكها:

والبَرقُ يبدو حين يبسُم ثغرُها ... فيضيء سقف القصر بالجدرانِ
لله لاثمُ ذلك الثغر الذي ... في لثمه إدراكُ كلِّ أمانِ
ريَّانةُ الأعطافِ من ماءِ الشّبا ... بِ فغُصنها بالماء ذو جريانِ
لمّا جرى ماءُ النعيم بغُصنها ... حملَ الثمار كثيرةَ الألوانِ
فالوردُ والتفّاح والرّمان في ... غُصنٍ تعالى غارسُ البستانِ

وصوتُ الحوراءِ جميلٌ كسائرِ الجمال المركّب فيها، وله عذوبةٌ في

= وُكِلتُ بأمرك، فيتبعه» فإذا صحّ الأثر فإنّ هذا السّاجد، والله أعلم، لا يكون من هذه الأمّة التي لا يسجد أفرادها لغير الله تعالى، وإنّما من صالحي الأمم السابقة الذين يُعدّ السجود عندهم للعظماء والأكابر ضرباً من التقدير والاحترام، أو أن يعودَ سجودُ التقدير والإكرام على عهده يوم خُلق آدم عليه السلام، والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم، (ج١/ ص١٧٥). وهذا الحوار، وسائر أحاديث أهل الجنّة إنّما يكون باللغة العربية، كما سبق.

(٢) حلية الأولياء، (ج٦/ ص٣٧٤).

تغنّجه وتهدّجه، وحلاوة أنغامه، حين تحاورُ حِبّها داخل روضات القصور وبساتينها، وغُرف الخيام، وأرائكها. فيجتمع له من لذّة الحال والمقام، ولذة النّظر والسماع ما لا يقدر على وصفه إلا الله تعالى. يقول سبحانه: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾[الروم: ١٥] أي: منّعمون بلذائذ الأسماع والأبصار. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾[يس: ٥٥ - ٥٨].

ويصف رسول الله ﷺ مشهداً حيّاً من داخل أحد القصور الفارهة.. يظهرُ فيها السعيدُ على حالةٍ رغيدة في هيئة ملكيّة وهو يحاور إحدى زوجاته حين تدخل عليه بأبهى حلّة وأجمل منظر، لم يُر مثله من قبل، فيقول ﷺ: «إنّ الرّجل ليتكئ في الجنّة، ثم تأتيه امرأته فتلاعبه، فتضرب على منكبيه، فينظر وجهه في خدّها، أصفى من المرآة. وإنّ أدنى لؤلؤة عليها تُضيء ما بين المشرق والمغرب. فتسلّم فيردّ السلام، ويسألها: من أنت؟ فتقول: أنا من المزيد. وإنّه ليكون عليها سبعون ثوباً، أدناها مثل النُعمان من طوبى، فينفُذُها بصره حتى يَرى مخّ ساقها من وراء ذلك»[(١)].

عذوبةُ الأصوات.. وجمالُ الغناء:

البهجة في الجنّة لا تنقطع، والنّعيم في دار السلام لا يتوقّف، وبخاصة حين تبدأ الحوراء بالغناء، وهي مع زوجها على الأريكة.. تحفّ بهما السعادة، ويكتنفهما الرّغد من كل جانب! والسعيد العاشق تجتمع له عند القُرب من الحور العين، الخيّرات في أخلاقهن، الحِسان في وجوههن،

(١) أخرجه الإمام أحمد، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، (ج٣/ ص٧٥).



لذّات كثيرة من أبدع اللذّات وأشهاها. وسماعُ أهل الجنّة على نوعين، بحسب حالهم: غناء صادرٌ عن صوتِ الحوراء العذب، المجرّد من المحسّنات الخارجية، وأنغامٌ هادئة جميلة صادرة من حركة أشجار بعينها، تتنوع درجات عذوبتها بحسب حركة الرّياح واهتزاز الأوراق والأغصان!

وغناءُ المُحِبّة العاشقة لذّة فريدة من اللذات الكثيرة في دار الرّغد والسعادة. وهو غناء كريم نظمـاً ومبنى، بصوتٍ عذب فريد، جمّله الله تعالى حِسّاً ومعنى، ولا مجال لمقارنته بغناء نساء الدّنيا!! ولو اطّلع أحدنا من بادية الدّنيا على نعيم مُلكه في الجنّة، وسمع صوت الحوراء وهي تغنّي لمال طرباً، وازداد شوقاً، وذاب وجداً. فإذا قُدّر له بعد ذلك أن يسمع صوتَ مغنيّة من نساء الدّنيا[1] لضحك حتى يسقط مغشياً عليه، لما يجد من النّشاز المُنبعث من الحناجر الهزيلة التي يعتريها المرضُ والتغيّر، ويؤذيها البرد والحرّ، والزكام والسّهر، فهي تحتاج إلى محسّنات وآلات، وصدى ومؤثّرات، ترفع من حقيقتها الخاملة، وتزيّن نبرتها الخشنة، وتوحّد مقاماتها المتنافرة. فكيف لو قدّر له أن يسمع غناء الذكور المقزّز.. بصورهم وهيآتهم المُضحكة، وهم يتمايلون، ويقلّدون النساء في جنس ما اختصّهنّ الله تعالى به في الدّنيا والآخرة؟!

والجمالُ في كلّ شيء إنّما يُحكم عليه حين يتجرّد من كلّ المحسّنات، ويقف وحيدًا بذاته.. فوق كلّ زينة، بعيداً عن كل محسّن. وهكذا هي الحوراء التي خلقها الله تعالى، على تمام البهاء والحسن في كلّ شيء.. في جسدها الفاتن الطاهر، ووجهها الجميل وعينيها الحسناوين، وأخلاقها

(١) مع أنّ ذلك لا يحلّ له في شرع الله تعالى.

الفطريّة المحبوبة، البعيدة عن كلّ تصنّع، وصوتها وغنائها الذي يستغني بجماله عنّ كلّ آلة، ويستقلّ بذاته عن كلّ محسّن خارجي.

وهذا الغناء العذب النّاعم من جملة قرّة الأعين التي أُخفيت لأهل الجنّة، لا تعلم النفوس درجة جماله، ولا الآذان عذوبة ألحانه، ولا القلوب لذائذ البهجة المتولّدة عنه! قال ﷺ: «إنّ أزواج الجنّة ليغنّين أزواجهنّ بأحسنِ أصواتٍ، ما سمعها أحدٌ قطّ»[(١)].

مجالس الأنغام!

ويستعيض أهل الجنّة في مجالسهم عن سماع الموسيقى الهادئة أو الصاخبة، التي كان يسمعها الغافلون من أهل الدّنيا، في أوقات راحتهم، ورُدُهَات فنادقهم، وصالاتِ طعامهم وشرابهم، بالألحان العذبة الهادئة التي تصدر عن أشجار الجنّة حال اهتزاز أغصانها، وتحرّك أوراقها. وهو صوتٌ جميل آسر، يُبهج أهلَ الجنّة ويُدخل الفرحة على قلوبهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله سبحانه: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ قال: الظلّ الممدود، شجرة في الجنّة على ساقٍ، قدر ما يسير الراكب المُجدّ في ظلها مائة عام من كل نواحيها، فيخرجُ أهلُ الجنّة يتحدّثون في ظلّها، فيشتهي بعضهم اللهو «أي: الغناء»، فيرُسلُ الله ريحاً فتحرّك تلك الشجرة بكلّ لهو كان في الدّنيا[(٢)]. وروى أبو نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ في الجنة شجرةً جذوعها من ذهب، وفروعها من زبرجد ولؤلؤ، فتهِبّ الرّياح،

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، (ج٢/ ص٣٥).

(٢) أخرجه بن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في صفة الجنّة عن ابن عباس، انظر: فتح الباري (ج٦/ ص٣٢٧).



فتصطفق فما سمع السامعون بصوتٍ شيء قطّ ألذّ منه»[1].

والأنغامُ العذبةُ التي تصدرُ من أشجار الجنّة تنبعث من حركة متناسقة موحّدة لهذه الأشجار المعروفة، وهي أنغام متجدّدة متنوّعة، تتفاوت في عذوبتها وأنغامها بتفاوت طول الأغصان، وحجم الأوراق، وحركة النسائم الطيّبة والحال التي يكون عليها أهل الجنّة!

فما أبدع صور الجمال في دار السلام.. المناظر بهيّة، والأصوات عذبة زكيّة.. أصوات الملائكة الكرام، وأصوات الولدان الحسان، والحُسنُ المعقود بكلّ صوت في كلّ مكان.. صوتُ حركة الأغصان حين تهدهدها الرياح، وشقشقة العصافير على الأشجار، وخرير الماء في الأنهار الجارية بين البساتين والغابات والحقول. وأصوات عذبة أخرى لا يعلمها إلا الله وحده.

وأعذب الأصوات وأحسنها، وأشرفها وأجملها: كلامُ الله جلّ جلاله.. بحرف وصوت، لم يسمع أهلُ الجنّة قط صوتاً أحسن منه ولا أجمل.

وغناء الحور منه ما هو فردي.. أمام زوجها، ومنه ما هو جماعي مع بنات جنسها، ولكلّ طربُه ولذّته. عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّ في الجنّة لمُجتمعاً للحور العين، يرفعن بأصواتٍ لم يسمع الخلائق مثلها، يقلن: نحن الخالدات فلا نبيدُ، ونحن الناعماتُ فلا نبأس، ونحن الراضيات فلا نسخط.. طوبى لمن كان لنا وكنا له»[2]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنّ في الجنة نهراً طول الجنة، حافّتاه العذارى قيامٌ متقابلاتٌ، يغنّين بأحسن أصواتٍ يسمعها الخلائق، حتى ما يرون أنّ في الجنة لذّة مثلها.

---

(١) ذكره صاحب تحفة الأحوذي، (ج٧/ ص١٩١).

(٢) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٦٩٦).

قالوا: يا أبا هريرة، وما ذاك الغناء؟ قال: إنّ شاء الله التسبيح والتحميد، والتقديس والثناء على الرّب[1].

والتلذّذ بسماع هذا الغناء من جملة الحبور الذي أشار الله تعالى إليه بقوله: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾. وقد أخبر ﷺ عن كلمات بعض أغاني الحور[2] في دار البهجة والحبور.. فهاهن يغنّين، داخل القصر المنيف على كنف النّعيم والرغد، والسعادة التي لا تنقطع يقلن: نحن الخيّرات الحسان، أزواج قوم كرام، ننظر بقرّة أعيان[3]. وغناؤهنّ بأصوات عذبة وألفاظ كثيرة تناسب الخلود، والوارد من كلمات غنائهنّ لا يُقصد به الحصر، والله أعلم، بل هو عَرْضٌ لنماذج من غنائهنّ الكثير المتعدّد، بحسب المواقف والأحوال. وعذوبة أصوات الحور أمام أزواجهنّ تظهر فيما هو أكرم من الغناء وأشرف.. في التسبيح والتحميد، والتهليل والتكبير والترتيل.

---

(١) الدر المنثور، (ج١/ ص٩٥).

(٢) لربما وردت ألفاظ هذا الغناء على غير نسقها الشعري الموزون الذي يخرج من فم الحوراء؛ لأنّ الشعر الموزون بنظمه وجرسه المعروف بين أهله مما عصم الله تعالى به رسوله ﷺ؛ وشاهدُ ذلك أنّه استشهد بأبيات وأراجيز، ثمّ لم يوردها مورد النّظم الشعري، كما حدث يوم الأحزاب حين كان المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق، وينقلون التراب وهم يرتجزون: نحن الذين بايعوا محمدا.. على الجهادِ ما بقينا أبدًا، والنبي ﷺ يجيبهم ويقول: «اللهم إنّه لا خير إلا خير الآخرة.. فبارك في الأنصار والمهاجرة» (أخرجه البخاري عن أنس رضي الله عنه، ج٣/ ص١٠٤٣) وكسر الوزن الشعري في جوابه ظاهر، وصَدَق الله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس:٦٩].

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، (ج٥، ص ١٥٠).



وأحرى النّاس بمزيد الكرامة من ارتفع في منازل الهداية، وإنّما يتنعّم بهذا السّماع في جنّات النّعيم على أكمل لذّاته من صبر عن فِتَن الدّنيا وشهواتها.. ونزّه أذنه عن لهوها المحرّم وسماعها، وإن أجازه له الجاهلون وأباحه الغافلون. عن محمد بن المنكدر قال: إذا كان يومُ القيامة نادى منادٍ: «أين الذين كانوا ينزّهون أنفسهم وأسماعهم عن مجالس اللهو ومزامير الشيطان؟ أسكنوهم رياضَ المسك، ثم يقول للملائكة: أسمعوهم تحميدي وتمجيدي»[1].

والحازمُ من فطم نفسه عن شهواتها؛ يريد حياتها، ونزّه حواسّه عن باطلها؛ رجاء سعادتها.. ولا يطيق هذا إلا الأحرارُ، المنفكّون عن ربقة شهواتهم، المتيقّظون الصّادقون في عبوديتهم[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة بسند صحيح، (ح ٢٦٩/ ص١٩٠).

(٢) جنّة المأوى لا ينالها إلا من نهى النّفس عن الهوى، ولم يتتبع الرّخص لنيل المشتهى، ولم يحتل على الفساد بالفساد.. فساد عمله بفساد الاستشهاد عليه من نصوص الشّرع. والمعاني المشتبهة الخاملة سريعاً ما يظهر عوارها بقوّة الحق الدامغة، فقط إذا جُرّدت بذاتها عن ساتر النّصوص الحاجب الذي يورده أهل الأهواء أو الدّهماء، والصغير والكبير يعلم أنّها مما يردّه الشرع ويأباه، وينفر منه العاقل ويستهجنه. والفارق كبير بين الحلال والحرام والمشتبه؛ فالحلال تأنس به النّفوس المؤمنة بلا كلفة، والحرام تأباه وتتحرّج منه، وحول المشتبهات يكون النّزال، وعليهنّ يكثر السؤال.. ولا عاصم إلا بالورع؛ إذ النّفوس السليمة، والعقول الصحيحة لا تسأل غالباً عن الحرام المحض، ولا عن الحلال المحض، وإنّما عن المشوب بينهما. =

ومن ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه، ولذا ينادي الحقّ سبحانه ملائكته يوم القيامة فيقول: إنّ عبادي كانوا يحبّون الصوت الحسن في الدنيا فيدعونه من أجلي، فأسمِعوا عبادي، فيأخذون بأصواتٍ من تهليل وتسبيح وتكبير، لم يسمعوا بمثلها قط[1]. ومن عفّ في الدنيا عن ركوب الحرام، مع قدرته عليه كان جزاؤه عند الله أعظم، ومنقلبه في الجنّة أوفى وأكرم. وما من مُعينٍ على الصّبر بعد تقوى الله تعالى من تذكّر نعيم الجنّات، والمنافسة على رفيع الدّرجات، ولذا كان الحسن البصري يجلس مع الشباب فيرغّبهم في الجنّة ويحبّبها لهم، ثمّ يقول: يا معشر الشباب، أما تشتاقون إلى الحور العين؟![2].

نزِّه سماعك إن أردت سماع ذيّا ... ك الغنا عن هذه الألحانِ

لا تؤثَر الأدنى على الأعلى فتُحـ ... رمَ ذا وذا، يا ذِلَّة الحرمانِ

= وكما يستحيل في العقل أن يتقرّب العابد إلى ربّه بجنس ما حرّم عليه، فكذلك يستحيل أن يكون عينُ المبغوض عنده سبحانه محبوباً لديه.. يرحم به، ويفاضل بين المنازل لأجله. وأصل الضلال اتباع الهوى وإيثار الحياة الدّنيا، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٣٩]. وأصل الهداية في أربعة: في الصدق والصبر، والاستسلام والرضى. عن عبادة بن الصامت ﷺ أن النبي ﷺ قال: «اضمنوا لي ستًا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا اؤتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، وكفوا أيديكم» (أخرجه مسلم، ح١٠٢٨).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة بسند رجاله ثقات، (ح ٣٤٤/ ص٢٣٠).

(٢) المرجع نفسه بسند صحيح، (ح ٣١٥/ ص٢١٤).



إن اختيـارك للسّـماع النّـازل الــ	أدنى على الأعلى مـن النّقصـانِ
والله إنّ سـماعهم في القلـب والــ	إيمــان مثــل السُّــم في الأبــدانِ
والله مـا انفـكّ الـذي هــو دأبُـه	أبــداً مــن الاشــراك بــالرحمنِ
فلقلـبُ بيـتُ الـرَّبِّ جـلّ جلالـه	حُبّـًا وإخلاصـًا مـع الإحسـانِ
فــإذا تعلّــق بالسّــماع أصــاره	عبــداً لكــلّ فلانــة وفــلانِ
حُبّ الكتاب وحُبّ ألحـان الغنا	في قلـبِ عبـد ليس يجتمعـانِ[1]

والصوتُ المنبعث من الاهتزاز المنظوم لأوراق شجرة الأنغام هذه لم يسـمع المتّقـون مثلـه حُسـنـًا وجمـالاً، ولـذا يطربـون لـه، ويشـتاقون إليـه ويعقـدون مجالسـهم في ظـلال أشـجاره، كمـا سيأتي في حـديث المجالس. وكلّ نغمة تُبهج أهل الجنّة تعقبها نغمة أجمل منها. ويا لها من لذّة تستغرق الأرواح فتبهجها، والحواسّ فتسعدها.. لو أنّ السعيد اتّكأ على سريره في ظلّ هذه الشجرة.. يستمع لأنغامها، والأغصان تتهادى عليه من كلّ جانـب بلذيذ الثمـار، وبقربـه العاشـقة المحبّـة الحـوراء تُطربـه بحـديثها وغنائهـا في مجلس السعادة على ضفاف الأنهـار، وحولـه الغلمـان.. يطوفـون عليـه، لا يسأمون من خدمته! فهو بين عذوبة الأصوات وجميل الغناء وبديع الخدمة ولذيذ الطعام والشراب، تغمره السعادة وتبهجه الحال الرّغيـدة أبـد الآبـاد. وهذه هي الجنّة، بلذائذها الكثيرة ومتعها الغالية الـوفيرة، نسـأل الله الكـريم من فضله.

---

(١) الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم، (ص٣٦٦).



طيب المعاشرة، وحسن التودّد:

مع اجتماع لذة النظر إلى محاسن الحوراء، والسماع لطيب حديثها وعذب غنائها، تتبدّى لذة قلبية أخرى باعثة على الغرام، ومهيّجة لترقّب الوصال، ألا وهي لذّة الشعور بصادق الحبّ وحسن التدلّل، وجميل التودّد الذي يكلّله الحياء، ويحوطه الأدب الجمّ، فهي العاشقة الحسناء التي لم تزل في شوقها لزوجها، تشتهيه كما يشتهيها، وتحبّه كما يحبّها، وتُبلّغه مشاعرها بصريح العبارة، أو بطرْف العين الآسر، وبَسَمات الشفاه العذبة، وتداعبه بجميل الخطاب الواله، وتغازله بكلمات الحبّ حال الغناء المفعم بصادق المودّة مع تمام الخصوصية، وتخبره بأن كلّ ما يرى منها ويسمع مقصور له وحده، ومخبوء لإمتاعه وإسعاده، وأنّها ما خُلقت إلا لترضيه وتحقّق أمانيه. عن الأوزاعي قال: حدثني يحي بن أبي كثير أنّ الحور العين يتلقّين أزواجهنّ عند أبواب الجنّة فيقُلنَ: «طال ما انتظرناكم»[1].

والقصور في الجنّة منيفة واسعة، والخيام لؤلؤية فارهة.. بأرائكها وأسرّتها، ونمارقها وتُحفها، وآنيتها. وفي داخل القصور والخيام غرفٌ وزوايا تتولّد فيها لذّة الخصوصية.. لا يطّلع منها على المحبّين أحد، ولا ينغّص لذّاتهما أحد! ولهذه الغرف أبواب، وشأن الأبواب أن تُفتح وتُغلق، بحسب الخصوصية، وإن كان فتحها هو السمة الكبرى في الجنّة، التي يكثر فيها دخول الغلمان والملائكة الكرام، كشأن أبواب الجنّة الكبرى التي لا تُغلق بعد أن يطرقها محمد، ويدخل منها المتّقون، قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴾[ص: ٥٠].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة بسند صحيح، (ح ٢٦٨/ ص١٨٩).



وفي مشهد بديع يصف الله تعالى حالاً كريمة تتكرّر على أهل الجنّة وهم في غرفهم الخاصّة حيث الرّغد والنّعيم، والملائكة يدخلون عليهم مسلّمين، والغلمان محمّلين بصنوف الطعام والشراب، قال سبحانه: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[الرّعد: ٢٣ - ٢٤] وهذا المشهد لا يتأتّى إلا بكون الأبواب مفتّحة، حال الرّفاه العام الذي لا تدخله الخصوصية. عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا﴾[الإنسان: ٢٠] وملكًا كبيراً، أي: عظيمًا، لا تدخلُ الملائكة عليهم إلا بإذن[1].

ولا تُغلق من هذه القصور المنيفة الواسعة إلا بعض غُرفها حال الوصال، وهو مقتضى العفّة والحياء الذي جبل الله عليه الأسوياء من السّعداء في الدّنيا والآخرة؛ والله تعالى، كان ولم يزل حييًّا سِتّيراً، يحبّ لعبده وأمته الحياء والسّتر، والحشمة والعفّة، ويكره لهم التهتّك والتفحّش[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنة، (ص١٥).

(٢) أمر الله تعالى بالحشمة والسّتر، وحذّر من التهتّك وكشف العورات، وأظهر لعباده كيد عدوّه، وبيّن وسيلة الشيطان الكبرى لصدّهم عن دخول الجنّة التي أخرج أبويهم منها، كما بيّن جلّ شأنه نتائج التعرّي وأثره في فشوّ الفواحش وانتشار الفساد، وحلول العقوبات، فقال سبحانه: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[الأعراف: ٢٦ - ٢٧]. عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ من أشرّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة، الرجلُ يُفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم =

والحشمة والحياء والمبالغة في العفّة والسّتر لم يزل شعار المتّقين في الدّنيا والآخرة، وهو سمت الأنبياء والصالحين. ومُحال أن يكون من لذّات الجنّة شيء من الفواحش المحرّمة أو المكروهة على المؤمنين في الدّنيا؛ لأنّ الجنّة دار الطيب والنّقاء، والطهر والزّكاء[1].

والحوراء سعيدة بقرب زوجها، متحبّبة إليه بكلّ ما يبهجه، ولذا فلا يبعد أن تخدمه خدمة المحبّ لحبيبه، لا خدمة المولى لسيّده، كما هو حال الغلمان! فتقدّم له كؤوس الشراب، وتناوله بيدها ما يشتهي من الثمار، وتقطّع له من الطعام ما يحتاج إلى تقطيع، وربما تولّت تحليته بأساور الذهب والفضة، وتعاهدته بما يكون بين الزوجين لدواعي الخصوصية.

= ينشر سرّها» (أخرجه مسلم، ج٢، ص١٠٦٠). فإذا كان هذا شأن الإفشاء عمّا دار من الوصل في الخفاء، فكيف بمن يأتي امرأته علناً، أو لا يُحكم إغلاق الباب، أو لا يستتر بالثياب حياء من الرّب سبحانه؟ وكمالات السّتر والحياء في الجنّة أرفع وأزكى.

(١) المحرّمات على ثلاثة أنواع، أوّلها: ما حُرّم لذاته؛ كالزنى والسرقة والفحش في القول ونحوه، والثّاني: ما حُرّم لصفات تحفّ به، وإن كانت ذاته كريمة طاهرة: كلبس الذهب والحرير للرجال. فالأول مما نزّه الله تعالى عنه الجنّة تنزيهاً مطلقاً، والآخر مما جعله الله سبحانه من لذائذ الجنّة ونعيمها مطلقاً، مع اختلاف في حقيقة الذات والصفات، وإن تشابهت الأسماء، والنوع الثالث: محرّم دخله الشّوب في ذاته وصفاته، كالخمر، يؤخذ من ثمرة مباركة، ثم يُعمد إليه بالنّبذ والتغيير حتى تدركه الآفات فيصبح مشروباً آخر في ذاته وصفاته، وهذا النّوع لا يكون من نعيم الجنّة بإطلاق، ولا يُنزّه منه بإطلاق، ولا يُعرف إلا باسمه، أمّا ذاته وصفاته فتختلف تماماً عما كانت عليه في الدنيا؛ فهو خمر جديد، لا تصيبه الآفات، ولا يَذهب بالعقول، ولا يُعتصر من العنب أو الشعير أو التمر، وصفاته تختلف عن صفات خمر الدّنيا من حيث النّقاء ولذّة الطّعم وحسن المنظر، وطيب الرائحة.



وهذا من تمام المودّة وحسن المعاشرة، ألا ترى من نساء الدّنيا من تكون بين يديها من تخدمها وتخدم زوجها، ثم لا تقنع حتى تقدّم لحِبّها بيدها ما يشتهي، وإن كان متعهِّدُ جلبه أو إنضاجه أو خياطته غيرُها؟ وما ذاك إلا لواجب المودة والحسنى.

والحوراء مع كل هذا عاشقة محبّة، والهة مشتاقة.. قد ظهرت غيرتهُا على حِبّها وهو لا يزال هناك.. مع زوجته الدنيوية التي ساءت طباعها حتى آذته ولم تعرف حقّه! فإذا كان هذا شوقها وهو بعيد عنها فكيف بها اليوم وهو معها على أرائك الوجد، في هذا المكان الآمن، والنّعيم المقيم؟!

والعجيب أنّ غيرة الحوراء هذه إنّما تكون على ضرّتها الدنيوية، ذات الخُلُق المضطّرب واللسان الملتهب، والجمال المتواضع، بمعدنها الدنيوي الذي رُكّب فيه الأذى بالسقم، والفَرح بالحزن، والبدانة بالهزال.. أحدُّ ما فيه اللسان، وأجرأ ما فيه العينان، أمّا أخواتها في الجنّة فإنها لا تغار منهنّ، على كثرتهن؛ لِما جعل الله عزّ وجلّ في الجنّة من مشاعر الحبّ والهناء، والسّلامة والرضى، ولما يحصل بينهنّ من الألفة والتقارب.. في الجمال والبهاء، والملاحة والزّكاء، ولما قضى به سبحانه من الرّضى وسلامة الصّدر، في دار السّعادة التي لا شقاء فيها، والفرح الذي لا حزن معه، والمحبّة التي لا كُره بعدها.

الطّهارة والنقاء:

ومما يرغّب السعيد في الحوراء ما يستحضره من حال جسدها الطاهر، وهيئتها الحسنة التي خلقها الله تعالى عليها؛ فهي بكرٌ رزان، قد اجتمعت في جسدها سائر اللذات المحبّبة، والصفات المُرغّبة، وكلّ عضو من أعضائها يغريه بالدنوّ والقرب، وجميل الوصال.

وطهارة الحوراء صفة غالبة.. جامعة لكل مرغوب، وجالبة لكلّ محبوب؛ قرنها الله تعالى بها، وجعلها من بديع صفاتها، قال سبحانه عن أهل الجنّة: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٢٥]. والتعبير بالعموم هنا يشمل الطّهر الحسّي والمعنوي معـًا، كما يشمل النزاهة من سائر الأحوال التي كانت عليها نساء الدّنيا، مما ينفُر عنه الطبع[١].

وتبلغُ طهارة الحوراء مبلغـًا يحار العقل البشري في إدراكه؛ حتى إنّ جسدها ليشفّ عن بعض تفاصيله الدّاخلية من شدّة الصفاء والنقاء، قال ﷺ في وصف بعض ما أعدّه الله تعالى لأهل الجنّة: «لكلّ امرئ منهم زوجتان، كلّ واحدة منهما يُرى مخّ ساقها من وراء لحمها من الحُسن»[٢]. وقال ﷺ في وصفها: «وإنّه ليكون عليها سبعون ثوبـًا، أدناها مثل النُّعمان من طوبى[٣]، فينفُذُها بصره حتى يَرى مخّ ساقها من وراء ذلك»[٤]. وهذا

(١) كالروائح الكريهة، والسوائل المشوّهة المستقذرة؛ كالمخاط والبصاق، والبول والغائط، والمذي والمني، وما يصحب الحمل والولادة، والحيض والنفاس، من الأذى والدّنس، والقذر والنّجس.

(٢) أخرجه البخاري عن أبي هريرة، (ج٣/ ص١١٨٦).

(٣) الثياب على ثلاثة أنواع: شِعارٌ ودِثارٌ ولِحاف؛ فالشِّعارُ ما ولي جِلدَ الإنسان من الّلباس، وهو ألصقها بالجسد، ويقابل الملابس الداخليّة في زمننا هذا، والدَّثار يوضع فوق الشَّعار ممّا يُستدفأ به، وأمّا الِّلحافُ: فكلّما تغطّيت به فقد التحفت به. (انظر: غريب الحديث لابن سلام، ج١/ ص٣١١). ومن جميل تعبيره ﷺ عن حبّ الأنصار قولُه: (النَّاسُ دِثَارٌ، والأنصارُ شِعَار) (أخرجه ابن أبي شيبة في مصنّفه عن أنس، ج٦/ ص٣٩٩). وفي حديث الحوراء تصويرٌ لجمال ملابسها الداخلية الحمراء التي تُلاصق جسدها!

(٤) أخرجه الإمام أحمد، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، (ج٣/ ص٧٥).



الوصف الفريد يجلّي حقائق الحياة الرّغيدة في دار النّعيم.. بحدّة الأبصار وقوّتها، ورقّة الثياب ودقّتها، وجمال البشرة وبياضها.

وما في حديث الشفافية هذا من عجب؛ فهو وصف للون ملابس داخلية حمراء اللون زاهية، تلي جَسَد الحوراء، وفوقها ثياب حريرية شفّافة أخرى. والمعنى: أقرب الثياب لصوقاً ببشرتها: أحمرُ اللون، ولشدّة احمراره يَظهر من فوق حُلل حريرية شفّافة، كلّ حُلّة لها تصاميمها التي تناسب موضعها الذي تنسدلُ فيه على جسدها الأبيض النّاعم. ومكمن الخلل حين نحاكم نصوص الوحي الصحيحة الكاملة إلى عقولنا الكليلة القاصرة التي لا تستحضر أنّ هذا من جنس النّعيم الذي لم تره العيون ولا تدركه العقول[1].

---

(١) العقلاء في كلّ عصر يقرّون بوجود التباين في أحوالهم الدنيوية المشاهدة، وعدم الموافقة في الأشياء المتماثلة من كلّ وجه، مع أنّها موجودات دنيوية فانية! فكيف يستجيز العقل السليم بعد ذلك وجود المشابهة في أحوال النّعيم بين دارين لا تظهر حقائق إحداهما إلا في جنس مخالفتها للأخرى من كلّ وجه، ولا يحدث التشابه بينهما إلا في الأسماء فقط؟! وكيف تكون ذوات نساء الدنيا كذوات الحور العين، وصفاتهنّ كصفاتهنّ، ولباسهنّ كلباسهنّ، وجوهر كلّ منهما وصفاتها تختلف بحسب الدار التي خلقت فيها؟ ومن تأمّل في أجساد بني آدم، وهم أكرم المخلوقات الأرضية، وجد أنّها مركّبة لتناسب الدار الحقيرة التي أهبطوا إليها؛ فالجلد فيهم مُصمَتٌ بعيدٌ عن الرّقة والشفافية ليناسب حَرّ الدنيا وبردها، وغبارها ودخانها، وما يعلق في البدن من قذاها وأذاها. ومسامات الجلد الدنيوي الرّقيقة، التي يتنفّس منها، محفوفة بالشَّعر الدّقيق المغروز فيها، وما يخرج من الجلد قطرات ضئيلة من العرق بمقدار ما يرطّب الجلد ويتكيّف =

= معه البدن، ولا يستهلك سوائل الجسم الدّاخلية! وهذا تركيب كمال وجمال.. وخلق إبداع وإحكام يناسب ما عليه حال بني آدم، ويوافق مهمّتهم، وإلا فالنّقاء والشفافية ـ من حيث المقارنة ـ أجملُ وأكمل من الكَدر والإصمات. والماء كلّما كان شفّافاً صافياً ظهرت تفاصيل ما بداخله، وهفَت له النّفس، وتاقت للشرب منه، والانتفاع به، بخلاف الماء الذي يخالطه العَكَر والكَدَر. والإناء الشفّاف الذي يُصبّ فيه الماء النقيّ الصافي يُرى ما بداخله بسهولة ويسر، بخلاف الإناء المُصمت الذي لا يُدرى ما يحوي بداخله! ولو أسقطت بلّورة زجاجية حمراء داخل الإناءين لظهر الفرق بجلاء.

وجسد الحوراء نقيّ شفاف، مركّب في غاية الحُسن والجمال. ولمّا لم يرد ما يتحدّث عن مكنونات الأعضاء الداخلية لأهل الجنّة: أهي كما هي في الدّنيا من حيث المسميّات والوظائف؟! فإنّا نقول: إن كان قد ورد هذا التشبيه للنقاء برؤية بعض التفاصيل الداخلية لساق الحوراء فإنّ قلبها الذي ينبض، ورئتها التي تتنفّس، وسائر أعضائها الداخلية الأخرى، مكنونة مستورة، لا تُرى من خارج هذا الجسد النقيّ الطاهر الناعم. وقد سبق تحرير ذلك عند حديث تذليل الثمار والأطيار، والله أعلم ببديع ما خّلق، وجميل ما صنع.

وأهل الدنيا ـ في مقارناتهم بين النّعيم الفاني والنعيم الباقي ـ متخلّفون إذا لم يهدهم الله تعالى، وما ذاك إلا بسبب ضعف مدركات عقولهم؛ ألا ترى أحدهم إذا طُلب منه أن ينتقل لدار فارهة الجمال في المدينة ذاتها يزداد ولَعاً بداره العتيدة القديمة، مع ما لقي من أهلها من صنوف الأذى.. وتراه يبكي لفراقها، ويتلمّس مكامن النقص في الدار الجديدة ليقنع نفسه بعدم الحاجة لسكناها، ثم لا يزول حنينه، ولا تنقطع شجونه حتى يرى الفرق العظيم بين الجارين، ويبصر تفاوت البهجة والسرور بين المنزلين؟! هذا شأن ابن آدم وهو لا يزال في دار الدنيا.. فما باله يعمد إلى المقارنة بين مُتع داره الرخيصة ولذّات الجنّة الغالية؟ ولماذا يعجب من صفات الكمال لجسدٍ طاهر خلقه الله تعالى بيده للبقاء، =



والجوهر كلّما كان كريمـًا كـان صـافيـًا نقيّـًا. وأكـرمُ أحجـار اليـاقوت والزّمرّد الحُرّ مـا تظهـر تفاصيله الدّاخليـة بوضـوح، ويتبيّن النـاظرُ عُرُوقـه الجميلة الدّقيقة مـن تحـت طبقاتـه الكثيـرة؛ لشـدّة نقائـه. ومـا أجمـل تشـبيه القرآن الكريم لنقاء جوهر الحور الحسان بنقاء الياقوت والمرجان! قال الله جلّ شأنه: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾.

وأهل الجنّة جُردٌ مُرد، لا يغطّي أبـدانهم النّقيـة الطـاهرة شـعرٌ ولا جلـد كثيف، كما كانوا عليه في الدّنيا! فكيف لا يُقطع بعد هذا طلبُ المماثلة بـين نساء الدّنيا وحور الجنّة في سائر صفات الجمال والـدّلال؟! ومـا في وصـف الحوراء، حين يُـرى مُخُّ سـاقها مـن وراء ثيابهـا، إلا جمـال الخِلقـة، وتمـام الزينة؛ وكمالُ الإغراء؛ فالثياب مـن مـادّة كريمـة غايـة في الشـفافية، والبَـدَنُ الطاهر الذي تغطّيه الثياب شفّاف، في غاية النّقاء والصفاء، كمعدن الياقوت الثّمين الكريم الذي تظهر بعض معالمه الداخلية من شدّة صفائه.

والشفافية هذه جاءت مقيّدة في حقّ السّاق فقط؛ لبيان الحسـن والصـفاء، ولـم يرد نصّ يفيد عمومها لجميع أجزاء بدن الحـوراء، ولا مـا يجـاوز بهـذه الشفافية إلى بقيّة الأعضاء الداخلية؛ ولذا لا نتكلّف البحث عما هيّتها، ولا نجاوز الحدّ في وصفها!

= وأودع فيه الجمال والدّلال والنقاء، وركّبه على معـدن منزّه عـن صـفات جسـد الآدمـي الهزيـل الـذي يناسـب ذات داره الفانيـة، المكنـوز بـالأذى والـنّجس، والمـرض والتعـب، وتؤذيـه الـروائح والسـوائل، ومآلـه للـدود وهـوام الأرض؟! فسبحان من أرشد القلوب إلى رياض محبّته، وحدا بالعقول إلـى أنـوار حكمتـه، وأودع في الأرواح نسائم الشّوق لجنّته.

وكما جاء وصف الشفافية والنّقاء الدّاخلي للحوراء، فقد ورد ما يؤكّد الصفاء والإصمات، وعدم الشّفافية لجسدها الخارجي النّاعم، في حديث جميل كسائر نصوص الوحي، جمع ﷺ في جسد الحوراء بين الوصفين معـًا: الشفافية والإصمات، في معرض بيان جمالها وكريم صفاتها، فقال عن ساعة اللقاء الأولى بين الحبيبين: «فينظر وجهه في خدّها، أصفى من المرآة. وإنّ أدنى لؤلؤة عليها تُضيء ما بين المشرق والمغرب. فتسلّم فيردّ السلام، ويسألها: من أنتِ؟ فتقول: أنا من المزيد. وإنّه ليكون عليها سبعون ثوبـًا، أدناها مثل النُعمان،[1] من طوبى، فينفُذُها بصرُه حتى يَرى مخّ ساقها من وراء ذلك»[2]. فأنّى للعيون البشرية أن ترى قريبـًا من هذا الجمال في دار الدّنيا؟ وللعقول أن تحيط بكُنهه وتدرك أسراره، وهو فوق ما تتخيل، وأرفع مما تتصوّر؟!

رفعة المرأة الصّالحة في منازل الطّهر:

وكما ارتفع نساء الدّنيا الصالحات في هذه الدار عن الحور العين في رُتبةِ الجمال، فإنهنّ يرتفعن كذلك في كُنه الطهارة والنقاء؛ لأنّ وصف الطهارة يصبح في حقّهن من باب الجزاء الذي يسعدهنّ الله تعالى به.. فهو طُهر فوق الطُهر، ونعيمٌ زائد عن النعيم! وهذا سرّ بديع من أسرار المفارقة بين من كانت الجنّة لها دار بقاء، ومن كانت لها دار جزاء؛ فمع أنّ الطهارة والنّقاء حاصلة للصنفين من كلّ وجه إلا أنّ من قضى الله تعالى بقطع آفة عنها أو صفة مذمومة كانت تناسب كدر الدّنيا وروائحها وأذاها، ثمّ أحلّها

---

(١) أي: أحمر اللون، وشقائق النعمان نبات أحمر يشبه بالدم. (لسان العرب ج١٢/ ص٥٨٨).

(٢) أخرجه أحمد، من حديث أبي سعيد الخدري، (ج٣/ ص٧٥).



بدلاً عنها صفةً كريمةً تقابلها، كانت تلك الصّفة التي أكرمها بها أكمل وأرفع في حقّها من غيرها، ولو كانت الحوراء ذاتها!! ولذا فوصف الطهارة في حقّ المرأة الصالحة حين تدخل الجنّة أرفع وأكمل، وهي أحرى من يُصرف إليها النّظر عند الحديث عن الأزواج المطهّرة في دار القرار: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾.

والطهر الحسيّ للصالحات في الجنّة يواكبه تطهير آخر من الأخلاق الرّديئة، والطباع النّاشزة، والعشرة المنغّصة، وكذا يواكبه تحلية كريمة بأخلاق أهل الجنّة، وعاداتهم، وآدابهم؛ فالجنّة دار الذّوق الرّفيع، والأدب الجمّ، والأحاسيس المرفهة، والكلام الهادئ، والنظرات المعبّرة، والحواسّ الكاملة.. في ذواتها ووظائفها. قال الله عزّ وجل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[الحجر: ٤٧].

وتحلو المنادمة بعد ذلك على أرائك الوجد، والمداعبة في كنف النّعيم؛ وبخاصّة إذا تذكّر السّعيد كلّ هذه اللذائذ المكنوزة في ظاهر الحوراء وباطنها، وخلْقها وخُلقها، وحفّت بهما المناظر البهيجة، وتدلّت عليهما الأغصان المُثقلة، وزكا عَبَق المجامر، ودارت كؤوس الشراب.. متعدّد المذاقات والنكهات.

ومما يزيد من حبّه إيّاها استحضار بقائها مصونة في كنف الرّغد، مترعة بِريّ النّعيم، تطوّف بين الأشجار والأنهار، وتبهجها لذائذ الأسماع والأبصار. فإذا خلى بها ساعة الوصال وجدها على أكمل حالات الدّلال، وأرفع صور الحسن والجمال[1].

(١) بخلاف ما كان يحدث في الدّنيا، حين تنشغل الزّوجة بمطالب أعمال المنزل =

ومن أشهى أحاديث اللذّات، دون لذّة النّظر إلى وجه الله جلّ جلاله، الحديث عن وصال الحور العين؛ فبه تبلغ النّفوس هواها من محبوبها، وتُدرك القلوب مُناها من معشوقها، وتتصل الأجساد النّاعمة بجماع شهيّ، لم يخطر على قلب بشر، مع كثرة الزوجات وتتابع الوصال، عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أدنى أهل الجنّة الذي له ثمانون ألف خادم، واثنتان وسبعون زوجة، ويُنصب له قبّة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، كما بين الجابية إلى صنعاء»[(١)].

لذّة الوصال:

ها هي الأبواب قد أوصدت، والسُتُر قد أرخيت، ولم يبق أمام السعيد في هذه اللحظة إلا أن يذوق اللذّة التي أعدّها الله تعالى له في دار النّعيم، وخبّأها له في حرز أمين!

ولذّات الجنّة تعبق حين يلتقي الأحبّة على أرائك الوصل، وتدور أطباق الفواكه والكؤوس الكريمة قبل منادمة المشتاق. قال الله تعالى واصفاً حال أهل الجنّة، وهم فوق الأرائك مع أزواجهم: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ۝٧٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧١ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٧٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٥ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ۝٧٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٧ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[الرحمن: ٧٠ - ٧٨].

= التي تورثها التّعب، وتشوّه جمالها، وتذهب رونقها ونضارتها، وتؤثّر على أخلاقها وطباعها، وتقلّل من حظوتها عند زوجها، وإن كانت غادة جميلة.

(١) مسند ابن المبارك، (ج١/ ص٧٢).



فياله من مشهد بديع! الحبيبان يجلسان على شراشف ناعمة من حرير أخضر، فوق فُرُش نّاعمة حسان على سرير بديع قد انسدلت تحته بُسُط لم تر العين مثلها.. عبقريّة حسناء[1]، ذات مخملٍ رقيق ناعم، ممدودة على أرضية الحجرة البديعة في داخل الخيمة اللؤلؤية الفارهة.. وهما يتنادمان ويتضاحكان، ويتعاطيان كؤوس الشراب بسعادة لا توصف. والسعيد المشتاق مع رغبته وانتظاره، مكتملُ الشباب، وافرُ الُحسن، بهيّ الطلعة، طيّب البدن والثياب. وهي، مع كمال حُسنها، وريّ شبابها، ولذيذ خصالها.. بِكرٌ رزان، مصونة من أعين الإنس والجانّ.. لم ترمقها عينُ أحدٍ قبله، ولم تمسّها يد.. مختومةٌ بختام الحسن المعتّق، كما يختم الطيب الفاخر، والشراب الطاهر، مقصورةٌ في الخيام لأجله، كحبّة الدُرّ النقيّة في صدفتها، ضَحوكٌ عَروبٌ، مبرّأة من الأنجاس، غانيةٌ حسناء، مطهّرة من الأدناس.. حَسَنة المُعاشَرة، إذا نظر إليها أسرّته، وإن أمرها أطاعته.

وبينا هما على الأرائك.. تحفّهما أفراح المنادمة، وتستثيرهما لذّات المداعبة، ويكتنفهما جمالُ السّعة في الغُرفات.. بألوانها البهيّة، وعبق المجامر يتهادى بالألوّة الزّكية؛ إذ بالقلب المحبّ يتلهّف للدنوّ، والوجد يبلغ بالمحبّ المشتاق كلّ مبلغ، عندها تُرفع الكلفة بين الأحباب، ويذوي ما ثقُل من رقيق الثياب.. وتدنو ساعة الوصال! فما ظنّك بالعشيقين إذا تقابلا بعد طول انتظار، وازداد الشوق بعد ترقّب اللقاء، وحفّت بهما مُثيرات الّلذة، مع طيب المؤانسة، وشهيّ المداعبة؟!

---

(١) قال الراغب: عبقر، قيل هو موضع للجن يُنسب إليه كلّ نادر من إنسان وحيوان وثوب، ولهذا قيل في عمر: «لم أر عبقريا مثله». (المفردات في غريب القرآن ج١/ ص٣٢٠).

فلا تسل عن بهاء القَمرين إذا استترا بخمائل الأشواق في أكناف الوصال، ولا عن الغصنين إذا تعانقا على الأسرّة المطهّمة ذات الحِجال، ولا تسل عن لذّة غالية لم تخطر لأحد على بال.. تكتنفها متعة الأرواح وسعادتها، وبهجة القلوب وانشراحها، يلتقي فيها المشتاق بالمشتاق! وتهمس فيها الأرواح حال العناق، ويهيج الغرام ببرد الرّضاب ولحظ الأحداق. عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ قال: في افتضاض العذارى[1]. متلذّذون: ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ فهما مشغولان في ساعة الوصل لا يُشغلان، ومتيّمان لا يَملاّن، ولا يفترقان! بنشاط لا يزداد مع طول الجماع إلا قوّة. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله أنطأ في الجنة؟ قال ﷺ: «نعم والذي نفسي بيده دحما دحما فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكرا»[2]. قال ابن الأعرابي في قوله تعالى: ﴿عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾ [الواقعة: ٣٧]:العروبُ من النّساء:

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنّة، (ح٢٧٦/ ص١٩٤).

(٢) صحيح ابن حبان، (١٦/ ٤١٥)، وهو في السلسلة الصحيحة، (حديث ٣٣٥١). وروي عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ سُئل: أنطأ في الجنّة؟ قال: «نعم والذي نفسي بيده، دحمًا دحمًا، فاذا قام رجعت مطهرة بكرًا» أخرجه الإمام أحمد، (ج٢/ ص) والطبراني، (ج٨/ ص١٦٠) وذكر ابن القيم أن في اسناده درّاجا أبا السمح وهو ضعيف، قال أحمد: عامّة أحاديثه مناكير، (انظر: شرح قصيدة ابن القيم، ج٢/ ص٥٥٧). وقوله: «دحمًا دحمًا»: هو النكاح والوطء بدفع والتكرير للتأكيد، وهو بمنزلة قولك: لقيتهم رجلاً رجلاً، أي: دحمًا بعد دحم. (النهاية لابن الأثير،٢/ ١٠٦).



المطيعةُ لزوجها، المتحبّبة إليه. وقال أبو عبيدة: العروبُ: الحسنةُ التبعّل. قال ابن القيم رحمه الله: يريدُ حُسن مواقعتها، وملاطفتها لزوجها عند الجماع[1].

حُمرُ الخدودِ ثُغورُهنَّ لآلئٌ ... سودُ العيونِ فواترُ الأجفانِ
والبرقُ يبدو حين يبسم ثغرُها ... فيضيء سقفَ القصر بالجدرانِ
للهِ لاثمُ ذلك الثغر الذي ... في لثمه إدراكُ كلِّ أمانِ
ريّانة الأعطاف من ماءِ الشَّبا ... بِ فغُصنُها بالماءِ ذو جرَيانِ
لمَّا جرى ماءُ النعيم بغُصنها ... حَمَل الثِّمارَ كثيرةَ الألوانِ
فالوردُ والتفاحُ والرُّمانُ في ... غُصنٍ تعالى غارسُ البُستانِ
والقدّ منها كالقضيبِ الّلدنِ في ... حُسن القوام كأوسط القضبانِ
وجِماعُها فهو الشِّفاءُ لصَبِّها ... فالصَّبّ منهُ ليس بالضَّجْرانِ
وهو الشهيُّ وعُضوه لا ينثني ... جاء الحديثُ بذا بلا نُكرانِ
ولقد رأينا أنَّ شُغْلهمُ الذي ... قد جاءَ في (يَسَ) دون بيانِ
شُغُل العروس بعرسه من بعد ما ... عبثت به الأشواقُ طولَ زمانِ
بالله لا تسأله عن أشغاله ... تلك الليالي شأنُها ذو شانِ
واضرب لهم مثلاً بصبٍّ غابَ عن ... محبوبه في شاسعِ البُلدانِ
والشَّوقُ يزعجه إليه وما لهُ ... بلقائه سببٌ من الإمكانِ
وافى إليهِ بعدَ طولِ مَغِيْبِه ... عنهُ وصارَ الوصلُ ذا إمكانِ

(١) حادي الأرواح، (ج١/ ص١٥٦).

أتلومــه إن صــار ذا شُــغُلٍ بــه لا والـذي أعطـى بـلا حسـبانِ[1]

أتراه بعد هـذا يمـلّ وصالها؟! وهـل يخالطـه الضّجَر مـن لذيـذ عناقهـا وجماعها؟! وقد جمّلها الله تعالى في الباطن والظاهر من أجله؟! وهو مع ذلك وافر الحسن والقوّة.. قد أعطاه مولاه الكريم قوّة مائة رجل في المطعم والمشرب، والشهوة والجماع؛ لتطول لذّتُه وتدوم مسرّته، في محلّة نعيم ما أزكاها! ودار بهجة ولذّة ما أغلاها! يتنعّم فيها السّعداء بما يشتهون و﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[الزخرف: ٧١ - ٧٢].

تجدد اللّذات وتنوعها:

اللذّات إنّما تطول بحسب ما يحفّها من الأمن والانشراح، والطهارة والتجدّد! ولذا فلا تسل عن طول الوصال وتجدّده؛ فالسعيد ما إن يُفارق حتى يعود.. في محلّة حبور لا تفنى، ولذّة لا تنقطع؛ جزاء ما صبر في الدّنيا الفانية، وقدّم مهر معشوقته بصالح العمل في الأيام الخالية.

وقد أودع الله تعالى في لذائذ الوصال قريباً مما أودع في الفاكهة؛ إذ الثمرة لا تُقطَف من غُصنها إلا وعادت أختها مكانها، وكذلك الحوراء لا يفتضّها زوجها ثم يقوم عنها إلا عادت بكراً كما كانت، وما يجد الحبيبان من اللذّة في مبدأ العناق لا يفوقه إلا ما يجدان منها قُبيل الفراق! كالثّمرة.. تزداد لذّة طعمها في آخرها، عنها في أوّلها! وثمار الجنّة ريّانة طاهرة مطيّبة في ذاتها، وكذلك أجساد أهلها!

---

(١) شرح قصيدة ابن القيم، (ج٢/ ص٥٥٧).



وكلّ وصال بين حبيبين فعلى أرفع درجات النّقاء والطيب؛ إذ لا سوائل ولا روائح، بل عَبَقٌ زاكٍ، وحالُ أنسٍ ورغدٍ، وخلوّ من الأشغال، لا يزيد الإلفين حال الوصال إلا لذّة وحبوراً. وهكذا هي اللذّات في روضات الجنّات! لا يفرغ منها السّعيد إلا ازداد شوقاً للرجوع إليها! فلذّة الشراب تزدادُ في الجنّة مع آخر رشفة، بخلاف ما كان يحدث في الدنيا من الشعور بالعطش والجوع، ثم الرّواء والتخمة التي كانت تقطع أهلها عن لذيذ طعامهم وشرابهم.

والوصال تزداد لذّته، وتظهر بهجته، ويتعلّق القلب به، ويشتدّ الشّوق إليه في لحظاته الأخيرة، بل إنّ النشاط ليزداد وكذا القوّة حال الجماع في الجنّة، بخلاف الضعف والكسل والخمول الذي يورثه الجماع في الدّنيا، وبه تنقطع لذّات الوصال بين الزّوجين! وذلك من جملة الفوارق بين الدّارين؛ إذ لا يعرف أهل الجنّة من ذكريات الدّنيا إلا الأسماء، ومنها حقائق الوصال والجماع.

ولا عجب أن يطوف السّعيد في اليوم الواحد بما لا يُحصى من الزوجات والحور؛ فلذّات الوصال لا تنقطع في دار السّلام؛ لكثرة الحور الحسان، وقوّة الشّباب، وشدّة الشّوق، وعدم وجود الصوارف والشواغل، وتنوّع الممالك والمساكن. عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للمؤمن في الجنّة ثلاث وسبعون زوجة» فقلنا: يا رسول الله، أوله قوّة على ذلك؟ قال: «إنّه ليُعطي قوّة مائة رجل»[1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول

---

(١) قال شارح قصيدة ابن القيم، (ج٢/ ص٥٥٨): أخرجه أبو نعيم، وفي إسناده أحمد بن حفص السعدي، له مناكير.

الله، نُفضي إلى نسائنا في الجنّة؟ فقال: «إي والذي نفسي بيده، إنّ الرّجل ليُفضي في الغداة الواحدة إلى مائة عذراء»[1].

وهذا الجماع عفيف طاهر، يُقضى في كنف السِّتر؛ فلا تعلم الحوراء في مخدعها ما يدور بين الحبيبين هناك.. على الأسرّة، حتى يصل إليها!! ولكلّ كرّة لذّة، ومع كلّ لذّة متعة وبهجة لم يجدها حبيبان من قبل.. جزاءً لأهل الإيمان والصبر في الدار الخالية. عن زيد بن أرقم ﵁ أنّ رسول الله ﷺ قال في أهل الجنّة: «والذي نفسي بيده إنّ الرجل منهم ليُعطى قوّة مائة رجلٍ في الأكل والشرب والجماع والشهوة»[2].

وليس في الجنّة غُسل ولا حبَل ولا ولد، بل هو جماع لذّة واستمتاع. ومن اشتهى الولد، وبخاصّة ممن حُرمه في الدّنيا، حقّق الله تعالى له رغبته، وأقرّ عينه بالولد! وهي حال تتكرّر في الجنّة كثيراً، فمن السّعداء من يشتهى الزّرع والحرث في دار الشجر والغابات، ومنهم من يشتهى الصيد في دار اللحم والسّمك الوفير، ومنهم من يشتهى شراباً كان يحبّه في الدّنيا وبقربه أنهار الخمر والعسل، والماء النّمير، ومنهم من يشتاق لمهنة أو رياضة، أو هواية ولع بها هناك، لم تكن تشغله عن طاعة ربّه.. ولكلّ ما سأل؛ فالجنّة دار الأمنيات وبلاد المفرحات. عن أبي سعيد الخدري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنّة كان حَملُه ووضعه في ساعة واحدة، كما يشتهي»[3].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، (ج١/ ص٢١٩)، وهو في السلسة الصحيحة، (٣٦٧).

(٢) أخرجه النسائي، (ج٦/ ص٤٥٤)، والترمذي، (ج٤/ ص٦٧٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه، (ج٢/ ص١٤٤٧).



فإذا فرغ المحبّان، وانفتل العشيقان، رجَعت الحوراء بكراً كسابق عهدها، وظلّ المحبّ بقوّته وشبابه، واستقبلتهما على الفور لذّات من داخل القصور، يتواصل بها الحبور، وتزداد معها اللذة والسرور!! فها هم الولدان المخلّدون يستأذنون بالدخول، محمّلين بالفاكهة الشهيّة على الأطباق الذّهبية، وبقربها الصِّحاف الفضيّة، وعليها أصناف الطّعام اللذيذ.. والأباريق مملوءة، والكؤوس مُترعة من عين الخمر الجارية التي لا تصدّعُ منها الرؤوسُ، ولا تذهبُ بها العقول.

ولذائذ الجنّة كثيرة متنوّعة، بل يحفّ بكلّ لذّة منها لذائذ ومفرحات لا حصر لها! قال الله سبحانه واصفًا حالاً رغيدة في المُلك العظيم: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[الزخرف: ٧١ - ٧٣]. فياله من مشهد جميل تجتمع فيه لذّات القلوب والأرواح، ومشتهيات الأفئدة والحواس؛ في الطعامِ ذاتِه.. من حسن منظره، وطيب رائحته، وفي الآنية الفاخرة الجميلة التي يقدّم بها!! وفي منظر الملائكة وهم يدخلون من الأبواب.. مسلّمين.

والسّعيد، مع كلّ ذلك، متكئ كالملوك على سريره المنسوج من الذهب الخالص، بالقرب من محبوبته التي فرغ للتوّ من وصالها، وهي على حسنها وحيائها، لم تزل كالياقوت المصون، وكاللؤلؤ المكنون، وهما على حال الرّغد هذا، آمنيْن مخدوميْن.. يتنقلان في نفائسِ القصر الكبير الذي تتنوّع فيه التّحف والألوان، وتكثُر فيه الرغائب والخيرات الحسان، ويُطلّان على المناظرُ البهيجة من شرفة القصر الكبير.. حيث البساتين الخضراء، بأشجارها الوارفة، وأنهارها الجارية.. نسأل الله الكريم من فضله.

مِنْ دَاخِلِ القُصُوْرِ

مضت أيّام الجنّة الأولى، والسعيد القادم من بادية الدّنيا لا يزال يرفل في كنف النّعيم، وينهل من معين اللذات، وهو بين فرحته ودهشته.. كلّما أبصر موعود ربّه، قال بلسان التصديق، الذي ينطق به قلبه ولسانه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. وهو في كلّ يوم يزداد لربّه حبّاً، ومنه قرباً؛ فالعيش الرّغيد في القصور والخيام يجدّده في كلّ لحظة موعود الوليّ الحميد: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾!

وخصوصية النّعيم داخل القصور متعة بهيجة.. بمجالسها وخدمها، وألوانها وتصاميمها، وآنيتها وجواهرها، وبساتينها وأنهارها؛ فهي قصور ملكية، مليئة بنفائس الأثاث.. السُرُرُ فيها موضونة مرْفُوعَةٌ، والأَكْوَابُ موْضُوعَةٌ، والنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ، والزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ، والرّفارفُ خُضْرٌ حسان، والأرائك ذات حجال، وأطباق الفاكهة تقدّم على الموائد، وأصناف اللحوم.. نضيجة شهيّة لا تنقطع عن المجالس.



أيّام الجنّة وساعاتها!

حال أهل الجنّة ليس كحالهم في الدّنيا؛ إذ لا حاجة لهم إلى ليلٍ يسكنون فيه، ولا إلى نهار يكدحون فيه؛ فالجنّة دار النّور والضياء، نسيمها بارد معتدل، وضياؤها في الخارج مستمدّ من نور العرش، أقربه لأهل الدّنيا ذلك الضياء المحبّب الذي يعقب صلاة الفجر، ويسبق طلوع الشمس. عن زميل بن سماك أنّه سمع أباه يحدّث أنّه لقي عبدالله بن عباس رضي الله عنهما بالمدينة بعدما كُفّ بصرُه قال: يا ابن عباس، ما في أرض الجنّة؟ قال: مرمرة بيضاء من فضّة، كأنّها مرآة. قلت: ما نورُها؟ قال: أما رأيت الساعة التي تكون قبل طلوع الشمس؟ فذلك نورُها. إلا أنه ليس فيها شمسٌ ولا زمهرير[1].

وفي داخل القصور والخيام نور هادئ محبّب، يشعّ من قناديلَ مذهّبة فخمة.. مضاءة ومُعلّقة في السقف، بأشكال جميلة متناسقة مع التصميم العام[2]. وقد جاء التصريح بهذا النّوع من القناديل في حديث أرواح الشهداء المكرمين، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال في هذه

(١) أخرجه ابن أبي الدّنيا في صفة الجنّة، ص ١٢١.

(٢) أهل هذا العصر أحرى بمعرفة المعنى المراد من هذه القناديل المعلّقة في القصور والخيام؛ فقد انتشر هذا النوع من القناديل المعروفة (بالنّجف) في البيوت والمجالس الفخمة، على تنوّع الأشكال والتصاميم، المطعّمة بالكريستال، والمطليّة بالألوان الفضّية أو المذّهبة، سواء منها تلك المتدلّية من الأعلى أو المثبّتة على الجدران وحوافّ الأسقّف المزخرفة، على فارق في الكيفيات؛ فقناديل الجنّة لم تر عين آدميّ مثلها فخامة وجمالاً، ولم تخطر على قلب أحد من الملوك والرؤساء والمتُرفين، الذين يتباهون بقناديلهم المتواضعة في مجالسهم وفنادقهم وقصورهم وغرفهم الخاصّة!

الآيـة: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾: «أرواحهـم في جـوف طير خضـر، لهـا قناديـلُ معلّقـة بـالعرش.. تسـرح مـن الجنّة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربّهـم اطّلاعـة فقال: هل تشتهون شيئـاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي، ونحـن نسـرحُ مـن الجنّـة حيث شئنا؟! ففعل ذلك بهم ثلاث مرّات[1] فلمّا رأوا أنّهم لن يُتركوا من أن يُسألوا قالوا: يا ربّ، نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى. فلما رأى أن ليس لهم حاجةً تُركـوا»[2]. وعـن ابـن عبـاس رضي الله عنهما قال: إذا سكنَ أهلُ الجنّة الجنّة نوَّر سقفَ منازلهم نورُ عرشه[3].

وقـد جـاء في النصـوص الشـريفة الصـحيحة ذِكـر اليـوم والأسـبوع في الجنّة، ولم يرد ذكر العام أو الشهر، ولهم أحوال عجيبة يعرفون بها دخـول الليـل والنهـار، وذلـك بإرخـاء الغلمـان الحُجُـب والستائـر ورفعهـا!! عـن الوليد بن مسلم قال: سألت زهير بن محمّد عـن قولـه تعـالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾، فقال: ليس في الجنّة ليل ولا شمس ولا قمر.. هم في نور أبـداً، ولهـم مقـدارُ الليـل والنهـار. يعرفـون مقـدار الليـل بإرخـاء الحُجُـب وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النّهار برفع الحُجُب وفتح الأبواب[4].

والأعجب من ذلك أنّهم يعرفـون كـذلك مواقيـت الصـلوات الخمـس من أيّام الـدّنيا؛ فقـد جـاء رجـل إلـى النبـي ﷺ فقـال: يـا رسـول الله، هـل في

(١) أي: يسألهم في كلّ مرة أن يطلبوا ما يشتهون، وهم في عالم الأرواح.

(٢) أخرجه مسلم، (ج٣/ ص١٥٠٢).

(٣) المرجع نفسه، ص ٥١.

(٤) الدر المنثور، (ج٥/ ص٥٢٨).



الجنّة من ليل؟ قال: «وما يهيّجك على هذا؟» قال: سمعت الله تعالى يذكر: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ فقلتُ: الليل بين البُكرة والعشيّ، فقال رسول الله ﷺ: «ليس هناك ليل، إنمّا هو ضوء ونور، يرد الغدوّ على الرواح، والرواح على الغدو، تأتيهم طرف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصّلاة التي كانوا يصلّون فيها في الدّنيا، وتسلّم عليهم الملائكة»[1].

طعام أهل الجنّة:

ومن تمام النّعيم في الجنّة ضبط مواعيد اللذّات المقدّمة لأهلها، وفق دورة زمنية يحصل معها الترقّب، مع ورود المفاجآت الدائمة الحسنة بلذائذ المناسبات والأحوال والأماكن الخاصّة! فالولدان على الدّوام يمدّون أهل القصور بأباريق الشراب، وأطباق اللحم والفاكهة والحلوى، وسائر صنوف الطعام النّضيج، مما يشتهي السّعيد ويرغب، ومما لا يعلمه إلا الله تعالى.

وتمام النّظام كائن في دار السّلام، ومن ذلك ما يتعلّق بمواعيد تقديم الطعام والشراب للسعداء؛ فمع أنّه يطاف به على مدار السّاعة، إلا أنّ لأهل الجنّة وجبتين يوميـًا، في غاية الفخامة، يقارب وقت تقديمهما عند أهل الدّنيا موعد الغداء والعشاء، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[مريم:٦٢]. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يؤتون به في

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في (نوادر الأصول) من حديث أبان عن الحسن وأبي قلابة، وذِكر البُكرة والعشيّ هنا، مع كون الجنّة دار ضياء دائم لا ظلام فيه، إنما هو للتعبير عن مقدار ذلك من الزمن المعهود في الدنيا، وليس المراد به حقيقة البكور والعشيّ، والعرب تعبّر عن الدوام بالبكرة والعشي والمساء والصباح، ولا يقصدون هذين الوقتين المعلومين، (أضواء البيان، ج٣/ ص٤٧٠).

الآخرة على مقدار ما كانوا يؤتون به في الدنيا[1].

وطعام أهل الجنّة وشرابُهم يختلف عن طعام أهل الدّنيا الذي يتحلّل داخل أعضاء الجسد، ثم يخرج على هيئة فضلات ضارّة نجسة يتخلّص منها الجسم؛ ليتذكّر بنو آدم على الدّوام حقارة هذه الدّار التي لا تصلح لأن تكون مستقرّاً ولا مُقامـًا.

وما في الجنّة إلا الطّيب الخالص في ذات النعيم.. قبل أن يتمّ الاستمتاع به، وفي أثنائه، وبعد الفراغ منه. وطعام أهل الجنّة طيّب في ذاته، نيئـًا كان أم نضيجـًا، فإذا دخل في ماهية الجسد الطيّب زاده ريّـًا وطيبـًا؛ وخالطه كتخلل الماء الطاهر في عروق الأزهار النّضرة، ثم يتحوّل إلى رشح طيّب كرائحة المسك، يفيضُ من جلود أهل الجنّة!

وهكذا تسير الدورة الغذائية في محلّة الطيب الخالص التي أحكم العليم الخبير نِظامَها، فطهّرها وطيّبها، ثم قضى بألا يدخلها إلا المؤمنون الطيّبون حسّـًا ومعنى، وألا يتولّد من نعيمها إلا الطيّب الكريم الطاهر!! قال ﷺ: «إنّ أوَّل زُمْرةٍ يدخلون الجنّة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشدّ كوكبٍ دُرّيٍ في السماء إضاءة. لا يبولون ولا يتغوّطون، ولا يمتخطون ولا يتْفلون. أمشاطُهم الذَّهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوَّة، وأزواجهم الحور العين. أخلاقهم على خَلْقِ رجلٍ واحد، على صورةِ أبيهم آدم سُتّون ذراعـًا في السماء»[2]، وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال:

---

(١) الدر المنثور، (ج٥/ ص٥٢٨).

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة، (ج٤/ ص٢١٧٩).



جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقال: أتزعم أنّ أهل الجنّة يأكلون ويشربون؟ قال: «إي والذي نفسي بيده، إنّ الرّجل منهم ليُعطى قوة مائة رجلٍ في الأكل والشرب والجماع والشهوة» فقال الرجل: فإنّ الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنّة أذى! فقال له ﷺ: «حاجةُ أحدِهم رشحٌ يفيض من جلده؛ فإذا بطنه قد ضَمُر»[1].

والقوّة الذّاتية في الجنّة لها سرّ لطيف؛ إذ لها موردان اثنان، والله أعلم: مورد حاصل في أصل الخلقة الجديدة التي تناسب سعة الجنّة ونعيمها الرّغيد، ومورد متجدّد، مُكتسب من كثرة الذكر والتسبيح الذي يُلْهَمَهُ أهلُ الجنّة كما يُلهَم أحدُنا النّفَسَ.

وللذّكر والتسبيح قوّة بدنيّة حقيقية، يجدها المؤمن وهو في هذه الدار؛ وبها أوصى ﷺ ابنته فاطمة وزوجها علياً رضي الله عنهما، ففي الصحيح عن عليّ رضي الله عنه أنّ فاطمة عليها السلام شكت ما تلقى من أثر الرحى، فأتى النبي ﷺ سبيٌ فانطلقت، فلم تجده، فوجدت عائشة رضي الله عنها فأخبرتها، فلمّا جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة بمجيء فاطمة رضي الله عنها، فجاء النبي ﷺ إلينا، وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبتُ لأقوم، فقال: «على مكانكما» فقعد بيننا، حتى وجدت برد قدميه على صدري وقال: «ألا أعلمكما خيرا مما سألتماني؟ إذا أخذتما مضاجعكما تكبّران أربعاً وثلاثين، وتسبّحان ثلاثاً وثلاثين، وتحمدان ثلاثاً وثلاثين؛ فهو خير لكما من خادم»[2].

---

(١) أخرجه النسائي، (ج٦/ ص٤٥٤).

(٢) أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١٣٥٨).

والجنّة لا جوع فيها ولا ظمأ، وأهلها لا يأكلون أو يشربون لحفظ الصحّة، كما كان عليه أهل الدّنيا؛ لأنّ أجسامهم على خِلقة واحدة مُحكمة، لا سمنة فيها ولا هزال، وهم في استغناء تامّ عن الطعام والشراب، وإنما أكلُهم وشربهم على سبيل التنعّم والتلذّذ فحسب!

وهم مع ذلك مُكرمون مَخدومون، لا يتكلّفون عناء البحث عن الطعام، ولا يُقلقهم بعد ذلك عناء تجهيزه وتقديمه، كما كان حالهم في الدّنيا؛ فالطعام والشراب في الجنّة موفورٌ في كلّ مكان، والغلمان يطوفون عليهم بألذّ أنواعه، على أكمل حالات إنضاجه، إن كان مما يؤكل نضيجاً، وألذّ حالات قِطافه إن كان مما يؤكل مقطوفاً! ولهم فوق ذلك ما اشتهت أنفسهم من أطعمة الدنيا التي يليق مثلها ببلاد الأفراح.. ذاتاً وصفاتاً[١].

---

(١) مسألة تحقّق مرادات أهل الجنّة من نعيم الدنيا، والاستمتاع بمشتهياتهم التي اعتادوها في الدار الخالية، من المسائل الفريدة، وهي تظهر، والله أعلم، باستحضار منطقي لأربع صور من المرادات وتحققها:

الصورة الأولى: مرادات مقطوع بتحقّقها، من لذائذ الجنّات أو من النّعيم الذي كان في الدّنيا. وأظهر ما يُطلب من نعيم الدنيا ثلاثة: الأول: نعيمٌ أَنِس به المتّقون على وجه الاستمتاع: كالعبادات، والأذكار، والأحوال القلبية المؤنِسة، وكسائر المطعومات، والملبوسات، والمركوبات، والهوايات. والثاني: لذّات كانوا يقومون بها على وجه العادة، المتولّدة من ممارسة مهن وأعمال بعينها، كالزراعة، والحراثة، والصِّيد، ونحوه. والثالث: نعيمٌ حُرموا لذّته في الدنيا؛ لعارض في أبدانهم، أو قصورٍ في تصوراتهم وقدراتهم، كإنجاب الولد، أو سماع الأصوات، أو الحركة، أو رؤية المناظر البهيجة. فينالون من هذا الصنف فوق ما يتخيّلون.. على وجه التشابه في الأسماء فقط! ويغدق عليهم ربّهم من النعيم =



= فوق ما يطلبون، على وجه لم يُدركوا مثله.. من حيث اللذّة، والكيفية، وكُنه النّعيم!

الصورة الثانية: مرادات مقطوع بعدم تحقّقها، وكذا عدم طلبها من المتقين! وتضمّ أحوالاً في الدّنيا لا يليق مثلها بكمالات الجنّة وأحوال أهلها؛ كطلب الإذن بالظلم، أو الزّنا، أو السرقة، أو ما تأباه الفِطر السليمة، مما يتورّع عنه أهل المروءات من بني آدم. أو طلب الإذن بالشّرك، أو التلفّظ بكلمة الكفر، أو ظنّ السوء بالله، أو اليأس من روح الله، ونحوها من الأحوال والأعمال والأقوال التي في طلبها منافاة لأصل التّوحيد الذي دخلوا بسببه الجنّة. أو طلب تمنّي زوال النّعمة عن بعض المتّقين، أو العلوّ عليهم بنسب الدّنيا ونعراتها، أو الإذن بالسباب واللعان ونحوه مما ينافي أدب الجوار والتطهير بنزع الغلّ من الصدور قبيل الدخول. أو طلبٍ ما يخالف الحقائق الراسخة في الجنّة، أو الأحوال اللازمة لأهلها؛ كأن يطلب الشّوك في أشجارها، والعطَب والتغيّر في ثمارها، أو أن تستحيل الجنّة ظلاماً لساعات من اليوم، أو أن يعود شعرُ اللحية، أو بعض عوارض المرض لأهلها، أو نحو ذلك من المطالب التي تنافي كُنه النعيم المقيم. وهاتان الصورتان من المرادات لا ينازع فيهما من يُعتدّ بقوله من المسلمين.

الصورة الثالثة: مرادات لأهل الجنّة مقطوع بعدم طلب مثلها، مع القطع بتحقّقها! وهذا الصّنف يشمل النّعيمين معاً: نعيم الجنّة الذي يُكرم الله تعالى به أولياءه المتّقين ابتداء، وكلّ لذّة استمتع بها أهل الدّنيا في حِقَبِهم وقرونهم المتباعدة. ورحمة الله تعالى وكرمه تظهر في الإغداق على أهل الجنّة من هذا الصنف بعينه من المرادات.

والإكرام الحاصل في هذه الصورة يتحقق إمّا بالمبادأة، أو بالتذكير، أو بالتكثير: فأما إكرام المبادأة، فيظهر مع أولى لحظات الدخول إلى الجنّة، ويظلّ قائماً، أبد الآباد؛ حيث يتفضّل الرّب الكريم بنعيم تلو نعيم.. لا على وجه المجازاة أو =

وطعامُ أهلِ الجنّة متعدّد الأصناف، متباين النّكهات، متفاوت الأساليب في أحوال التقديم والإنضاج؛ ليناسب جميع الأذواق. وهو، مع لذّته التي لا توصف، كثيرٌ ومحمولٌ في الأطباق.. منه الساخن الذي لم توقد عليه نار، ومنه البارد والدافئ، والحلو والحامض.. بألوان ونكهاتٍ محبّبة، ومذاقات شهية لا تملّ منها النفوس.

الفاكهة واللّحم:

= الطلب، بل على وجه المبادأة والمفاجأة، ولذا يقع من السعداء في كلّ لحظة موقعاً عظيماً، لا يملكون معه إلا: الثناء والتسبيح، والتمجيد والتهليل.

وأمّا إكرام التذكير، فيظهر لكن على وجه طلب الاستمتاع بلذائذ كانت في الدّنيا خاصّة، وهو ما يجري مع آخر السّعداء دخولاً، حيث يدخلها خالي الذّهن، لا يروم من النّعيم سوى النّجاة من النّار، وضرب قبّة على باب الجنّة! فإذا أُذِن له بالطلب شرع يستحضر النّعيم تلو النّعيم. فإذا ظنّ أنّه استفرغ الغاية التي لا بعدها، أخذ ربّه يذكّره ما غاب عنه، يقول له: أذكر كذا، أذكر كذا!

وأمّا إكرام التكثير، فيظهر بجلاء في حقّ المتّقين عموماً، حيث يرضى كلّ سعيد غاية الرّضى بما أعطاه ربّه، ويظنّ أنّه أسعد النّاس بمُلكه.. كثرة وتجدداً. وهذا الصنف من الإكرام أظهر في حقّ السّابقين بالخيرات، الذين يرون من كثرة النّعيم وتجدّده وتنوّعه، ما ينغمس فيه كلّ نعيم سابق في الجنّة، وكلّ لذّة كان عليها أهل الدّنيا، وزيادة!

الصورة الرّابعة: مرادات مقطوع بعدم تحقّقها، مع ورود طلبها! وهذا ما لا يكون في الجنّة بحال؛ لورود الوعد الكريم من الرّب الرّحيم بتحقّق كلّ مطلوب لأهل الجنّة، بقوله سبحانه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾. والتقاسيم كثيرة لو أردنا الاستقصاء! (انظر مسألة: إيقاد النار في الجنّة، من مبحث تذليل الطعام وإنضاجه).



وأشرف طعام أهل الجنّة وألذّه: الفاكهة، واللحم. قال الله عز وجل في وصف مشهد من مشاهد الأفراح الكثيرة: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الواقعة: ١٨ - ٢٤].

والعجيب في هذا المشهد القرآني الفريد أنّه يحوي خمس لذّات غالية من لذّات الجنّات: لذّة الرّاحة وعدم تكلّف جلب الطعام وإحضاره، ولذّة شرب الخمر والاستمتاع بمذاقه في أقداح وأباريق وكؤوس ذات جمال وفخامة لا توصف، ولذّة تناول الفاكهة الكثيرة المقدّمة على كلّ صنف.. يتخيّرون منها ما يشتهون، ولذّة الأكل من لحم الطير الشهيّ النضيج، وأخيراً لذّة الاستمتاع بوصال الحور العين فائقات الحسن والجمال!

وكثيراً ما يقترن مشهد نعيم أهل الجنّة في القرآن بالحديث عن هذين الصنفين الكريمين من الطعام: الفاكهة واللحم، وكثيراً ما يقترن في سياقهما الحديث عن الاستمتاع بشرب الخمر النقيّ الطاهر، ومعه يكون الحديث عن الحور العين. قال الله تعالى في وصف مشهد من المشاهد الغالية لنعيم الجنّة:

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ

كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الطور: ١٧ – ٢٨].

ويا لهذا المشهد الفريد ما أجمله! في حركته وتنوّع لذائذه، وجميل حواراته، وكثرة مباهجه! فها هم السّعداء في مطلع المشهد الجميل.. متّكئون على الأسرّة، في حالة من البهجة والسرور، مقابل زوجاتهم الحسان.. يتفكّهون بأصناف اللذائذ المختلفة، والغلمان يطوفون عليهم بأطباق الفاكهة الشهيّة، والملائكة الكرام يدخلون عليهم.. مسلّمين، مهنئين بسعادة الأبد، يخاطبونهم بهذا النداء الكريم: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، والسعداء في حال أكلهم وشربهم فارهون.

ثم ينتقل مشهد الرّغد هذا إلى مجلس آخر يجمع الأهل والأحبّة.. تكاد تسمع فيه أصوات الفرح والسعادة! فها هم السعداء قد انتظم عقدهم، وهم الآن متّكئون على الأرائك، يتذاكرون رحمة ربهم الذي أنقذهم من النار، ويحمدونه على ما أولاهم من النّعيم.. والغلمان من حولهم يطوفون بأطباق الطعام النضيج، والشراب اللذيذ، وأصناف الفاكهة واللحوم.. بمذاقاتها الشهيّة.

والسعداء في مشهد الفرح هذا، مسرورون.. يتعاطون الكؤوس فيما بينهم بمحبّة.. هذا يقدّم لهذا، وذاك يناول الكأس للآخر.. يتجاذبون أطراف الحديث، ويتذكّرون الأيام الخوالي، وتدور عليهم في مجلس الأنس البهيج صنوف التّحف واللّذات، وتعبق مجامر الألوّة، وتغمرهم الهبات.



والعجيبُ أنّ صُورَ التّذليل الجميلة لأطعمة أهل الجنّة كثيراً ما تقترن بهذين الصّنفين الكريمين خاصّة[1]: الفاكهة اللذيذة المدلّاة من غصون الأشجار، ولحم الطّير المغرّد في جوّ السّماء! قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾[الإنسان: ١٤]، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنّك لتنظر إلى الطّير في الجنّة فتشتهيه، فيخرّ بين يديك مشويـًا»[2].

وهذا التّذليل البديع حال جديدة من النعيم لا مثيل لها؛ ولم يعهده أهل الدّنيا من قبل، وفيها تتفاعل الحقائق الخارجية مع الرغبات الدّاخلية؛ فما إن يخطر على قلب أحد السعداء اشتهاء لحمِ طيرٍ مُحلّق في سماء الجنّة حتى يصير بإذن الله تعالى ممثّلاً بين يديه، على طبق التّقديم الجميل، بطريقة الطّهي التي يشتهي! مصداقـًا لما وعد الله تعالى به السّابقين للخيرات في دار الدّنيا بقوله جلّ شأنه: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾[الواقعة: ١٥ - ٢١]. وقوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق:٣٥].

---

(١) سبقت الإشارة إلى هذا التذليل والتفاعل بين رغبات أهل الدنيا، وثمار الجنّة المتدلّية على الأشجار، وطيرها السّابحة في جوّ السّماء، وعيونها وأنهارها الجارية. وبيان أنّ أولى النّاس بتصديق ذلك والإيمان به أهل هذا العصر، الذين وظفوا شعاع الليزر في تحقيق رغباتهم الدّاخلية، من فتح سياراتهم وأجهزتهم المختلفة، وأبواب منازلهم وتكييفها بدون سؤال أو جهد!

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في (صفة الجنة)، والبزّار، والبيهقي في البعث، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، (الدّر المنثور، ج٨/ ص١٠).

فها هو وعدُ الصّدق اليومَ.. ماثلاً أمام أعينهم، وها هي السّررُ والأكواب، والطعامُ والولدان والشراب.. حقَّ اليقين.. لا ترتابُ فيه قلوبهم، ولا تشكّ عقولهم، وتتلذّذ به كلُّ حاسّة من حواسّهم، فلا يزيدون على قولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾[الزمر: ٧٤]. ولمكانة الفاكهة واللحم من بين سائر طعام أهل الجنّة فإنّ لهما مزيد خصوصية في مشاهد الأطباق الشهيّة المقدّمة لأهل السّعادة.

أولاً - الفاكهة:

الفاكهة مما يُقدّم لأهل الجنّة بانتظام، وهي كثيرة، متنوّعة الأشكال والأحجام والألوان؛ لكثرة الأشجار في دار السّلام؛ لدرجة أنّ الثّمار من كثرتها وريّها تتدلّى على غُرفِ السّعداء وشُرُفاتِهم. ولفضل الفاكهة على سائر طعام أهل الجنّة خصّها الله تعالى بوصف «الرّزق المعلوم» في قوله سبحانه: «إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[الصافات: ٤٠ - ٤٣]، فالفاكهة في هذا الوصف الكريم: رزق عظيم القدر، معروفٌ لا يُجهل أمره، ولا تخفى لذّته على أحدٍ من أهل الجنّة!

والتعبير بالجمع ﴿فَوَٰكِهُ﴾ يشمل جميع الأنواع التي تتفكّه بها النّفس للذّتها.. في لونها وطعمها. والسّعداء في دار النّعيم، بالإضافة إلى ما ينالهم من الرّب الرّحيم في: طعامهم وشرابهم، وتُحفهم وسائر مُتعهم التي لم تخطر على قلوبهم.. مُكرمون معظّمون، ومبجّلون موقّرون.

وأمّا التعبير بلفظ ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ فيشمل كلّ أنواع الكرامة التي تأتيهم من كلّ جهة! حيث يُكرم بعضُهم بعضاً حال اللقاء، وتُكرمهم الغلمان في كلّ آن، وتُكرمهم ملائكة الرّحمن الذين يدخلون عليهم من كل باب..



يهنّئونهم ببلوغ أسمى الأمانيّ وأهنأ الثواب، ويُكرمهم فوق ذلك أكرم الأكرمين الذي شملهم برحمته حتى دخلوا الجنّة، وأغدق عليهم فيها أنواع الكرامات، وأسعدهم بما لا تبلغه عقولهم، ولم يخطر على قلوبهم من العطايا والهبات.

كثرة ثمار الجنّة، وتذليل قطوفها:

وفاكهة الجنّة كثيرة، وهي على كثرتها، من حيثُ العموم، متعدّدة الأصناف والألوان، والطعوم والأحجام، قال الله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[محمد: ١٥]. أي: من جميع أنواع الثمرات التي تكون على الأشجار.. كالتمر والعنب، والموز والتفاح، والبرتقال والرمان والتين، وأنواع أخرى كثيرة لا يعلمها إلا هو سبحانه.

وثمار الجنّة التي يتفكّه بها السّعداء على صنفين: رطبة ويابسة، بكلّ طعومهما.. الحلوة والحامضة. قال الله عز وجل: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾[الرحمن: ٥٢]. وهي على كثرتها وتنوّعها، ولذّتها وسهولة تناولها: متاحة للجميع، ولا تنقطع في وقت من الأوقات، قال الله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾[الواقع: ٣٢ - ٣٣] أي دائمة كثيرة، لا ممنوعة بثمن، ولا مقطوعة بزمن، بخلاف فاكهة الدّنيا الصيفية التي تنقطع وقت الشتاء، أو الشتوية التي تنقطع في فصل الصيف!

وجميع أنواع الفاكهة حاضرة في الجنّة، موجودة لمبتغيها على الدوام.. تتدلّى من الأشجار في حدائق القصور، وتنتشر في كل مكان.. داخل الغابات وعلى حواف الأنهار وفي الحقول الكثيرة الممتدة في السهول، وجناها قريب ميسور، بل إنّ أغصانها لتتهادى نزولاً إلى أهل الجنّة بمجرّد الرّغائب، على اختلاف أحوالهم.. قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم؛ جزاء ما كانوا في الدّنيا ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾.

وطعام أهل الجنّة لا يشترك مع طعام أهل الدّنيا إلا في الأسماء فقط، وإلا فالمذاق يختلف، وكذلك الألوان والرّائحة، والأحجام والأشكال! ولا مُقارنة أصلاً بين ثمار الدّنيا.. الصغيرة القليلة التي يدبّ إليها العطَب والفساد، وثمارِ الجنّة الكثيرة الكبيرة، المترُعة بالرّيّ واللذة؛ فثمار النخيل في الجنّة أمثال القِلال الضّخمة، وهي أشدّ بياضًا من اللّبن، وأحلى من العسل، وألين من الزُّبد، وليس لها نوى، كتمر الدّنيا! وعناقيدُ العنب المدلّاة من أشجار الجنّة ناضجة لذيذة مكدّسة، لا كعناقيد الدّنيا، قليلة العدد، حامضة الطّعم!

ويكفي لقطع الطمع في المقارنة إخبارُ رسول الله ﷺ عن عنقود من عناقيد الجنّة، وأنّه لو أنزل على أهل الأرض لكفاهم أجمعين! لكثرة ما نُمّي في دار النّعيم، وأترع بالرّي من أنهارها!! عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال: بينا نحن مع رسول الله ﷺ في صلاة الظهر، والنّاس في الصفوف، خلف رسول الله ﷺ فرأينا رسول الله ﷺ يتناول شيئًا، فجعل يتناوله، فتأخّر وتأخّر النّاس، ثم تأخّر الثانية فتأخّر النّاس، فقلتُ: يا رسول الله، رأيناك صنعتَ اليوم شيئًا ما كُنت تصنعُه في الصّلاة، فقال: «إنّه عُرِضَت عليّ الجنّة بما فيها من الزّهرة والنُّضرة، فتناولت قِطْفًا من عنبِها، ولو أخذُته لأكل منه من بين السماء والأرض، لا يُنقصونه[1]، فحيل بيني وبينه»[2].

---

(١) أي لا يُنقِصون من مجموعه لكثرة الكروم في الجنّة، ولا ينقصون من العنقود ذاته بكثرة القطف منه؛ لأنّ ثمار الجنّة لا تُقطف منها ثمرةٌ إلا عادت أختها مكانها.. أكثر ريًّا، وألذّ طعمًا!

(٢) أخرجه الحاكم، (ج٤/ ص٦٤٧).



ومن طعام أهل الجنّة: العجوة، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا من أَصْحَابِ النبي ﷺ قالوا: الْكَمْأَةُ جُدَرِيُّ الأرض، فقال النبي ﷺ: «الْكَمْأَةُ من الْمَنِّ، وَمَاؤُهَا شِفَاءٌ لِلْعَيْنِ، وَالْعَجْوَةُ من الْجَنَّةِ، وَهِيَ شِفَاءٌ من السُّمِّ»[(١)].

وفاكهة الجنّة، على كثرتها، مكدّسة متجدّدة لا تفنى، قال الله تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾[ص: ٥١]. والعنقود الواحد من عناقيد الجنّة يظلّ يطير فوقه الغراب الأبقع من طيور الدنيا شهراً كاملاً لا يبلُغ منتهاه، الحبّة الواحدة منه كالدّلو المعلّق الضخم، المليء بالماء، وهي تشبع العشيرة بأكملها[(٢)]. وهكذا الشأن في سائر ثمار الجنّة؛ فالنّبق المتدلّي من سِدرة المنتهى كالقِلال في ضخامته، والموزُ في أشجاره منضودٌ متراكم.. بعضُه فوق بعض[(٣)].

---

(١) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٤٠١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد، (ج٤/ ص١٨٣).

(٣) وأهل هذا العصر أولى بتصديق ذلك كلّه، والجزم به، والإيمان بأنّ ذلك كائن حقيقة لا مجازاً، كما أخبر عنه رسول الله ﷺ فقد ظهر لهم ما يقرّب هذا المعنى للأذهان، وبخاصة بعد طفرة الجينات الوراثية التي أصبحنا نشاهد بسببها أحجاماً جديدة للثمار تختلف عن تلك التي عهدها أجدادُنا.

بل إنّ من أشجار الدنيا المعمّرة الباسقة ما يفترش الأرض عرضاً، ويتطاول في جوّ السّماء، ويظلّ أهل الدنيا أنفسهم يعجبون منها، مع أنّها أشجار دنيوية ضعيفة، يضربها الجفاف فتتساقط غصونها وأوراقها، ولا وجه بحال لمقارنتها بأشجار الجنّة الباسقة التي يميل اخضرارها للسواد من شدّة الرّي، وتلتفّ =



وأهل الجنّة مخدومون، يجري عليهم رزقهم على الدّوام، قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾[الرعد: ٣٥].

والفاكهة لا تنقطع عنهم ولا تغيب عن موائدهم.. سواء بطواف الغلمان، أو بتذليل الأغصان! ومنظر هذا التذليل، وتدلّى الثمار النضيجة قريباً من الأرائك، متعة بهيجة قبل تناول الفاكهة ذاتها. قال الله عز وجل: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾[الإنسان: ١٤]. فجنا هذه الأشجار دانٍ في متناول اليد، يقطفُ ساكن الجنّة الثّمرة التي يختارها بيده، ويفصلها من بين الأوراق الكثيفة كيف شاء.. إن شاء قائماً، وإن شاء قاعداً أو متّكئاً! بل إنّ الأغصان لتتفاعل مع السّعيد بطريقة محبّبة فريدة؛ فإذا قام ارتفعت بقدْرِه، وإن قعد تدلّت حتى ينالها، وإن اضطجع تهادَت برفق حتى تصل إليها يده، وإن شاء اقتربت حتى تصل إلى فمه، وهذا كلّه من تذليلها. عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله سبحانه: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا﴾ قال: قريبة، ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ قال: إنّ أهل الجنّة يأكلون من ثمار الجنّة.. قياماً وقعوداً ومضطجعين، وعلى أيّ حال شاءوا، فيتناولون منها كيف شاءوا[1].

= أوراقها حتى ما يقدر الطير على الخروج منها لشدّة كثافة أوراقها وتشابُكِ أغصانها، ويظلّ غصنها يتطاول ظلّه حتى ما يقدر الفارس الجواد من أهل الدنيا أن يقطعه ولو حثّ فرسه للسير في هذا الظلّ أربعين سنة!! ولا غرابة البتّة في حجم ثمار الجنة وأطيارها، وأنهارها وأشجارها حين نستحضر نسبتها مع قامة السعيد من أهل الجنّة ووزنه وعرضه، وقوّته.

(١) أخرجه سعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وابن جرير والحاكم وصححه (انظر: الدر المنثور ج٨/ ص٣٧٤).



ولا يفوق لذّة التذليل هذه إلا لذّة القطاف، ثم لا يفوق لذّة القِطاف إلا لذّة الطّعم وحلاوته عند الأكل. والثّمار المقطوفة المقدّمة على الأطباق لا يتغيّر طعمها، ولا تتبدّل حرارتها، ولا يزيدها طول المُكث إلا طيباً ولذّة وحلاوة!

ونعيم الجنّات يخاطب جميع الحواس، والثمرة الواحدة من فاكهة الجنّة تجمع من اللذات ما يفوق الوصف! ما بين لذّة الطّعم وجمال المنظر، وطيب الرائحة؛ فأوراقها التي تحيط بها خضراء شديدة الرّي، والقشرة التي تغلّف الثمرة ذات ألوان جميلة، واللبّ الداخلي يجمع بين الطراوة والنعومة، وبين الحلاوة والحموضة، بحسب نوع الشجرة، بل بحسب الثمرة ذاتها؛ فلكل ثمرة طعمٌ لذيذ يختلف عن طعم أختها في الشجرة نفسها! وفي آخر رشفة من الشّراب وقضمة من الفاكهة، ومضغة من الطّعام لذّة أخرى فريدة لم يذق السّعيد مثلها من قبل!

وهكذا الحال في كأس الشراب، وفي برد الرضاب، وفي وصال الأحباب، قال الله تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[المطففين: ٢٥ - ٢٨]. ومع تجدد الطّعم تتجدّد اللذة والبهجة على الدوام.. في دار خلد لا فناء معها، ومحلّة بهجة وسرور لا مثيل لها.

فإذا فرغ السّعيد من طعامه جاءته لذّة أخرى هي لذّة التخلّص منه.. برشَحٍ يفيض من جَسده، وطيبٍ يعبق بأزكى الرّوائح وأنداها. وهكذا هو نعيم الجنّة.. تخالطه اللذة والبهجة في أوّله، ثم تصحبه حال التمتع به، وتعلق لذّته في نهايته بكل حاسّة تعاملت معه، ثم تتجدّد اللذات بتجدّد صور النّعيم.. أبد الآباد.

وثمار الجنّة لا تفنى؛ فكلّما نُزعت ثمرة من موضعها عادت أخرى مكانها، بخلاف موسم الحصاد السنويّ الجهيد عند أهل الدّنيا، وما يعتري ثماره من آفات الحشرات الضارّة، أو تغيّر درجات الحرارة التي يفسد بها المحصول أو أكثره، ويتغيّر لونه وطعمه ورائحته. قال الله جلّ شأنه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[البقرة: ٢٥].

ويا لهذا المشهد الجميل كم يحوي من اللذائذ! فهو ينقلك مباشرة إلى جنّات القصر الكبير بأشجاره العالية الوارفة التي لا تحصى، ويوقفك مباشرة أمام الأنهار الجارية، وهي تتخلّلها، وتتدفّق حتى تجري من تحت الغرف.. في مشهد بديع لا مثيل له! وفي لفتة جميلة يُطوى لك المشهد فجأة بحركة الغلمان وهم في طريقهم لنُزُل السّعيد داخل القصر.. محمّلين بالأطباق الممتلئة من شتى صنوف الفاكهة التي قطفوها للتوّ! ثم يأخذ بيدك إلى الدّاخل معهم.. حيث الرّفاه والرّغد والملك العظيم!

وها أنت ترى السّعيد على الأريكة الجميلة الفخمة.. يتناول الفاكهة اللذيذة بصحبة ضيفه المكرمين، وتكاد تسمع ضحكاتهم وطرفاً من أحاديثهم! وهم على حال البهجة والسرور.. كلّما قدّم لهم الغلمان ثِماراً جديدة من الصّنف ذاته على طبق التقديم الفاخر، وجدوها متشابهة مع سابقتها في الظّاهر، وظنّوا أنّها كذلك في الطعم، فيقولون: قد تناولنا هذا الصّنف من قبل! فيقول لهم الغلمان: إنّ لكم عند ربّكم مزيداً من كلّ لذّة، وإن تشابه الصنفان في الظاهر. فإذا ذاقوها وجدوا لها طعماً جديداً لم يذوقوا مثله من قبل؛ فيزدادون ثناء على ربّهم، ويتذاكرون آلاءه سبحانه.



بل إنّ السّعيد ليجد تنوّع اللذّة في الثّمرة الواحدة التي يقطفها الغلمان من الغصن ذاته! فكلّما عادت أختها مكانها، ثم ذاقها وجد لها لذّة وطعمًا جديدين، بخلاف ما كان لسابقتها! فسبحان الذي سلب القلوب بجميل فضله، وأعجز العقول ببديع صنعه!

ثانياً - اللحم:

فإذا رُفِعت أطباق الفاكهة اللّذيذة من بين أيدي السعداء أقبل الغلمان بأطباق اللّحم الشهي، وهو أرفع طعام أهل الجنّة بعد الفاكهة. وللسعداء في بلاد الأفراح من اللحم ما يشاءون، على أيّ طريقة من طرق الطّهي يختارون، قال الله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾[الطور: ٢٢].

وهذا اللفظ المعجز: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم﴾ دالّ على الجِدَة والكثرة معًا؛ فالفاكهة تقطف للتوّ ثم تُحمل إليهم طازجة شهيّة، واللحم كذلك؛ إذ ليس في الجنّة برّادات ولا ثلّاجات للتخزين، ولا يُقدّم لهم الطّعام مدّخراً لسنة أو سنتين، ولا يُسخّن لهم البارد أو البائت من الطعام، كما كانت عليه أطعمة الدّنيا، بل كلّ شيء في الجنّة جديد.. يُخلق للتوّ أو يُقطف ثم يقدّم للسعداء.. مدداً إثر مدد، بكثرة لا حدّ لها: في الأصناف، والأحجام، والمذاقات، والألوان. وقوله سبحانه: ﴿يَشْتَهُونَ﴾ دالّ على تعدّد أصناف اللّحم في ذاته، وتعدّد طرق تحضيره وطهية كما يشتهي أهل الجنّة.

لحم الطّير المذلّل[(١)]:

ومن أصناف اللّحم التي جاء تخصيصها في مشاهد النّعيم دون غيرها.. لحم الطّير، بأنواعه وأشكاله وأحجامه المتعدّدة. وكثيراً ما يرد الحديث عن هذا الصنف من اللحم في سياق مشاهد طواف الولدان بالشراب، ولذّة القرب من الزوجات الجميلات، والحال الرّغيدة التي يكون عليها أهل الجنّة، والعيشة السّعيدة التي ينعمون بها، قال الله سبحانه في وصف المتقين: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[الواقعة: ١٥ - ٢٤].

---

(١) عهدُ بني آدم مع الطير في الدّنيا أنّها صعبةُ المنال، سريعةُ الطيران، وفي اللّحم المشويّ والحنيذ مقدّماته الكثيرة.. من إذكاء النّار تحت قِطع الفحم، والصّبر عليها حتى تستحيل جمراً، وتقطيع اللحم وتغسيله ثم وضعه بكلّ ما يعلَق به من خليط الدّم والماء، والمقبّلات والبهارات، على شبك معدني أو الرّضف، وهو الحجر المحمّى بالنّار. وتعاهدُ الجمر المتّقد لئلا يشتدّ فجأة تحت اللّحم فيستحيل ناراً محرقة، أو يخبو فيصبح رماداً لا نفع فيه! فإذا ظلّ الجمر متّقداً، وحالت عليه برهة مناسبة من الزّمن بدأت آثار النّضج، وفاحت رائحة الشّواء، مخلوطة بطيب البُهار، وامتزج القَوَام، وتحوّلت مادّة اللّحم الطريّة اللّزجة بهذا الخليط غير المتجانس، إلى مادّة أخرى شهيّة متماسكة، تختلف عن مكوّناتها الأولى في اللون والطعم والرائحة!!

فما أجهل ابن آدم حين يؤثر الرّخيص الفاني الذي لا يستقيم إلا بعد السّهر والتّعب، على الثمين الباقي الذي يناله في الجنّة كما يشاء، على كنف الرّاحة والرّغد!!



وطيرُ الجنّة المُعدُّ لأهلها تسرح محلّقة في فضاء الجنّة كما تشاء، وهي تختلف عن طير الدّنيا، في الحجم والطّعم. وقد وصف النبي ﷺ نوعًا من طير الجنّة.. طويلة الأعناق، توجد غالبًا بالقُرب من نهر الكوثر؛ فعن أنس بن مالك ﷺ قال: سُئِل رسول الله ﷺ: ما الكوثر؟ قال: «ذَاكَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ الله، يَعْنِي في الْجَنَّةِ، أَشَدُّ بَيَاضًا من اللَّبَنِ، وَأَحْلَى من الْعَسَلِ. فيها طَيْرٌ أَعْنَاقُهَا كَأَعْنَاقِ الْجُزُرِ». وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ طيرَ الجنّة كأمثال البُخت.. ترعى في شجر الجنّة» فقال أبو بكر: يا رسول الله، إنّ هذه لطيرٌ ناعمة، فقال ﷺ: «أَكْلَتُها أنعمُ منها، قالها ثلاثًا، وإنّي لأرجو أن تكون ممن يأكل منها يا أبا بكر»[1]. والبُختُ إبلٌ خُراسانية ضخمة السّنام كان يُضرب بها المثل في ضخامتها. ومن هذا الوصف يظهر لنا التناسب الجميل بين طول أهل الجنّة وقوّة أجسادهم، وحجم النّعيم الذي يُقدّم لهم[2].

ومن طيورِ الجنّة التي جاء ذكرها (طيرُ السّلوى)، وهو يشبه طائر السُّمّاني في الشكل، ويختلف عنه في الحجم والطّعم. وهذا الصنف من الطير هو الذي أنزله الله تعالى على نبيّه موسى ﷺ وقومه في أرض التيه بسيناء، قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، من حديث أبي سعيد الخدري، (ج٣/ ص٢٢١).

(٢) سبقت الإشارة إلى هذا التناسب بين نعيم الجنّة وأجسام أهلها التي يصوّرهم الله تعالى بها ساعة دخولهم.

ولفظ التنزيل لهذا النّوع من اللحم، مقترناً بالمنّ، وهو نوع من الحلوى، يفيد بأنّه من طعام الجنّة. وعلى افتراض أنّ إنزاله كان من سماء الدّنيا التي هم فيها، لا من الجنّة، كما أُنزلت المائدة لعيسى عليه السّلام ومن معه، فإنّ اختيار الله تعالى لهذا الصّنف من الطّير دليلُ مكانته ولذّته، وأهل الجنّة أحقّ به في دار الكرامة، التي أخفي لهم فيها من النّعيم ما لم يخطر على قلوبهم، قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[السجدة: ١٧].

زيادة كبد الحوت:

ومن أرفع أصناف اللحم التي خُصّيت بالذّكر في بلاد الأفراح.. زيادةُ كبد الحوت، وهو أوّل تُحفةٍ يُتحِفُ الله تعالى بها السّعداء ساعة دخولهم من أبواب الجنّة، قال ﷺ: «أوّلُ طعامٍ يأكله أهلُ الجنّة زيادة كبد الحوت»[1]. والزّيادة الموعود بها هنا هي القطعة اللذيذة المنفردة المعلّقة في الكبد.

فإذا كانت قطعة زائدة من كبد هذا الحوت تكفي أهلَ الجنّة كلّهم إذا دخلوها، فما حجمُها مقارنة بالكبد الذي أخذت منه؟! ثمّ ما حجم الكبدِ مقارنة بالحوت نفسَه؟! وما حجم الحوت بعد ذلك بالنسبة لهذه الجنّة العالية التي يوغل السّعداء في كنفها، ويسرحون في فضائها الواسع الجميل الذي لا حدّ له؟!

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١٤٣٢).



الحلوى:

ومما ورد ذِكرُه من طعام أهل الجنّة.. الحلوى، وهو على أصنافٍ وأشكال لا حصر لها. ومن أصنافه التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ﴿ٱلْمَنَّ﴾ الذي أنزله الله تعالى على نبي الله موسى وقومِه، قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾[الأعراف: ١٦٠]، على افتراضِ أنّ إنزاله كان من الجنّة، لا من سماء الدّنيا التي هم فيها! ولهم من لذيذ الحلوى فوق ما يتخيلون، وأطيب مما كانوا يعرفون.

والحلوى في الجنّة لا حصر لأنواعها، ولا مجال لمقارنتها بما كان يعرفه أهل الدّنيا!! وهل كانوا يعرفون شيئًا على الحقيقة، حتى نقارن ما عندهم من القليل الفاني بما عند الله تعالى من الكثير الباقي؟![1].

وفي الجنّة أصناف أخرى من اللّحوم، وأنواع كثيرة من الفاكهة والحلوى، مما كان معروفًا باسمه في الدّنيا، مع اختلافه عنها في اللذة والطّعم، وأنواع أخرى لم ترها الأعين، ولم تذق مثلها الألسُن، ولم تخطر على القلوب!!

---

(١) لا مقارنة أبداً بين لذائذ الحلوى الكثيرة في الجنّة بما كان بنو آدم يتناولونه على أطباقهم البدائية، في دنياهم الهزيلة.. ويتعاهدون طهيه وتحضيره من أخلاط البيض والدقيق، ونِسب السّكّر والزّبد ونحوها، مما لو زاد عن قدره أو نقص لاختلّ مذاقُه، وفسدت لذّاته، ولو استقام طعمه لم يحسُن الإكثارُ منه؛ اتّقاء ما يُصيبُهم بسبب دهونه وسعراته الحرارية المرتفعة من أمراض يترهّلُ بها البدن، وترتفع بها نسبة السكّر في الدّم، وتُغلق بسببها شرايينُ القلب؟! فأيّ لذّة تلك التي لا يقدر صاحبُها على تناولها إلا على أطباق الحذر، وفق نسب محدّدة وكمّيات ومقادير.. لو زادت لاستحالت عن اللذة إلى السّقم، ومن السلامة إلى الخطر؟!!

تذليل الطّعام وإنضاجه[1]:

إذا أكل أهل الجنّة وشربوا كان تصريف الطّعام من أجسادهم على هيئة طيّبة جميلة تناسب أرض الطهر والنّقاء، حيث يحصل لهم رشَح لطيف أطيب من المسك، يخرج من أبدانهم فيعطّر ثيابهم[2]، فهم بين طيب ظاهر يتحلّل في معدن الطيب الباطن؛ ليخرج بعد المزج كأطيب عود وأزكاه!! عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنّ أهل الجنّة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يمتخطون» قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «جُشاء ورشَحٌ كرشَحِ المسك، يُلهمون

(١) لكلّ دار من صور النعيم ما يُناسب قدرها، ولذا لم يعهد أهل الدّنيا، في دار التّعب والكدح، من أساليب إنضاج طعامهم أو تبريده إلا تلك الأساليب البدائية التي تناسب ضِعة الدار التي يقطنونها؛ من مطاردة الصيد في البرّ والبحر، ونصب الكمائن له، وذبحه وتقطيعه وإيقاد النّار عليه، حتى يكون صالحاً للأكل! وحتى بعد ثورتهم الصناعية، وظهورِ مخترعاتهم الذّكية، لم يخرجوا عن مادّة النّار والحرارة.. تارة يرفعونها لتسخين طعامهم أو غليه، وتارة يخفضونها لتبريده أو تجميده!! وهي أساليب بدائية إذا ما قُورِنت بأسباب النّعيمُ المخبوء لأهل السعادة، في دار السلام التي يأتيهم فيها رزقهم في كلّ وقت، على كلّ حال، من كلّ صنف يرغبون، وبأي طريقة إنضاج يشتهون. وما في الجنّة كمائنُ ولا طرائد، ولا ذبح ولا تنظيف، ولا يوقد في الجنّة نار، ولا يُنضج طعامُها بالتسخين والحرارة والدخان الذي عهده أهل الدّنيا. بل لهم فيها أسباب فوق ما يتصور العقل القاصر، وما في بلاد الأشواق إلا الفرحة والمسرّة، ومجالسُ المُلوك على الأسرّة، والتفنّن في طلب الرّغائب والمشتهيات.. على أطباق الذّهب والفضة!

(٢) قال بن الجوزي رحمه الله: لما كانت أغذية أهل الجنة في غاية اللطافة والاعتدال: لم يكن فيها أذى، ولا فَضلة تُستقذر، بل يتولّد عن تلك الأغذية أطيبُ ريح وأحسنه. (فتح الباري، ج٦/ ص٣٢٤).



التسبيح والتحميد، كما تُلهمون النَّفَس»[(١)]. وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ من اليهود فقال: يا أبا القاسم، ألست تزعم أنّ أهل الجنة يأكلون ويشربون فيها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده إنّ أحدهم ليُعطى قوّة مئة رجل.. في المطعم والمشرب والشهوة والجماع» فقال له اليهودي: فإنّ الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حاجتُهم عرقٌ يَفيضُ من جلودهم، مثلُ المسك، فإذا البطنُ قد ضمُر»[(٢)].

وأهلُ الجنّة، فوقَ هذا النّعيم الذي يخالط قلوبهم، وتناله أيديهم، وتلذّ به سائر حواسّهم، مخدومون في طعامهم وشرابهم.. يُقدِّم لهمُ الولدانُ اللّحمَ اللّذيذ على الأطباق، ويُنعّمون بصورةٍ أخرى من صور التذليل، تظهر في طريقة إعداد الطعام، بأشهى طُرُق الإنضاج التي يرغبون، وهي مُتعة فريدة من المُتَعِ الكثيرة التي لا يمكن تخيّلها.

وقد ورد أنّ من أنواع الطهي: الشواء، والقلي، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنك لتنظر إلى الطير فتشتهيه، فيخرّ بين يديك مشويـًا؛ فتأكل منه»[(٣)]. وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إنّ الرّجلَ من أهلِ الجنّة ليشتهي الطّيرَ من طيورِ الجنّة، فيقعُ في يده متفلّقـًا، وفي رواية: مقليّـًا، نضيجـًا[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص٢١٨٠).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، (ج١٦/ ص٤٤٣)، وأحمد في مسنده، (ج٤/ ص٣٦٧).

(٣) أخرجه سعيد بن منصور في سننه، (ج٥/ ص٤٣٦).

(٤) أورده المنذري، (انظر: صحيح الترغيب والترهيب، ح٣٧٤١).

ولا يحتاج أهل الجنّة النّار التي عهدوها لطهي طعامهم[1]، ولا الثلج

---

(١) من فرائد المسائل المهمّة، المتعلّقة بالمرادات في دار النعيم: طلب النوم في الجنّة، أو الرّغبة بإيقاد النّار، وبخاصّة ممن يستحضر في إيقادها مشاعرَ الأُنسِ، والأمنِ والصّفاء؛ كأهل البادية في ليالي الصحراء، أو طلب جنس خمر الدّنيا التي تذهب بالعقول، أو فعل المعاصي التي كان يمارسها الغافلون في الدنيا. فهل يمكن الجمع بين (النقيضين): بقاء الجنّة أرضَ نعيم ظاهر، لا تتبدّل ذاتها، ولا صفاتها برغبة آحاد أهل الجنّة.. مع ما وعد سبحانه بتحقيق مرادات أهلها، وأنّ لهم ما يشاءون فيها؟

والجواب مُجمل ومفصّل: يتحقّق المُجمل بأمرين، الأول: اليقين بكمال أدبِ أهل الجنّة مع ربّهم، واستحضار لازم السّكنى في دار كرامته.. وهو أدب جمّ يظهر في أقوالهم، وأفعالهم، ومرادات قلوبهم. والثاني: العلم بأنّ مطالب أهل الجنّة كريمةٌ في ذاتها، تليق بدار السعادة التي حطّوا فيها رحالهم، ولا يُتوقّع فيها مخالفةٌ لنمط الأدب السائد.

وأمّا من حيث التفصيل: فإنّ دعوى اجتماع النّقيضين مستحيل في الجنّة. وطلب ما كان مقطوعاً بعدم وجود مثله، كنوم أهل الدنيا، ونارهم، وخمرهم، مع ما ورد من الوعد بتحقيق مرادات السعداء، يمكن الرّد عليها من وجوه:

الأول: أن يُقال بعدم القطع أصلاً بورود هذه المطالب أو عدمها، وعدم تكلّف البحث عن تحقّقها من عدمه، ما لم يرد في ذلك نصّ؛ لأنّ عدم العلم بالشيء، لا يعني العلم بعدمه، كما يقول الأصوليون!

الوجه الثاني: أن يُقال: إنّ الأحوال والهيئات التي يُقطع بعدم تحقّقها في الجنّة، لا يليق طلبُ مثلها من السعداء، بل لا يُتصوّر ورودها أصلاً على قلوبهم بحالٍ من الأحوال. وهذا من لوازم تطييب المتّقين ظاهراً وباطناً قبل دخول الجنّة، ويظهرُ أثره في سلوكهم، وفي كمالات الرّضى والأدب الذي ينتظم تصوّراتهم وإراداتهم ورغباتهم. =



= الوجه الثالث: أن يُستحضر الغرضُ من تحقيق مراداتِ السّعداء ومشتهياتهم، ألا وهو: الزيادة في كمال الاستمتاع بصنوف النعيم. ونعيم الجنّة على ثلاثة أنواع: نعيم طاهر مطيّب في ذاته، وهو الذي اقترن في الأذهان بدار النّعيم ابتداء وانتهاء. ونعيم آخر مطيّب في ذاته، وهو الذي اقترن في الأذهان بصنوف كريمة من النعيم في دار الدنيا، كالفاكهة والعسل ونحوهما. ونوع مشترك بينهما، فهو مطيّب طاهر من لذّات الجنّة، قد نُزعت منه آفاته التي اقترنت به في الدنيا، كالخمر ونحوه.

وعلى هذا فتحصيل اللذّات الدنيوية في الجنّة إنّما يكون بعد التطييب والتهذيب، ونزع مركبات النّقص في ذاتها وصفاتها! فمن اشتهى الولد جاءه، لكن بدون حَبَل ولا نفاس، ولا قيء، ولا سوائل، ولا دماء، ولا نجاسات! ومن اشتهى الزّرع جاءه بمجرّد بذر الحبّ؛ فإذا هو نبات يشقّ الأرض، وتتفرّع منه الأوراق فالثمار أو السنابل التي تجوز الواحدة منها اثني عشر ذراعـًا! ثم لا يبرح السعيد مكانه حتى يكون أمامه ركامٌ أمثال الجِبال!!

الوجه الرّابع: أن يُقال: إنّ كلّ مطلوب لا يُتصوّر تحقّق الاستمتاع بصفاته في الجنّة إلا على الكيفية التي كان عليها في الدنيا هو مما يقطع بتنزيه الجنّة عنه، ولا يُتصوّر وروده بحال على قلوب أهلها وألسنتهم. فكما أنّ العقول لا تقبل تشابه الذوات في الجنّة إلا بالأسماء فقط، فكذلك الصفات. وهذا كطلب إيقاد نار الدنيا، التي من صفاتها الإحراق، وكالنّوم الذي يغشى أهل الدّنيا، وبه تغيب عقولهم وحواسّهم عن إدراك ما يحيط بها، أو كخمر الدّنيا الذي يغيب به العقل، أو أغلبه، عن إدراك حقائق الأشياء. وما في هذه الحقائق الدنيوية: للنّار المحرقة، أو النوم المميت، أو الخمر المُسكِر، من لذّة يمكن الاستمتاع بها، بل هي على العكس قاطعة للاستمتاع بالنّعيم المقيم؛ لأنّ أكمل صور الاستمتاع ما اجتمع في استشعار لذّته: القلبُ والعقلُ والحواسُ جميعـًا! وما في اللهب الحارق من متعة، إلا في دار الخوف والتعب، التي يجهد أهلها في دفع الصائل، أو =



= إنضاج الزاد. وما في الخمر المسكِر، المغيّب للعقل من مُتعة، إلا في دار الأحزان، والهموم، والمصائب، التي يطلب الغافل الفرار منها إلى واقع كذوب، يخرج فيه من همومه، ليعيش في عالم مثاليّ حالم، ثمّ يعود بعده إلى التعاسة والشقاء، والمعيشة الضنك. وما في النّوم المغيّب عن الواقع من مُتعة، إلا في دار التّعب والجُهد والنّصب، التي تتولّد لذاتها من آلامها، وراحتها بعد أتعابها. ومن تأمّل في اللذائذ الدنيوية وجدها قرينة النّصب والعناء دومـًا؛ فلذّة الطعام والشراب لا تظهر إلا في أعقاب شدّة الجوع والعطش، ولذّة الرّاحة والهناء لا تظهر إلا في أعقاب التّعب وبذل الجهد.

الوجه الخامس من أوجه الجمع بين مرادات أهل الجنّة وحقائقها يظهر في القطع بعدم التسليم لدعوى التناقض بين الحقيقتين أصلاً: حقيقة كون الجنّة رفيعة القدر، عظيمة الشأن.. بذاتها وصفاتها، وحقيقةَ إجابة كلّ مرادات أهلها! وإذا انتفى زعمُ النّقيضين زال الإشكال. وعدم التسليم بوجود النّقيضين سهلٌ ميسور، إذا استقرّ في النّفوس أنّ نعيم الجنّة مغاير لنعيم الدّنيا في ذاته وصفاته، وأنّ الاستمتاع باللذّات الدنيوية حاصلٌ بدون الحاجة لمعدنها الناقص، كما سبق في شرب الخمر بدون تغييب العقل، وطلب الولد بلا أحوال مستقذرة، وطلب الزرع بلا مشقّة ولا عطَب ولا انتظار.

وبهذا تتضح الصورة تمامـًا حين نعيد السؤال لكن باستحضار التهذيب والتطييب الذي يجري على المُتع الدنيوية، بحيث يكون كما يلي: هل يمكن أن يوقِد أهل الجنّة ناراً جديدة.. بذاتها وصفاتها، عن نار الدّنيا المحرقة؟! وهل يمكن أن ينام أهلُ الجنّة نومـًا جديداً، لا كذلك الذي يُشبه الموت، وتغيب فيه الرّوح كما كان عليه النّوم في الدنيا؟! وعندها يتخّذ البحث عن الجواب مساراً جديداً يليق بدار النّعيم.

ومما يعين على اللجوء إلى حصن التسليم واليقين، وقطع الشكّ أو ورود مساوئ الظنون أن نعلم أنّ التطييب والتّهذيب حاصل لكل متعة دنيوية لا يصلح مثلها أن يكون في الجنّة.. بذاته، أو بصفاته، أو بذاته وصفاته معـًا. والضابط في =



= ذلك: النّظرُ إلى ذوات الهيئات والصفات لتلك اللذائذ؛ فإن كانت مما حرّم الله تعالى ورسوله، فلها مسلكان اثنان: أن تكون ذواتـاً كريمة، وإنّما تعلّق التحريم بحال من استعملها وصفاته؛ كالحرير، والذهب، والفضة، ونحوها، فهذه مما يُقطع بكونه نعيمـاً لأهل الجنّة بلا قيد، على اختلافٍ في درجات اللذة والاستمتاع، الذي لا يحصل فيه التشابه إلا في الأسماء فقط. وأمّا إن كانت هذه المحرّمات نجسة في ذاتها وصفاتها؛ كلحم الخنزير، وشرب الدّم ونحوه، فإنّها مما يُقطع بعدم كونها نعيماً في الدّنيا، فضلاً أن تكون نعيمـاً في الجنّة. وأمّا ما تولّد عن ذاتٍ كريمةٍ في الدنيا، ثم تغيّرت ذاتُـه وصفاته بعد ذلك إلى حال أخرى حرّمها الله تعالى؛ كالخمر ونحوه، فإنّ النّعيم المتعلّق به في الجنّة نعيمٌ جديدٌ كريم، لا يعرفه أهل الدنيا؛ لأنّه يختلف، في ذاته وصفاته، عمّا عهدوه، وإن تشابهت الأسماء. وعلى هذا ينزّل طلبُ النّوم أو إيقاد النّار في الجنّة؛ فقد أخبر الله تعالى عن نار الدنيا ونار جهنّم، ولم يذكر للجنّة ناراً تخصّها؛ فدلّ ذلك على أنّ نار الدّنيا المعهودة، مما يستحيل وجود مثله في الجنّة!

ونارُ الدنيا تجتمع في حقيقتها مادتان اثنتان: الحرارة.. مادّة الإحراق، والنّور.. مادّة الإضاءة، وقد فرّق الله تعالى بينهما بقوله سبحانه عن المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾[البقرة:١٧]. فأبقى لهم حرارةَ النّار، وسلبهم نورها. لكن لا يمنع ذلك أن تتشكّل الصورة الجديدة للنّور في الجنّة على كيفية تقرُب من وهَج النّار ذاتها!! محققة كلّ لذّة استمتاع يشاء طالبُها حين يُذكيها ويأنس برؤية ألسنتها وما يتطاير منها! وكلّ صفة لنار الدّنيا يتولّد الاستمتاع بها من هذه الذّات الكريمة في الجنّة هي صفة كريمة كذلك؛ فالدفء المتولّد عن وهَج النّور محبّب يحقّق الاستمتاع، ولا يصل إلى حدّ الإحراق بحال!

ولا يُنكر هذا التقريب بين شدّة النّور وتأجّج النّار؛ لأنّ النّورُ إذا اشتدّ توهّجه، واقترن بشيء جرت العادة على أنّه من وقود النّار كالخشب والورق، اشتبه =

= على الخبير حتى يظنّه ناراً على الحقيقة، وهذا ما جرى مع كليم الله موسى ﷺ، ليلة التشريف العظيم، مع أنه الخبير بأحوال النار التي أنِس بها طوال مدّة لبثه.. راعياً في أهل مدين، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[القصص: ٢٩- ٣٠]. والوحي نورٌ على الحقيقة، لمن اهتدى به، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[الشورى:٥٢]. قال ابن كثير رحمه الله: حين سار موسى بأهله فأضلّ الطريق، وذلك في ليل وظلام ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾، أي: رأى ناراً تأجّج وتضطرم، فقال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، أي: عن الطريق، ﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، أي: تستدفئون به. وكان كما قال؛ فإنّه رجع منها بخبر عظيم، واقتبس منها نوراً عظيماً؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، أي: فلما أتاها، ورأى منظراً هائلاً عظيماً، حيث انتهى إليها، والنّارُ تضطرمُ في شجرةٍ خضراءَ، لا تزداد النارُ إلا توقّداً، ولا تزدادُ الشجرةُ إلا خُضرةً ونُضرة. ثم رفع رأسهُ فإذا نُورُها متصلٌ بعَنان السماء. قال ابن عباس وغيره: لم تكن ناراً، وإنّما كانت نوراً يتوهّج. وفي رواية عن ابن عباس: نورُ ربِّ العالمين. (تفسير ابن كثير، ج٣/ ص٣٥٧).

وعلى هذا يتحقّق كمالُ الاستمتاع بخمر الجنّة.. في ذاتها وصفاتها؛ لأنّها لا تشبه خمرَ الدّنيا بذاتها المتحوّلة من العنب والشعير، ولا بصفاتها التي تُذهِب بالعقول. ولا يمتنع بعد ذلك تحقّق كمال الاستمتاع بإيقاد (النّور)، بدل النّار.. بصفات جديدة متولّدة عن ذات أخرى، سواءً أكان نوراً منزوع اللهب أو غيره. (ونور) الجنّة كخمرها، تختلف عن نار الدّنيا بحرارتها ودخانها، وبقيّة صفاتها التي =



= لا يكون مثلها في الجنّة. وعلى النّسق ذاته يمكن القياس على كلّ نعيم في الدّنيا يشتهيه أهل الجنّة، ويشتدّ ارتباطهم به، ويؤنسهم وجوده؛ مصداقًا لقول الحقّ سبحانه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾، مع نزع كلّ مركبات النقص فيه، مصداقًا لقوله جلّ شأنه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[الأعراف: ٤٩].

وقدرة الله تعالى تظهر أجلى ما تكون عند التأمّل في مخالفة الأسباب لمسبباتها، والأحوال لصفاتها وهيئاتها؛ فنارُ الدنيا: نارٌ تُحرِق، ونورٌ يضيء؛ لتقوم بهما معايش بني آدم ومصالحهم، مع وجود الضرر المحتمل. ونارُ الجنة: نورٌ يضيء، قد نُزِعت منه مادة الإحراق؛ لتتمّ اللذّة بلا ضرر. ونارُ جهنّم: نارٌ تُحرِق، قد نُزعت منها مادّة النّور؛ لتزول المتعة، مع تحقّق الضّرر. والله أعلم بأحوال مخلوقاته ذواتًا وصفاتًا، آمنا به وصدّقناه.

قال ابن القيم رحمه الله: وقد صح عنه ﷺ أنه قال: «مجامرهم الألوّة»، والمجامرُ: جمعُ جمرة، وهو البخور الذي يُتبخَّرُ بإحراقه. والألوّة: العودُ المُطرّى، فأخبر أنّهم يتجمّرون به، أي: يتبخّرون بإحراقه؛ لتسطع لهم رائحتُه. وقد أخبر سبحانه أنّ في الجنّة ظلالاً، والظِّلالُ لا بدّ أن تفيء مما يقابلها، فقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾، وقال: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾، فالأطعمة والحلوى والتجمّر تستدعي أسبابًا تتمّ بها، والله سبحانه خالق السَّبب والمسبّب، وهو ربّ كل شيء ومليكه، لا إله إلا هو. وكذلك جعل سبحانه (لأهل الجنّة) أسبابًا تصرِفُ الطعامَ، من الجشاء، والعرق الذي يفيض من جلودهم، فهذا سببُ إخراجه، وذاك سبب إنضاجه! وكذلك جعل في أجوافهم من الحرارة ما يطبخ ذلك الطعام ويلطّفه، ويهيّئه لخروجه. وكذلك ما هناك من الفواكه والثمار.. يخلق لها من الحرارة ما يُنضجها، ويجعل سبحانه أوراق الشّجر ظلالاً؛ فرَبُّ الدنيا والآخرة واحدٌ، وهو الخالقُ للأسباب والحِكَم.. والأسبابُ مظهرُ أفعاله وحكمته؛ ولكنّها تختلفُ، ولهذا يقعُ التعجّبُ من العبد، لورود أفعاله سبحانه على أسبابٍ غير الأسبابِ =

لتجميده وحفظه، كلّ ذلك ذهب، ولم تبق منه إلا ذكريات الأيّام الخالية؛ فحال الجنّة ونعيمها سائر على خلاف ذلك كلّه.

= المعهودة المألوفة. وربما حمله ذلك على الإنكار والكفر؛ وذلك محض الجهل والظلم! وليس هذا بأهون عليه من ذلك.

ولعل النّشأةَ الأولى التي أنشأها الرّبُّ سبحانه وتعالى فيها بالعيان والمشاهدة أعجبُ من النشأة الثانية التي وعَدَنا بها إذا تأمّلها اللبيب. ولعل إخراج هذه الفواكه والثمار من بين هذه التربة الغليظة، والماء والخشب والهواء المناسب لها، أعجبُ عند العقل من إخراجها من بين تربة الجنة ومائها وهوائها. ولعلّ إخراج هذه الأشربة التي هي غذاء ودواء وشراب ولذة من بين فرث ودم، ومن قيء ذُباب (هو النّحل)، أعجب من إجرائها أنهاراً في الجنّة بأسبابٍ أُخَر. ولعل إخراج جوهري الذّهب والفضة من عروق الحجارة من الجبال وغيرها، أعجبُ من إنشائها هناك من أسبابٍ أُخَر. ولعل إخراج الحرير من لُعاب دودة القَزّ، وبنائها على أنفسها القباب البيْض والحُمر والصفر أحكم بناء، أعجب من إخراجه من أكمام تنشقُّ عنه شجرٌ هناك، قد أُودِع فيها وأُنشيء منها. ولعل جريان بحار الماء بين السماء والأرض على ظهور السَّحاب أعجبُ من جريانها في الجنة في غير أخدود.

وبالجملةِ فتأمُّل آياتِ الله التي دعا عباده إلى التفكُّر فيها، وجعلها آيات دالَّةٍ على كمال قُدرته، وعلمه ومشيئته، وحكمته ومُلكه، وعلى تفرُّده بالرّبوبية والإلهية، ثم وازن بينهما وبين ما أخبر به من أمر الآخرة والجنّة والنّار، تجد هذه أدلّ شيء على تلك، شاهدة لها، وتجدهما من مشكاة واحدة، وربٍّ واحد، وخالقٍ واحد، ومالكٍ واحد، فبعداً لقوم لا يؤمنون. (حادي الأرواح، ص٤٠٨-٤١٠). فسبحان من سلبت حكمته الألباب، وحارت في إدراك عظمته العقول! (للاستزادة، انظر: تقاسيم مرادات أهل الجنّة، من مبحث تذليل طعام أهل الجنّة وإنضاجه).



والله سبحانه خالقُ الضّرّتين معـًا: الدّنيا والآخرة.. وهو موجد الأسباب والمسبّبات.. تارة يُوائم بينهما برحمته؛ فيربطُ الأسباب بمسبّباتها، والنّتائج بمقدّماتها، وتارة يُباين لحكمته؛ فيوجد النّتائج بلا مقدّمات، والأسبابَ بلا مسبِّبات.. والكلّ هيّن عليه سبحانه، وسائرٌ على مقتضى العلم والحكمة، والإرادة والمشيئة. وفي كلّ عصر من شواهد القدرة الإلهية في جريان السنن الكونية والشرعية ما تحار في إدراكه العقول: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[المائدة: ١٧].

ولا يُعجز ربَّنا جلّ جلاله شيء؛ فكما أنّ الخلق الأوّل لم يعجزه، فكذلك الخلق الجديد. ومن أوجد النّعيم الذي لا يُحصى في الدّنيا كثرة وتنوّعـًا، بعد أن كان عدَمـًا، قادر على إيجاد ما هو خير منه في الجنّة وأبقى! ولكلّ دار ما يناسبها من الهيئات والصفات، قال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[ق: ١٥]، وقال جلّ شأنه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[الروم: ٢٧].

مُتعة الاتّكاء على الرّفارف الخُضر:

الاتّكاء على الأرائك هيئة رَغَدٍ ونعيم، ورفاه وتكريم، وهو وصف يقترن بحال عباد الله المتّقين إذا انقلبوا إلى مُلكهم العظيم(١)، واستقرّوا على مجالس السّعادة التي تجمعهم بالأهل والخلان، في كنف النّعيم

(١) ولذا لم تكن هذه الهيئة من هدي المتقين في الدّنيا.. دار العمل والكبَد، ومحلّة الضيق والنّصب. وأشرف المتّقين المتواضعين محمّد، وقد أخبر بأنّ الاتّكاء حال الأكل والشرب ليس من هديه، فعن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «لا آكل متكئًا» (أخرجه البخاري، ج٥/ ص٢٠٦٢).

المقيم الذي يظهر أثره في نضارة وجوههم، وهيئات جلوسهم، وأحوال السعادة والفرحة التي تغمر قلوبهم!

ولا أجمل من وصف القرآن الكريم لمشهد النّعيم في داخل القصور، وبخاصّة حين يرد ذكر الأرائك، وما يحفّ بها من مشاهد الرّفاه التي تتداخل فيها الحركة المحبّبة بالأصوات والألوان، والروائح المطيّبة.. مع انشراح الصّدور، وسعة المجالس والقصور. والأرائك، في مشاهد القرآن الكريم، فريدة الحُسن والجمال، يرد ذكرها من خلال محيط المشهد العامّ.. في داخل القصر، ومجالس الجنّات الخارجية.. تحت الأشجار، وبقرب الأنهار؛ فتارة تظهر في صورة الأسرّة ذاتها.. بفخامتها وزينتها، وتارة تظهر فارهة مرتفعة بحجالها عمّا يحيط بها.

وهيئة الاتّكاء في هذه المشاهد تقترن بأحوال الرّغد والحُبور، وتُدار معها أحاديثُ المجالس، حتى إنّك لتكاد تسمعُ فيها أصوات الضّحكِ، وتُبصر نضارة الفرح والسّرور، وتستروح النّسائم الزّكيّة المطيّبة التي تفوح من المجامر، وترى الأغصان تتمايل حركتها وتهتزّ أوراقها، والغلمان يطوفون على السّعداء بصحاف الذّهب والفضة، المحمّلة بما لذّ وطاب، من الطعام والشراب!!

ارتفاع الأرائك، وفخامتها:

وفي القرآن الكريم وصفٌ بديعٌ كذلك لدقائق التفاصيل والتصاميم داخل الغرف الخاصّة، ومجالس البهجة الغامرة، يتناول ما تُحاك به الأرائك ذاتها من نفيس الوشي وبديع التّطريز، وما يتمدّد فوقها من الفُرُش الفارهة الناعمة، المحشوّة بالإستبرق الخالص، كما تتناول الشراشف



الجميلة التي تُغطّى بها هذه الفرش، بملمسها النّاعم ومنظرها البهيّ، وما يصطفّ فوق الفُرُش من الوسائد المعدّة للاتّكاء، بشكل مرتّب، غاية في النّظام والجمال!!

والأرائك جمع أريكة، وهي تُطلق على المجموع العام للسرير وما عليه من الفُرُش النّاعمة المنجّدَة والوسائد بأغطيتها المزخرفة، بداخل الحِجال، وهي القباب المصمّمة المعلّقة [(1)]. قال الله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾[يس: ٥٥ – ٥٨]. وقال سبحانه يصف نعيم أهل الجنّة: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا﴾ [الكهف: ٣١]، وقال جلّ شأنه: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾ [الإنسان: ١٣].

ومن تأمّل في حديث القرآن الكريم عن أرائك السّعداء بدار النّعيم وجد أنّ مادّته تدور على أربعة أوصاف فريدة، تُظهر الرّفعة والفخامة والجمال في منازل أهل الجنّة؛ فهي مع كثرتها (مصفوفة) مرتّبة، قال الله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾[الطور: ٢٠].

---

(١) قال الرّاغب: الأريكة حجلة على سرير، جمعها أرائك، وتسميتها بذلك إما لكونها في الأرض متّخذة من الأراك، وهو شجرة، أو لكونها مكانًا للإقامة، من قولهم: أرِك بالمكان أروكًا. وأصل الأروك: الإقامة على رعي الأراك، ثم تُجُوّز به في غيره من الإقامات. (المفردات في غريب القرآن ج١/ ص١٦). وقد كان خاتم النبوة مثل زرّ (فصّ) الحَجَلة، وهي بيت كالقبّة يُستَر بالثّياب، وتكون له أزرار كبار. (النهاية في غريب الأثر، ج١/ ص٣٤٦).

وطريقة اصطفاف الأرائك يُظهر ملمحاً اجتماعياً حميمياً؛ لأنّها (متقابلة)، بما يتناسب وكمال الأدب حال تزاور السعداء واجتماعهم. ومقتضى كونها متقابلة أن يكون كلّ واحد منهم مقابلا للآخر، لا مستدبراً له، ولا بعيداً عنه. قال سبحانه يصف السعداء في أحد مجالسهم: ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[الحجر: ٤٧].

وهي كذلك سررٌ ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾، قال الله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾[الواقعة: ١٥-١٧]. والموضون أو الوضين: هو النسج المضاعف بعضه فوق بعض أي أنّها سرر منسوجة مضاعفة متداخلة بعضها على بعض، بقضبان الذهب والفضة، ومشبّكة بالدرّ والياقوت والزبرجد، ومزيّنة باللؤلؤ والجوهر.

ومما يُظهر مكانة هذه السّرر فوق كلّ هذه الفخامة، أنّها كذلك (مرفوعة)، قال سبحانه: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾[الغاشية: ١٣] أي: شريفة القدر، مرتفعة في ذاتها، وبما يوضع عليها من الفُرُش اللينة الوطيئة. والفُرش التي يُجلس عليها فوق هذه الأسرّة مرفوعة كذلك ﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾. قال الله تعالى في بيان حال السّعداء خلال مشهد من مشاهد النّعيم: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾[الرحمن: ٥٤]. ويا له من مشهد فريد مفعم بالجمال والسكينة والهدوء، من داخل بُستان القصر الكبير! الأشجارُ تملأ المكان.. والثمارُ من كلّ صنف.. متدلّية من الأغصان، وجَنَاها ميسورٌ ودان.. وساكن القصر السعيد من على سريره المرتفع، الموشّى بخيوط الحرير والمطرّز بقصب الذهب والفضة والياقوت.. غارقٌ في لذّة النّظر، يتأمّل في مُلكه العظيم، على حالٍ رغيدة، من الهدوء والسكينة والراحة القلبية. والهيئة الملكية في هذا المشهد المعجز تظهر في طريقة الجلوس، وفي المياثر الفخمة المحيطة! فالسعيد على فراش الدّيباج



الخالص، المبطّن بالحرير النّاعم الذي لا أرقّ منه ولا ألين، متكئ.. لا يرى أنّ أحداً أسعدَ منه بهذا المُلك المقيم، الذي لم تُبصر العيونُ مِثله، ولا تبلغ العقولُ كُنهه، فيا له من نعيم ما أجمله! قال ابن مسعود رضي الله عنه لأصحابه حين قرأ هذه الآية: قد أُخبرتم بالبطائن فكيف لو أُخبرتم بالظواهر[١]؟!

وهذه الأرائك الفخمة، بفُرُشِها الوثيرة الجميلة، مهيّئة للجلوس والاتكاء، والترفّه، وليست معدّة للنوم، كما كانت عليه الأسرّة المتواضعة في الدّنيا؛ فالنّوم أخو الموت، وأهلُ الجنّة مخلّدون، لا ينامون فيها ولا يموتون، والنّوم قرين التّعب والإرهاق، وأهل الجنّة في نشاط دائم.. ينعمون بعيشهم الرغيد، لا يتعبون ولا يكسلون، ولا يرهقون ولا يملّون.. مشغولون في لذائذهم، مسرورون في قضاء أوقاتهم، لا يذوقون لذّة مُبهجة إلا وتعقبها لذات أخرى أكثر إبهاجًا وإيناسًا!

ونفي النّوم عن أهل الجنّة لا يمنع حصول اللذّات والأحوال التي كانت تصحبه حال اليقظة، فقد ثبت أنّ ثمار الجنّة مذلّلة ينالها السعيد وهو قائم أو قاعد أو على جنبه، كما وردت هيئة الاستلقاء على الظهر، والتمدّد فوق الأسرّة، وبخاصة مع الزوجات الحسان حال الوصال.. كلّ ذلك على حال صحّة ورغد، وتمام قوّة ونشاط، لا يعتريه خمولٌ ولا تعب كما كان يحدث لأهل الدّنيا. عن جابر رضي الله عنه قال: سئل نبي الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، أينامُ أهلُ الجنّة؟ فقال رسول الله ﷺ: «النَّومُ أخو الموت، وأهلُ الجَنَّةِ لا ينامون»[٢].

---

(١) تفسير الطبري، (ج٢٧/ ص١٤٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط، (ج١/ ص٢٨٢) وهو في السلسلة الصحيحة، (١٠٨٧).

هيئات الرّغد والسعادة:

والحديث عن حالة الاتّكاء مصحوب بأحوال وهيئات جميلة لأهل الجنّة داخل القصور المنيفة، تجتمع فيها الرّاحة والهدوء، والحديث مع الأهل والأصحاب، وطواف الغلمان بالطعام والشراب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[يس: ٥٥-٥٨].

ويا لهذا المشهد الرّغيد ما أجمله! حيث يظهر فيه السّعداء وهم مشغولون بزوجاتهم الحسناوات.. منعّمون في أبّهة المُلْك الكبير، متّكئون على الأسّرة.. تظلّلهم أوراق الأشجار التي امتدّت أغصانها من بستان القصر الوارف حتى غطّت شرفاتهم، وصنوف اللذات الممتعة تحفّ بهم من كلّ جانب.

وفي مشهد قرآني فريد يصوّر حال السّعيد من زاوية أخرى داخل القصر الكبير، يقول الحقّ جلّ جلاله: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴾ [الرحمن: ٧٦]. والرّفرف: هو الشرشف الرّقيق النّاعم الذي تُغطّى به الفُرُش[1].

---

(١) أصل كلمة (رفرف) مأخوذة من الطرف والحركة، ومنه الرفرف في الخباء، وجوانب الدرع وما تدلّى منها، والواحدة رفرفة. ورفرف الطير، إذا حرّك جناحه حول الشيء يريد أن يقع عليه، والرفرف ثيابٌ خُضر. وكل ما تدلّى وزاد من شيء فثنُى وعُطف فهو رفرف، وفي حديث ابن مسعود ﷺ في قوله عز وجل: ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ قال: رأى رفرفًا أخضر سدّ الأفق، وهو في الصحيحين. (انظر: حادي الأرواح، ج١/ ص١٤٣) قال الضحاك في معنى الرّفرف: هي المجالس. (صفة الجنّة لابن أبي الدّنيا، ص ١٢٩).



وهذا المشهد الجميل على قِصر مبناه يفتح أمامك نافذة لنعيم واسع رغيد يتناول أربع مُتعٍ غالية، لا يحيط العقل بها، ولا يمكن التعبير عنها بغير هذه الكلمات الستِّ، وإن اجتمعت للتعبير عنه مفردات قواميس اللغة بأسرها: متعة الجمال بتناسق الألوان، ومُتعة الزينة بنعومة الملمس، ومُتعة الفخامة في أصناف الأقمشة المذكورة، ومتعة الترتيب والتنظيم الذي يعبر عنه وصف البهاء والحسن؛ فالوسائد ذوات أغطية حريريّة خُضر، والفُرُش فوق الأسّرة.. ناعمة، تغطيها شراشف حريريّة مخمليّة! فهو إذاً مشهد يجلّي تفاصيل دقيقة ويصور جانباً من النّعيم الذي يكون عليه السّعداء في مجالسهم، متّكئين على شراشف الحرير الأخضر، النّاعمة الممدّدة على الفُرُش الحسان.

فما بالك بغطاء وسادة يصفه الله تعالى بالحُسن.. كيف يكون حُسنُه؟! وما بالك بوسادةٍ هذا جمالُ غطائها.. كيف يكون جمالها في ذاتها؟ وما حال الفِراش الوثير النّاعم الممدّد فوق السّرير، إذا كان هذا حال وسائده؟! ثم ما حالُ السريرِ ذاتِه.. كيف يكون جمالُه، إذا كان هذا الحُسن كلّه كائنـاً فيما يوضع فوقه من وسائد وفُرُش وشراشف؟! نسأل الله الكريم من فضله.

حُسن النّمارق، وكثرتها:

منظر النّمارق الوثيرة الحسنة فوق الأسرّة الفارهة، من المناظر البهيجة، التي تُظهر الأبّهة والحُبور في داخل القصور. والنّمارق هي الوسائد الجميلة.. بألوانها، وبطائنها، ويزداد حسنها بمشهد النظامِ البديعِ الظاهرِ في طريقة اصطفافها! قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا

رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾[الغاشية: ٨ - ١٨].

فيا له من مشهد رغد وهناء في مطلعه وخاتمته!! يبدأ بالهدوء السّاكن في محيط القصر الكبير المستقرّ بشموخ وفخامة وسط الأشجار الوارفة، التي تتخلّلها الأنهار الجارية.. سكون باعث على الرّاحة والاطمئنان، وهدوء لا يقطّعه إلا حفيف الأشجار، وتغريد الأطيار، وخرير الماء الذي يجري بقرب الغرف المطلّة على البستان الكبير، حتى لكأنّك، من هدوء المكان، لتسمع ضَحِكات السّعيد في كنف القصر متداخلاً مع صوت الحوراء المحبّب وغنائها العذب!!

ثم يدخلُ بك المشهدُ فجأة من الشرفة المطلّة على البستان إلى باحة الغرفة الواسعة الدّاخلية؛ لتقف أمام منظرٍ سعادة لا يوصف! الرفاه ظاهر في امتزاج السعة بالجمال.. ومشهد الرغدِ يسلبُ الألباب، صنوف المُتع وأطباق الذهب والفضة مترعة بلذائذ الطعام والشراب، والأسرّة المعدّة للاستقبال فخمةٌ بتصاميمها، منتظمةٌ بشكل بديع في محيط الغرفة الواسع، المليء بجميل الآنيةِ والتّحف، والأسرّة والفُرُش، والوسائد المصفوفة والبُسط المبثوثة.. وهناك، على ذلك السّرير الضّخم، يتكئ السعيد في هيئة ملكية على حالٍ من الفرحة والبهجة ورغدِ العيشِ، وانشراحِ الصدرِ. وآثار النّعمة ظاهرة على محيّاه، والرّي الذي أترع فيه جسده يتدفّق في نضارة وجهه ونعومته! وأبّهة المُلك تتجلّى في نفيسِ حُلله وثيابه، وطيب رائحته، وجميل خطابه!



ويالجمال المنظر الداخلي للقصر الكبير.. بألوانه وفخامته!! الأسرّة الفارهة واسعة مرفوعة، بخلاف أسرّة الضيق في دار الدّنيا! والفُرُش فوق الأسرّة.. ناعمة وثيرة مبطّنة ببطائن السندس الخالص، ومغطّاة بأغطية الإستبرق النّاعم. وعلى امتداد الفُرش فوق الأسرّة.. تصطفّ الوسائد المعدّة للاتكاء بطريقة منظّمة تأسرُ الألباب!

وترتيب النّمارقِ المَخملية الجميلة، على الفُرُش الوثيرة في هذا المشهد الجميل.. يتمّ بطريقة منظّمة غاية في الإتقان، وتناسق بديع، وفق ذوقٍ رفيعٍ.. يوازن بين تدرّج الأحجام والألوان، ويملأ الفراغات بأسلوب جماليّ بديع، لم يعرفه أهل الدّنيا في أفخم فنادقهم، ولا في بلاطات ملوكهم.

ولمّا ورد وصف النّمارق بأنّها ﴿مَصۡفُوفَةٞ﴾ دلّ ذلك على تمكّن هذه الصفة منها، والتصاقه بها التصاقًا لا ينفكّ عنها؛ فهي على الدوام مصفوفة بجانب بعضها، على طريقة هندسية جميلة مُبهجة، يتعاهدها الغلمان بين الحين والآخر!!

ونمارق القصور والخيام متجدّدة على الدوام؛ فما إن يغادر ساكنَ القصر وأهله لزيارة قصيرة أو لنزهة استمتاع خارجيّ تمتدّ لأيام أو أشهر.. حتى يظهر الكرم الإلهي الذي لا حدّ له، وتتجلّى للسعداء بعض آثار (قرّة العين) التي يخفيها الله تعالى لهم في جنس كلّ نعيم، فما إن يقتربوا من القصر الوارف بظلال أشجاره حتى تلوحُ أمامَهم آثارُ التّجديد والزيادة في كلّ شيء: البوّابات الخارجية كأنّها هي، غير أنّها أصبحت أكثر جمالاً، وكذلك الزّرابيّ الممتدة عند المدخل، والآنية والقناديل والأسرّة.. كلّ شيء تغيّر بشكل بهيج، حتى الروائح.. يا لله ما أنداها.. روائحُ جديدة تعبق

في أرجاء القصر، حتى المجامر الذّهبيّة تغيّرت اشكالها بأخرى جديدة مرصّعة بالدرّ والياقوت البديع!!

ولا يزيد السعداء وذريّاتهم أمام مشهد الذهول هذا إلا أن يفيض على ألسنتهم من معين الرّضى الغامر الذي يعمر قلوبهم؛ فهذه هي الجنّة حقّ اليقين.. يتجدّد كلّ شيء فيها على الدوام!!

ما هذا الكرم الإلهي؟! وما هذا النّعيم؟ وما أجملَ هذه الحياة التي نتنقّل فيها بين مباهج الرّغد والنعيم إلى أخرى أبهج وأجمل؟! عندها يستشعرون عظيم المِنّة من ربّهم على قليل عملهم فلا يملكون سوى الاعتراف بلسان الذلّ والرّضى قائلين: ربّنا ما عبدناك حقّ عبادتك.

وهذا التنظيم والتجديد والترتيب دائم في الجنّة، يتولاه الغلمان أولاً بأول، حالَ وجود السّعداء، وبعد خروجهم، ويصحبه التنويع الذي يُبهج ساكنَ القصر وضيوفَه، بحيثُ لا يحوجهم أيّ شيء في القصر الكبير إلى ترتيب أو تقريب، وتبهرهم مقتنياته من الأسرّة والأوانيّ، والقناديل والنّمارق المتجدّدة على الدّوام.. بأشكالها وألوانها، وأحوالها الجديدة التي لم يروها من قبل!

فياله من مشهدٍ قرآني أخّاذ، وتصوير بديع خلّاب.. ينتظم الرّغد في الأجساد، والفخامة في الأثاث، والنّظام في توزيع المقتنيات والأسرّة والوسائد، والرّضى في القلوب، ويتحدّث عن الكثرة والتنوّع، وعن الرّفعة والبهجة.. في محيط الجوّ العام لمجالس السعداء.. حيث يسود الهدوء، ويطيب الكلام، بقرب الأنهار والأشجار، في كنف الرغد والنعيم، الذي يبعث في النفس انشراحاً وبهجة، والحواسّ تلذّذاً ونضارة!! نسأل الله الكريم من فضله.



امتداد الزرابيّ في القاعات والمداخل!

ومع ارتفاع الأسرّة الفخمة، وانتظام الوسائد الناعمة الوثيرة في هذا المشهد القرآنيّ المُعجِز.. تزدان أرضية القصر بالزرابيّ المبثوثة، التي تبهج الخاطر، وتسرّ النّاظر.. ببديع وشيها، وطيبِ رائحتها، وتناسقِ ألوانها. (والزرابيّ) هي البُسط التي تُوضع على أرضيّة القصر.. في مداخله الخارجيّة وممرّاته، وبساتينه وصالاته وباحاته المتعدّدة، وتُبَثّ في أماكن الجلوس داخل الغُرَف المرصوفة أرضيتها بلبنات الذّهب والجوهر، وعلى الشُرُفات المطلّة على حدائق القصر الغنّاء التي تتخلّل الأنهار أشجارها، وتحلّق الأطيار المغرّدة في سمائها[1]!

وهذه البُسُط معدّة لتزيين المداخل، بحيث يطأ عليها السعداء حال ولوج القصر، والسير في ردهاته وممراته الواسعة، وقبل أن يجلس على السرير. ولأنها موضوعة لإضفاء لمسة الفخامة على الجوّ العام في وسط

---

(١) أهل هذا العصر يرون ما يقرّب لهم هذا المعنى، على فارق كبير في الحقائق والكيفيات؛ فهم يزيّنون جدران غرفهم بالأصباغ والإضاءات، وأسقفها بالجبس المزخرف بالأشكال والتصاميم المختلفة، ثمّ يرصفون أرضيتها بالرخام والمرمر، الذي يراعي الذّوق العام للغرفة، ويتخيّرون من التحف والأشجار الصناعية، والقناديل الجداريّة، أو المتدليّة من السقف، ما يناسب كلّ ذلك، ثم يبسطون في وسط الغرف سجاداً فخماً يتسق مع الألوان والإضاءات والتحف، ويحفون الغرف من جوانبها بالمجالس ذات القوائم الخشبيّة، والفُرُش المنجّدة، والوسائد الاسفنجية المخمليّة.. هذا وهم في دار هي السّجن الحقيقي للمتقين في جنب ما أعدّ الرحمن لهم في جنّات النّعيم.. دار لا تستقرّ فيها الألوان، ولا تدوم النّظافة، ويبلى فيها كلّ جديد، ويتحوّل عنها كلّ بهيج.

الغُرف، فإنّ جمالها ولا شكّ أخّاذ فريد، يناسب المكان الذي توضع فيه.. بخامات وخمائل، ونسج بديع! بهجة للنفس الرّضيّة، ولذّة للعين التي تعشق الذوق الرّفيع! كيف وهي من صنع اللطيف الخبير.. الذي يحبّ الجمال، ويُرى بعض آثار جماله سبحانه في بديع صُنعه؟!

ولأنّ قصور السّعيد ومساكنه وممالكه من الكثرة بمكان، فإنّ هذه البُسُط كثيرة وافرة، لا حدّ لها، ولا يُحصيها إلا خالقها عزّ وجلّ، وهي على كثرتها ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ في كلّ مكان.. ها هنا، وها هنا، ومصفوفة بطريقة جميلة.. بأحجامٍ وألوان، وأشكال وخمائلَ تتسق مع ما يحيط بها، وتناسب المكان الذي توضع فوقه، أو تُفرش تحته؛ فزرابيّ الشرفات التي تُطلّ على بستان القصر المنيف لها خصوصيتها، وكذلك زّرابي المجالس، وزرابيّ الغُرُفات التي يأنس بها السّعيد مع أهله.

ولأنّ الجنّة طيّبة طاهرة في ذاتها، وفي كلّ ما حوته بداخلها؛ فإنّ هذه الزرابيّ والسُرُر والفُرُش والنّمارق تظلّ نقيّة طاهرة على الدّوام؛ فالأرضيّة التي تُفرش عليها الزرابيّ طيّبة نقيّة طاهرة، وكذلك الأقدام والأجساد التي تلامسها، والهواء الذي يتحرّك فوقها، والرّوائح التي تعبق فيها.. بخلاف ما تعوّد عليه بنو آدم في دار القذى والأمراض، والميكروبات والتراب، الذين يجهدون دائماً في غسل فُرُشِهم ووسائدهم، وتنظيف بُسطهم التي أسند الزّوار إليها جنوبهم، ولوّثوها بأقدامهم الجالبة للأتربة والطين والأوساخ!! وشتّان بين الدّارين والبساطين، وبين الزّائرين والقاطنين في كلّ منهما!!

وما أجمل التعبير بالارتفاع في هذا المشهد الفريد! بل هو الأبلغ في تصوير التدرّج المنطقي للأثاث داخل هذه الغرفة الفارهة.. فالزرابي الكثيرة مبثوثة فوق أرضية الغُرَف، والسُرُر ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ فوق الزرابيّ، وفوق



السُرر تتمدّد الفُرُش الوثيرة ببطاناتها النّاعمة، والنّمارق مصفوفة بانتظام فوق الفُرُش، وعليها يتّكئ السّعيد برحمة ربّه!

والرّفعة ها هنا حسّية ومعنوية، وهي دالّة على كمال النّعيم، وتمام الراحة.. تشمل ارتفاع الأسرّة ذاتها فوق أرضية الغرفة المرصوفة بالذهب والجوهر، ارتفاعـًا لا يُحوج السّعيد حتى إلى النّهوض لتناول الثمر المدلّى، أو لمشاهدة المنظر الجميل في الخارج، كما تشمل رِفعة الفُرُش ومكانتها وقدرها وفخامتها في ذاتها، وارتفاعها الحسّي فوق الأسّرة، وفخامة الأسرّة ذاتها داخل الغرفة البهيجة بمتعها ومقتنياتها، في هذه الدّار الكريمة العالية!!

فيا له من نعيم مقيم ما أغلاه! وفخامة ما أحسنها! وبهجة غامرة لا يحيط بها عقل آدمي، ولا يدرك مداها سمعُه وبصرُه وخيالُه! نسأل الله الكريم من فضله.

تَحْتَ ظِلالِ الأشْجَارِ

الأسبوع الأول من أيام الجنّة يوشك على الانقضاء، وللسعيد في كل لحظة قصّة طويلة من اللذات، تكفي الواحدة منها أهل الدّنيا جميعًا.. إمتاعًا وحبوراً. وله مما أُخفي من النّعيم في الأيام القادمة ما لم تر عينه، ولم تسمع أذنه، ولم يخطر على قلبه. وكلّ لحظة في الجنّة تحمل لذّة، وكل لذّة يصحبها سرور وبهجة، في دارٍ غنّاء.. بقصورها وخيامها، وبساتينها ومروجها، وأنهارها وأشجارها، وطعامها وشرابها وحورها وغلمانها. وما أعدّ الله تعالى لأهل الجنّة من النّعيم مع ذلك، يفوق الوصف، ويخلب الألباب، ما بين صنوف الملابس.. بأنواعها واختلاف ألوانها ونعومة ملمسها، وصنوف الجواهر والحُليّ الثمينة التي يُحَلّون بها.

والسعداء في الجنّة يزورون أهليهم، ويتواصلون مع أقاربهم وأصدقائهم، ويتنقّلون على الخيول الأرضية أو المجنّحة الجميلة، ويعقدون مجالسهم على ضفاف الأنهار وتحت ظلال الأشجار.. يتذاكرون فيها أقرانهم من أهل الدّنيا، ويسألون عنهم، ويتحدثون مع الأشقياء في دار الجحيم ويحاورونهم، ويحتفون بالعتقاء الذين لا يتوقّف وفودهم من النّار.. واحداً تلو الآخر، حتى يصل آخرهم.

كلّ ذلك في مناسبات سعيدة، وأحوال كريمة وعيش رغيد لا بؤس فيه ولا عناء.



لباس أهل الجنّة:

يوم جديد من أيّام السعادة الكبرى.. الغلمان في هذه الساعة يطوفون بالتحف والزينة والثياب، ويُذكون المجامر بالألوّة الفاخرة طيّبة الرائحة، ويُحلّون السّعيد بأجمل اللباس والحُليّ؛ وهو يهمّ بالخروج من قصره المنيف للقاء الأهل والأصحاب في قصورهم وضيعاتهم، وبساتينهم وخيامهم، فقد اشتاق إلى مجالسهم، والحديث معهم وتذاكر ما مضى من أيام الدّنيا وأخبارها.

ولساكن الجنّة من اللباس ما لا حدّ له كثرة وتنوّعاً.. في أشكاله واستخداماته، وفي ألوانه وخاماته؛ فهذا للقاء الأصحاب، وذاك للتنزّه والسياحة في روضات الجنّة، وذلك للخلوة بالحور العين. وما في الجنّة تكشّف ولا عُرّي، بل حِشمة وستر وحياء، وزينة وبهاء، وجمال مطّرد، ولذّات لا تنقطع. وهذا ما أخبر الله تعالى به آدم عليه الصّلاة والسّلام وزوجه رضي الله عنها حين أسكنهما الجنّة أول الأمر، فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[طه: ١١٨، ١١٩].

وأما ما يكون من حال الرّجل مع أهله من رفع الكُلْفة، بوضع الثياب لما تقتضيه لذة الوصال تحت الغطاء الساتر، فإنّه لا ينافي كمال الحشمة والعفّة والحياء في الدّنيا، وهو كذلك في الآخرة، حين يخلو السعيد بأهله.

والحديث عن لباس أهل الجنّة، في نصوص الكتاب والسنة يكاد يكون مخصوصاً بالخامات الحريريّة، والألوان المحبّبة، والأقمشة البديعة النّاعمة، وما تحويه من بهجة العين بحُسن المنظر، وراحة الجسم بنعومة الملمس، إضافة إلى جمال الرائحة المنبعث عبقها من طيّات الحُلل،

وثنايا الثياب، ولا يتطرق الحديث عنها إلى الأزياء والتصاميم، والأنواع والأشكال والأحجام؛ لأنّ ذلك عائد إلى تنوّع أذواق أهل الجنّة ورغباتهم، رجالاً ونساء، وهي كثيرة لا حصر لها، إضافة لما هو مُعَدّ أصلا من الحلل، ويجده أهل الجنّة مصفوفًا في خزائن قصورهم حال دخولها. ولهم فوق ذلك ما أرادوه من اللباس، على الوجه الذي يرغبون، والشكل الذي يطلبون، تمامًا كسائر اللّذات التي تُجلب لهم على سبيل الإمداد في الحال، ومعها فوق ذلك من صنوف الألبسة والأقمشة المنسوجة ما لم تر مثله أعينهم، بخامات وتصميمات تناسب أذواقهم، وألوان تلبّي رغباتهم، ولم تخطر على قلوبهم؛ جزاء ما قدّموا في الدّار الخالية.

الحرير:

الحرير لباس أهل الجنّة رجالاً ونساء؛ قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[الحج:٢٣]. ولمكانة الحرير وشرفه خصّه الله بالذّكر في حديثه عن جزاء الأبرار، بقوله سبحانه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾[الإنسان: ١١ - ١٢]، أي: أدخلهم الجنة، وألبسهم الحرير[1]. وهو تقابل له دلالته من حيث الكثرة والجمال، والفخامة والمتعة. وأجمل ألوان الحرير: الأخضر بتدرّجاته البهيجة الرائعة التي تجمع بين الفخامة والنعومة معًا.

ولا وجه للمقارنة بين حرير الدّنيا وحرير الجنّة؛ فحرير الدّنيا عزيزٌ قليلٌ زائلٌ.. يخرج على هيئة خيوط رقيقة، تُفرزها دودة صغيرة، لا يزال بنو

---

(١) تفسير القرطبي، (ج١٩/ ص١٣٦).



آدم يجهدون أنفسهم في تربيتها ورعايتها وجمع ما يخرج منها، أمّا حرير الجنّة فكثير متجدّد ناعم، متعدّد الألوان والاستخدام، خلقه الله تعالى بيده، ولا يفتقر وجوده لسبب آخر يخرج منه.

وأرفع أصناف الحرير التي يتنعّم بها أهل الجنّة: (السندس) وهو الحرير الناعم الرّقيق جداً، (والإستبرق) وهو الحرير الناعم المائل إلى الغِلظة. والغلظة هنا لا تخرج عن درجات النعومة في الحرير ذاته.

وهذان الصنفان يدخلان في كثير من أثاث أهل الجنّة كذلك، من فُرُش وزرابيّ، ومناديل وستائر، ونحوها، وقد ورد ذكرهما في القرآن الكريم كثيراً، وبخاصّة في معرض التكريم والامتنان باجتماع شمل الأهل والأصدقاء على المجالس، وقد تحقق لهم تمام النعيم القلبيّ الذي يفيض بالرّي نضارة على وجوههم، والنّعيم الحسّي الذي يتبدّى في حسن ملابسهم، وفخامة مجالسهم، وهم: ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾[الدخان: ٥٣]، قال الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[الكهف: ٣١]، فجمع لهم في اللباس بين لذّة العين وتنعّمها بحسن منظره، ولذّة الحواس وتنعّم الجسد بنعومة ملمسه.

الجمع بين الحرير والذهب:

ومشاهد الفخامة في الجنة كثيراً ما تُقرن بالحرير والذهب معـًا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٣٠-٣١]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[الحج: ٢٣ - ٢٤]، وقال جلّ شأنه: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾[فاطر: ٣٣ - ٣٥].

والعجيب أنّ هذين الصنفين: الذّهب والحرير، من جنس ما حُرّم على الرّجال في الدّنيا، فعن عبد الله بن الزّبير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدّنيا لم يلبسه في الآخرة»[1]. وهذه من جملة الفوارق الكثيرة بين الدارين؛ فمن مظاهر الترف والنّعيم المقيم في الجنّة أنّ أهلها يُحلّون بالذهب والفضة، ويأكلون ويشربون في آنيتهما، وبخاصة شراب الخمر اللذيذ الخالي من الكحول، في حين كان ذلك كلّه محرّماً عليهم، ولا يليق بهم في سجن الدّنيا.. والجزاء من جنس العمل[2]، قال تعالى عن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٥/ ٢١٩٤)، ومسلم، (ج٣/ ١٦٣٥).

(٢) من المسائل المشكلة في نعيم الجنّة مسألة حرمانِ بعض أهلها الذّهب والحرير والخمر ونحوها؛ جرّاء ما كان منهم في الدنيا، مع ما ورد من أنّ لأهلها إذا دخلوها: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾، ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ وأنّ من دخلها: «ينعم ولا يبأس، ويخلُد ولا يموت»! فكيف يجتمع الأمران: أن يشتهي السعيد المرحوم نعيماً فيُحالُ دونه؟ أو أن ينعَّم ويُحرم في الوقت ذاته؟ وماذا يلبس سوى الحرير إذا مُنع منه، وقد ورد أنّ الحرير لباس أهل الجنّة جميعاً؟ والجواب يظهر أولاً وآخراً في أدب التعامل العام مع نصوص الوعد والوعيد، التي يُقطع فيها بحكمة الله تعالى البالغة، وعلمه الواسع، ورحمته السابغة، ويُرجع التصوّر الفاسد في فهمها إلى ضعف إدراكنا وجهلنا. =



= ونصوص الوعد أو الوعيد لا تُدرك حقائقهما إلا باجتماعهما، وموارد الإشكال لا تظهر إلا عند جريان الحكم في أحدهما، بمعزل عن الآخر. ونصوص الوعيد على ضربين: نصوص مانعة من دخول الجنّة ابتداء، ونصوص مانعة من بعض نعيمها، كما في هذه الأحاديث. والموحّدون من المؤمنين إذا ذُهِب بهم إلى النّار ثمّ أُخرجوا منها وأدخلوا الجنّة، فإنّه يجري لهم من النّعيم ما يجري لسائر أهلها. ومن فقه ابن الزّبير ﵄ الزيادة المُدرجة منه في هذا الحديث، بقوله: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن لم يلبسه في الآخرة لم يدخل الجنة»، قال الله: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾. (أخرجه النسائي في الكبرى، ج٥/ ص٤٦٥). ومراده: أنّ الحرير لباس أهل الجنّة بلا استثناء، فإذا مُنع منه محروم دلّ ذلك على منعه من دخول الجنّة ذاتها. بمعنى أنه جمع مع لبس الحرير: البغي، والكِبر، والشرك بالله تعالى: المانع من دخول الجنة؛ فكأنّ لباس الحرير شعارهم وسمتهم، لا أنهم يخلدون في النّار بسببه، كما في شأن المُسبل ثوبه خيلاء.

ومما يعضد هذا الرأي تلك النصوص التي أثبتت الخسارة الكبرى لمن لبس الحرير في الدّنيا فوق مجرّد منعه منه في الجنّة، ومن ذلك حديث عمر ﵁، وفيه قوله ﷺ: (إنما يلبس الحرير في الدّنيا من لا خلاق له في الآخرة). (أخرجه البخاري، ج٥/ ص٢١٩٤)، وما ورد عند أحمد من حديث جويرية ﵂ أنّ رسول الله ﷺ قال: «من لبس ثوب حرير ألبسه الله عزّ وجلّ ثوباً من النّار يوم القيامة» (مسند أحمد، ج٦/ ص٣٢٤).

ومما يرجّح هذا الرأي كذلك تظافر النصوص المبينّة لأسباب استحقاق النّار، ومنها قوله سبحانه عن أصحاب الجحيم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ۝٤٥ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٤٥ – ٤٦]، فدلّ ذلك على أنّ الترف سبب باعث للكبر والتخلّق بخلق أهل النّار، كما أنّ التواضع ومجانبة الفخر من أسباب دخول الجنّة. =



أصحاب الجحيم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾[الواقعة: ٤٥]، عن عبد الله بن

= ويغلب على نصوص الوعيد ورود السبب، بخلاف نصوص الوعد؛ لأنّ الثواب فضل، والعقاب عدل، والفضل سواء ذُكر سببه أم لم يذكر لا يُتوهم في المتفضّل به نقص وظلم، بخلاف العقاب والمنع؛ فإنّه إذا لم يُعلم سببُه أوقع في إساءة الظنّ وجريان الشكّ؛ ولذا ورد التفصيل في سبب العقوبة النازلة على أصحاب الشمال، والإجمال عند بيان الثواب الحاصل لأصحاب اليمين، فناسب أن يُقال لهم: هذه النعم لكم، ولا يُقال: جزاء كذا. وذكر الجزاء في موضع العفو لا يُثبت سروراً، بخلاف من كثُرت حسناته، فيقال له: نِعم ما فعلت، خذ هذا لك جزاء.

ومن هنا فحاصل أعدل الأقوال في المسألة أن يقال: إنّ لبس الحرير والذّهب للرجال وشرب الخمر: محرّم في الدنيا، وهو من سمت المشركين المستحقين للخلود بسبب شركهم، كما انها كذلك من الكبائر المانعة من دخول الجنّة ابتداء. ولكن العقوبة قد تتخلف لمانع؛ كالتّوبة، والحسنات التي توزن، والمصائب التي تكفّر، وكدعاء الولد، وشفاعة من يؤذن له في الشفاعة، وأعمّ من ذلك كلّه عفو أرحم الراحمين، والله أعلم. (للاستزادة: فتح الباري: ج١٠/ ص٢٩٠، وعمدة القاري: ج٢٢/ ص١٣، والتفسير الكبير: ج٢٩/ ص١٤٨).

وهناك مورد آخر للجمع بين الأدلة، إذا كان الحرمان كائن في الجنّة ذاتها، بأن يكون الممنوع منه: التمتع بكمالات هذه اللذات الثلاث، التي يتنعّم بها سائر أهل الجنّة، ولا يُنكَر إطلاق (الحرمان) على (الممنوع) من كمالات حقائق الأشياء وإن جرت عليه ظواهرها، فالمحروم من كمالات اللذّة في الخمر أو الذهب والحرير يصحّ أن يُقال فيه إنّه مُكرم ومحروم في الوقت ذاته!! ألا ترى أنّ أطعمة أهل الدنيا وألبستهم تتفاوت في درجات الفخامة والجمال والليونة والبهاء بحسب المكانة والمنزلة، والجميع، وإن كان يأكل ويشرب، إلا أنّ ما يجري للملوك وأهل الشرف من ذلك بخلاف ما يجري على من سواهم، وأهل الجنّة في النعيم كثرة وقلّة على مراتب ومنازل، بحسب أعمالهم، فلا يُنكر أن يجري لهم من كمالات اللذّة على النّسق ذاته. على أنّ القول الأوّل هو الأصحّ، والله أعلم.



عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من شرب الخمر في الدّنيا، ثم لم يتب منها، حُرمها في الآخرة»[1].

الجمع بين الحرير والفضة:

وأهل الجنّة يجمعون بين لبس الحرير والفضّة كذلك، قال تعالى واصفًا حال السعداء في مشهد ملكيّ فريد، وهم يتنقلون في بلاد الأفراح بلباس الحرير الأخضر والحُليّ الفضيّة الفخمة: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا﴾[الإنسان: ٢١]. فتأمّل كيف قرن سبحانه بين زينة الظاهر بلباس السندس الأخضر، وأساور الفضة التي تزيد من بهاء الحُسن للجسد الرّغيد، وبين زينة الباطن بالشراب الطهور، الذي يتخلّل الأجساد الكريمة، والقلوب السليمة.. من الغلّ والحسد، والتباغض والشحناء. وما أجمل هذا التقابل البديع: خضرةٌ تعلو لباس الظاهر، مع بياض ناصع يتوهّج من أساور الفضّة البرّاقة، ونقاء في الباطن يزداد مع كثرة الرّيّ من الشراب الطهور. عن أبي الجوزاء، وكان يقرأ قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ﴾، قال: علت الخُضرة أكثرَ ثياب أهل الجنّة[2].

وللسندس والإستبرق استخداماتهما المتنوعة الكثيرة في الجنّة.. ما بين الفُرُش والحُلل، واللّباس والوسائد، والبُسُط والنمارق، وهو يدخل في بطانة الأرائك، ونحوها من الاستخدامات الكريمة التي لا يعلمها إلا الله وحده. وفي الجمع بينهما إشعار بأنّ لساكن الجنّة ما يشتهي من درجات

(١) أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢١١٩).

(٢) الدر المنثور، (ج٨/ ص٣٧٧).

الليونة.. والنّعومة في اللباس والشراشف، والبطائن والفُرُش، بما تقتضيها الأحوال والمناسبات الكثيرة في دار السعادة.

وأهل الجنّة يتفنّون في تغيير ملابسهم وتجديدها، وإن كانت ثيابهم الأولى لا تبلى ولا تتغير، بل لا يزيدها لبثها على مكنون الجسد الطاهر، والتعرّض للنعيم الظاهر إلا طيبًا، كالعود الزّكي المكنوز، لا يزيده طول التعتيق إلا زكاء وجمالاً. عن أبي هريرة ﵁ قال: قال النبي ﷺ: «من يدخل الجنة ينعم فلا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه»[1].

حُلل الأعمال الصّالحة:

وكلّ حُلّة من حُلل الجنّة تُفرح صاحبها، وتُبهجه بجمالها ونعومتها، وألوانها وتصاميمها. غير أنّ حُلل الأعمال يُحبر أهلُ الجنّة بها دون سواها، وتكون عليهم أظهر جمالاً وفخامة!

وهذا الصّنف من الحُلل على نسج فريد، مختلف عن سائر حُلل الجنّة، وهي عزيزةٌ نادرةٌ مخصوصة لأفراد بأعيانهم.. تُنسج لهم ثمّ تُخبئ في حرز أمين إلى حين قدومهم. وهي قائمة مقام الجزاء بالمثل، ومرهونة بأعمال صالحة.. تُزهق فيها الأنفس، ويتقطع لأجلها البدن في سبيل الله تعالى، وتُسدّ بها الجوعات، وتُستر العورات، وتزول الأحقاد، ويشيع لباس الدّين الظّاهر في المجتمع المسلم بالتواضع، وعيادة المريض، والصلح بين الناس، وكظم الغيظ، وصيانة المؤمنين، وبخاصّة الأقربين، من أن ينالهم كدوش الغضب أو الأخلاق الرديئة.

---

(١) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص٢١٨١).



عن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أوّل الناس خروجًا إذا بُعثوا، وأنا خطيبُهم إذا وفَدوا، وأنا مبشّرهم إذا أيسوا. لواءُ الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرمُ ولدِ آدم على ربّي، ولا فخر»، وزاد الترمذي في رواية أخرى عن أبي هريرة ﵁: «فأكسى حلةً من حُلل الجنّة، ثمّ أقوم عن يمين العرش، ليس أحدٌ من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري»(١). وعن أنس ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «من عزّى أخاه المؤمن في مصيبته كساه الله حُلّةً خضراء يحبَر بها يوم القيامة»، قيل: يا رسول الله ما يحبَر بها؟ قال: «يُغبط بها»(٢). وعن أبي سعيد ﵁ عن النبي ﷺ قال: «أيّما مُسلمٍ كسا مُسلمًا ثوبًا على عُريٍّ؛ كساهُ اللهُ من خُضْر الجنة، وأيّما مُسلم أطعمَ مُسلمًا على جوعٍ؛ أطعمهُ الله مِن ثمارِ الجنة، وأيما مسلمٍ سقى مسلمًا على ظمأ؛ سقاه الله من الرّحيق المختوم»(٣). وعن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «من ترك اللباس تواضعًا لله وهو يقدر عليه؛ دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيّره من أيّ حُلل الإيمان شاء يلبسها»(٤). والمعنى ترك التفاخر والشهرة باللباس. ولكلّ حلّة من هذه الحلل خصائصها الفريدة، التي يعرف السّعداء أصحابها.. بمجرّد النّظر إليها.

---

(١) أخرجه الترمذي، (ج٥/ ص٥٨٥) وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٢) أورده الخطيب في تاريخ بغداد، (ج٧/ ٣٩٦)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧ / ١٣).

(٣) أخرجه أبو داود، (ج٢/ ص١٣٠).

(٤) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٦٥٠) وقال: هذا حديث حسن، ومعنى قوله: حُلل الإيمان يعني ما يُعطى أهلُ الإيمان من حُلل الجنّة.

وكما يتخيّر أهل الجنّة ما يشتهون من أصناف الفواكه والشراب الكثيرة المتنوّعة، وأطباق الذهب والفضة، فكذلك الأمر في الألبسة.. يتخيّرون من أشكالها وألوانها وتصاميمها الكثيرة ما يشتهون. وهم يلبسون ثيابَهم بأنفسهم ويتجمّلون، بخلاف الحُليّ فإنهم يُحلّون بها من قِبَل الغلمان والزوجات؛ زيادة في تعظيمهم وإكرامهم وخدمتهم. قال الله عزّ وجلّ في وصف مشهد فريد لحال السعيد وهو يرتدي ملابسه الفخمة ويُحلّى بالحلي الجميلة الكريمة: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾[الكهف: ٣١]، فأسند ارتداء اللباس إلى صاحبه؛ لما فيه من السّتر والحشمة، وأسند مهمّة التحلية لأساور الذهب إلى غيره؛ زيادة في التشريف والتكريم، وهذا ملمح خفيّ من ملامح النّعيم في الجنّة التي حسنت مؤلاً ومكانًا، وطابت لأهلها مستقراً ومقاماً.

المناديل:

مناديل الجنّة جميلة في منظرها، ناعمة رقيقة في ملمسها، وهي مصنوعة من الحرير الخالص. عن البراء رضي الله عنه قال: أهدي للنبيّ ﷺ ثوب حرير، فجعلنا نلمسه ونتعجّب منه، فقال ﷺ: «أتعجبون من هذا؟» قلنا: نعم. قال: «مناديل سعد بن معاذ في الجنّة خير من هذا»(١).

وهذه المناديل معدّة للترفّه والزينة.. ولا يدخل فيها شيء من استعمالات المناديل الدنيوية لإزالة الأذى والأقذار، ومسح العرق والأوساخ؛ فالجنّة دار الطيب الخالص، وكلّ ما يتولّد من نعيمها طاهر

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢١٩٥)، ومسلم، (ج٤/ ص١٩١٥).



طيّب.. في ذاته وصفاته، وهي مطهّرة من الأدناس، لا مخلّفات فيها ولا نفايات، ولا سوائل ولا أقذار.

وجسد الآدمي في الدّنيا مخلوق ليناسب ضعتها ودناءتها.. تصيبه الجروح والأمراض فتدبّ إليه الآفات والسوائل الكريهة، وتصيبه الشّمس والحرارة فيعرق وتتغيّر رائحته حتى لا يقدر أحد على مجالسته. والجسد الدنيوي هزيل، يغيّر فيه كلّ ما حوله، وهو بحاجة لأن يُغسل على الدّوام. ولأن الطّيب ليس كامناً في ماهيّته؛ بدليل ما يتولّد منه من روائح كريهة، وأوساخ حتى في أعقاب غسله، فهو بحاجة على الدّوام لطيب خارجي يحسّن من رائحته، بخلاف الأجساد الطّاهرة المطيّبة في الجنّة.

وأهل الدّنيا إذا فرغ أحدهم من غسل أعضائه قام بتنشيفها بقطعة قماش أو مناديل وإزالة ما علق بها من فضلات وأوساخ، ثم يجمع رُكام الأقمشة والمناديل ليتخلّص منها! هذه هي الدّنيا.. لا مفرّ، وهكذا تعوّد البشر في حياتهم الدنيوية! وهم وإن تطوّروا أو اخترعوا فإنّهم لن يخرجوا بحال من الأحوال عن دائرة تحسين الأسوأ، وتخفيف نوع التخلّف وتهذيبه [١].

فارق الاستعمالات في الدّارين!

وما في الجنّة من النّعيم مختلف تماماً؛ فالطيب فيها يتحوّل إلى ماهيّة طيب آخر لا أجمل منه ولا أزكى، وأهلها على حال من الرّفاه والنّقاء لا يمكن لعقل آدمي أن يتخيّلها، والسّعيد إذا أراد الاغتسال فإنما يغتسل

---

(١) إما بالتقليل أو بإعادة التصنيع أو بإعادة الاستخدام؛ للاستفادة من الفضلات من جديد (!!) أو التخلّص من كثرتها. وهي ما يعبّر عنه في اللغة الإنجليزية بالرّاءات الثلاثة: (3 Rs: Reuse ،Recycle & Reduce).

للمُتعة؛ لأنّ الأوضار والسّوائل، والفضلات والأحوال المستقذرة لم تبق منها سوى الذكريات، إن لم تكن هي الأخرى قد نُزعت من الأجساد والعقول مع الغمسة الأولى على أبواب الجنّة، كما نُزع الغلّ من الصّدور على أرض القنطرة.

وحتى لو بقيت بعض ذكرياتها، فإنّها إنّما ترد ليستشعر السّعداء بها فضل ربّهم، الذي نقلهم من دار العناء والقذر، وزحزحهم عن دار التعاسة والشقاء.. إلى بلاد الفرحة والبقاء، وإلا فما بالك بعرقٍ هو الطيب نفسه، يخرج من جسد هو أطهر وأرقّ، وأنقى وأعبق من المناديل الرقيقة التي يُدلك بها[1]؟!

---

(١) القادمون من بادية الدنيا معذورون لعدم قدرتهم على تصوّر النقاء السّرمديّ في دار السّلام بعقولهم الدنيوية الضعيفة، التي آذتها المشاهد المتكررة للروائح والفضلات والنّجاسات؛ فالنظافة والطهارة عندهم ضرورة دائمة يحتاجون لأجل تحصيلها إلى بذل الجهد المتواصل، بينما هي في الجنّة وصف لازم لا ينفكّ عنها.. في الأجساد والآنية، والشراب والفاكهة، والمراكب والثياب، وكلّ شيء. ولا حاجة لمفهوم (النّظافة) في الجنّة لأنّ الشيء إنّما يُعرف بنقيضه، ونقيض النظافة مستحيل الوقوع في الجنّة، التي يسير كلّ شيء فيها على كَنف النّقاء الأزلي الباقي، ولا يطأ أرضها تقيّ سعيد إلا بعد غمسة الحياة والطهر على أبوابها! وحقائق الأشياء الكريمة، بمسمّياتها الجديدة، تظهر بجلاء يوم القيامة، وهي أكثر ظهوراً في الجنّة؛ فالدم الأحمر الذي يثعب من جسد الشهيد في سبيل الله.. بصفاته المعروفة، يتحوّل إلى ماهية أخرى لم يعهدها البشر في شأن الدماء المستقذرة اللزجة التي كانت تخرج من أجسادهم، ولا تزداد بطول اللبث إلا تغيّراً! والرائحة المنبعثة من فم الصائم في سبيل الله تعالى.. تتحوّل هي الأخرى =



ومناديل المتعة والرفاه في الجنّة كثيرة لا حصر لها، وهي ناعمة الملمس، طيبة الرائحة.. بأشكال وألوان لا يزول جمالها، ولا تتحوّل بهجتُها أبدَ الآباد، وكذلك كل نعيم في دار الخلود. عن أبي هريرة ﵁ أنّ رسول الله ﷺ سُئل عن الجنّة: ما بناؤها؟ فقال: «لَبِنَةٌ من فضة ولَبِنَةٌ من ذهب، ومِلاطها[1] المسك الأذفر، وحصباؤها[2] اللؤلؤ والياقوت، وتُربتها الزعفران. من دخلها ينعم ولا يبأس، ويخلُد ولا يموت. لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم»[3]. ولذا فالثوب لا يزال جديدًا على طول اللبس.. ولا

= إلى ماهيّة زكيّة جديدة لم يعهدها البشر.. أجمل من نَفَثَات العطر الزكي المنعش الذي كان أهل الدّنيا يختارون رائحته بعناية ثمّ يثبّتون جهازه على جدران غرفهم ومكاتبهم لتنبعث منه نفثات تتهادى نسائمها في المكان بهجة وانتعاشًا. وحسرة الكافرين يومئذ مركّبة: حسرة تتولد من رؤية أحوال السعداء في عرصات القيامة، وحسرة تظهر حال حجبهم عن النعيم من كلّ وجه! و﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ قَوْمِهِۦ﴾ عصمة الإيمان بالامتثال للأمر، وعصمة التسليم بالتصديق للخبر، وعصمة اليقين في الرّضى بالقضاء. وما أجمل الاقتران بين الجزاء والعمل في مشهد التكريم النّبوي الذي أخبر عنه النبي ﷺ بقوله: «يقول الله عز وجل: الصوم لي وأنا أجزي به، يدعُ شهوته وأكله وشربه من أجلي. والصومُ جُنّة، وللصائم فرحتان: فرحةٌ حين يُفطر، وفرحة حين يلقى ربه. ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك». (متفق عليه من حديث أبي هريرة ﵁: أخرجه البخاري، ج٦/ ٢٧٢٢، ومسلم، ج٢/ ٨٠٦).

(١) المِلاط: الطين الذي يُجعل بين سافي البناء، ويملط به الحائط، (لسان العرب ج٧/ ص٤٠٦).

(٢) الحصباء: الحصى، واحدته حَصْبة، (لسان العرب ج١/ ص٣١٨).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، (ج٤/ ص٦٧٢).

تعتريه آفات التحوّل والتغيّر كما كان يعترى لباس أهل الدّنيا[1].

وأيّ وجه للمقارنة بين دار يداول أهلُها بين الثياب المطيّبة الفارهة لكمال اللذّة.. ودار يجهد أهلها في تبديل الثّياب العفنة المتغيّرة للضرورة والحاجة؟! دار تتغيّر فيها أحوال أهلها إذا قرصهم الحرّ والبرد؛ فتفوح روائح أجسادهم، وتفسد ثيابهم وتبلى وتتسخ حتى لا مجال لاستعمالها أو الاستفادة منها إلا بالغسل والتنظيف والتعقيم، ودار طيّبة.. نعيمها جديد كاف للرّفاه والإسعاد، ودائم على جِدَته أبد الآباد، لا حرور فيها ولا زمهرير، ولا جهد ولا تعب.. زكاء في الأرواح، وعَبَق بأطيب الحديث،

(١) الآفات التي تغيّر ثياب أهل الدّنيا وتشوّه أجسادهم رسائل تذكّرهم بدنائة دار الفناء التي لا تستحق البكاء على فراقها، ولا الحرص على البقاء فيها؛ حيث لا تُبقي على الطيّب حتى تغيّره، وتزفّ إليه الخبيث ليؤثّر فيه، وتبعث العَكَر إلى الصّفاء ليشوّهه، ويغيّر ماهيّته؛ فالفاسد فيها محفيّ به على الدوام، والطّيّب فيها قليل غريب نادر.. لو تُرك لم تدِبّ فيه الحياة، بل لم يزدد على طول اللبث إلا فقداً لذاته وصفاته، بخلاف الخبيث الذي يُحتفى به، وتدبّ فيه الحياة بعد ساعات، وتتولّد من ماهيته حقائق أخرى مستقذرة تؤذي العين بمنظرها، ثم لا يلبث القذر أن يتحوّل إلى نتن يُزكم الأنف برائحته، والنّتن إلى وباء يأخذ دورة حياة جديدة أشدّ خطورة؛ تدبّ فيه أو تغوص، أو تطير ملايين الميكروبات الزاحفة والفيروسات القاتلة التي تفتك بالبشر وتقضي على الحياة!! أين هذا من دار الطّيب التي لا حياة فيها لخبث، ولا يزداد النّعيم فيها إلا نضارة ولذّة، فهو مع طول اللبث يزكو عبقاً ويتورّد رِيّاً، ثمّ يترقّى حتى يتحوّل إلى ماهية طيب جديدة.. أجمل وأكمل من ذاته الأولى، بعبقٍ يتهادى وحسن منظر يتجدّد، كلّ أسبوع، بل كلّ يوم.. بل كلّ لحظة؟!



ونقاء في الأجساد وطهارة في الثياب.. فهي مطيبة في ذاتها، ولا يزيدها المسكُ الذي يضاف إليها إلا زكاءً.. يتهادى عبقاً بأجمل رائحة وأبهجها، في أبهى حُلّة وأنفَسِها، على الأجساد الطاهرة التي خلقها الله تعالى لتناسب دار السعادة، ومحلّة الفرح والبهجة؟!

لباس النساء في الجنّة:

إذا كان هذا الطيب والرفاه حاصل في لباس أهل الجنّة من الرّجال، فإنّ لباس النساء له خصوصيته ولا شك؛ لاختصاصهنّ بالتفنّن في التجمّل والزينة في الدّنيا والآخرة. وعند التملّي في المشاهد التي تُظهر لباس الحور العين نقف على لذّة أخرى بهيجة من جملة اللذائذ الكثيرة في بلاد الأفراح.

والوصف الوارد في مشاهد الحوراء، وهي ترتدي الحلل الناعمة الشفافة، يخلب الألباب، ويهيّج القلوب؛ وهو وصف جمال مركّب لا يمكن تخيّله! فمم تعجب؟ أمِن حُسن الحوراء في ذاتها.. بصفاء بشرتها الذي يُرى من خلاله مُخُّ ساقها؟ أم من نُعومة الحُلّة الرّقيقة التي تلبسها ولا تكاد تحجب عن العاشق المتيّم تفاصيلَ جسدها التي تُثير الغرام، وتهيّج للوصال[1].

وثياب الحور العين فارهة، رفيعة القدر، ومن نفاستها وكريم مادّتها أن أدناها يُنسَج من مادّة شجرة طوبى، فكيف الشأن بما هو أعلى رفعة وأكثر نفاسة؟!

---

(١) بخلاف ما كانت تتدرّع به نساء الدّنيا من ثِقل الثياب الذي يغطّي أجسادهنّ الهزيلة التي تشوّه محاسنها البثور الطافرة، والكدمات الظاهرة، والعروق السّوداء الناتئة!! وشتّان بين منازل الدّارين، وجمال المرأتين، وبهاء الحُلّتين.

وفي مشهد ملائكيّ فريد من مشاهد النّعيم يصف رسول الله ﷺ حوراء تلتقي بحِبّها أول مرة، ويجلّي بديع لباسها.. بذكر لونه، ونعومته، ومادّته التي نُسج منها، فيقول ﷺ: «إنّ الرّجلَ ليتّكئ في الجنّة، ثم تأتيه امرأته فتلاعبُه، فتضرِبَ على منكبيه، فينظُر وجهَه في خدّها، أصفى من المرآة. وإنّ أدنى لؤلؤة عليها تُضيء ما بين المشرق والمغرب. فتسلّم فيردّ السلام، ويسألها: من أنتِ؟ فتقول: أنا من المزيد. وإنّه ليكون عليها سبعون ثوباً، أدناها مثل النُعمان،[1] من طوبى، فينفُذُها بصره حتى يَرى مخّ ساقها [2]من وراء ذلك»[3].

---

(١) أي لونه أحمر، يُشبه لون النعمان، وهو الدّم بلغة العرب. (لسان العرب، ج١٢/ ص٥٨٨).

(٢) أهل هذا العصر أولى بالتصديق، وأقرب لمعرفة هذا المعنى للشفافية؛ فقد أصبحنا نرى من أحوال لباس النساء ما يقرّب هذه الصّورة جداً؛ حيث استجدّت النساء لأزواجهن ملابس للنوم في غاية الشفافية، حتى إن الواحدة منهنّ لو تدرّعت بخمسة أو بعشرة منهنّ لم يرُدّ ذلك نظر الزوج لتفاصيل جسدها من وراء الثياب!! مع أن هذا اللباس مصنوع من خامات الدّنيا الشفّافة الرخيصة، والجسد الذي تُغطّى به جسدٌ دنيوي لا يسلم من الكدمات والتشقّقات، وتشوّهه البثور والآفات، وهو مُرَكّب على النقص والهُزال، والسِّمنة والمرض، والعِلل والروائح، ويصعب الاطلاع على تفاصيله الدقيقة من وراء الثياب الشفّافة.. اطلاع لذّة واستمتاع بإطلاق، لولا المحسّنات والملوّنات، والأصباغ والمعاجين، وهو ما لا تستغني عنه المرأة الدنيوية منذ القدم.

(٣) أخرجه الإمام أحمد، من حديث أبي سعيد الخدري، (ج٣/ ص٧٥).



فيا لـه مـن مشـهد جميـل لثـوب أحمـر شـفّاف، يغطّـي الجسـد النـاعم الصّافي، في دار السعادة والإمتاع. عن بشير بن كعب قال: ذُكِر لنا أنّ الزّوجة من أزواج الجنّة لها سبعون حُلّة، هي أرقّ من شفّكم هذا، يُرى مخّ ساقها من وراء اللحم[(١)]. والمرأة الصالحة في الجنّة أسعد بهذا الوصف من الحور العين، بعد أن طهّرها الله تعالى ظاهراً وباطنـاً، وطيّبها حسّـاً ومعنى[(٢)].

ومن ألبسة الحوراء التي تتجمّل بها، غطاء الرأس الجميل الـذي أخبر عنه رسـول الله ﷺ بقولـه: «لـو أن امرأة مـن أهـل الجنّـة اطّلعـت إلـى أهـل الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأته ريحـًا، ولنصيفُها على رأسـها خيـرٌ مـن الدّنيا وما فيها»[(٣)].

وفي مشهد فريد من مشاهد نعيم أهل الجنّة.. غاية في الإمتاع والجمال، يظهر السعيد وهـو متكـئ علـى أريكتـه، بثيابـه الحريريـة الرّقيقـة الخضـراء، وأسـاوره الذهبيـة الجميلـة، علـى حالـة مـن البهجـة والحبـور، والسـعادة والسرور.. ويتأمّل في النّعيم المقيم الذي يحفّ به من كلّ مكـان، يقـول الله

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنّة بسند صحيح إلى بشير بن كعب، ص١٢٥.

(٢) إذا اجتمعت السعيدة مع أخواتها في مجالس الرّغد والهناء، وتـذكّرت مـا كانـت تضعه في الدنيا على جسدها، من المعاجين والأصباغ والخضـروات، مـن: خيـار وطماطم وباذنجان.. ضحكت على نفسها، وتعجبت مـن سلوكها! ولا عَجَـب فهـو سـلوك يُناسـب دار الـدّنيا.. بعقليّـات أهلهـا، ونظـرهم القاصـر، وأدوات التجميل والزينة التي ظلّوا يفاخرون بها!!

(٣) أخرجـه البخـاري عـن أنـس رضي الله عنه، (ج٣/ ص١٠٢٩). والنصيـف: الخمـار الـذي تغطي به المرأة رأسها. (لسان العرب، ج٤/ ص٢٥٧).

تعالى في وصف هذه الحال البهيجة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴾[الكهف: ٣٠ - ٣١]. ويا له من مشهد كريم جمع صُنوفاً من اللذّات المُمتعة.. بين منظر اللباس ولونه ونعومته، والحليّ بجمالها وفخامتها، وحالة الرّغد التي تظهر في مشهد الاتكاء، والمتعة المتحصَّلة من جراء النّظر في الملك العظيم، والسكون الذي لا يقطّعه إلا خرير الأنهار وهي تجري من تحت غرف القصر، وتداعب ورق الأشجار الوارفة الغنّاء.. بأطيارها وأزهارها وثمارها.

حُليُّ أهل الجنّة:

فإذا استتمّ السعيد زينته من الثياب الجميلة العَطرة عُرضت بين يديه صنوف الحُليّ الثمينة، المتنوّعة في مادّتها وفصوصها الكريمة، ونقشها البديع الذي يسلب الألباب. والعبد الصالح يُكرم في الجنّة بزيادة في الحُليّ والثياب، وبالطعام والشراب، وبالحور العين، وبالقصور الكثيرة، وبالدرجات العلى في منازل النّعيم الرغيدة، وبالفضل الكبير، وبالرضى والقرب من الكريم الرحمن.. على قدر عمله الصالح في الدّنيا. وما أبدع حكمة الله تعالى في المفاضلة بين الدّارين من كلّ وجه، حيث جعل التحلّي في الجنّة مما يشترك فيه الرجال والنساء، بل منه ما هو على الرّجل أجمل وأحسن، بعد أن كان في الدّنيا من شأن النساء فقط، يتجمّلن به لأزواجهنّ!

وليس في الجنّة نعيمٌ محجوب عن أحد دون أحد.. يستوي في ذلك الرّجال والنّساء، إلا ما كان مخصوصاً لأحدهما بمقدار معلوم؛ لإظهار نوع الاختصاص والكرامة.



وأفراد هذه الأمّة يُعرفون بنوعين من الحلية: حلية (التعريف) التي تكون على أعضاء الوضوء من أجسادهم يوم القيامة، وبها يعرفُ محمّدٌ ﷺ أمّته على الحوض، فإذا دخلوا الجنّة زال الأثر الجسدي لهذ الحلية، وحلّت بدلاً عنها حِليةُ (التشريف)، في هيئة أساور الذهب والفضة والياقوت التي تبلغ من السعداء حيث يبلغ الوضوء؛ جمعاً بين الأدلّة، والله أعلم. عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو أنّ ما يقلّ ظفرٌ مما في الجنّة بدا لتزخرفت له ما بين خوافق السماوات والأرض، ولو أنّ رجلاً من أهل الجنة اطّلع فبدا أساوره لطمس ضوء الشمس، كما تطمس الشمس ضوء النجوم»[(١)]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت خليلي ﷺ يقول: «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء»[(٢)]. وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنّا إن شاء الله بكم لاحقون. وددت أنّا قد رأينا إخواننا» قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله ﷺ؟ قال: «أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد». فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمّتك يا رسول

---

(١) سنن الترمذي، (ج٤/ ص٦٧٨).

(٢) أخرجه مسلم، (ج١/ ص٢١٩)، ولذا كان أبو هريرة يجوز المرفقين إلى العضدين، والكعبين إلى السّاقين في الوضوء، تأوّلاً منه لهذا الحديث، وإن كانت الصفة الأكمل، في جميع الأحوال، ما كان عليه رسول الله ﷺ هيئة وابتداء وانتهاء. قال ابن القيم رحمه الله: وقد احتج بهذا من يرى استحباب غسل العضد وإطالته، والصحيح أنّه لا يُستحب.. والحديث لا يدلّ على الإطالة؛ فإنّ الحلية إنما تكون زينة في الساعد والمعصم، لا في العضُدِ والكتف. وأما قوله: «فمن استطاع منكم أن يطيل غرّته فليفعل» فهذه الزيادة مُدرجة في الحديث من كلام أبي هريرة رضي الله عنه لا من كلام النبي ﷺ. (حادي الأرواح، ج١/ ص١٣٧).

الله؟ فقال: «أرأيت لو أنّ رجلاً له خيلٌ غُرّ مُحجّلة بين ظهري خيل دهم بُهم، ألا يعرف خيله؟» قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ. قال: «فإنّهم يأتون غُرّاً مُحجّلين من الوضوء، وأنا فرطهم على الحوض. ألا ليُذادنّ رجالٌ عن حوضي كما يُذاد البعيرُ الضالّ.. أناديهم ألا هلُمَّ فيُقال: إنهم قد بدّلوا بعدك، فأقولُ سحقًا سحقًا»(١).

وسياق هذا المشهد خاصّ بأمّة محمّد ﷺ على وجه يحدث فيه التمايز بينهم وبين سائر الأمم يومئذ. ومناداته لآحاد أمّته، الذين يعرفهم بسيما الغرّة والتحجيل، تدلّ على أنّ هذه الحلية يومئذ حلية تعريف لا تشريف، ولذا لو كان أصحابُها من المنافقين وكبار أهل البدع والمجرمين الذين لم تكن صلاتهم في الدنيا تنهاهم عن الإحداث في الدين أو عن ارتكاب المحرمات.

وقد يجتمع في هذه الحلية التعريفُ والتشريف معًا؛ لوجود أصل التوحيد، وهو سبيل التشريف والكرامة في الدنيا والآخرة، وإن حصل الطرد والإبعاد عن الحوض تأديبًا بسبب تضييع الحقوق الأخرى. وقد يكون التعريف والتشريف يومئذ تامّا كاملاً، وهو ما يحصل لعباد الله المخلصين الذين تناديهم الملائكة وتتلقاهم بالترحيب على مداخل الحوض(٢).

---

(١) أخرجه مسلم، (ج١/ ص٢١٨).

(٢) حلية الغرّة والتحجيل التي يُكرم بها المؤمنون يوم القيامة هي العلامات البيضاء الظاهرة في أعضاء الوضوء: الوجه واليدين والذراعين والقدمين، وهي علامات فارقة، وسمة تعريف وتشريف للمتقين. ولم يرد أثر صحيح يُثبت بقاءها بعد دخول الجنة، ولذا تزول حال دخولها، وتُستبدل بالحُليّ، والله أعلم. وما ورد في حلية السعداء إلا الأساور والتّيجان. وموضع الأساور من الجسد: الذراعان، =



= لا القدمان، ولا الجبهة، بطبيعة الحال، وأمّا التّاج فموضعه فوق الرّاس. قال الجزري: المحجّل من الخيل هو الذي يرتفع البياض في قوائمه إلى موضع القيد ويجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين.. ولا يكون التحجيل باليد واليدين ما لم يكن معها رجل أو رجلان، ومنه الحديث: «أمتي الغرّ المحجّلون» أي: بيضُ مواضعِ الوضوء، من الأيدي والوجه والأقدام. استعار أثر الوضوء في الوجه واليدين والرجلين للإنسان من البياض الذي يكون في وجه الفرس ويديه ورجليه. (النهاية في غريب الأثر، ج١/ ص٣٤٦).

والمحجّلون المطرودون على أصناف، والله أعلم، أشدّهم حرمانـًا المنافقون ودعاة البدع، ومنهم الذين لا يرجون لله وقاراً، ممن تذهب جبال حسناتهم هباء لانتهاكهم حُرمات الله في الخفاء، ومنهم المفلسون الذين يؤخذ بهم إلى ساحة الحساب حيث يتوافد عليهم الغرماء من كلّ جانب.. وهؤلاء وغيرهم يردون الصراط جميعـًا بلا زاد، ويهوون في السعير: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَاهُمْ يُنظَرُونَ﴾، ثمّ يُغيّبون ويُنسون في النّار أحقابـًا، وينقطع خبرهم.. وربّهم أعلم بهم، يرى حالهم، ويسمع كلامهم، وقد حرّم على النّار أن تأكلَ مواضع السّجود من أجسادهم، فإذا انقضت مدّتهم، وهذّبت لفحات الحسرة والنّدم قلوبَهم، نظرَ إليهم ربّهم نظرَ رحمة؛ فلا يروع من بقي منهم حيّـًا إلا وزبانيةُ النّار يختطّفونهم على وجه السّرعة من كل جانب، تخطّف مودّة ورحمة هذه المرّة؛ إنفاذاً لأمر العليّ الأعلى؛ ويستنقذونهم إلى أبواب جهنّم. وهناك، تتلقّاهم الملائكة والشّفعاء، من الأهل والأصحاب؛ فيُزفّونهم كما تُزفّ العروس إلى النُّزُل الجديد.

فإذا دخلوا الجنّة دبّت فيهم الحياة، وجرى لهم من النعيم والعطاء والسعادة ما يجري لإخوانهم السابقين؛ حيث يرفلون بالنّعيم في أكناف القصور، ويُحلّون بأساور الذهب والفضة والحرير، ويتّكئون بقرب زوجاتهم من الحور، آمنين، مكرمين بنداء السّعادة من الرّب الرّحيم: «إنّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً، وإنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإنّ لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً، وإنّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً». (أخرجه مسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، ج٤/ ص٢١٨١). سيأتي الحديث عن دخول عصاة هذه الأمّة الجنّة.

وحليّ السّعداء في الجنّة أساور الذهب والفضة.. المكلّلة بالدُرّ والياقوت على الذراعين، وهي على أشكال وألوان، وتصاميم وأحجام لم ترها عين من قبل، ولم تخطر على قلب بشر. عن سَعْدِ بن أبي وَقَّاصٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لو أَنَّ ما يُقِلُّ ظُفُرٌ مِمَّا في الْجَنَّةِ بَدَا لَتَزَخْرَفَتْ له ما بين خَوَافِقِ السماوات وَالْأَرْضِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا من أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَ فَبَدَا أَسَاوِرُهُ لَطَمَسَ ضَوْءَ الشَّمْسِ كما تَطْمِسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُومِ»(1).

أساور الذهب والفضة:

السّوار ما يزيّن المعصم(2)، والأساور أشرف ما يُحلّى به أهل الجنّة، وهي أكثر الحُليّ حسنًا وبهاء. ولفظ (أساور) في كلام الله تعالى يأتي دائمًا بالتنكير؛ لإظهار كثرتها وشرفها وفخامتها، قال الله سبحانه واصفًا حال السّعداء في دار الكرامة: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[الحج: ٢٣].

وهذا المشهد الفريد الوجيز يتضمّن أربعة اصناف من الأساور، يحتملها النصّ جميعًا: أساور الذّهب الخالص، وأساور اللؤلؤ الخالص،

---

(١) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٦٧٨).

(٢) السّوار ما يُلبس على الذراع من الحُليّ مطلقًا. والجمع أساور وأسورة. وفرّق شهاب الدين المصري بين ما يُلبس من الحُليّ بقوله: الأساور والأسورة جمع سوار، وهو الذي يُلبس في الذّراع إن كان من ذهب، فإن كان من فضة فهو قلب، وجمعه قلبة وإن كان من قرون أو عاج فهو مسكة. (التبيان في تفسير غريب القرآن، ج١/ ص٢٧٤). والصحيح، والله أعلم، عدم التفريق، لورود العموم في النّص، قال تعالى: ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾.

وأساور الذهب المرصّع باللؤلؤ، أو اللؤلؤ المرصّع بالذهب. وهناك أساور الفضّة الخالصة التي أخبر الله تعالى عنها بقوله: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[الإنسان: ٢١].

وهناك أنواع أخرى كثيرة لا يعلمها إلى الله تعالى: أساور الذّهب المطعّم بالفضّة، وأساور الفضّة المطعّمة بالذهب، وأساور الذّهب والفضة واللؤلؤ، وأساور أخرى بنقوش وجواهر لم يرها بنو آدم قط، ولم تخطر لهم على بال.

والأساور من الحلي المشتركة بين الرجال والنساء في الجنّة؛ لكلّ ما يناسبه ويخصّه، عن محمد بن كعب يحدّث عمر بن عبد العزيز قال: والله الذي لا إله إلا هو لو أنّ امرأة من الحور العين طلعت لأطفأ ضوء سواريها الشمس والقمر، فكيف بالمسوَّرة(١).

وما في الجنّة حاجة لمعرفةِ الزمن؛ فوقتهم مقدّر محفوظ، وله رعاية خاصة وترتيب دقيق؛ ولذا فلا حاجة لأهلها بارتداء السّاعات، فإن رغبوا فيها؛ لدواعي الزينة، أو معرفة دوران الزّمن كان لهم ما يشاءون؛ فيُحلّون بأجمل الساعات وأفخمها، مما لم تره أعينهم من قبل.

اللؤلؤ والياقوت:

ومن الجواهر المشهورة في الجنّة، ومنها تصاغ حُلي أهلها، بالإضافة للذهب والفضة: اللؤلؤ والياقوت. وللؤلؤ والياقوت في الجنّة استخداماتهما الكثيرة بالإضافة للحليّ والعقود؛ فهما يدخلان في بناء القصور، والخيام،

(١) تفسير الطبري، (ج٢٣/ ص٢١).

وبيوت القصب المجوّف، والمنابر، والآنية، والغرف، واستعمالات أخرى كثيرة لا يعلمها إلا الله جل جلاله، قال ﷺ في وصف امرأة من نساء الجنّة: «وإنّ أدنى لؤلؤة عليها تُضيء ما بين المشرق والمغرب»[1]. وقرأ ﷺ ذات يوم قوله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ فقال: «عليهم التيجان. إن أدنى لؤلؤة منها لتضيء ما بين المشرق والمغرب»[2].

التيجان المرصّعة بالجواهر:

ومن حُليّ أهل الجنّة التّيجان الفخمة المرصّعة بالجواهر النّفيسة. وقد جاء الحديث عن هذه التّيجان في سياق الجزاء الأوفى على أعمال صالحة بعينها؛ ومن أعظمها: الشهادة في سبيل الله تعالى، فعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للشّهيد عند الله ستّ خصال: يُغفرُ لهُ في أوّل دفعة، يعني من دمه، ويرى مقعده من الجنّة، أي قبل وصوله إليها، ويُجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار.. الياقوتةُ منها خيرٌ من الدّنيا وما فيها، ويزوّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه»[3].

ولا يُقارب الشهيد في هذه المنزلة الظاهرة من التكريم والرّفعة في المنازل العليّة من الجنّة إلا حامل القرآن الذي عمل به في الدّنيا، ووالداه

---

(١) أخرجه الإمام أحمد، من حديث أبي سعيد الخدري، (ج٣/ ص٧٥).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، (ج٢/ ص٤٦٢) عن أبي سعيد الخدري، وقال: حديث صحيح الإسناد.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.



اللذان تعاهداه بالصّيانة والرّعاية حتى أصبح من أهل القرآن.. حفظاً وتعلّماً وتأدباً، وطربت آذانهما بسماعه، أو ماتا قبل ذلك[1]. عَنْ مُعَاذٍ الْجُهَنِيِّ ﵁ أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ، وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، أُلْبِسَ وَالِدَاهُ تَاجًا يَوْمَ الْقِيامَةِ، ضَوْءُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فِي بُيُوتِ الدُّنْيَا لَوْ كَانَتْ فِيكُمْ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهَذَا؟»[2]. وعن بريدة ﵁ قال: كنت جالسا عند النبي ﷺ فسمعته يقول: «تعلّموا سورة البقرة، فإن أخذها بَركة، وتركَها حَسْرة، ولا يستطيعها البَطَلة[3]»، ثم سكت ساعة، ثم قال:

---

(١) وجه الشّبه بين حافظ كلام الله تعالى قولاً وعملاً، والشهيد في سبيل الله تعالى ظاهر جليّ في الحال والمآل؛ فكلاهما معظّم لشعائر الله، وأقرب إلى رحمته؛ لجهادهما المحمود، هذا بجهاد نفسه عن الهوى وحبسها على الحقّ حتى أصبح من أهل القرآن، وهذا بدفع نفسه إلى مواطن الرّدى طلباً لموعود ربّه. وتتقارب درجاتهما وصور نعيمهما في الجنّة جداً؛ فكلاهما يجوز مرحلة الخوف على نفسه، وينال درجة الشّفاعة لغيره، فإذا دخلا الجنّة عُرف كلّ منهما بلباسه الظّاهر ومنزلته الرّفيعة. وأهل القرآن في صدر الإسلام وبعده هم أهل الصفوف الأول، ومقدّمة الطلائع والسرايا؛ ولذا تُحفظ لهم مكانتهم بين أهل الجنّة إذا دخلوها. عن عطاء بن يسار قال: حملة القرآن عرفاء أهل الجنة. (سنن الدارمي، ج٢/ ص٥٦١) وعن طاوس أنّه سأل ابن عباس ﵄ عن معنى كونهم عرفاء أهل الجنة، فقال: رؤساء أهل الجنة. (النهاية في غريب الأثر، ج٣/ ص٢١٨).

(٢) أخرجه أبو داود، (ج٢/ ص٧٠).

(٣) يعني: السّحَرة. وما أشدّ حسرة المؤمنين يوم التغابن نتيجة إهمال تعلّم هذه السورة وعدم حفظها، أو تعليمها للأهل والذريّة.

«تعلّموا سورة البقرة وآل عمران فإنّهما الزهراوان، وإنهما تُظلّان صاحبهما يوم القيامة.. كأنهما غمامتان، أو غيايتان أو فِرقان من طيرٍ صوافّ. وإنّ القرآن يَلقى صاحبه يوم القيامة، حين ينشقّ عنه القبر كالرّجلِ الشّاحب فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك. فيقول: أنا صاحبك: القرآن، الذي أظمأتُك في الهواجر، وأسهرتُ ليلك. وإنّ كلَّ تاجرٍ من وراء تجارته، وإنّك اليوم من وراء كلّ تجارة، فيُعطى المُلكَ بيمينه، والخُلدَ بشِماله، ويوضَعُ على رأسه تاجُ الوقار، ويُكسى والداه حُلّتان لا يقوم لهما الدّنيا، فيقولان: بم كُسينا هذا؟ فيقال لهما: بأخذ ولدكما القرآن. ثم يُقال له: اقرأ، واصعد في درج الجنّة وغُرَفِها، فهو في صعود ما دام يقرأ.. هذّاً كان، أو ترتيلاً»[1].

القرابات والشمائل لا تزول بدخول الجنّة:

إذا دخل أهل الجنّة الجنّة فإنهم يدخلونها بأجساد طاهرة نقيّة، زال عنها الأذى والنّجس، وبقلوب صافية، نُزع منها الغلّ والحسد، ومشاعر كريمة، لا تعرف البؤس ولا الذّكريات المؤلمة، وبشمائل حسنة.. تتصل معها خصوصيات الكرم والرّحمة، والسماحة والأخلاق الحميدة التي اشتهر بها أهل المعروف في الدّنيا.

ومع أنّ أعظم نعيم الجنّة ما يكون في داخلها إلا أنّ ثمّة نعيم واحد يصطحبه السعيد معه من خارجها، وهو ما اتصل من سابق القرابات والصداقات، والمشاعر المحبّبة والهوايات، والذكريات الجميلة!! وهذا

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه، (ج٢/ ص٥٤٣). والهذّ: سرعة القراءة. (لسان العرب، ج٣/ ص٥١٧).



الصّـنف مـن النّعـيم قلـيلاً مـا يُتحـدّث عنـه، ولا يكـاد يجـري في حـديث الترغيب ببلاد الأفراح!

نزع الغلّ من القلوب:

كما تتحلّى الأجساد على أبواب الجنّة بهيئات النّضرة والجمال، وبالحواس الكاملة القويّة، فكذلك الأرواح والقلوب والعقول.. تغمرها بهجة النّعيم في كنف الأحوال الكريمة، والمشاعر السّعيدة، والذكريات الجميلة، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[الحجر: ٤٧].

وفي هذا التعبير القرآني الكريم لفتة جميلة لمن تأمّلها؛ فعمليّة النّزع هنا مركّبة من فاعل يُباشِره، بأمر الرّب الرحيم سبحانه، ومنزوع يتمّ استلاله من الصّدور بكلّ جذوره وآثاره، وهو الغلّ البغيض الجاثم في القلوب، الذي يولّد الحقد والكراهية، وتقطّع المودّات، وتفريق الأحباب، وتأجيج نار العداوات(١).

(١) من رحمة الله تعالى بالأنبياء الكرام عليهم الصّلاة والسلام أنّ هذا النّزع كائن لهم في الدّنيا قبل الآخرة، وهو يحدث بطريقة حسّيّة مشاهدة. عن أنس بن مالك أنّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه، فشقّ عن قلبه؛ فاستخرج القلب، فاستخرج منه علَقَة فقال: «هذا حظّ الشيطان منك» ثمّ غسله في طستٍ من ذهب، بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمّه، يعني ظئره فقالوا: إنّ محمداً قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقعُ اللون. قال أنس: وقد كنتُ أرى أثر ذلك المخيط في صدره. (أخرجه مسلم، ج١/ ص١٤٧).

وفي هذا النّزع إعانة للرسول الكريم ﷺ في مهمّته العظيمة التي تحتاج إلى قلب نقيّ طاهر.. لا يعرف الحقد والغلّ والحسد، ويحتمل زلّة الجاهل، وتفريط =

كما يتضمّن التعبير القرآني نتيجة سعيدة، بعد هذا النّزع للغلّ، ألا وهي حلـول المحبّـة والألفـة، وتقـارب الأرواح والمجـالس في كنـف السـعادة الأبديـة. فـالنّزع مـن الصـدور حاصـل لشـيء واحـدٍ فقـط، هـو الغـلّ، مـن مجموع أشياء ستظلّ زكيّة باقيـة، مـن قبيـل الـذكريات الجميلـة، والشـمائل والآداب الحسنة، التي تزداد صفاء ونقاء بعد زوال الغلّ الـذي طالمـا شـوّه حقائقها في الدنيا.

ولازم نزع الغلّ من القلـوب تطهيرهـا لتكـون صـالحة لـدخول الجنّـة، وتنقيتها من كلّ ما يكدّر صفو أهلها، ومن هنا فلا يبعد أن تـزول بهـذا النّـزع كلّ مودّة لأصحاب الجحيم، من أهل وقرابة وأصحاب وجيران ونحـوهم؛ فلا يعود لهم في قلب السعيد ذِكر البتّة، أو لا يعود لهم في قلبه حبّ ومـودّة؛ فإذا ذكروا أقرانهم في الدّنيا أو اطّلعوا عليهم في سـواء الجحـيم فعلـى سـبيل استشعار الفضل والمنّة، وشكر النّعمة بسلامة المبدأ والمعاد، والله أعلم.

ومـن استحضـر سـعة النّعـيم، واسـتعرض النصـوص، وجـد أنّ هنـاك صنفان من النّعيم يُكرم الله تعالى بهما كلّ سعيد من عباده المتّقـين: صـنفٌ يصطحبُه معه من دار الدّنيا، لكن بكمالاتٍ تناسـب دار السـلام، مـن قبيـل: القرابات والصداقات، والأخـلاق والعـادات، والمشـتهيات والمحبوبـات، وصنف آخر من النّعيم أعظم وأرفع وأكمل، وهو ما يجده السّعيد إذا دخـل الجنّة، واستمتع بلذّاتها وقراباتهـا وصـداقاتها الجديـدة، علـى أخـلاق أهلهـا

= الغافـل، وحقـد الحاسـد، وحماقـة المـبغض. ومـن تأمّـل حلـم الرّسـل الكـرام وصـفحهم وصـبرهم أيقـن بـأنّ هـذا التّطهير كـائن لهـم أجمعـين علـيهم الصـلاة والسلام قبل تكليفهم بأداء مهامّهم، والله أعلم.



وعاداتهم، ولذائذ ومشتهيات.. لم ترها عينه، ولم تسمع بها أذنه، ولم تخطر على قلبه.

ومجموع هذين الصنفين من النعيم يُضفي البهجة والخصوصية في النُّزُل الكريم؛ فالسّعداء يُنادون بأحبّ أسمائهم في الدّنيا[1]، وقراباتهم الصالحة التي فرّوا منها على عرصات القيامة، ها هم اليوم يأوون إليها ويهنأون بكنفها، وكذلك صداقاتهم ومحبوباتهم، وحتى ذكرياتهم الجميلة وشخصياتهم التي عُرفوا بها في الدّنيا.. كلّها تظلّ على حالها، ولا يُهذّب منها إلا الرّديء الذي لا يتفق مع طيب الجنّة، وفوق ذلك نعيم جديد، ومشاعر كريمة وبهجة ورغد في بلاد الأفراح لا خَطَر له.

وعلى أبواب الجنّة، في الحياة الأبديّة السرمدية، تظهر مراسم السّعادة الكبرى التي يحصل فيها التطهير الكامل من كلّ وجه.. للرّوح والقلب، والعقل والجسد، ويزول معها كلّ غلّ وخُلُق رديء، لا يتّفق مع الحياة الجديدة.

صفاءُ القلوب، وتقارب الأرواح:

وللسعيد في الدّنيا جنّةٌ يدخلها قبل أن يدخل جنّة الآخرة، وبين الجنّتين شَبَهٌ كبير، لو تأمّلنا. ومراحل التطهير الحسّي والمعنوي للسعداء، قبل دخول الجنّتين غاية في العجب كذلك، وهو آية على بديع صنع الله تعالى، وكمال علمه وحكمته، وخَلْقه وتدبيره؛ فعلى أعتاب الدخول في جنّة الدّنيا بالتّوبة الصّادقة.. تبدأ مراسم التطهير الحسي والمعنوي للسعيد

---

(١) لا يمنع أنّ تُغيّر الأسماء القبيحة على أبواب الجنّة، وتزول عن أصحابها، كما تزول الأضغان من الصدور، والنجاسات من الأجساد، والمشاعر الأليمة من الذكريات، والطباع الرديئة من الأخلاق، والله أعلم.

من كلّ وجه؛ وبها يُهذّب باطنه من الغلّ والبغضاء، والحقد والحسد، ويُحلّى بكمالات النّقاء والطهارة، والطّيب والعفّة، ولا يزال قلبه يتخلّى عن كلِّ خُلُق رديء، ويتزكى بالمحبّة والرّضى واليقين، ويترقّى بالعمل الصالح وحسن الخُلق حتى يُبلّغ كمالات الإيمان، ومنها يجوز إلى أعلى المراتب وأغلاها.. منزلة الإحسان(١).

والمؤمن إذا دخل الجنّة تحصّلت له لذات جديدة من النعيم، إلا أنّه لا يُجرّد من سابق قراباته ومحبوباته كذلك، ولا تزول عنه ذكرياته

---

(١) أكمل صورة دنيوية للتطهير الشامل للروح والبدن والمشاعر، مع شرف الزمان والمكان، لا تظهر إلا في بقعة واحدة من الأرض هي بلد الله الحرام، مكة المكرّمة، التي لا يدخلها إلا المتّقون، ولا ينعم بالشّرب من مائها والتطواف في رياضها إلا السّعداء الذين وفدوا إليها من كلّ فجّ عميق! فكأنّ مجيئهم إلى مكّة لنيل الشرف العظيم بالوقوف على صعيد عرفة، يوافق زحفهم من بين سائر الخلائق إلى أبواب الجنّة لنيل الشرف المجيد يوم المزيد!

والإحرام قبل دخول مكّة يمثّل أكمل مظاهر الطهر في حياة البشر.. الطّهر الحسيّ المتمثّل في الاغتسال والتجرّد عن لباس أهل الدّنيا، والطهر المعنوي باجتماع النفوس في صعيد واحد، على قلب واحد، رغم اختلاف الأجناس والألوان، واللغات والأوطان! في صورة فريدة لا يماثلها إلا مسير وفد المتّقين إلى أبواب الجنّة.. مُكرمين، على قلب رجل واحد، رغم اختلاف ألوانهم وأجناسهم بعد أن نُزع الغلّ من صدورهم، وتلاقت قلوبهم وأرواحهم! فهو طهر حسيّ بنزع لباس الدّنيا عن الأجساد، وارتداء ثياب الآخرة البيضاء النّقيّة، وطهر معنوي بنزع أخلاق أهل الدّنيا من القلوب، والتشبّه بأخلاق أهل الجنّة، فما أبدع حكمة الله تعالى وما أحسن تدبيره!



ومشاعره وشخصيته، إلا ما شوّه الفطرة السويّة، أو تعارض مع الدار العليّة[1].

ومن هنا فكلّ سعيد يدخل الجنّة يصطحبُ ما كان معه من الرّغائب والقناعات، والقيم والمحبوبات.. مجرّدة من قصور التصوّرات، وضعف الإرادات وفساد السلوكات، والمشاعر الحزينة التي تزول بعد الصّبغة الحانية في كنف النعيم، والله أعلم.

---

(١) حال المشاعر والذكريات المكنوزة في الجسد الطّاهر إذا دخل الجنّة كالجزيئات الكثيرة التي يُعاد صقلها في داخل الذّهب المسبوك حين يُصقل من جديد؛ ليزول عنه الخبث، وتستقرّ الجزيئات النّفيسة فيه وتتماسك داخل القالب النّقيّ. غير أنّ الفتن هنا فتن جديد، لا تدخل في ما هيّته النّار، وإنّما بغمسة الرّضى على ضفاف الأنهار. فإذا هذّبت الأخلاق من غلّها، والمشاعر من أكدارها انتظمها الجسد الطّاهر الذي يصوّر بصورة أهل الجنّة، ويلبس لباس أهل الجنّة، ويُحلّى بحُليّ أهل الجنّة.

والسّؤال عن سابق العناء والبؤس تأكيد لوجوده قبل غمسة الرّضى هذه، وبعد نزع الغلّ على أرض القنطرة، وهذا أكبر دليل على بقاء المشاعر الحميدة، والرغائب والذكريات الجميلة التي يزداد بها النّعيم، ويحلو بها العيش الكريم في دار المقام. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بأنعم أهل الدّنيا من أهل النار يوم القيامة، فيُصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا بن آدم هل رأيتَ خيراً قطّ؟ هل مرّ بك نعيمٌ قطّ؟ فيقول: لا والله يا ربّ. ويُؤتى بأشدّ النّاس بؤساً في الدّنيا من أهل الجنّة، فيُصبغ صبغةً في الجنّة فيُقال له: يا بن آدم، هل رأيتَ بؤساً قطّ؟ هل مرّ بك شدّةٌ قطّ؟ فيقول: لا والله يا ربّ، ما مرّ بي بؤسٌ قطّ، ولا رأيتُ شِدّةً قطّ» أخرجه مسلم، (ج٤/ ص٢١٦٢).

بقاء المعروف، وظهور الشمائل:

وإذا دخل أهل الجنّة الجنّة ونزع الغلّ من صدورهم، وسائر الصفات الرديئة من أخلاقهم فإنهم يدخلونها بكمالات أخلاقهم. وكمالات الأخلاق في الجنّة مركبة من صنفين: كمالات عُرفوا بها في الدّنيا جرّاء الإيمان والعمل الصّالح، وكمالات يحصّلونها في هذه الدار الكريمة التي يفدون إليها.

وإذا كان لأهل المهن والهوايات، وطالبي الولد والخيل والزّرع أن ينعموا بما يشاءون في دار الجزاء، وإذا كان لبعض الأعمال الصالحة أردية وتيجان يُعرف بها أصحابها؛ فإنّ لأهل المروءات والشرف شأنٌ وأيّ شأن، في دار السّلام؛ فالإمام العادل الذي استظلّ من شدّة الحر يوم القيامة له منزلته الرفيعة، ومقامه المحمود الذي يُعرف به، وكذلك العالم وشيخ القبيلة، والقائد والمدير، وإمام المسجد، والأمراء والشعراء، وسائر أهل الولايات والرئاسات والشرف من المتقين.. كلهم معروفون بمروءاتهم، ولا تزول عنهم مكانتهم في دار الرفعة والجزاء.

وكيف لا يُعرَف أهل المعروف والمكانة والفضل في الجنّة، وهم إذا أسلموا في الدّنيا لم تزُل عنهم صفات الخير التي عُرفوا بها في الجاهلية، بل يزدادون بها خيراً على خيرهم، وفضلاً على فضلهم؟! عن حَكِيمَ بن حِزَامٍ ﵁ قال: قلت يا رسول الله ﷺ: أَرَأَيْتَ أُمُورًا كنتُ أَتَحَنَّثُ بها في الْجَاهِلِيَّةِ، هل لي فيها من شَيْءٍ؟ فقال له رسول الله ﷺ: «أَسْلَمْتَ على ما أَسْلَفْتَ من خَيْر»[1]. وكذلك سائر أهل الجنّة.. يدخلونها ويُعرفون فيها بكريم

(١) أخرجه مسلم، (ج١/ ص١١٣).



شمائلهم التي كانوا يُعرفون بها في الدّنيا. عن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «أهل المعروف في الدّنيا، هم أهل المعروف في الآخرة»(١).

ومن هنا فالكريم في الجنّة يظلّ معروفًا بالكرم، لكن على أكمل حالات الجود التي تليق بأهل الجنّة، وأهل الشّجاعة والاحتساب، والغيرة على الدّين يُعرفون بين أهل الجنّة بسابق فضلهم، والبارّ بوالديه، الوصول لأهله وقرابته يظل معروفًا بذلك، وأهل الوفاء جميعًا معروفون بوفائهم، وأصحاب المعروف لا ينقطع عنهم معروفهم!

وقد أخبر رسول الله ﷺ أنّ أبا بكر وعمر سيّدا كهول أهل الجنّة، أي: أشرف من يدخلها بعدَ الأنبياء من كُهول أهل الدنيا، وأنّ الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، مع أنّ الجميع يدخلونها في سنّ واحدة، ولكنّه التقدير والإجلال لأهل الشرف والمكانة في الإسلام، عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر وعمرَ سيّدا كُهولِ أهلِ الجنّة من الأوّلين والآخِرين، إلا النبيين والمرسلين، لا تُخبرهما يا عليُّ ما داما حَيَّيْن»(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، (ج١/ ص٢١٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه، (ج١/ ص٣٦). قال المباركفوري: وقال الجزري في النّهاية: الكهلُ من الرّجال من زاد على ثلاثين سنةٍ إلى الأربعين، وقيل: من ثلاث وثلاثين إلى تمام الخمسين، وقد اكتهلَ الرجلُ وكاهل: إذا بلغ الكُهولةَ فصار كهلاً، وقيل: أراد بالكهلِ ها هنا الحليمُ العاقلُ، أي: أنّ الله يُدخلُ أهلَ الجنَّةِ الجنّةَ حُلماء عُقلاء. (تحفة الأحوذي ج١٠/ ص١٠٣). وقال المناوي في معنى الحديث: أي: الكهولُ عند الموتِ، إذ ليس في الجنة كُهُولٌ فاعتُبِر ما كانوا عليه عند فراق الدنيا. (التيسير بشرح الجامع الصغير، ج١/ ص١٨). وقال القاري: =



وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحسن والحسينُ سيّدا شباب أهل الجنة، وأبوهما خيرٌ منهما»[1].

الثناء على السعداء بسابق الفضل:

عاجل البُشرى للمؤمن في الدنيا أن يُذكر بجنس ما طُرح له القبول فيه، وهو أمر محمود لا عَتَب فيه ما دام القلب صادقًا، مخلصًا، وافر الطمع بما عند الله تعالى[2]. فإذا كان هذا شأن البُشرى في الدّنيا، ومورد التزكية فيها ضيّق جداً على النّفس، ربما كدّرته شوائب الغرور والرّياء التي تحبط العمل بالكليّة، فكيف حال البشرى في دار الجزاء التي رُفع فيها العمل، وزالت كلّ مفسداته وعوارضه، والنّفس فيها نقيّة الموارد، سالمة من كلّ مكدّر، والمدح فيها من جملة النّعيم الظاهر الذي يعبُق ويُذاع ويُذكر، وهو مما يطرق سمع السّعيد بكرة وعشيّـًا؟! قال الله تعالى واصفًا ثناء أهل الجنّة على ربّهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟

= وقيل سيّدا من مات كهلًا من المسلمين فدخل الجنة لأنه ليس فيها كهل بل من يدخلها ابن ثلاث وثلاثين وإذا كانا سيدا الكهول فأولى أن يكونا سيّدي شباب أهلها. (مرقاة المفاتيح، ج١١/ ص٢١١).

(١) أخرجه ابن ماجه، (ج١/ ص٤٤).

(٢) عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيت الرّجل، يعمل العمل من الخير ويحمده النّاسُ عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن» (أخرجه مسلم، ج٤/ ص٢٠٣٤)، وعلى نقيضه من عُرف من المؤمنين في الدّنيا بصفة لا تليق بأهل الجنّة، فإنّه لا يدخلها بها، وحريّ أن تُنزع منه كما يُنزع الغلّ، ثم لا يعود يذكرها، فضلاً أن يذكره بها أحد من أهل الجنّة!



﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ٤٣].

فإذا كان هذا النداء الكريم بالاستحقاق حاصلاً لهم جزاء ما كانوا يعملون، فأيّ مانع أن يحدث التخصيص لأعمال كريمة ظاهرة عُرفوا بها حتى أصبحت ألقاباً بالنسبة لهم؛ فيُقال لأحدهم: هنيئاً لك يا فلان بِرّك وإحسانك؛ فقد كنت وصولاً في الدّنيا، وهذا البرّ أورثك جنّات النّعيم، ونحوها من عبارات البشرى التي يُسرّ بها أهل الجنّة وتطيب نفوسهم.

وقد أخبر الله تعالى أنّ تضييع المجرمين لأعمال صالحة بعينها كان من أسباب استحقاقهم العذاب، فقال جلّ شأنه في معرض سؤال أهل اليمين لهم: «مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ» [المدثّر: ٤٢ – ٤٧].

فإذا كان هذا جواب أهل النّار، أفلا يجوز في حقّ أهل الجنّة أن يفاخروا بصالح أعمالهم، بل بأرجاها عند مليكهم؟[1] ومحصّل هذه الأخلاق والشمائل: بقاء المعروف الذي به تطيب السّكنى، ويزداد التواصل، وتحلو المجالس.

والسّعداء في بلاد الأفراح يشتاقون لبعضهم، ويتزاورون على النّجُب والأسرّة، ويتذاكرون ما كان منهم في الدنيا. والكلّ باق على مودّته، بل تزيد بسبب خصوصية التّقوى في هذه الدّار ونزع الغلّ من القلوب، وكثرة الأعطيات والممالك، والقصور والنّعيم المقيم.

---

(١) أفردت مبحثاً لطيفاً بعنوان «مفاتيح الجنّة» في دراسة غير منشورة بعنوان: «الأرض الجديدة».

مراكب أهل الجنّة:

يهِمّ السعيد بالخروج من قصره المنيف.. مُرفّلاً بالثياب الجميلة العطِرة، ومكلّلاً بالأساور الذهبية واللؤلؤية البديعة، مصطحبًا أجمل التحف على أرفع المراكب.. إلى مجالس الأصحاب والأقارب. ولأهل الجنّة ما تشتهي أنفسهم من المطايا الكريمة، التي تبلّغهم مقاصدهم.. القريبة والبعيدة.

الخيول:

الخيول، أكرمُ مطايا أهل الجنّة، وهي ليست كخيول الدّنيا التي يصيبها الجوع والهزال، ويعتريها المرض والموت. وخيول الجنّة على أنواع: منها الأرضيّة التي يجد السّعداء مُتعتهم بامتطائها بين الحُقول وعلى ضفاف الأنهار، وفي الغابات والرّوضات، والمروج والسهول. ومنها الخيولُ المجنّحة التي تتولّد المتعة بامتطائها، ثمّ التحليق بها في جوّ السماء فوق المناظر الجميلة.. حيث الغابات الكثيفة المحمّلة بأصناف الثمار، والخيام والعيون والوديان، والمروج الفسيحة، والهضاب المرتفعة، والبحيرات الواسعة، وعلى امتداد القطع المتجاورات، التي تتعرّج فيها الأنهار، والحقول الخضراء التي تتداخل فيها الزهور بألوانها البديعة، وتتجمّع فوقها الطيور بأشكالها الجميلة، أو تحلّق قريبًا منها.. في أجمل منظر لم تبصر عين آدميّ مثله من قبل!

ومع الخيل مراكب أخرى فريدة، منها (طائرات) خاصّة على هيئة الخيل!! مصنوعة من الياقوت الأحمر الخالص، لها خاصيّة الطيران، بهيئة تختلف عن الخيول الحيّة، وعن الطائرات الخاصّة التي عرفها المترفون في



دار الدنيا. عن بريدة ﷺ أنّ رجلا سأل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، هل في الجنّة من خيل؟ قال: «إنّ الله إن أدخلك الجنّة فلا تشاء أن تُحمل فيها.. على فرس من ياقوتة حمراء يطير بك في الجنّة حيث شئت» قال: وسأله رجل فقال: يا رسول الله هل في الجنّة من إبل؟ قال: فلم يقل له مثل ما قال لصاحبه، قال: «إنْ يُدخلك الله الجنّة يكن لك فيها ما اشتهت نفسك، ولذّت عينك»[1]. وعن عبدالرحمن بن ساعدة قال: كنتُ أحبّ الخيل، فقلت: يا رسول الله، هل في الجنة خيل؟ فقال: «إن أدخلك الله الجنّة يا عبدالرحمن كان لك فيها فرسٌ من ياقوت، له جناحان.. يطير بك حيث شئت»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٦٨١). قال صاحب التحفة: والمعنى أنّه ما من شيء تشتهيه الأنفس إلا وتجده في الجنة، كيف شاءت، حتى لو اشتهيت أن تركب فرساً على هذه الصفة لوجدته، وتمكنت منه.

ويحتمل أن يكون المراد: إن أدخلك الله الجنة فلا تشاء أن يكون لك مركب من ياقوته حمراء يطير بك حيث شئت، ولا ترضى به فتطلب فرساً من جنس ما تجده في الدنيا حقيقة وصفة، والمعنى: فيكون لك من المراكب ما يغنيك عن الفرس المعهود. ويدلّ على هذا ما جاء في الرواية الأخرى وهو: «إن أدخلت الجنة أتيت بفرس من ياقوته له جناحان فحُملت عليه». ولعله لما أراد أن يبين الفرق بين مراكب الجنة، ومراكب الدّنيا، وما بينهما من التفاوت على التصوير والتمثيل، مثّل فرس الجنة في جوهره، بما هو عندنا أثبتُ الجواهر وأدومها وجوداً، وأنصعها لونـاً، وأصفاها جوهراً، وفي شدّة حركته، وسرعة انتقاله بالطير، وأكد ذلك في الرواية الأخرى بقوله: (جناحان). (تحفة الأحوذي، ج٧/ ص٢١٣).

(٢) أخرجه الطبراني، ورجاله ثقات، انظر (مجمع الزوائد، ج١٠/ ص٤١٣).

وللسعيد الطّائر في سماء الجنّة أن يهبط في أيّ مرتفع أو منبسط من الأرض شاء، وأن يستمتع من اللذات بما شاء، على ضفاف الأنهار والبحيرات، أو بقرب العيون والوديان، أو الجلوس تحت ظلال الأشجار، وفوق المروج الفيح.. مُكرّمًا من قِبل الملائكة والولدان، في كلّ بقعة حلّ، وإلى أي مكان ارتحل.

وخيول الجنّة مُطهّمةٌ[1] ذَلُول، جامعة لجمال المنظر حال الرؤية، وكمال المتعة والراحة حال الرّكوب، بخلاف خيل الدّنيا التي تحصل المشقة في تسييسها واستئناسها، ويتولّد العنت من جراء تنظيفها وتطهيرها، وإزالة الفضلات من مرابضها، وعلاج الأمراض والآفات التي تصيبها.

الإبل:

ومن مراكب أهل الجنّة: الإبلُ. وهي دوابّ جميلة، على حال من الجمال والنّقاء، لم ير أحد من أهل الدّنيا مثلها؛ إذ ليس لها من إبل الدّنيا إلا الاسم فقط. عن أبي مسعود الأنصاري ﵁ قال: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: هذه في سبيل الله. فقال رسول الله ﷺ: «لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة.. كلّها مخطومة»[2].

---

(١) المطهّم من الناس والخيل: الحَسَنُ التامّ، بارعُ الجمال. (لسان العرب ج١٢/ ص٣٧٢).

(٢) أخرجه مسلم، (ج٣/ ص١٥٠٥). قال النووي: معنى مخطومة: أي فيها خطام، وهو قريب من الزمام. قيل: يحتمل أن المراد، له أجر سبعمائة ناقة، ويحتمل أن يكون على ظاهره، ويكون له في الجنة بها سبعمائة، كلّ واحدة منهنّ مخطومة، يركبهنّ حيث شاء.. للتنزّه، كما جاء في خيل الجنّة ونُجُبها، وهذا الاحتمال أظهر، والله أعلم. (شرح النووي على مسلم، ج١٣/ ص٣٨).



الطيران على بساط الريح!

ومن وسائلِ التنقُّلِ البديعةِ في الجنّة: الطيرانُ على بِساطِ الحريرِ الذي يجلسُ عليه السّعيد!! ورد ذلك في حديث بن عمر ﵁ قال: رأيتُ في المنام كأنّ في يدي قِطعة إستبرقٍ، وليس مكانٌ أريدُ من الجنة إلا طارت إليه. قال: فقصصتُه على حفصةَ فقصَّتهُ حفصةُ على النبي ﷺ فقال ﷺ: «أرى عبد الله رجلاً صالحاً»[1]. والإستبرق هو ما غَلُظَ من الحرير، ولا يخرُجُ عن درجاتِ النّعومة فيه. وهذه الوسيلة الفريدة في التنقّل أقربُ لبساطِ الرّيح الذي كان يَحلُمُ به أهلُ الدّنيا، ويُعدّ عندهم من نسجِ الخيال. وقد أقرّ رسول الله ﷺ ما سمع من خبر الرؤيا ولم يُنكِر على عبدالله ﵁ كونُ ذلك من نعيم أهلِ الجنّة.

ومن السّعداء من يطير في الجنّة بجناحينِ، كالملائكة، وهذه خصّيصة نادرة جعلها الله تعالى لقلّة قليلة من بني آدم، منهم جعفرُ بنُ أبي طالب ﵁؛ فعن ابن عباس ﵄ قال: قال رسول الله ﷺ: «دخلتُ الجَنَّةَ البارحةَ فنظرتُ فيها، فإذا جعفرُ يطيرُ مع الملائكةِ، وإذا حمزة متكئ على سرير»[2].

ولأهل الجنّة مع هذا الرّفاه في كلّ شيء، والسّعة في كلّ شيء.. ما يشاءون في تنقّلهم، فإن شاءوا بلغوا غايتهم وهم على الأرائك، متكئين على أسرّة وثيرة معلومة، لها خاصيّة الطيران!

---

(١) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص١٩٢٧).

(٢) أخرجه الحاكم في مستدركه، (ج٣/ ص٢١٧)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرّجاه.

وهذه الحالة الرّغيدة من أجمل هيئات التنقّل في دار النعيم؛ إذ يحدث التجوال والتحليق من خلالها بمجرّد الرغبة؛ فإذا شاء السّعيد ارتفع به سريره، وبلّغه مقصوده دون مجهود يذكر، وبلا حاجة لوقود أو مفاتيح أو مِقوَد، وبلا أجنحة أو عجلات[1]، على سلاسة وهدوء لا تُقارن به طائرات الدّنيا الحديدية البائسة، التي تملأ الأرض هديرًا وتلويثًا، والقلوب خوفًا وترقبًا. وما أعدّ الله تعالى للمتقين من الكرامة والإسعاد أعظم وأكرم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[الإنسان: ٢٠]. عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سرير هذا حتى يحاذي سرير هذا، فيتحدثان، فيتكئ ذا، ويتكئ ذا، فيتحدّثان بما كانا في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان، تدري أيّ يوم غفر الله لنا؟ يومَ كنّا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله فغفر لنا»[2].

مراكبُ لا حصر لها:

ولأهل الجنّة ما يشاءون من المراكب، عدا الخيول، بحسب ما عهدوا في الدنيا، وما لم يعهدوا من مخترعات أهل العصور بعدهم، بأسماء تتباين

---

(١) أهل هذا العصر أولى بتصديق هذا الخبر وتصوّر هذه الطريقة في سير المراكب الأرضية والبحرية والجويّة الفخمة في بلاد الأفراح التي تتحرّك آليًا، بدون توجيه، وبخاصة بعدما تمكنوا من اختراع طائراتهم وسياراتهم التي تطير أو تسير بدون قائد، ويتم توجيهها آليًا إلى المكان المقصود بمجرّد إحداثيات تتمّ برمجتها مسبقًا، ويتحرّك بعضها بمجرد اللمس، وتفتّح أبوابها بمجرد تسليط شعاع أحمر دقيق، لا يكاد يُرى!!

(٢) أخرجه البزّار عن سعيد بن دينار. (تفسير ابن كثير، ج٤/ ص٢٤٤، والدر المنثور، ج٧/ ص٦٣٤).



فيها كمالات الحقائق والاستخدامات[1]، ولهم فوق ذلك ما لم تر أعينهم ولم يخطر على قلوبهم من المراكب الفارهة بكمالات أحوالِ الجنّة من حيث: النّقاء والنّظافة، والسرعة والفخامة، والهدوء والسّلامة؛ فلا تلوّث ولا أعطال، ولا حوادث ولا أخطار، كما كان العهد بمراكب الدّنيا!

والاستمتاع يزداد في الجنّة حين يستشعر أهلها سعة مراكبها، والفسحة والجمال على أرضها.. حال تجوالهم في الأرض، أو تحليقهم في جوّ السّماء؛ فهي دار فسحة وسرور، وسعة وحبور، لا ضيق فيها ولا عناء، بل أرض ممتدّة لا يدرك السعيد منتهاها، ورفعة يتسامى سماها.. منزلُ بهجةٍ ورغد أبد الآباد، وأرض متعة وكرامة وإسعاد.

أين هذا من تنقّل الضّيق في الكوكب الأرضي الذيّ لم تكن تزيد مساحة اليابسة فيه عن الرّبع، وما عدا ذلك بحار مالحة مخيفة، وصحارى قاحلة مهلكة، وجبال وعرة، لا يصلح فيها السير والتجوال إلا بعد تكسير وتعبيد، ورصف وتمهيد، ولا الطيران في سمائها أزمنة العواصف والأتربة، والرياح والبراكين، والثلوج والأمطار؟! ويموت فيها كل يوم بوسائل النّقل المفترسة ما لا يموت في المعارك والصراعات الدّامية!

من أعمال أهل الجنّة وأنشطتهم الاجتماعية:

والسعيد، حين يتنقّل في الجوّ قاصداً غايته، يطّلع من العلوّ على مناظر فريدة، لم يكن رآها من قبل؛ فهذه قطعان الماشية تسرح في المروج الخضراء، مع المتقين الذين اشتهوا مهنة الرّعي، وتلك الأنهار تتعرّج بين

---

(١) كالطائرات الخاصّة، والسيارات، والدرّاجات بأنواعها، وما سيظهر بعد في الأجيال القادمة.

الحقول والغابات، وتلك مراكب نفر من السّعداء في وسط البحيرات الضخمة، يمارسون هواية الصيد والغوص التي شغفوا بها في الدنيا، فاليوم يتفرّغون لها ولسائر محبوباتهم؛ جزاء انشغالهم عنها في الدّنيا بأداء فرائض الله تعالى، والدّعوة إليه، وإقام الصّلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

بهجة ممارسة المهن والأعمال المحبّبة:

ولكل ساكن في الجنّة ما يريد، وله ما يشتهي؛ فصاحب القصر هناك له أن يحرث الأرض المجاورة لقصره، ويبدأ بالبذر والاشتغال بالزراعة.. يقضي فيها ساعات من البهجة والانشراح.. يضرب الأرض بمسحاته، ويُجري المياه في جداولها، ثم يُسند ظهره إلى جذوع الأشجار، لا من تعبٍ، كما كان حاله في الدّنيا، ولكن ليستمتع بما بين يديه من مناظر لا مثيل لها.. فهذه الدواب تسرح في الحقل، والأطيار تغرّد فوق الشجر، وخرير الماء يقطّع سكون المكان، وعبَق الأزهار يداعب أنفه، وأهل الجنّة أمامه في شُغُلهم فاكهون، منهم من يمارس الزراعة، ومنهم من يجلس مع أصحابه على الأرائك.. يتحادثون. ويظلّ السّعيد في هدوئه وتأمّله حتى يُجلب له الطعام الشهيّ في هذا الجوّ البديع الماتع الذي لا مثيل له! فهذه الجنّة، وممارسة الهوايات فيها تتداخل مع مزيج اللذائذ والمُتع في الأحوال والأمكنة الجميلة. والزراعة في الجنّة ليست كالزراعة في الدّنيا.. أرض الجفاف والصخور، والشمس والجوع، والحرّ والتعب.

وبعيداً.. في المروج الفسيحة الخضراء ينطلق ساكنٌ آخر من أهل الجنّة بغنمه لترعى هناك(١)، حيث الكلأ الكثير والمناظر الجميلة،

---

(١) عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشاة من دوابّ الجنة» (أخرجه =



والسّعادة التي لا توصف بينا هو مشغول في لذائذ الأسماع والأبصار.. يستمتع بجمال الأصوات، ويتنعّم بالحياة الرغيدة، والروائح الزكية، والهواء العليل، والزهور الفوّاحة، ويتجوّل على ضفاف الأنهار، ثم يجلس فوق ربوة من الرياض الخضراء، وبين يديه القطيع.. يشربُ ويرتع في الوادي الخصيب.

والرّعي هنا ليس كالرعي في بادية الدّنيا.. أرض الجدب والذئاب، والمرض والضياع، والجفاف والظلام، والحشرات والأوبئة، والروائح القذرة المنبعثة من الحظائر.

والصيّاد الذي ظلّ يعشق البحر في الدّنيا، ويهوى السباحة أو الغوص، وانتظار السمك بشبكته في وقت السَّحَر، له أن يتجوّل بشبكته أو (صنّارته) في أنهار الجنّة الشاسعة، وبحيراتها الكبيرة التي لا يدرك مداها، ولا يُحصى ما بداخلها من الأسماك والعوالم الكثيرة. وله فوق ذلك ما يشاء.. فإن رام تحصيل اللّذة بانتظار الأسماك كما كان في الدّنيا، لم تَرِد عليه إلا وفق ما تُحصَّل به لذّته. وإن شاء رؤية الشبكة وقد امتلأت بالأسماك من كلّ صنف.. تدافعت إليه أفواجًا، بألوان وأحجام لا تخطر له على بال.

والصّيد في الجنّة ليس كالصيد في الدّنيا؛ فلا غرق هنا ولا بلل، ولا ضياع ولا مَلل، ولا روائح منتنة، ولا عناء.. كما كان يجد في دار الدّنيا.

= ابن ماجه ج٢/ ص٧٧٣) وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال: «صلّوا في مراح الغنم، وامسحوا رغامها؛ فإنها من دواب الجنة» (أخرجه البيهقي في الكبرى ج٢/ ص٤٤٩ وذكر له طريقين إلى أبي هريرة رضي الله عنه، أحدهما مرفوع والآخر موقوف).

والنجّار إذا دخل الجنّة واشتهى القيام بما كان يمارسه في الدّنيا، ناله من ذلك فوق ما يخطر على باله، فله أن يتوشّح فأسه التقليدي، أو الآلي، أو آلة أخرى لقطع الخشب لم تقع عليها عينه بعد، ثم يتوجه إلى غابات الأشجار ليقضي متعته هناك، ويسلو باستخدام فأسه وإزميله، ومطرقته ومساميره كما يشاء، فلا تعب هنا ولا جروح، ولا دماء ولا أخطاء.

وأشجار الجنّة كثيرة متداخلة، لا يعلم مقدار عِظمها، ولا يحيط بأسرارها إلا الذي خلقها سبحانه، وغاباتها الخضراء القاتمة من شدّة الري، لا ينتقص منها شيء، ولو اجتمع على قطعها أهل الجنّة كلّهم؛ فهي جنّة ممتدّة واسعة، شديدة الخُضرة، عظيمة الاتساع، كثيرة البهجة.

طلب العلم، والرحلة من أجله!

ومن وجد لذّته في عمل أو مهنة، أو عبادة أو هواية في دار الدّنيا، استمتع بها على كمال صفاتها ولذاتها في بلاد الأفراح؛ فطالب العلم الذي ظلّ يغدو من أجله ويروح، ويسافر ويقيم، وكان يجد متعته في الأسفار والسّماع، والتحصيل والقراءة وتقييد المرويّات، وأراد أن تتصل لذّاته في الجنّة كان له ذلك.. بكمالات لا يمكن تخيّلها؛ فله إن شاء السّند العالي بلقاء الرّسل الكرام وأصحابهم، والسّماع منهم دون واسطة، وله أن يجلس مع من شاء من المحدّثين والفقهاء، والمفسّرين والعلماء، والمؤلّفين والحكماء، فجميع المتّقين موجودون في هذه الدّار الكريمة؛ ولقاؤهم ميسور متاح، وفق نظام بديع، بجداول وزيارات، ومجالس ومناسبات لا حدّ لها، على أيّ طريقة من طرق التّحمل شاء. وله أن يغدو لحضور مجالس السماع بقدر ما كان يبكّر في الدّنيا[1]!

---

(١) سبق في فصل (الحياة الجديدة) أنّ أهل الجنّة في ضياء دائم، لا يحتاجون فيه =



ولم لا يكون في الجنّة تحديث خاصّ بها، من باب الاستمتاع واللذّة، وأن تستحدث لها علوم وفنون ومجالس على حالة توافق حال الثقاة الذين بها، ممن يصح النقل عنهم بإطلاق، بعد أن زالت جميع العلل، وزكت الأخلاق، وظهرت العدالة، واكتملت ملكة الحفظ والتذكّر والضبط.

ولا خوف هنا من فوات الشيخ بموت أو تخليط، ولا جزعَ من فقد المرويات بحَرَق أو غَرَق، ولا تغرّب عن الأهلين ومفارقة للنعيم؛ فالتنقّل في الجنّة بهجة ولذّة، بخلاف ما كان يحدث هناك من فقد الطريق أو خوف قطّاعه، ونفاد الماء والزّاد فيه!

ومجالس الأنبياء والأصحاب، والحواريّن والعلماء والأئمة من أهل الدرجات العلى مفتوحة لكل زائر، والوصولُ لقصور الأشراف والأكابر متاحٌ ميسورٌ لأهل الدرجات الدّنيا، بكيفية يعلمها الله وحده، وهي أكمل وأرفع من زيارات العامّة من أهل الدّنيا لبلاطات ملوكهم وأشرافهم؛ إذ زيارة الأدنى للأعلى لا تقتضي المساواة في الملك، ولا تتضمّن المشاركة في النّعيم، فضلاً عن المكث الدائم فيه، والله أعلم.

ولطالب العلم في الجنّة لذّته ومتعته التي تفوق لذّات أهل الهوايات بهواياتهم، وأهل المهن بمهنهم! وإذا كان لصاحب الحرث والزرع ومحبّ العدو بالخيل أن يستمتع اليوم كما يشاء، فوق ما يتخيّل.. فما حال طالب العلم اليوم، وقد قضى نحبه، ووفّى أمره، وبارك الله سعيه وسهّل له في طريق الطلب طريقاً إلى الجنّة، وكانت الملائكة تفرح بمسيره وتضع له أجنحتها؛ رضى بما يصنع؟!

= لشمس ولا قمر! وأنهم يعرفون أوقات الغداة والعشيّ، وساعات الليل والنّهار بكيفيات كثيرة يعلمها الله تعالى، منها إرخاء الغلمان السُّتُر أو رفعها.

متعة القراءة، وارتياد المكتبات العامرة:

ومن أحبّ القراءة في الدّنيا ازداد حبّه لها في الجنّة؛ بما يُشبع رغبته ويفيض، ويحقق مطالبه ويزيد. ولا يمنع أن يكون للقراءة والبحث مكتباتها الخاصّة في أرض المسرات، كما لسائر اللذات والمهن التي تتطلّب أماكن ومكاتب، وحظائر وملاعب، والله أعلم.

وشتّان بين مكتبات الدّنيا القليلة الهزيلة، وما يطلب السعداء من ارتياد مكتبات الجنّة الواسعة الفارهة التي تتحقّق فيها أمنياتهم بكلّ صنوف العلوم والمعارف، والمخطوطات والوثائق، بجميع أنواع العرض.. المرئي والمسموع والمقروء، بما يحوي من تاريخ العالَمين العلويّ والسّفليّ، وبداية التاريخ ومُنتهاه.. فكلّ ذلك داخل في وعد أكرم الأكرمين بتحقيق مشتهيات المتّقين ورغائبهم، والكلّ متاحٌ معروض، منشور غير مخبوء، وللسّعيد ما لا ينتهي أبد الآباد، من أخبارِ الأمم والممالك، وتاريخ الجنّ والملائك، وقصّة الكواكب والأفلاك، وما كان يدور في سائر الأماكن والأزمنة، والأمم والشعوب، وما ندر من قصص الغابرين واللاحقين، إضافة لمؤلفات المتخصصين من المتّقين، وأهل الكتابة، والتأليف، والرواية، على كيفية أخرى لم يعهدها أهل الدّنيا في مطابعهم المتواضعة، وأوراقهم وأحبارهم القليلة. ولهم من مواد القراءة في المكتبات العامرة ما يشاؤون.. اصطحاب ما يرغبون إلى ممالكهم وقصورهم بغير نول، أو القراءة والمشاهدة والسّماع في قاعاتها الواسعة التي لا يحيط بها البصر طولاً وارتفاعـًا، المحفوفة باللذائذ والمتع، المليئة بالحدائق والأنهار، والأطيار والثّمار، والله أعلم بالأحوال والمآلات. ولا وجه



للمقارنة بين الدارين في كمالات التصميم والخدمة والإكرام، والنّظافة والهدوء، وجمال التنظيم، وتوزيع الأضواء وطيب الرّوائح!

متابعة الأخبار وشهود المناسبات الاجتماعية الكثيرة:

والمتّقون يشتاقون لمعرفة أخبار إخوانهم في الجنّة، فالحراك الاجتماعي في بلاد الأفراح متعدّد بهيجٌ ظاهر، وأخبار أهلها دائمة لا تنقطع، متجدّدة لا تتوقّف، ولذا فلا يمنع في كنف النّعيم أن تكون للسعداء وسائل إعلام وتواصل أرقى وأتقن، يتابعها أهل الجنّة بشغف، ويقفون من خلالها على الفعاليات والمناسبات السعيدة، والاجتماعات والمجالس الكثيرة المتعدّدة التي لا حدّ لها، ويتفاعلون مع الأعطيات الغزيرة المتجدّدة. فإذا ثبت أنّ كلّ ذلك داخل في موعود الإجابة للمرادات والتحقيق للمشتهيات بما يناسب دار البهجة والإسعاد؛ فإنّ هذه الوسائل ولا شك أزكى وأصدق، وأكثر تأثيراً وإبهاجاً، ولا تخطر على قلب أحد من أهل الدّنيا.

ولا مقارنة أبداً بين أخبار الحراك الاجتماعي الرّفيع في دار السّعة والمُقام، لهذا العدد الوفير الزاخر من مشاهير المتّقين.. الأولين والآخرين، وبين ذلك الحراك الاجتماعي الهزيل الفاضح في دار الدنيا؟!

ومتابعة السّعداء الدوريّة لأخبار الجنّة ومواسمها ومناسباتها السعيدة الكثيرة تختلف عن حال أهل الدّنيا ومتابعتهم لأخبار الحروب، وأزمات الدّول، وتحولات العملة، وتقلبات الطّقس في عالمهم المضطرب.

وأخبار الأكابر من أعلام الجنّة ومناسباتهم، وزياراتهم واستقبالاتهم تختلف عن أخبار السياسيين، والرياضيين، ورجال الأعمال، والممثلين في دار الدنيا. ونقل فعاليات المناسبات، والملتقيات، والرّياضات، والفنون،

والأحوال اليومية البهيجة لأهل الجنّة تختلف عما كان عليه الحال في الدّنيا، عبر وسائل إعلامها البدائية، التي لا تتورّع عن نقل أي شيء، حتى الفضائح الجنسيّة، والأخبار الشخصية التافهة التي لا قيمة لها.

ممارسة الحِرف والهوايات المحبوبة:

ولمّا كانت العبادات الشريفة مرفوعة عن المتّقين في دار النّعيم؛ ليتفرّغوا لممارسة محبوباتهم وهواياتهم التي شُغلوا عنها في الدّنيا بأداء العبادات والطاعات، دلّ ذلك على دوام البهجة، وتظافر اللذة، وكثرة الأحوال والمناسبات السعيدة، والله أعلم بكُنه النعيم وأحوال أهله في الدارين. قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾[يس: ٥٥].

ولا يمنع في بلاد الأفراح الكثيرة أن يكون لكلّ هواية ومهنة وتخصّص ما يناسبها من صور الاستمتاع؛ في أمكنتها التي تُعرف بها، سواء أكانت مكتبة، أم معملاً أم مرسماً، أم ملعباً أم مطعماً أم نحوه، وأن يكون لكلّ سعيد فيها من الأقران والخبراء، والخدم والأصدقاء ما يُشبع نهمته، ويلبّي حاجته أبد الدّهر، وله فوق ذلك تجدّد في جنس تخصّصه لا يخطر له على بال، وله في هذه الاختصاصات من كمالات الذات والصفات، وبديع الإجراءات والغايات، ما لا يعلمه إلا الرّب الرحيم سبحانه.

ومع هذا التميّز والخصوصيّة للسّعداء، يبقى القدر المشترك الأكبر الذي يتساوى فيه الجميع، من كمالات الخَلْق والخُلُق، وطيب العشرة وحسن التّواصل، والتعريف العام بالجنّة وأنشطتها ومجالات الاستمتاع الذي لا ينقضي في أكنافها أبد الآباد!

ومن شغف في الدّنيا بممارسة هواية أو مهنة مباحة وعُرف بها، أو نُسب إليها؛ لفرط حبّه إيّاها، أو قُصد إليه في تعلّمها، استمتع بها على



كمالاتها في بلاد الأفراح، وشارك في فعالياتها ومنتدياتها التي يعقدها أصحاب كلّ فنّ وتخصص وهواية بعينها.. متى شاء، وكيف شاء، بأرفع حالات الاستمتاع واللذّة، وأبهى درجات التشويق والمتعة، مع قوّة في الأبدان، وكمال في عمل الحواس.

ولمّا كانت الجنّة دار إمتاع وإسعاد فلا يمنع أن تكون لأهلها من الرجال والنساء: مجالس وملتقيات، ومعارض ومنتديات، يتبادلون فيها أحاديثهم، ويتذاكرون أخبارهم، ويعرضون فنونهم ومواهبهم؛ فلا يمنع أن يكون للخطّاطين والرّسامين، وللرّياضيين والإعلاميّين، وللخيّاطين والنّجارين، وللخيّالين، وللعباقرة والموهوبين فعالياتهم الدّائمة، ودوراتهم المتجدّدة، ولقاءاتهم ومجالسهم ومطبوعاتهم، ومسابقاتهم الكريمة على شرف سادة أهل الجنّة، وكبراء كلّ مهنة وتخصّص على مدار التاريخ البشري، وحضور من شاء من أهل الجنّة، والله أعلم وأكرم. ولكلّ من الجنسين ما يحقّق له غاية الإسعاد والمتعة، في دار السعة والبهجة والجمال، والوقار والحشمة، والأدب الرفيع.. بتنافس كريم محبّب، وسلامة من الآفات والإصابات، والعوارض والمخالفات.

ومن كانت له في الدّنيا سمةٌ كريمة فاق بها أقرانه؛ كالذكاء، والخطابة، والتنظيم والقيادة، أو شغف بالتصميم، والتصوير المباح، والبرمجة، والبحث، والهندسة، ونحوها، لم تُسلب عنه في الجنّة، بل تزداد وتظهر، فالجنّة دار المتعة والرفاه.. أُودعت بكل ما تحلو به الرّغائب، وتحصّل فيه المطالب والمواهب، وهي عامرة بأجمل ما كان في كلّ عصر من مطعومات ومشروبات، وملبوسات ومهن وهوايات، وفوق ذلك مما لم تره عين ولم يخطر على قلب بشر!

وهذا النشاط والحركة، والاستمتاع بالمناسبات الاجتماعية الكثيرة المتنوعة متاح لكل أحد، ومن شاء من السعداء: راحة البال والهدوء، وخُمولَ الذِّكْرِ، والتفرّغ للذّات الكثيرة التي لا نفاد لها، والتنقّل هنا وهناك، والاستمتاع مع الأهل والولد، وأهل المودة والأصحاب كان له ذلك، بأبهج متعة، وأهنأ حال.. في كَنَف المُلكِ الرّغيد، والعيش السعيد، والكلّ داخل في عموم الوعد الكريم من الرّب الرّحيم: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق: ٣٥].

لذّات العمل الصالح لا تنقطع بدخول الجنّة:

إذا كان للسعداء وجبتين من الطعام يوميـًا، في غاية الفخامة، تُقدّمان لهم ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي بمقدار ما كانوا يؤتون به في الدّنيا؛ فلا حَرَج على من كابد ضربـًا من الأعمال الصالحة في الدّنيا أوّل الأمر، ثم أصبحت تقوم في نفسه مقام اللذات التي لا يقدر على مفارقتها.. لا حرج عليه أن يمارسها في الجنّة تلذّذاً واستمتاعـًا، لا تكليفـًا وعبادة! فمن نصب قدميه في الدّنيا عبادةً وقت السَّحَر في الدّنيا، حتى لا تكاد نفسه تقوى على فراق هذه السّاعات بغير قيام، فله في الجنّة لذّة تقابلها، أغلى وأكمل، وقيام آخر يُقابل وقت السَّحَر.. قيام استمتاع ولذّة وشكر، لا قيام تكليف وحساب[1]!

---

(١) هذه الحال لا يتصوّرها كثير من النّاس اليوم؛ لأنّها خاصّة بمن حقّق كمالات العبودية، لدرجة أصبحت معها العبادات تجري منه مجرى اللذّات التي لا يقدر على فراقها، بخلاف من لا يقوم بها إلا ليرتاح منها، ويسلم من تبعات السؤال عنها؛ فكأنّها عنده حِمل ثقيل شاقّ، لا مفرّ منه إلا بالصّبر عليه. وشتان بين منازل الفريقين.. وإن دخلا جميعـًا الجنّة!



وهكذا كلّ من حُبّب له عمل صالح خالطت بهجتُه قلبَه وروحَه، حتى ما يقدرُ على فراقه.. له في الجنّة ألا يفارق لذّاته، ولا ينقطع عن محبوباته! فكما يُلهمُ التسبيح فإنّه يجدّ لذّته كذلك. وقد ورد في بعض النصوص ذكر بعض العبادات التي يمارسها نفر من أهل الجنّة تلذّذاً، كالوضوء، والصلاة، وقراءة القرآن، ونحوها.

وكم لذّة خالطت عبادة إبّان العمل، يجد لها السعيد في الجنّة لذّة حال مزاولتها.. تفوق التذاذَ أهلِ الزرع بزرعهم، وأهلِ الخيل بخيلهم، وأهلِ الرياضات برياضاتهم! والكلّ في شُغُلهم فاكهون، وفي لذّاتهم الغامرة مستغرقون.. بعد أن رُفعت عنهم التكاليف، وامتلأت جداول أوقاتهم بالمتع الغالية، في كنف الفوز والسّعادة، والتكريم والوفادة.

وما في الجنّة شيء مما كان يتعوّذ منه رسول الله ﷺ والمؤمنون! فما فيها مَلَلَ ولا كَسَل، ولا عَجْزَ ولا هَرَم، ولا ضَعْفَ ولا همّ، ولا غَفْلة ولا حَزَن. وما فيها شيء من صفات النقص الدنيويّ؛ فلا جهل ولا ظلم، ولا عجلة ولا قنوط، ولا غُرور ولا كُنود، ولا جدل ولا نسيان، ولا جحود ولا كُفران، بل هي دار الجزاء والمتعة، والأنس والبهجة.. تتجدّد لذاتها، وتتنوع مُتعها أبد الآباد، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ كان يحدّث أصحابه يومًا، وعنده رجل من أهل البادية فقال ﷺ: «إذا دخل أهلُ الجنّة الجنّة قام رجلٌ فقال: يا ربّ ائذن لي في الزّرع، فيأذن له، فيبذُر حبّه فلا يلتفت حتى تعودَ كلّ سُنبلةٍ طولُها اثني عشر ذراعـًا، ثم لا يبرح مكانه حتى يكون منه ركامٌ أمثال الجِبال»، فقال أعرابي: يا رسول الله، لا تجد هذا الرجلَ إلا قُرشيّـًا أو أنصاريـًا! فضحك النبي ﷺ[1].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط، (ج٧/ ص٢٠٢).

مجالس العائلة السعيدة:

إذا دخل السعداء الجنّة، آنسهم الرّب الرحيم فجمع شملهم، وقرّب ممالكهم، ويسّر سُبُل تواصلهم.. بحسب درجات القربى والشّفاعة؛ حيث يرفع الأدنى، وما فيهم دنيء، إلى منازل الأعلى؛ تكرّماً وإيناساً وإسعاداً.

ولذّة اجتماع الشمل من اللذات الغالية البهيجة في بلاد الأفراح. قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد: ٢٣ - ٢٤].

والقرابات مستمرّة في الجنّة، وكذا المشاعر الحانية التي تصحبُها.. مشاعرُ الوالدِ تجاه الولد، والولدِ تجاه الوالد. وما أجمل مشاهد تزاور الآباء والأبناء، وبخاصّة حين يدنو الولد من قصر والديه، ويستأذن بالدّخول؛ ثمّ يسير في كنف النُّزُلِ الفسيح، ويلتقي بهما، ويُظهرُ لهما من عبارات التوقير، وهيئات الحفاوة والمحبّة ما لا يتخيّله أكثر أهل الدنيا برّاً وصلة؛ فاليوم يوم الوفاء، والدّار دار سلام.. القلوب فيها كريمة وكذلك الأقوال، والأنفس سليمة حانية وكذلك المشاعر، والألسن مصونة عن (أفّ) فما دونها.

ومع اشتراك أهل الجنّة جميعاً في الحُسْن، وتقاربهم في السنّ، إلا أنّ هذا الاشتراك لا يعني المساواة في السمات والقَسَمات[1]؛ فكلّ له هيئته

(١) الحُسن والجمال في الجنّة على قسمين: عامّ يشترك فيه أهل الجنّة كلّهم، وخاصّ يتعارف به أهل الجنّة فيما بينهم، كلّ بقسماته وسماته الفارقة. وقد أخبر ﷺ أنّه رأى رجالاً ونساءً في الجنّة وعرفهم بسيماهم وهيئاتهم، ولو كانوا جميعاً على منزلة حُسنٍ واحدة لا فرق بينهم في القسمات لم يحصل التفريق بين آحادهم. =



الخاصّة، بسماته وقَسَماته التي يُعرف بها، وهي أظهر وأجمل من قسمات أهل الدّنيا التي يتمايز فيها الولد عن الوالد، والجدّ عن الخال، والعمّ عن الأخ، ويُعرف بها الصديق والجار، ونحوهم.

التواصل الاجتماعي من سمات أهل الجنّة:

التواصل بين المتّقين يزداد في دار النّعيم بعد أن زال الكَدَح الشاغل، والسبب الماديّ الحاجب، والنفور والنزاع الدنيويّ البغيض. وأهل الجنّة يشتاقون لبعضهم أعظم من شوقهم الذي كان في أيام الدّنيا، والقلوب تحمل أكمل مشاعر الودّ وأصدقها، لكلّ عزيز لها في الدّنيا نالته رحمة الله تعالى.

وحالُ القرابات في بلاد الأفراح ليس كحاله على عرصات القيامة؛ فموقف الحَشرِ له شدّته، والكلّ قد شغله أمرُ نفسه عن غيره، والفزع الظاهر الذي جثم على أهل المحشر جميعاً سببه الفَرَق من هول المطلع، ولسان الحال والمقال في ذلك الموقف: نفسي نفسي!! وهي حال عصيبة لها ما يبررها، فليس يُغني هناك والدٌ عن ولد، ولا يذكر أحد أحداً، قال

= والنّعيم احاصل جراء خصوصية الهيئات وتفرّدها، لا يقلّ عن النّعيم الحاصل بالاشتراك العام في مُطلق الحسن؛ ألا ترى أنّ معايير الجمال في الدنيا تُطلق على الأمرين معاً: المعايير العامّة للحُسن، بدرجاتها الكثيرة، والمعايير الخاصّة التي يحصل بها التفرّد في الملاحة والتقاسيم التي تميّز كلّ فرد بعينه. وهذا كلّه داخل في الحُسن، غير خارج عنه، وإلا فهل يُعقل أن يكون حُسن رسول الله ﷺ مشابهاً لحسن آخر أمّته دخولاً الجنّة، وقد عُلم ما بينهما من التفاوت في المنازل، والدرجات، والقُرب، والرفعة؟! والحُسن، بنوعيه، متجدّد في الجنّة، وهو يزداد كلّ جمعة، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ.

تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[عبس: ٣٤ - ٣٧]. عن عائشة رضي الله عنها قالت: ذكرتُ النّار فبكيت، فقال رسول الله ﷺ: «ما لك يا عائشة؟» قلت: ذكرتُ النّار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «أمّا في ثلاث مواطنٍ فلا يذكر أحدٌ أحداً، حتى يعلمَ أيخفّ ميزانُه أم يثقُل، وعند الكتُب حتى يُقال: «هاؤم اقرءوا كتابيه»، حتى يعلم أين يقع كتابه: أفي يمينه أم في شماله أو من وراء ظهره، وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنّم، حافّتاه كلاليبُ كثيرة، وحسك كثير، يحبس الله بها من شاء من خلقه، حتى يعلم أينجو أم لا»(١).

لكنّ هذا كلّه أصبح في طيّ النّسيان بعد دخول الجنان.. وها هم السّعداء.. قد اجتمع شملهم، وانعقدت مجالسهم، وحسن مستقرّهم ومُقامهم.

اجتماع العائلة السّعيدة!

واجتماع الشمل العائلي في بلاد الأفراح مما تشهده الملائكة وتأنس به. كيف وقد كانت تدعوا به، وتشفع له عند ربّها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[غافر: ٧] ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[غافر: ٧٥] ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾[غافر: ٧].

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه، (ج٤/ ص٦٢٢)، وقال: هذا حديث صحيح إسناده على شرط الشيخين، لولا إرسالٌ فيه بين الحسن وعائشة، على أنّه قد صحّت الروايات أنّ الحسن كان يدخل وهو صبي منزل عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما.



والشمل مجتمع في الجنّة على فرحته وبهجته، وليس يكدّر صفوه من غاب عن شهوده، ممن استحقّ النّار.. خلوداً جزاء كفره، أو تهذيباً جرّاء تفريطه في فرائض ربّه، وانغماسه في اللذّات المحرّمة، فالقرابات والأسباب تتقطّع بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة. وكلّ عكَرٍ في العائلة أضلّه الشيطان عن دار القرار، وخُلّد بعمله في سواء النّار، لا محلّ له في القلوب، ولا ذكر له في سوانح الأفكار؛ إذ من لازم نزع الغلّ من الصّدور زوال كلّ محبّة لأعداء الله الكافرين، وإن كانوا في الدّنيا من المقرّبين.

ومن حقّق أصل التوحيد، من الآباء والأمّهات، والأبناء والبنات، والإخوة والأخوات وسائر الصّحب والقرابات، ثمّ أخذ بهم إلى الجحيم بأعمالهم، لم تتقطّع الأسباب بينهم وبين السعداء، بل يزداد الشّوق وتتحرّك الرّحمة، ويشفع الأحباب لأحبابهم عند ربّهم، ويجهدون في استنقاذهم من النّار[1]، حتى يشفّعهم الله فيهم.

---

(١) قرابات النّسب التي لم توصَل بسبب الإيمان تتقطّع يوم القيامة. وأكمل صور السّعادة اجتماع الصّلاح مع بقاء القرابة؛ ولذا كان يدعوا بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن غلبت عليه الرّحمة منهم وهيّجته عاطفة الأبوّة أو البنوّة فدعا للكافرين أو شفع لهم لا يلبث الوحي أن يتنزّل عليه محذراً ومعاتباً، وأشدّه ما نزل على نبي الله الكريم، والمجاهد الصابر العظيم: نوح عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٥ - ٤٧].

واجتماع الشمل، والتقاء الأحبّة على الأرائك من أبدع مشاهد النّعيم في القرآن الكريم، قال الله تعالى واصفاً مشهداً بديعاً من أحوال السعداء في مجالسهم: ﴿جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[الرعد: ٢٣ - ٢٤].

فياله من اجتماع للشمل ما أحسنه! وتواصل لأفراد العائلة السعيدة ما أبهجه! الكلّ فرح مسرور في هذا القصر الفاره.. قد اجتمعت أرواحهم، وعبقت ذكرياتهم، وبين أيديهم صنوف اللذائذ على الأطباق، والملائكة تدخل عليهم من الأبواب.. مسلّمة ومهنئة بالمُلك العظيم، والنّعيم المقيم، والسعادة الأبدية التي لا يكدّرها انقطاع.

وفي مشهد رغد آخر لاجتماع شمل الأحبّة، يقول الحقّ جلّ جلاله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[الطور: ٢١ - ٢٨].

ومظاهر الرّغد والسعادة في هذا المجلس العائلي كثيرة متنوّعة، تظهر فيه الذريّة، من الأولاد والأحفاد[١] وقد أخذوا أُخُذاتهم، واستقرّوا في

(١) جمع الله تعالى في هذه الآية بين الآباء والذرّية معاً؛ لتشمل الأولاد والأحفاد، والآباء والأجداد جميعاً. وقد ورد ذكر الذريّة مفردة في القرآن، تارة بمعنى الأولاد، وهو الأغلب، كما في قوله سبحانه عن إبراهيم ﷺ: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ =



مجالسهم.. منعّمين، مسرورين بقرب أحبابهم، بعد أن جمع الله الشمل في المنازل العليّة، وقرّت الأعين بالدّرجات الرّضية، والوالدان من حولهم.. يطوفون بأطباق الفاكهة واللحم، وكؤوس الخمر الزكيّ النقيّ.. ورضوانُ الله تعالى فوق ذلك أكبر.

وفي مشهد الرّفاه هذا صورة جميلة لكريم المشاعر.. أكثر بهجة وحركةً، يظهر فيها أفراد الأسرة السعيدة وهم يتعاطون كؤوس الخمر اللذيذة.. في سرور وحبور، وأُنس وبهجة. فكأنك تسمع ضحكاتهم، وتراهم في مجلسهم.. يُحبرون في لذّاتهم وينعّمون، والغلمان يطوفون عليهم بأباريقِ الخمر المُترعة الباردة، وهم في حال من صفاء القلوب.. يتباذلون الكؤوس بينهم، إذا قدّمها الغلمان.. كلّ يؤثر مَن بقُربه، يناوله بمحبّة وبشاشة، والآخر يرُدّ عليه بمثله! في أجمل مشهد للإكرام وحسن الضيافة، والأدب وطيب الإقامة، لا يخلو منها مجلس من المجالس السّعيدة، داخل القصور والغرفات والخيام، وفي روضات الجنّات، وعلى ضفاف الأنهار، وتحت ظلال الأشجار. نسأل الله الكريم من فضله.

= لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت:٢٧] وتارة أخرى بمعنى الآباء السّابقين، ومنه قوله سبحانه مخاطباً كفار مكة: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس:٤١] والمعنى: أسلافهم الذين سبقوا في زمن نوح.

مَجَالسُ الأخِلاّءِ

نجائبُ الياقوت الأحمر، المرصّعة بالزّبرجد[1] والجوهر قد هُيِّئت، وخمائلها السندسية النّاعمة تتدلّى عن يمين المياثر وشمائلها، والسعيدُ يوشك على الخروج مرفّلاً بأجمل الثياب، ومودّعـًا بعبارات التكريم والسلام.. قد حُلّي بأبهى الأساور، وأزكى العطور؛ فهو اليوم على موعد مع إخوانه من أهل الدّنيا، وعدد من إخوانه الجدد الذين تعرّف عليهم في الجنّة. لقد مضت عليه في بلاد الأفراح أيّام يسيرة.. تقلّب خلالها في كنف النّعيم المقيم وهو في شوق لزيارة الأصحاب واللقاء بهم، والحديث معهم.

ومجالس السعداء لها خصويتها، وقد جاءت النصوص بتفاصيل ما يدور فيها؛ من الثناء على الملك الجليل سبحانه، وتذاكر الأعمال الصالحة، والسؤال عن قرناء السوء في الدّنيا والبحث عنهم، والاطّلاع عليهم في سواء الجحيم، والتعرّف على أهل الأعراف، والشفاعة للعصاة من إخوانهم واستنقاذهم من النّار، واستقبالهم على أبواب الجنّة، واجتماع الشمل بهم في مجالس الرّغد من جديد.

وكل لحظة من لحظات الجنّة تعدل مُلك الدّنيا بأجمعه! وما أخفي للسعيد من قُرّة العين، وبهجة الفؤاد، وانشراح الصدر، وطيب المُقام.. فوقَ ما يشتهي، وأعظمَ مما يتخيّل.

---

(١) الزّبرجد: حجر كريم، يشبه الزمرّد، وهو ذو ألوان كثيرة، كما يقول الفيروز آبادي، أشهرها الأخضر المصري والأصفر القبرصي. (المعجم الوسيط ج١/ ص٣٨٨).



اجتماع الشمل، وبقاء الصحبة:

إذا استقرّ السعيد في ملكه العظيم ازداد شوقه للقاء أصحابه، الذين كان يسامرهم ويأنس بهم في الدّنيا، وهم يبادلونه الشّوق ذاته، فلا يلبثون حتى تجيش خواطرهم للقاء، ويتحدّد المجلس، فيقدمون من هنا وهناك، ثمّ يلتقون ويتصافحون ويتنادمون[1] في كنف النّعيم المقيم المتجدّد. وزيارة الأصحاب في بلاد الأفراح لذّةٌ من جملة اللذائذ الغالية التي تنشرح بها الصدور، ويطيب معها المُقام في دار السلام.

وبيوت الأصدقاء مفتوحة لأصدقائهم، ومجالسهم الفارهة كثيراً ما تُعقد في أرجاء الجنّة الواسعة وتحت ظلال حدائق القصر الكبير، حيث تدور الذكريات، وتُعقد الهوايات، وتُمارس الألعاب التي طالما استمتعوا بها في الدنيا، ولم تكن تُشغلهم عن الواجبات، والحقوق، والفرائض.

وخصوصية المجالس تستمرّ بين المتقين؛ فمن كانت له لقاءاته الدورية مع أهل مودّته الذين يفضي لهم بأسراره، ولا يتكلّف لهم، ولا يتحرّج منهم، انتظم عقد مجالسهم في الجنّة إذا دخلوها، واتصلت لقاءاتهم وازداد رباط مودّتهم، على كمالات في مادّة الحديث، وما يدور في المجالس من متع ومفرحات، ومشروبات ومطعومات كريمة لم يروا مثلها في بادية الدنيا.

---

(١) نادم الرجلَ منادمةً ونداماً: جالسه على الشراب، والنّديم: المنادم، والجمعُ نُدَماء.. والنديم الذي يرافقك ويشاربُك.. ويقال: المنادمة مقلوبة من المدامنة؛ لأنّه يُدمن شرب الشّراب مع نديمه. (لسان العرب ج١٢/ ص٥٧٣).

ولهم في مجالس الصفاء والخصوصية إشراك من شاؤوا من أصدقاء الجنّة الجدد، ومرافقتهم في جولات المتعة والنزهة، ورحلات الأنس والرّفاه، التي كثيراً ما ينظّمونها، على تمام النعيم، وسلامة الصدور، ورغدِ العيش، ووفرة اللذائذ، حال المُقام والارتحال.

وليس في الجنّة شاغل عن التنعّم والاجتماع، والبهجة والإمتاع، بل هو شغلهم الحقيقي الذي لا يقطعهم عنه قاطع، بعد أن تفضّل عليهم ربّهم في ساعات فرحهم الأولى برفع التكاليف والأعباء؛ ليتفرغوا لمناهل النّعيم، ودعاهم للاستمتاع بلذّات الجنّة التي لا تفنى بلسان المحبّة والتكريم: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[الإنسان: ٢٢].

وها هم اليوم ينهلون من المتع والرّغائب، ويتخيّرون ما لذّ وطاب من المطاعم والمشارب، والملابس والمراكب، ويعقدون المجالس والزيارات، وينغمسون فيما اشتهوا من مُتع اللذّات التي شُغِلوا عنها بمكابدة الأوقات في الطاعات، وأداء الفرائض، والحفاظ على الصلوات، أو بالكَدَح لعمارة الأرض، والانشغال بالأعمال والوظائف المُنهكة التي لا يجد أحدهم معها وقتاً لمتعته إلا في إجازات قليلة محدودة، لا تنتهي حتى يعود الكَدْحُ من جديد، ويحصل معه الشّغُل المُضني الذي يُنسي أحدهم زيارة أقرب الناس إليه، وأحبّ الأصحاب لديه!

شوقُ اللقاء:

وشوق السّعداء لبعضهم في الجنّة أصدقُ منه في الدنيا؛ إذ لا تصنّع هنا ولا مجاملة، ولا تملّق ولا غيبة. ومن اعتاد الرحلة والسفر، والخروج للنزهة مع أصدقاء عمره، أو كانت له معهم لقاءات أنس ورحلات، وتواصل وزيارات، لم تنقطع عاداتهم المحبّبة تلك في الجنّة إذا دخلوها.



وكم أخ اشتهى لقاء إخوانه في الدّنيا، فلم يُمكّن؛ لشُغله أو لبعد المكان، فهو يعزّي نفسه بهذا اللقاء في ظلال أشجار الجنّة، عن مالك بن دينار قال: كم أخ يُحبّ أن يلقى أخاه، يمنعه من ذلك شُغُله، عسى الله عزّ وجلّ أن يجمع بينهما في دارٍ لا فُرقة فيها. ولنا أسأل يا أخوتاه أن يجمع بيني وبينكم في ظلّ طوبى، ومُستراح العابدين، بدارٍ لا فُرقة فيها[(١)].

ولا يفتقر تنظيم لقاء الأصدقاء لوسيلة خارجية تعبّر عنها، من هاتف، أو رسالة ورقية، أو مجموعات الكترونية، ونحوها، كما كان عليه الحال في الدّنيا؛ فقد ورد أنّ أهل السّعادة في الجنّة يتواصلون فيما بينهم بما يشبه توارد الخواطر، مقروناً بالمشاعر الجيّاشة! فما إن يشعر أحدهم بالرّغبة الداخلية في لقاء أصحابه، حتى يغمر الشعور ذاته قلوب الجميع، ويتولّد على إثرها الشوق، ويتحدّد المكان، على كيفية بهيجة لا تخطر على قلب بشر!! فإذا بهم يتوافدون صوب المكان.. من هنا، ومن هنا، كلّ بأبّهة مُلكه، وبديع مركوبه، مغموراً بشعور المحبّة الفيّاض الذي يزداد يوماً فيوماً. عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهلُ الجنّةِ الجنّةَ اشتاقوا إلى الإخوان، فيجيء سريرُ هذا حتى يحاذي سرير هذا، فيتحدثان، فيتكئ ذا، ويتكئ ذا، فيتحدّثان بما كانا في الدنيا، فيقول أحدهما لصاحبه: يا فلان، تدري أيّ يوم غفر الله لنا؟ يومَ كنّا في موضع كذا وكذا، فدعونا الله فغفر لنا»[(٢)].

---

(١) حلية الأولياء للأصبهاني، (ج٢/ ص٣٦٢).

(٢) أخرجه البزّار عن سعيد بن دينار، (انظر: تفسير ابن كثير، ج٤/ ص٢٤٤ والدر المنثور، ج٧/ ص٦٣٤).

رفاه المجالس وفخامتها:

الأماكن التي يعقد الأخلاء فيها مجالسهم غاية في الجمال والرّفاه، فمنها ما يكون في داخل القصور، أو تحت ظلال الأشجار، ومنها ما يُعقد على سفوح المروج، أو ضفاف البحار والأنهار. وكلّ مجلس منها تجتمع فيه من اللذات ما يُبهج الأنظار ويُطرب الأسماع، وتتوافر فيه ما لا يُحصى من صنوف البهجة والنّعيم!

ومن أمتع هذه الأمكنة: الظلال الكثيرة الممدودة لأشجار الجنّة؛ فهي مليئة بالمجالس الرّائعة الفارهة التي يفضّلها أهل الجنّة ويتجمّعون تحتها لحضور الملتقيات والفعاليات، ولممارسة هواياتهم، أو عقد مجالسهم؛ لجمال مناظرها، والبهجة التي تصاحبها! فإذا التقى الأخلاء في مجالس الرّغد حفّتهم البهجة، وازداد الأنس والانشراح بطيب اللقاء وحسن الحديث.

وقد أخبر النبي ﷺ عن مجالس مختارة لأهل الجنّة، يجتمعون فيها، صغاراً وكباراً[(١)]، وأنّ من أبهجها ما يكون في ظلال شجرة عظيمة من أشجار الجنّة، تتدلّى أغصانها وثمارها وأوراقها، وتمتدّ مجالسها الفارهة العامرة بكل ما تلذّ الأعين والأسماع، وتشتهي الأنفس والأذواق، والأنهار العذبة تجري بين أيديهم، والأطيارُ مغرّدة على الأغصان من فوقهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الظلّ الممدود: شجرةٌ في الجنّة على ساق، قدر ما يسير الراكب المُجِدّ في ظلّها مائة عامٍ من كلّ نواحيها[(٢)]، فيخرج أهل الجنّة

---

(١) سبق الحديث عنه وتفصيله في (مراسم الاستقبال العظيم)، عند الحديث عن مسألة: تلقّي الأطفال لوالديهم.

(٢) إذا كان هذا شأن الظلّ اتّساعًا، فما حالُ الشجرة ذاتها؟ وما عساها تكون =



يتحدّثون في ظلّها، فيشتهي بعضهم اللهو، فيُرسل الله ريحاً فيحرّك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدّنيا. عن مغيث بن سميّ رضي الله عنه قال: طوبى، شجرة في الجنّة، لو أنّ رجلاً ركِب قلوصاً جَذَعاً أو جَذَعة، ثم دار بها، لم يبلغ المكان الذي ارتحل منه حتى يموت هَرَماً. وما من الجنة منزلٌ إلا غصنٌ من تلك الشجرة متدلٍّ عليهم، فإذا أرادوا أن يأكلوا من الثمرة تدلّى إليهم، فيأكلون ما شاؤوا[1].

زيارات الأصحاب:

وأهل الجنّة يزورون إخوانهم في قصورهم ويستزيرونهم. وأسعد النّاس بهذه الزيارات البهيجة الأخلاء في الله تعالى، ممن كانت زياراتهم في الله تعالى، ومجالسهم في الدنيا قريبة في مادّة حديثها من مجالس الرّفاه في الجنّة.. حيث يكثر فيها الثناء على ربّهم والتسبيح والدعاء، والتواصي بالحقّ والصّبر، والاستعاذة من النّار وسؤال الدّرجات العلى من الجنّة. وهاهم اليوم في مجالسهم.. متقابلين، قد استجاب الله لهم، وأنزلهم منازلهم!

= المجالس في ظلّها!! وأهل هذا العصر أحرى بتصوّر هذا النّعيم، وإدراك عظمته، وبخاصّة أولئك الذين يجهدون في اختيار الأماكن التي يقيمون فيها مهرجاناتهم ومناسباتهم العامّة التي يُدعى فيها الجميع، ثمّ يحفّونها بوسائل الترفيه للصغار والمتاحف والمعارض التي يرتادها الكبار، وينوّعون فيها من وسائل التشويق ما يجذب الزّوار ويطيل أمد بقائهم. فأين هذه المجالس الدنيوية الفانية التي تقوَّض خيامها، ومعارضها، ومجالسها، بعد انتهاء فعالياتها من مجالس الرغد الباقية في ظلال الأشجار العالية، وما يحفّها من وسائل الترفيه والتشويق التي لم تر عين مثلها، ولم يخطر على قلب بشر؟

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنّة بسند حسن، ص ٧٧.



ومحبّة الله تعالى في الدّنيا والآخرة إنّما ينالها أهله وخاصّته.. أهل العمل الزّكي الباقي، من المحبّين الموحّدين، والمتوكّلين أهل الرّضى والولاية. وما كان للدنيا من علاقات اجتماعية فإنّها تزول بزوالها، ولا يبقى في الآخرة إلا ما كان لله وحده، ثمّ يتمحّض الطيب الخالص في الجنّة، التي يجد فيها السّعداء من النعيم الظاهر والباطن بمقدار عبوديتهم وتوحيدهم، ومنازل الولاء والبراء في ميثاق الصداقات والقرابات التي كانوا يعقدونها في الدّنيا. ومن أحبّ لله وأبغض لله، وبذل لله وزار أو عاد لله عزّ وجلّ، ارتفع في منازل الجنّة العليّة، بقدر ارتفاعه في الدّنيا بدرجات المحبّة الإلهية.

وكفى بمجالس المتّقين في الدّنيا شرفاً ما يُطرح عليهم بسببها من المحبّة والرّضى، وما يجدونه ببركتها في دار الكرامة من اللذات، والدرجات، وحسن الوفادة، عن معاذ بن جبل ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله تبارك وتعالى: «وجبت محبّتي للمتحابّين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ»[1].

فإذا استقرّت بالأخلاء النُّجُبُ فلا تسل عمّا يدور بينهم ساعةَ اللقاء.. من طيب السلام والمصافحة، والبشاشة والحفاوة! ولا تسل عن التكريم وحسن الوفادة؛ فلكلّ مجلس خصوصيته، ولكلّ خصوصية في الجنّة عالمُها الفريد من البهجة واللذّة! فما هو إلا أن يأخذ الوفد مجالسهم، وتتقابل أسرّتهم، ويستقرّ بهم المُقام، حتى يتقدّم الغلمان بواجب الضيافة.. محمّلين بألذّ ما رأت العيون من أصناف الطعام والشراب.

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، (ج٢/ ص٣٣٥).



فإذا دارت كؤوس التكريم، أخذ الأصحاب يتجاذبون أطراف الحديث، ويتذاكرون أمتع ما كان معهم وما هو كائن، وينتقون أطايب الحديث كما ينتقي أحدهم أطيب فاكهة من غصنها المذلّل.

ومادّة المجالس وموضوعاتها كثيرة متنوّعة، يتخلّلها الأدبُ والبهجة، والضّحك والفرحة.. بين يدي الجمال الفريد، والاتّساع العظيم الذي يكتنفهم. وما في الجنّة ندم وحسرة إلا على زمنٍ ضائعٍ لم يغتنموه، وساعةِ غفلةٍ لم يتداركوها؛ لِمَا يرون من بركة العمل الصالح، وارتفاع المنازل بسببه! وهي حسرةٌ في حال رغدٍ، وندمٌ في كنف بهجةٍ.. على عدم الاستكثار من الخير.. شتّان بينها وبين حسرة أهل الأعراف الموقوفين عن دخول النعيم، أو حسرات المعذبين في دار الجحيم، على انتهاك المحارم، وتضييع الفرائض. عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس يتحسّر أهل الجنّة، إلا على ساعةٍ مرّت بهم لم يذكروا الله فيها»[1].

وما أقرب الشّبه بين حال الملائكة مع الأخلاء في مجالس الدّنيا وحالها معهم في مجالس الرّغد بدار الكرامة؛ فقد كانت تحفّهم وهم لا يشعرون، وتزّف أخبارهم وأحوالهم ورغائبهم إلى ربّهم، وهو أعلم بهم. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ لله ملائكةً يطوفون في الطُّرق يلتمسون أهلَ الذِّكْرِ، فإذا وجدوا قومـًا يذكرون الله تنادوا: هلُمّوا إلى حاجتكم»، قال: فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السّماء الدّنيا، فيسألهم ربّهم، وهو أعلم منهم: «ما يقولُ عبادي؟» قال: تقول: يسبّحونك، ويكبّرونك،

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (ج٢٠/ ص٩٣).

ويحمدونك، ويمجّدونك[1]. قال: فيقول: «هل رأوني؟» قال: فيقولـون: لا والله، ما رأوك. قال: فيقول: «وكيف لو رأوني؟» قال: يقولون: لو رأوكَ كانوا أشدّ لك عبادةً، وأشدّ لك تمجيداً، وأكثرَ لك تسبيحًا. قال: يقول: «فما يسألونني؟» قال: يسألونك الجنّة. قال: يقول: «وهل رأوها؟« قال: يقولون: لا والله يا ربِّ، ما رأوها. قال: يقول: «فكيف لو أنّهم رأوها؟» قال: يقولون: لو أنهّم رأوها، كانوا أشدّ عليها حرصًا، وأشدّ لها طلبًا، وأعظمَ فيها رغبةً. قال: «فممّ يتعوّذون؟» قال: يقولون: من النّار. قال: يقول: «وهل رأوها؟» قال: يقولون: لا والله يا ربّ، ما رأوها. قال: يقول: «فكيف لو رأوها؟» قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشدّ منها فراراً، وأشدّ لها مخافةً. قال: فيقول: «فأشهدُكُم أنّي قد غفرتُ لهم» قال: يقول مَلَكٌ من الملائكة: فيهم فلانٌ ليس منهم، إنّما جاء لحاجة، قال: «هم الجلساء لا يشقي بهم جليسهم»[2].

وحفاوة الملائكة الكرام بمجالس المتقين في الدّنيا تظهر في: حرصهم عليها، وتلمّسهم إيّاها، ومناداة بعضهم بعضًا إليها، واستغفارهم لأهلها، والشفاعة لهم عند ربّهم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما

(١) هؤلاء المتقون المجتمعون للثناء على ربّهم لم يكونوا منقطعين عن الدّنيا، بل هم منتجون.. يأخذون من الدنيا، ولا تأخذ منهم، ويعملون فيها، ولا تعمل فيهم، بخلاف الغافلين الذين كانت الدّنيا أكبر همّهم، ومبلغ علمهم، ومادّة حديثهم، وشغل مجالسهم.. ما إن يستقرّوا فيها حتى يشرعوا بتذاكر لهوها، وأخبار تجاراتها، والتواصي بعقاراتها وأسهمها، ثمّ ينفضّون على مثل ذلك!

(٢) أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٣٥٣).



اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده»[1]. ولا يقتصر الاستغفار والشفاعة على من شهد هذه المجالس من الملائكة، بل يشترك فيها حملة العرش، وأهل الملأ الأعلى، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ - ٩].

والمجالس إنّما تظهر قيمتُها، وتتحقّق منافعُها بموضوعاتها التي تُدار فيها. وكثيرٌ من الأحاديث في مجالس السعداء امتداد لمادّة حديثهم في مجالسهم الأولى في دار الدّنيا.

من أحاديث المجالس:

أحاديثُ المجالس في الجنّة، كما تظهر في نصوص الكتاب والسنة، متنوّعة، فمنها: ما هو محض ثناء على الله تعالى، وتذكّر آلائه ونعمه، وشكره على ما صرف من العذاب، وأنعم من الثواب. ومنها تقليبٌ لصفحات الأيام الخالية، بأحداثها وأعمالها ولحظاتها التي لا تُنسى. ومنها تذاكرٌ لأحوال النّعيم في الجنّة، منذ دخولها وما جرى للسعداء فيها من مواقف ولقاءات ومتع وزيارات، وأحاديث أخرى كثيرة تناسب رفعة المنازل وسعة المكان وكثرة النّعيم.

---

(١) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص٢٠٧٤).

١ - الثناء على الملك الجليل سبحانه:

أكملُ درجاتِ المعرفة بالله ربّ العالمين تظهر في دار النّعيم، ولذا تعبُق مجالسُ السّعداء بذكره سبحانه، وتمجيده والثناء عليه بما هو أهله. قال تعالى في وصف مشهد بديع لأحد هذه المجالس، وما يدور فيها من أحاديث السّعداء: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ٤٣]. وقال تعالى في وصف حالهم، وما يدور في أحد مجالسهم: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[فاطر: ٣٣ - ٣٥].

وأكرِم به من مشهد هذا الذي يجمع بين الثناء والعطاء، والرّضى عن الله تعالى والرّضى منه، مع كمال التنظيم، والحفاوةِ القائمةِ على فخامة الاستقبال؛ حتى لكأنّك، من جمال التصوير وحسن التعبير، قد أخذتَ مجلسك مع السّعداء، في هذا المكان الرّائع الذي تجري من تحته الأنهار، وتظلّله الأشجار.. ترفُل مع السعداء في النّعيم المقيم.. نعيمِ الباطنِ بالرّضى والأمن والسعادة، ونعيم الظاهر بالحُسن والبهاء، وكمال الزينة، وترى أفراح الجنّة ماثلة في مناسباتها وملتقيات أهلها.. تسمعُ أحاديثهم، وتُبصرُ البهجةَ العامرةَ بنضارة وجوههم، وانشراح صدورهم، وفخامة اللباس الذي أقبل به السّعداء من ممالكهم الرّغيدة، وكمالَ المشاعر التي تكتنفهم بعد نزع الغلّ من القلوب، وطيب الحديث، حتى لكأنّه حديثهم كلّهم، وما ذاك إلا لكمال الأدب وحسن الرّعاية للجليس.



والثناءُ على الله تعالى أشرف ما يدور في مجالس المتّقين.. ثناءٌ عليه سبحانه بكمال ذاته وصفاته، وثناءٌ عليه بجميل آياته في مخلوقاته، وثناءٌ عليه بحكمته في جميع أفعاله؛ فهم لا يجوزون نعمة ماضية، أو لذّة باقية حتى تهيّجهم لاستحضار الأدب بين يدي الطلب؛ فهذا هو ربّهم الذي أحبّوه فوحّدوه، واشتاقوا إليه فعبدوه.. يشكرهم وهو الغنيّ عنهم، ويسترهم وهو العليم بحالهم، ويغفر لهم ويتجاوز عنهم، ويحلّ عليهم الرّضوان وهو القادر عليهم.

ها هم يُثنون على ربّهم الذي أحبّهم وأحبّوه، وعوّدهم الجميل الذي لم ينقطع، وظلّ يرغّبهم في الدنوّ منه ساعات القرب منهم في كلّ ليلة، حين كان يتنزّل على سماء دنياهم.. ثمّ يدعوهم ليغفر لهم!! عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا مضى شطر الليل، أو ثُلُثَاهُ ينزل اللهُ تبارك وتعالى إلى السّماء الدنيا، فيقول: هل من سائل يُعطَى؟ هل من داع يُستجَاب له؟ هل من مستغفر يُغفرُ له؟ حتى ينفجرَ الصُّبح»[1].

٢ - تذاكر الأعمال الصالحة في الدّنيا:

والثناء على الله تعالى في مجالس السّعداء يقترن بالحديث عن الأعمال الصالحة التي كانوا يحافظون عليها في الدّنيا؛ إذ ليس في الجنّة عُجْبٌ ولا رياء، ولا طلبُ مدح وثناء؛ فقد انتهى وقت العمل، وحلّ الجزاء، وبقي في الذهن ما عبَق من جميل الذكرى. والتذكّر في الجنّة حديدٌ، وهو مقرون بقوّة الحواس في ذاتها ووظائفها[2]؛ حتى إنّهم

(١) أخرجه مسلم، (ج١/ ص٥٢٢).

(٢) سائر الحواس والأعضاء يوم القيامة كاملة في ذاتها، حادّة في وظائفها، وقوله =

ليتذاكرون في المجلس الواحد أدقّ التفاصيل التي مرّت بهم في الدّنيا، مما يدور في فلك الطيب والنّقاء الذي ينعمون فيه، بخلاف أهل الدّنيا البائسة التي ينسى فيها أحدُهم أعزّ الأشياء عنده، في أقرب الأوقات منه!!

وما أمتعَ أحاديث المجالس وأبهجها، وبخاصّة حين يبدأ السّعداء بتذاكر أعمالهم الصالحة، والثناء على ربّهم سبحانه، معترفين له بالمنّة والفضل. وكلّ سعيد يتقلّب في النّعيم يرى مِنّة الله تعالى عليه ويحمد ربّه في كلّ مجلس، ويعترف بفضله عند كلّ لقاء، ويُثني عليه أن أسعده بهذا المنقلب الكريم، وأورده هذا المنزل المقيم، وأفاض عليه من المزيد الذي لم يخطر على قلبه، وألحق به ذريّته، وجمعه بأهله وصحبه، ووقاه عذاب الجحيم، ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

قال الله تعالى يصف مجلساً رغيداً من هذه المجالس.. قد استقرّ الأخلاءُ فيه على أرائكهم، واكتملت للتوّ مراسم الترحيب والحفاوة بهم: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[الطور: ٢٥ – ٢٨].

ولك أن تتأمّل في مجلس السعادة هذا، كيف تتجلّى فيه فرحةُ النّجاة، وتظهر على أهله صور الأُلفة ورفْعُ الكُلْفة، وحسنُ الاستماع، وأدبُ المحاورة؛ فالكلّ يتجاوبُ، والكلّ يتحدّث، ويسرُد مواقفه وذكرياته، ويذكر طرفاً من نعمة الله تعالى عليه، ورحمته به، وهدايته إيّاه! وكلّهم،

= سبحانه: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ أي: حادّ، تُدرك به ما أنكرته في الدنيا، (تفسير الجلالين، ج١/ ص٦٩٠).



على درجة رفيعة من الموافقة، يثنون على ربّهم، مستشهدين بعظيم المنّة، ويحمدونه على دخول الجنّة.. يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾؛ فهو الذي دعانا لعبوديّته، وهدانا إلى صراطه، وأقام قلوبنا على محبّته، وأعمالنا على سنّة نبيه، وما ثباتنا في الدّنيا حتى بلغنا هذا النّعيم إلا بفضله ورحمته.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾، ولا نشرك معه أحدًا سواه. كنّا نعلّق آمالنا به، ونرفع حاجاتنا إليه، ولا نجعل بيننا وبينه وسائط في عباداتنا.. نتوسّل به وحده، ونستغيث به وحده، ولا نعلّق على صدورنا، ولا على دوابّنا خيوطًا ولا خَرَزًا، ولا تمائم ولا أوتاراً، ولا حُجُبًا نتقّي بها من الشرور؛ لأنّ الله حسبُنا، وهو وليّنا في الدّنيا والآخرة. وكيف لا ندعوه وهو مدبّرُ الأمر كلِّه، وبيده الخيرُ كُلُّه، وإليه يُرجع الأمرُ كُلُّه؟! ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي يحتاج إليه كلّ أحد، وهو الغني بذاته، والجميع رهن إرادته، وقدرته نافذة على كلّ مخلوقاته.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾، أن يهدينا لكمالات عبوديته، ويُعيننا على ذكره وشُكره وحُسن عبادته، وقد استجاب لنا؛ فلم نَدْعُ أحداً سواهُ دُعاء مسألة، ولم نلجأ إلى الخلق لُجوء افتقارٍ وحاجة. لم نتبرّك بحجر ولا أثر ولا شجَر، ولم نستغث بمَلَكٍ ولا نبيّ ولا عبد صالح. لقد كانت صلاتُنا، وما نأتيه في حياتنا، وما يجُريه الله علينا حال موتنا.. له وحده. كنّا نتقرّب إليه بذبح قرابيننا، ولا نذبح لأحد سواه.. إنساً كان أم جِنّاً، نبيّاً أم مَلَكاً، وليّاً أم شقياً، حيّاً أم ميّتاً. فلله الحمد ﴿ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

لقد آنَسنا بالبشارة عند فراق الدّنيا، وأسعدنا بالقرب يوم القيامة، وخفّف عنّا سِتْرُه هولَ المطلع، وهوّن علينا لُطْفُه كُرُبات المحشر، يوم تخلّى التابعُ عن المتبوع، والشّافع عن المشفوع، وتبرّأ المشركُ عن الشريك، والوالِدُ عن الولد.. وانقطعت الأسباب، حتى لم يبق لأحد في موقف الفَزَعِ سواه سبحانه، وزالَ كلّ رجاءٍ إلا فيه، وذهب كلّ تعلّق إلا به.. جلّ جلاله.

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُ ﴾، ونؤمن به، ونتوكل عليه، ونحكّم شرعه، ونعتصم بكتابه، ونحذر سُبُل المغضوبِ عليهم والضالين. آمَنَّا بأنّ مردّ الغيب له وحده، وأنّ جلبَ النَّفع ودفعَ الضُرّ لا يملكه سواه، وتأدّبنا معه؛ فلم نأت ساحرًا ولا عرّافًا، وزكت همّتنا في مرضاته، حتى أسهرنا الليل في مناجاته، وأظمأنا المُهَج في الهواجر لمحبّته، وأنفقنا الأموال والأنفس في سبيله!

آمَنَّا بالقدر خيره وشره، وما خاب سعيُنا إليه يوم اكتفينا به عمّن سواه، وباعدنا في حبّه الأقارب، وأدنينا في قُربه الأباعد، وارتضينا المنازل التي يهواها، وتشرّفنا بالأعمال والأحوال التي ارتضاها، وقربنا لأجله الصالح البعيد، وأبعدنا لأجل محبته الفاجر القريب! وها نحن اليوم في دار كرامته[1].. مع من صلَح من آبائنا وأزواجنا وذرياتنا، نطوّف بالنعيم، وننهل

---

(١) من الألفاظ التي تعدّدت فيها أقوال السّلف بين الحظر والإباحة إطلاق «مستقرّ رحمة الله» على جنّته، قال أبو البختري رحمه الله: لا يقولنّ أحدكم: اللهم أدخلني في مستقرّ رحمتك؛ فإنّ مستقرّ رحمته نفسُه. (التنبيه والرّد لأبي الحسين الشافعي، ج١/ ص١٤٥). قال شيخ الإسلام رحمه الله: قال رجل للإمام أحمد رحمه الله: جمعنا الله وإيّاك في مستقرّ رحمته، فقال: لا تقل هذا. وإن كان ابن تيمية رحمه الله يميل إلى أنّه لا يُكره الدّعاء بذلك، ويقول: إن الرحمة المراد بها ههنا: هي الرحمة المخلوقة، ومستقرّها الجنة. (الفتاوى، ج٤/ ص٦١٥).



من اللذات التي لم ترها أعيننا، ولم تسمعها آذاننا، ولم تخطر على قلوبنا؛ فله الحمد حمداً دائماً متصلاً؛ جزاء ما كنّا عليه من الإيمان، وما صرنا إليه من النّعيم.

وبينا هم في مجالس السعادة يتذاكرون، وعلى الأرائك يُثنون ويحمدون، إذ بالنداء الكريم يُبارك عملهم، ويهنئهم بحسن منقلبهم، وكريم نُزُلِهم، قال الله تعالى واصفاً هذا المشهد الفريد في مجلس الرّغد والنّعيم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ٤٣].

٣ - السؤال عن القرناء في الدّنيا والبحث عنهم:

الأماكن التي يعقد فيها أهل الجنّة مجالسهم كثيرة فارهة.. تحت الأشجار، وعلى ضفاف الأنهار، وفي روضات القصور. وهناك مجالس خاصّة، على أرائك مرفوعة، أمام حاجز عظيم شفّاف، يطّلع منها أهل الجنّة على أهل النار، ويرون ما هم فيه من الشّقاء والبوار، ويحاورونهم، فيُسمعونهم ويسمعون منهم!!

وقد أخبرنا الله تعالى عن هذا الصنف من المجالس في سياق الحديث عن تذكّر أحد السّعداء رفيق سوء كان معه في الدّنيا، لم يدخل الجنّة، ولا يُدرى مصيره، وأطلعنا سبحانه عمّا يدور بين الأشقياء والسّعداء من حوار فريد، فقال سبحانه بعد أن توعّد الكافرين بالعذاب الأليم: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ

وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴾[الصافات: ٤٠ – ٦٨].

ويا لجمال هذا المشهد القرآني.. الفريدِ في بابه، الكريمِ في مادّته، الغزير في معانيه!! فهو مشهد مليء بالحركة، مُترع باللذات، جامع لصنوف شتى من النّعيم.. تتداخل فيه المشاعر، وتتعدّد الحوارات، وتدور أحداثه في ثلاثة أماكن ظاهرة، يتنقّل فيها السّعداء: قصورهم الفارهة التي غادروها، ومجلس الرّغد الذي اجتمعوا فيه، ومجلس آخر جديد توجّهوا إليه.

فها هم السعداء، بعد أن أقبلوا للتوّ من ممالكهم الفخمة.. المُترعة بالفواكه والنّعيم، والرّزق المعلوم الكريم، والشّراب اللذيذ في كؤوس الفضّة، بقرب الحور العين، ها هم يفدون إلى مجلس البهجة والرّفاه هذا بأبهى زينة، حتى إذا ما استقرّ بهم المُقام دارت عليهم الكؤوس، وقُدّمت مُوجبات الضّيافة، وبُسطت بين أيديهم الموائد، وطاف بهم الغلمان يحملون أصناف الطعام والشراب، والتُحف والحلوى.. كلّما قدّمت لهم الكؤوس تباذلوها بينهم على وجه المحبّة والتقدير.



فإذا أبصروا ما هم فيه من النّعيم، وما خلفّوه وراءهم من النّعيم، وما هم صائرون إليه من النّعيم.. شرعوا يُثنون على ربّهم، ويتذاكرون ما كان منهم في الأيام الخالية، ويتبادلون أطراف الحديث بمحبّة واحترام، كلّ يسرد ما كان منه في الدّنيا، وما هو كائن له في بلاد الأفراح، وينتظم جواهر النّعيم واللذّات هنا، بسبب الأعمال الصالحة هناك.

ولا يزال بهم الحديث.. بين ذِكرٍ وتذاكر، وأنس وملاطفة، حتى يشرع أحدهم في السؤال عن صديق له في الدّار الخالية، يقول: قد كان لي في الدّنيا صاحبٌ غويٌّ، شديدُ الجدال، سخيٌّ في البذل على الباطل، شحيحٌ في طُرق المعروف، ولا يتوقف عن السخرية بي كلما أقبلت على ربّي.. يثبّطني عن الطاعة، ويُغريني بفعل الحرام، ويحبّبه إلى قلبي، ويشكّكني في الجزاء على الأعمال بعد الموت، يقول: إلى متى تضيّع عُمُرَك، وتحرمُ نفسَك؟ أتُصدِّق بأنّا نُبعث من جديد بعد أن نموت ونتمزّق، ونصير ترابًا وعظامًا؟! أيُعقل أن يدخل كلّ هؤلاء الناسِ النّارَ، وتكونَ الجنّةُ لك ولأصحابك؟! فهل يعرف أحدكم مصيره؟ فقد التمستُه في الجنّة وسألتُ عنه فلم أجده! فيُجيبُه أحدُهُم: هَلُمّ فلنطّلع على أهل النار؛ لعلّنا نعرفُ خبَره، أو نسألَ من يدُلّنا عليه.

فينطلقون إلى مجلس فريد من مجالس الجنّة، يُطلّ على أهل النار، من وراء حاجزٍ عظيمٍ شفّاف، باطِنُه فيه الرحمة، وظاهِرُه من قِبَلِه العذاب، فيجدون عدداً من السّعداء قد أخذوا أُخُذاتهم، وعلوا فوق الأرائك الفارهة الكثيرة، فيسلّمون عليهم ويجلسون قُبالة أهل النّار.. ينظرون!

ولهذا المجلس الكريم من مجالس الجنّة، الذي يرتاده السّعداء بين الحين والآخر، خصوصيته الفريدة؛ فمع كونه عامراً باللذّات والتحف من

جهة أهل الجنّة، مُترعاً بصنوف الأطعمة والأشربة، كسائر مجالسها الرّغيدة، إلا أنّ ما يميّزه عن سائر المجالس أنّه يطلّ على عالم العذاب الرّهيب في الأسفل!! من وراء حاجز عظيم، يرى السعيد من خلاله ما يجري على أهل النار، ويسمع ما ينزل بهم؛ فيزدادُ شُكْرُه لرَبِّه، ويَعْظُم حُبّه له، وثناءُه عليه؛ أن هداه ونجّاه حتى بلّغه منازل الأمن في دار السّلام.

وهذا الحاجز المضروب بين الجنّة والنّار بخلاف السّور الذي يُضرب على عرصات القيامة بين المؤمنين والمنافقين خاصّة[1]. وهو حجاب

---

(١) من حكمة الله تعالى وبديع صنعه أن مايز بين أهل الجنّة وأهل النّار.. منذ ساعة خروجهم من الأجداث إلى أن يُذبح الموت في برزخ بين الدّارين؛ مؤذنا بخلود المتّقين في جنّات النّعيم والظالمين في دار الجحيم. وكما نفى سبحانه التسوية بين الفريقين في الدّنيا بقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وشرع لكلّ منهما أحكامه الخاصّة به، فقد أظهر الفرق بينهما مع ساعات الرّحيل الأولى إلى عالم الآخرة، ثم ضرب بينهما (السّور) (والحجاب) بعد ذلك.. سورُ القيامة العظيم، الذي يفصل بين المؤمنين والمنافقين خاصّة، والحجاب القائم بين أهل السّعادة وأهل الشّقاوة.

وقد وصف الله تعالى كلا الحاجزين بوصف مختلف، يظهر فيه التّمايز بينهما؛ فذكر أنّ الذي في المحشر (سُورٌ لهُ باب)، وأنّ الذي بين أهل الجنّة وأهل النّار (حِجابٌ) مُصْمَتٌ لا نفاذ منه. والحِجاب أكبُر، وهو يفيد معنى أعمّ وأشمل، والسّور له وظيفة أخصّ؛ إذ هو بمثابة الحائط الذي يُحفظ من بداخله لكيلا يختلط بهم غيرهم، كسور المدينة وسور البستان ونحوهما. كما أخبر سبحانه أنّ سور المحشر يُضرب للتوّ بين المؤمنين والمنافقين، وهذا ما تفيده (الفاء) الفجائية، من قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾، أي أنّه لم يكن مضروباً من قبل، وأمّا الحجاب الفاصل فإنّه قائم بين الجنّة والنّار منذ الأزل. كما ذكر سبحانه أنّ =



عظيم، لا يعرف مكانته إلا الله تعالى. ومن عظمته أنّه متين، لا ينفذ منه حرّ ولا برد، وشفّاف.. يرى أهلُ الجنّة من خلاله تفاصيلَ دقيقةٍ لِما يجري في دار البوار، ويرى أهلُ النّار تفاصيل دقيقة للنّعيم في دار القرار[1].

= باب السّور يوم القيامة يدخله المتّقون فقط، وأنّ له نوراً من جهتهم، وظُلمة من جهة المنافقين والكافرين، وأنّ ضربه بين الفريقين لقطع طمع المنافقين في الوصول للمؤمنين من كلّ وجه، بعد أن أخذوا ينادونهم أن يشفعوا لهم، وأن ينتظروهم ليقتبسوا من نورهم.

وأخبر سبحانه أنّ الحوار يتواصل بعد ضرب السّور، ولا ينقطع إلا قُبيل لحظات من الفراق الأبدي الذي لا لقاء بعده. وكما يُحال بهذا السّور بين المنافقين والدخول في زمرة المتّقين، فإنّه يحال بينهم وبين ورود الحوض كذلك، بقوّة الملائكة الذين يذودونهم عنه كما تُذاد الإبلُ العطاش الجُرب عن حوض الماء؛ حتى لا تلوّثه. قال الله جلّ جلاله في وصف هذا المشهد العظيم: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[الحديد: ١٢ – ١٥].

فهما حجابان إذن: حِجاب يُضرب يوم القيامة؛ لفصل المؤمنين عن المنافقين خاصّة، وحجاب مضروب في الجنّة للفصل بين أهل السعادة من المتّقين، والعصاة وأهل الشقاوة من الكفّار والمنافقين.

(١) أهلُ هذا العصر أحرى من غيرهم بتصديق خبر هذا الحاجز العظيم، وإدراك معناه، وبخاصّة سكّان الدول الصناعية الذين جرّبوا العيش بداخل غُرَف =

وقد ورد في السنّة المطهّرة تسمية هذا الحِجاب بالسّور، ولكنّه سورٌ يختلف عن سور القيامة، كما سبق، والله أعلم، فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ فقال: «يؤتى بالموتِ كأنّه كبشٌ أملَح، حتى يوقَفَ على السّورِ بين الجنّة والنّارِ فيُقالُ: يا أهل الجنّة، فيشرئبّون، ويُقال: يا أهلَ النار، فيشرئبّون، فيُقال: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، فيُضجَعُ فيُذبَحُ، فلولا أنّ اللهَ قضى لأهلِ الجنّة الحياةَ فيها والبقاء لماتوا فرحًا، ولولا أنّ اللهَ قضى لأهلِ النّار الحياةَ فيها والبقاء لماتوا ترحًا»[1].

ومشاعر السّعداء في هذه المجالس على كمال الرّضى والطّيب والسعادة؛ فلا حُزن ولا خوفَ، ولا أسف ولا بكاء، ولا جزع من رؤية الأشقياء.. وإن كانوا في الدّنيا من أقرب النّاس نسبًا، وألزمهم صحبة.

= الزّجاج السّميك العازل عن الحرارة والبرودة، ويمكّنهم من الاستمتاع بالمناظر الخلّابة وسط السحاب في ناطحاتهم الشّاهقة، أو مع الأسماك في أعماق الماء.. يرقبُون بيئاتِها الطبيعية، ويشاهدون حركة تنقّلها، ويسمعون أصواتها، كأنّهم معها، وليس بينهم وبينها إلا حجاب متين، من الزّجاج المصفّح، تختلف برودته وإضاءته بين الجهتين، بحسب ممرّاته ومجالِسه! وأين هذا العازل البدائي المتواضع الذي يكلّف الكثير ويحتاج لصيانة دائمة، ويتعرّض للتلف، ولا يدوم طويلاً، من هذا الحاجز العظيم، القائم أبد الآباد بين الجنّة والنار، ويطّلع منه السّعداء على الأشقياء فيزدادون نعيمًا، والأشقياء على السّعداء فيزدادون حسرة، ثم لا يصل إلى هؤلاء حرّ ولا عذاب، ولا يطمع أولئك ببرد ولا شراب!!

(١) أخرجه الترمذي، (ج٥/ ص٣١٥).



بين السّعداء والأشقياء:

إذا استقرّ السّعداء على الأرائك، في مجلسهم الفريد، المطلّ على أهل النار، وحفّهم الغلمان بكريم الوفادة، إذ بالسعيد الذي سأل عن قرينه يذرع منازل الجحيم في الأسفل؛ بحثـًا عن بُغيته، ويتفرّس في وجوه الأشقياء المتفحّمة، وهم يغرقون في أمواج السّعير.. قد اسودّت وجوههم، وزالت من شدّة العذاب معالِمُهم، وعَظُم كَربُهم، واشتدّ صريخُهم، والصّديد يخرجُ تارةً من جُلُودِهم، وأخرى من أدبارهم، والعذابُ يتجدّد عليهم.. لا يتوقف حتى يعود.

وما هو إلا قليلٌ حتى يناديهم منادٍ: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾، فيطّلعون من منازل الجنان، في كنف الرّوح والرّيحان على أهل النّار في لجُج السعير، وإذ بالسعيد يبصرُ أحد الأشقياء.. يَرْسُفُ في قيوده، ويُزاول في العذاب.. كأنّه صاحبه!! بل هو والله صاحبه، قد جيء به من بين القطعان المعذّبة في دركته البعيدة، حتى يراه أهل هذا المجلس من السعداء.

وهكذا هم أهل الجنّة.. محبوبون إلى ربّهم، مُجابون في رغباتهم، لهم فيها ما يشاءون! ويتجاوب مع رغباتهم حتى زبانية النّارمع المعذبين الذين ﴿يحْضَرُونِ﴾ لهم في نُزُلِ العذاب، كما يُحضرُ السّجين في دار الدّنيا من زنزانته، فيجيء يرسُف في قيوده؛ ليراه زائِرُه من وراء حجاب! ولولا أنّ الله عز وجل عرّفه صاحبه ما عرفه؛ فقد تغيّر لونُه، وزالت ملامحُ وجهه من شدّة العذاب.

وهذا الإحضار المهين هو الذي استعاذ منه السّعيد بعد ذلك بقوله: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾[الصّافات: ٥٧]، أي: لكنت اليوم مثلك، أُحْضَر من منازل العذاب على وجه الإذلال.

فإذا رآه ناداه: أنت فلان؟ فيقول: نعم. ويُسمع الله تعالى كلاً منهما الآخر؛ كرامة لأهل الجنّة، على الرّغم من البُعْدِ السّحيق، والزّفرات والآهات والشهيق، والبكاء والحسرات التي تتعالى من دار البوار. فإذا تيقّن منه قال: لقد وجدتُ ما وعدني ربّي حقًا، فهل وجدتَ ما وعد ربُّك حقًا؟ فيقول: نعم، فلا يلبث أن يردّ عليه: ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾، أي: لقد أوشكتَ والله أن تغويني معك في الدّنيا، وتُهلكني، حين كنت تصدّني عن الإيمان والعمل الصالح، وتُغريني بالكفر والمعصية، وتحبّبهما إلي، ولولا نعمة ربّي، بالهداية والثبات، لكنتُ حاضرًا معك اليوم في سواء الجحيم. والسّعداء من حوله ينظرون ويسمعون، ويحمدون الله تعالى على ما أولاهم من النّعيم، والحال الكريم.

فإذا أبصر أهلُ النار حديثَ صاحبهم مع السعيد اقتربوا منه، واستشفعوا به أن يطلب منه جرعة ماء، أو ثَمرة من ثمار الجنّة، يتقاسمونها بينهم! فيتوسّل إليه، ويتودّد بسابق الصّحبة، ويذكّره بجميل المواقف، يقول: أتذكُر ما كنتُ لك في الدنيا؟! أتنساني اليوم وتتركني وأنا أحوج ما أكون إليك؟ شَربةَ ماء أُطفئ بها لهيب النار في داخلي، أو ثمرة من ثمار الجنّة أسدّ بها جوعتي! ويظلّ يتوسل إليه ويبكي، ومعه أصحابُه.

والسّعداء على الأرائك ينظرون ويسمعون، فلا يزيدهم ذلك إلا حمداً وثناء! ولا يردّون على البؤساء إلا بهذا الجواب المقتضب: إنّ الله حرّم عليكم ما تطلبون. قال الله تعالى واصفًا ما يدور بين الفريقين في تلك الساعة: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا



وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴾[الأعراف: ٥٠ – ٥١].

وفي مشهد آخر يتجلّى الفرق الكبير بين السّعداء الذين يجلسون على الأرائك.. يأكلون ويشربون ويضحكون، والأشقياء الذين يتجرّعون غُصص النّار والحسرات؛ جرّاء غفلتهم، وتكذيبهم، وسخريتهم. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾[المطففين: ٢٩ – ٣٦].

واللحظة الفاصلة بين الفريقين تتجلّى حين يقضي الربّ سبحانه بانقطاع الأسباب بينهما من كلّ وجه، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾[الجاثية: ٣٤]. فإذا سمع الأشقياء هذه الكلمة غرقوا في لجج الجحيم، وعاد السّعداء إلى روضات النّعيم.

أهل الأعراف:

ومن على مكان مرتفع بين الجنّة والنار يسمع أهلُ الأعراف ما يدور بين السّعداء والأشقياء، ويُبصرون مآل كلّ منهما. وأهل الأعراف هؤلاء رجال من عصاة المؤمنين، تساوت سيئاتهم وحسناتهم، ومُنِعُوا من دخول الدّارين، بعد أن جرى عليهم القضاء في عرصات القيامة وفق عدل الله تعالى، فيظلّون في طيّ النسيان، حتى يحين اختبارهم في هذه اللحظة الفاصلة التي يختصم فيها الفريقان. وقد جاء ذكرُهم في سورة سُمّيت باسمهم؛ لبيان عجيب شأنهم!

سبب شقاوتهم:

يظهر من حال هؤلاء العصاة أنّ لهم سيئات أبعدتهم عن نظر الرحمة ودخول الجنّة، وحسنات حجبتهم عن نظر الغضب الذي مُحق به أصحاب الجحيم. وعلى الرّغم من تحقيقهم لأصل التوحيد وأساسه، إلا أنّ الله تعالى لم يشأ أن يُدخلهم الجنّة ابتداء؛ لعظيم الجرم الذي ارتكبوه، أو العقوق الذي أظهروه، أو الفواحش التي كانوا لا يتورّعون عنها[1].

---

(١) الذنوب التي تستوجب غضب الربّ سبحانه لها مُتعلّق في ذاتها وفي آثارها، وأعظمها الشرك بالله تعالى أو ما كان سبباً موصلاً إليه، ومنها ما عَظُمَ جُرْمُه لاستخفافه بمن حقّه الإكرام والترضّي والمحبّة كالوالدين والأنبياء، دون تكذيبهم أو سبّهم والسخرية منهم، فإنّه كفر، أو الصحابة وسائر الأولياء الذين توعّد الله تعالى بحرب من آذاهم وعاداهم، أو كان من جنس الكبائر المغلّظة التي يُنازِع العبدُ فيها ربّه فيما اختصّ به نفسه؛ كالكِبرياء والعزّة، أو الذنوب التي يعظُم خطرُها في المكان والزمان الفاضلين؛ كالبلد الحرام والشهر الحرام، والساعات والليالي الفاضلة، وإن كان اقترافها في غيرهما من جنس الصغائر التي يُرجى مغفرتها في كنف السّتر يوم القيامة، أو كانت من جنس الذنوب التي حفّت بها أحوال رديئة، هي في ذاتها أعظمُ من الذّنب الذي اقترفوه؛ كإيقاعها على وجه الاستخفاف والاستهزاء بنظر الله تعالى، أو كانت من جنس الذنوب التي يعاقَب أصحابُها بالمثل يوم القيامة؛ كحال المجاهرين، الذين هتكوا ستر الله تعالى في الدّنيا فناسب أن يحُرموا كَنف السّتر يوم القيامة، ويفُضحوا على رؤوس الخلائق؛ ليراهم كلّ أحد! أو الذنوب التي لا يليق مثلها بمثلهم؛ كأن يكونوا عالِمين بحرمات الله تعالى وحدوده، أو قدواتٍ في الخير، دُعاة له، يظنّ الناس بهم الصلاح، وليسوا بذاك، وإن كانت لهم في المقابل طاعات حالت دون مصير إخوانهم المعذبين الذين تندلق أقتاب بطونهم، ويدورون عليها في النّار =



وعقوبتهم هذه من قبيل الجزاء بالمثل؛ فإنّهم لمّا نسوا الله تعالى في الدّنيا قابلهم ربّهم بنوع نسيان يناسب حالهم، ويباين النسيان الأكبر للكافرين[1]، بأن حبسهم في برزخ، الله أعلم بصفته، محجوبٍ عن نعيم الجنّة ونسيمها، ولا يذوقون فيه سموم النّار وجحيمها. وهو عقاب تأديب، بخلاف عقاب الانتقام الحاصل لأهل النّار، وعقاب التخفيف الحاصل لآحادهم، كصاحب الجمرتين.

وهذا الصّنف من العقوبات، التي يجتمع فيها عدل الله تعالى ورحمته في آن واحد قليلٌ نادر، وهو أظهر ما يكون في حقّ هؤلاء المساكين، الذين اقتضى عدلُه سبحانه حجزَهم عن الجنّة ابتداء؛ بسبب جُرمهم العظيم؛ واقتضت رحمته حجبَهم عن النّار ابتداء؛ لمقتضى الإيمان الذي معهم[2].

= كما يدور الحمار في الرحا. والذنب يعظُم جُرمُه في حقّ أناس، وإن تساوى في العدد مع غيرهم، والله أعلم بحال عباده!

(1) نفى الله تعالى عن نفسه النسيان، فقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[مريم:٦٤]. ولا يُنسب النسيانُ لله تعالى إلا في سياق المقابلة للكافرين، على وجه يليق به سبحانه، ويباين نسيان العبيد الضعفاء. ونسيان الظالمين: الإعراض عنهم، وإخراجهم عن نظر الرّحمة الذي يشمل المؤمنين، وعدم الالتفات لنداءاتهم وتوسّلاتهم في النار؛ جزاء إعراضهم عن الحق وسخريتهم بأهله وتسفيه حالهم. قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾[الأعراف:٥١].

(2) النّاس من حيث المآل على خمسة أقسام: الأوّل والثاني: موحدون سابقون مُكرمون، غلبت حسناتهم، وموحّدون مقتصدون شملتهم رحمة ربهم ووسعهم عفوه. وهذان القسمان يدخلان الجنّة ابتداء، على تفاوت في المنازل والدرجات. والثالث والرّابع: موحّدون معذّبون غلبت سيئاتهم، ولم يشأ الله =

وحديثُ أهل الأعراف هؤلاء يظهر منه محبّتهم للمؤمنين؛ حيث يتودّدون إليهم بالخطاب، ويبدأونهم بالسلام، يقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾، ويعبّرون عن رغبتهم الغامرة في اللحاق بهم والفوز بالنّعيم المقيم؛ ولذا قال سبحانه: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي: الجنّة، ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ أي: في دخولها يوماً من الدّهر! وما جعل الله تعالى في قلوبهم هذا الطمع إلا لكرامتهم عنده سبحانه؛ بسبب توحيدهم، وإن استحقّوا التأديب بمقتضى عدله جلّ جلاله؛ جزاء ما أسرفوا على أنفسهم.

وقد أخبر تعالى عن سبب سعادتهم الأبدية وأنّه قيامهم بواجب إنكار المنكر، ونُصرتهم أهل الحقّ، وطمعهم في اللحاق بهم، وبراءتهم من الباطل وأهله، واستعاذتهم من مصيرهم، وهذه أحوال شرف يحبّها الله تعالى، وبها تسبق رحمته إلى عباده في الدّنيا والآخرة، قال جلّ شأنه: ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ أي: بين أهل الجنّة وأهل النّار ﴿حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾[الأعراف: ٤٦ - ٤٩].

= تعالى أن يغفر لهم أول الأمر، ومعذّبون كافرون ممقوتون قضى عليهم بالخلود في دار الجحيم، وهذان القسمان يدخلان النّار ابتداء، على تفاوت في الدّركات، ثم يأذن الله تعالى بالشفاعة للموحّدين فيخرجون من النّار، وهم المعروفون عند أهل الجنّة بعتقاء الرحمن. وقسم خامس هم: الموحّدون الموقوفون بين الجنّة والنّار؛ ولا يدخلون أيّاً منهما ابتداء، حتى يختبرهم الله تعالى بهذا الحوار، ثمّ يُدخلهم الجنّة برحمته، وهم أهل الأعراف.



وهذا المشهد القرآني العجيب دقيق غاية الدّقة، ويُظهر تفاصيل مهمّة لأحوال هؤلاء المنسيين، وكيف أنّهم محجوبون عن النّعيم والجحيم معًا، كما يُظهر مآلهم، والأسباب التي استحقّوا بها رحمة ربّهم.

حجبُهم عن النّعيم والجحيم من كلّ وجه:

المتأمل فيما أخبر الله تعالى عنه من حال أهل الأعراف في مقام حبسهم تتبيّن له علامات فارقة في ذواتهم وصفاتهم، وطبيعة المكان الذي حُجزوا فيه؛ فقوله سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ﴾ يدلّ أنّهم محبوسون في برزخ يسمّى الأعراف، لا هو من النّار ولا هو من الجنّة.. مُرتفِع، يُمكنهم من فوقه الاطّلاع على أهل الجنّة وأهل النّار معًا[1]. وقوله تعالى: ﴿رِجَالٞ﴾ يدلّ على أنّهم ذكور، ليس فيهم امرأة[2].

وفي قوله سبحانه: ﴿يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡ﴾ لفتة لطيفة قَلّما يقفُ عندها أحد، على أهمّيتها في معرفة دقائق مهمّة في حالهم؛ فهم في هذا المكان لا يُنعّمون كأهل الجنّة، ولا يُعّذبون كأهل النار، وليست لديهم سوى القُدرة على التمييز بين الفريقين، بعلامات فارقة يُعرف بها أهل السعادة: كإسفار وجوههم، ونضارتها واستبشارها[3]، والنّعيم الظاهر في ثيابهم، وما يحفّ

---

(١) لورود لفظ العلوّ والفوقيّة. قال ابن منظور: عَرف الأرض ما ارتفع منها، والجمع أعراف، وأعراف الرّياح والسحاب أوائلها وأعاليها، واحدها عَرف. (لسان العرب ج٩/ ص٢٤٢).

(٢) يُستأنس من هذا الوصف بأنّ هؤلاء المحبوسين من أهل الأعراف كانوا موكّلين بأعمال يقوم بها الرّجال دون النّساء؛ كشؤون الولايات والأمارة والإمامة في الدين والقضاء والفُتيا والقوامة، ونحوها، والله أعلم.

(٣) كما قال تعالى في حقّهم: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ [عبس: ٣٨ - ٣٩].

بهم من حال الرغد بتناول الشّراب والفاكهة. كما يعرفون أهل الشقاوة بعلامات فارقة كذلك: كاسوداد الوجوه وغَبرتها، وكآبتها وحُزنها، وحالها الذي لا يخفى في طيّات العذاب[1].

ومع أنّ النّاظر من بعيد إلى دار النّعيم، بأنهارها وأشجارها، ودار الجحيم، بأغلالها وسلاسلها، سيعلم حال أهلها من حيث السعادة والشقاوة ولا شكّ، إلا أنّ أسلوب القرآن، في هذه الآية، عَدَل عن معرفة حال السّعداء والأشقياء إلى سيماهما، بدلاً من النّظر في حال داريهما! وهي لفتة عجيبة جديرة بالتأمّل، وتحمل في طياتها معانٍ كثيرة مهمة، منها، والله أعلم:

١- بيان قُرب أهل الأعراف من الدّارين، قُربـاً يمكّنهم من معرفة سيما أهل السعادة وأهل الشقاوة، وهذا أبلغ في خوفهم من وجه، ورجائهم من وجه آخر، وهو ما يظهر بجلاء في دعائهم الدائر بين الرّغبة والرّهبة معـاً، والعبد في هذه الحال تسرع إليه الرّحمة جداً.

٢- ومنها: بيان حِدّة أبصارهم وقوّتها، حتى إنّهم ليرون تفاصيل سيما أهلها من بعيد.

٣- ومنها: أن يكون لأهل الأعراف سابق معرفة في أيام الدّنيا بهؤلاء النّفر من المتخاصمين؛ فهم يعرفونهم بعلاماتهم وسماتهم التي لا تخفى

---

(١) كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[آل عمران: ١٠٦ - ١٠٧]، وقوله سبحانه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾[عبس: ٤٠ - ٤٢].



عليهم. فإذا كان الأمر كذلك فإنّ عظمة هذا المشهد القرآني البديع تظهر في أنّه جمع طائفة من الأصحاب، كانوا معًا في الدّنيا.. يعرف بعضُهم بعضًا، ثم انقسموا بسبب أعمالهم إلى ثلاثة أقسام: سعداء مُكرمون في الجنّة، ومغضوبٌ عليهم في النّار، ومؤدّبون محبوسون على الأعراف. وشاء الله تعالى أن يجمعهم كلّهم في هذا الحوار الفريد، وأن يُعرّف كلّ فريق منهم بحال صاحبه.

٤- ومنها: أن تكون هذه (السِّيْما) التي يعرف بها أهل الأعراف حالَ السعداء والأشقياء متعلّقة بالنّعيم ذاتِه، أو بالعذاب ذاتِه، وإن لم تكن لأهل الأعراف سابق معرفة بالفريقين في الدّنيا؛ وبهذا تكون لسيما أهل الجنّة وأهل النار مزيدُ عناية وتخصيص في سياق الحديث عن حال أهل الأعراف ومآلهم؛ فهؤلاء، لفرط النّعيم والسعادة يتقلّبون في الرّفاه والرّغد وأبّهة الملك، لدرجة يظهر أثرها في وجوههم وثيابهم، وأولئك، لفرط العذاب الذي يتقلّبون فيه، على حال من الشقاوة والهوان يظهر في وجوههم وثيابهم. وهو ما يزيد في طمع أهل الأعراف في دخول الجنّة واستعاذتهم من النّار. ومن لطائف ما يدخل في هذا المعنى، والله أعلم، أن يكون قضاء الله تعالى على أهل الأعراف ألا يُعذّبوا في النّار من كلّ وجه، وألا يتنعّموا في الجنّة من كلّ وجه؛ فهم ممنوعون حتى من النظر إلى بهجة النّعيم، أو النّظر إلى صنوف العذاب في الجحيم. ولذا فهم لا يعرفون أهل الجنّة وأهل النّار إلا بسيما الوجوه، وسماع الحديث فحسب!!

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ يفيد بأنها تُصرف لهذه الدار أو تلك، وتحوّل بفعل غيرهم، وهو ما يشير إلى حجب القدرة أو الإرادة أو حجبهما معًا، والله أعلم؛ إذ لا قدرة لهم على النظر إلا في حدود المتاح

لهم من النّعيم أو الجحيم، أو لا يُسمح لهم بذلك، مما يدلّ على أنّ لهم في مكان حبسهم ذاك أحوالٌ وحواسّ وهيئات لا يعلمها إلا الله تعالى.

مصيرهم!

ما أسرع رحمة الله تعالى إذا حلّت بعباده، وما أعجب سببها؛ إذ ليس لأهل الأعراف من هذا الحوار كله إلا ثلاث كلمات، وبها استحقّوا دخول الجنّة: كلمة ولاء، وكلمة دعاء، وكلمة براء!! بقولهم للمؤمنين: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾، وقولهم في مناجاة ربّهم: ﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقولهم لأصحاب الجحيم: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ﴾.

وقد سبقت إليهم رحمة ربّهم؛ لعلمه سبحانه بحالهم ومآلهم، ولذا كان اختبارهم يُباين اختبارَ أهلِ الفترة؛ حيث أوقفهم بين الجنّة النار، وعرّفهم بسيما أهل هذه الدّار وتلك، وأسمعهم تخاصُمَ أهلها، ثم سلكهم في زمرة المتقين؛ جزاء نصرتهم للحق وبراءتهم من الباطل، بقوله: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾[الأعراف: ٤٩]، أي: لا خوفَ فيما يستقبلكم؛ فإنّ مصيركم إلى الجنّة، ولا حُزن على ما فاتكم في الدّنيا، أو من النّعيم طوال مدّة حبسكم؛ فإنّ لكم ما لم تر أعيُنكم، ولم تسمع آذانكم، ولم يخطر على قلوبكم، مما يُنسيكم كلّ بؤس، ويُشغِلَكم عن كلّ عناء مرّ بكم.

عُتقاء الرّحمن من النّار:

إذا دخل أصحاب الأعرافِ الجنّة استقبلهم أهلُها على الأبواب مرحّبين، والملائكةُ مسلّمين مهنئين. ولهم من الحفاوة والإكرام على الأبواب ما كان لإخوانهم ساعة الدخول، ثمّ يُنطلق بهم إلى ممالكهم التي أعدّ الله لهم.



وعتقاءُ الرّحمن سوى أصحاب الأعراف كثير، وإن كانوا أشرفهم حالاً ومآلاً. والعُتقاء أقوامٌ يُهذّبون في النّار أحقاباً يعلمها الله تعالى، ثم يدخلون الجنّة على دُفُعات، زُرَافاتٍ ووحداناً، وينزلون منازلهم، بحسب تفاضل الإيمان بينهم.

وعُصاة الموحّدين الذين يدخلون النّار كثير، بل إنّ النار إنّما تُسعّر، أوّل ما تُسعّر يوم القيامة، بزمرة من هؤلاء العصاة، الذين يظهر عليهم الصلاح والتقى، وليسوا بذاك! قال ﷺ واصفاً مشهداً مهيباً من مشاهد الحساب يوم القيامة: «إنّ أول النّاس يُقضى يوم القيامة عليه، رجلٌ استُشهد، فأُتي به فعرّفه نِعَمَه فعرفها. قال: «فما عملت فيها؟» قال: قاتلتُ فيك حتى استُشهدت. قال: «كذبت، ولكنّك قاتلت لأن يُقال: جريء، فقد قيل» ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى ألقي في النّار. ورجلٌ تعلّم العِلمَ وعلّمه، وقرأ القرآن، فأُتيَ به فعرّفه نِعمَه فعرفها، قال: «فما عملت فيها؟» قال: تعلمتُ العلم وعلّمته، وقرأت فيك القرآن، قال: «كذبت، ولكنّك تعلمتَ العلم ليُقال: عالم، وقرأت القرآن ليُقال: هو قارئ، فقد قيل» ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقي في النّار. ورجل وسّع اللهُ عليه، وأعطاه من أصناف المال كلّه، فأُتي به فعرّفه نِعمَه فعرَفها، قال: «فما عملت فيها؟» قال: ما تركتُ من سبيل تحبّ أن يُنفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: «كذبت، ولكنّك فعلتَ ليُقال: هو جواد، فقد قيل» ثم أُمِر به فسُحِبَ على وجهه ثم ألقي في النّار»[1].

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة، (ج٣/ ص١٥١٣).

فإذا دخلَ العصاةُ النّار، واستقرّ الأبرار في دار القرار، لم يكن لهم شُغُلٌ، وهم في كنف النعيم، سوى استنقاذ من يقدرون عليه من الأهل والأصحاب، سوى المشركين، الذين وجب لهم الخلود في النار، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين. وقد أخبر سبحانه عن حسرة المشركين وهم يرون المؤمنين يجدّون في طلب أهليهم، واستنقاذ أصدقائهم، فيقولون لمن أضلّهم: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء: ٩٧ - ١٠٢].

ووفود المرحومين الذين يؤتى بهم إلى الجنّة بين الحين والآخر لا تُحصى كثرة، وهم ما بين: (جهنميين) يشفع فيهم الشافعون، (وعتقاء) يُخرجون بشفاعة أرحم الرّاحمين.

ولقب (عتيق الرحمن) وسام شرف لأصحابه عند دخول الجنّة. وسواء استمرّ معهم هذا اللقب أو زال عنهم بعد ذلك(١)، فأيّ شرف أعظم من أن يحمل السّعيد لقب (عتيق الرحمن) ويُعرف به في الجنّة؟! وهل جميع السّعداء هنا إلا عتقاء.. لله عليهم منٌ كثيرة لا يحصوها، ونعمٌ جليلة لا يُطيقون شكرها؟!

---

(١) يظهر من سياق النصوص، والله أعلم، أنّ هذا لقب تعريفٍ يُطلق عليهم حال دخول الجنّة، وعند سؤال أهلها عنهم، ثم يزول بعد ذلك، ويُسمّون بأسمائهم، أو بغيرها، إن كانت لا تليق في مقام النّزل الجديد، ثمّ يجري عليهم في بلاد الأفراح ما يجري على سائر السعداء، من التكريم والإنعام، سواء بسواء، بحسب منازل كرامتهم.



وأكرمُ الشّافعين في عصاة الموحّدين هؤلاء، بعد رحمة أرحم الرّاحمين: محمد، الذي يزداد طلبه، وتكثُر مراجعته لربّه حتى يشفّعه في خَلقٍ لا يُحصون كَثْرة من أمّته، وربُه أكرمُ بهم، وأعلم وأرحم. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة: «فأنطلق، فأستأذن على ربّي، فيؤذَنُ لي فأقوم بين يديه، فأحمَده بمحامد لا أقدر عليه الآن، يُلهمنيه الله، ثم أخرّ له ساجداً فيُقال لي: «يا محمّد، ارفع رأسك، وقُل يُسمع لك، وسل تُعطه، واشفع تشفّع»، فأقول: ربِّ، أمتي، أمتي. فيقال: «انطلق فمن كان في قلبه مثقالُ حبّةٍ من بُرّة أو شعيرةٍ من إيمان فأخرجه منها»، فأنطلق فأفعل، ثم أرجع إلى ربي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرّ له ساجداً فيقال لي: «يا محمد، ارفع رأسك، وقُل يُسمع لك، وسل تُعطه، واشفع تشفّع»، فأقول: أمتي، أمتي. فيُقال لي: «انطلق، فمن كان في قلبه مثقالُ حبّة من خردل من إيمان فأخرجه منها». فأنطَلقُ فأفعلُ، ثم أعودُ إلى ربّي فأحمده بتلك المحامد، ثم أخرّ له ساجداً فيُقال لي: «يا محمّد، ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسل تُعطه، واشفع تشفّع»، فأقول: يا ربّ، أمتي، أمتي، فيقال لي: «انطلق فمن كان في قلبه أدنى أدنى أدنى من مثقال حبّة من خردل من إيمان، فأخرجه من النار». فأنطلق فأفعل» زاد الحسن على حديث أنس رضي الله عنه: «ثم أرجع إلى ربّي في الرّابعة فأحمَدُه بتلك المحامد، ثم أخرّ له ساجداً فيُقال لي: «يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسل تُعط، واشفع تُشفّع»، فأقول: يا ربّ ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، قال: «ليس ذاك لك»، أو قال: «ليس ذاك إليك، ولكن وعزتي وكبريائي، وعظمتي وجبريائي لأخرجنّ من قال: لا إله إلا الله»[1]. وعنه رضي الله عنه قال: قال

---

(١) أخرجه مسلم، (ج١/ ص١٨٣).

النبي ﷺ: «يخرُجُ قومٌ من النّار بعد ما مسّهم منها سَفْعٌ، فيدخلون الجنّة فيسمّيهم أهل الجنّة الجهنّميين»»[1].

كثرة الشفعاء، وظهور بركتهم:

والشفعاء يومئذ كثير، من: الأنبياء والمرسلين، والملائكة وصالح المؤمنين. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كأنّي بك يا أبا بكر على باب الجنّة، تشفع لأمّتي»[2]. وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يشفع الرّجل في أهل بيته، ويشفع على قدر عمله»[3]. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «حتى إذا خلَصَ المؤمنونَ من النّار فوالذي نفسي بيده ما منكم من أحدٍ بأشدّ مناشدةً لله في استقصاء الحق، من المؤمنين للّه يوم القيامة لإخوانهم الذين في النّار، يقولون: ربّنا كانوا يصومون معنا، ويصلّون، ويحجّون، فيقال لهم: «أخرجوا من عرفتم» فتحرّم صورهم على النار، فيُخرجون خلقاً كثيراً، قد أخذتِ النّار إلى نصف ساقيه، وإلى ركبتيه، ثم يقولون: ربّنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول: «ارجعوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير، فأخرجوه»، فيُخرِجون خلقاً كثيراً، ثم يقولون: ربّنا، لم نذَر فيها أحداً ممن أمرتنا، ثم يقول: «ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير، فأخرجوه». فيُخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون: ربّنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحداً. ثم يقول: ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرّة من خيرٍ فأخرجوه.

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٣٩٩).

(٢) أورده الهندي في كنز العمال، (ج١١/ ص٢٨٩)، وعلي بن الحسن الشافعي في تاريخ دمشق، (ج٣٠/ ص١٥٥).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير، (ج٨/ ص٢٧٥).



فيُخرجون خلقـًا كثيراً، ثم يقولون: ربنا لم نذر فيها خيراً[1]، فيقـول الله عـز وجل: «شفعتِ الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولـم يبـق إلا أرحم الراحمين»، فيقبض قبضةً من النّار فيُخرج منها قومـًا لم يعملوا خيراً قطّ، قد عادوا حِمَمـًا، فيُلقيهم في نهر في أفواه الجنّة، يُقال لـه «نهر الحياة» فيخرجون كما تخرج الحبّة في حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحَجَر أو إلى الشَجَر؟ ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض؟» فقالوا: يا رسول الله، كأنّك كنت ترعى بالبادية! قال: «فيخرُجون كاللؤلؤ، في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنّة: هؤلاء عتقاءُ الله الذين أدخلهم الله الجنّة، بغير عمل عملوه، ولا خيرٍ قدّموه، ثم يقول: «ادخلوا الجنّة، فما رأيتموه فهو لكم»، فيقولون: ربنا أعطيتنا ما لم تُعط أحداً من العالمين، فيقول: «لكم عندي أفضلُ من هذا»، فيقولون: يا ربّنا أيُّ شيء أفضل من هذا؟ فيقول: «رضاي، فلا أسخطُ عليكم بعده أبداً»[2].

بل لقد أخبر رسول الله ﷺ أنّ الله تعالى يشفّع رجالاً من هذه الأمّة في خلق كثير من عُصاة أهل النار، لا يعلم عددهم إلا هو سبحانه، فعن عبدالله بن شقيق رضي الله عنه قال: كنتُ مع رهط بإيلياء فقال رجل منهم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يدخلُ الجنّة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بنى تميم»، قيل: يا رسول الله، سواك؟ قال: «سواي»[3]. وعن الحارث بن قيس رضي الله عنه قال: قال

---

(١) وكان أبو سعيد رضي الله عنه يقول: واقرأوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٦/ ص٢٧٠٧)، ومسلم، واللفظ له، (ج١/ ص١٦٩).

(٣) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٦٢٦)، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.



النبي ﷺ قال: «إنّ من أمتي لمن يدخل بشفاعته الجنة أكثر من مضر»[1]. وعن أبي سعيد رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ من أمّتي من يشفع للفئام، ومنهم من يشفع للقبيلة، ومنهم من يشفع للعصبة، ومنهم من يشفع للرّجل، حتى يدخلوا الجنّة»[2].

والله تعالى يشمل من عُصاة الموحدين برحمته أكثر وأعظم. عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «وعدني ربّي سبحانه أن يُدخل الجنّة من أمّتي سبعين ألفـًا لا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألفٍ سبعون ألفـًا، وثلاثُ حثياتٍ من حثياتِ ربّي عزّ وجلّ»[3].

أصناف العذاب لعصاة الموحّدين:

وأهل الجنّة لا يخرجون منها إذا دخلوها، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[الحجر: ٤٥-٤٨]، والمحبوسون في النار من العصاة لا يخلدون فيها، بل يخرجون؛ لأنّهم لا يدخلون في نداء الخلود الأوّل الذي يُخاطَب به أهل النّار بعد دخولها[4]، وإنما يُراد به أهلُ النار الذين هم أهلُها، ممن لا يحيون فيها ولا يموتون، بل يعذّبون أبد الآباد.. كلّما فنيَ خلقُهم أعيدوا من جديد، عياذاً بالله.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، (ج٤/ ص٦٣٥)، وقال: حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٦٢٧)، وقال: هذا حديث حسن.

(٣) أخرجه ابن ماجه، (ج٢/ ص١٤٣٣)، والترمذي، (ج٤/ ص٦٢٦).

(٤) حين ينادون: «يا أهل النّار خلودٌ فلا موت». (متفق عليه: أخرجه البخاري، ج٤/ ص١٧٦٠، ومسلم، ج٤/ ص،٢١٨٦).



وكما ظهر شرف الموحّدين المتّقين على الخلائق في عرصات القيامة، فإنّ شرف عصاة الموحّدين على الكافرين يظهر في النّار بعلامتين فارقتين: الأولى فيما يظهر عليهم من السّمات؛ فقد حرّم الله تعالى على النّار أن تمسّ منهم أعضاء السّجود! عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ، في الحديث الطويل عن أهوال القيامة: «إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يُخرِج برحمته من أراد من أهلِ النّار، أمر الملائكة أن يُخرِجوا من النار من كان لا يُشرِكُ بالله شيئًا، ممن أراد الله أن يرحمه، ممن يشهد أن لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار بأثر السجود، تأكل النّار بن آدم إلا أثر السجود، حرّم الله على النّار أن تأكل أثر السجود. فيخرجون من النّار قد امتُحشوا، فيُصبّ عليهم ماء الحياة، فينبُتون تحته كما تنبُتُ الحبّة في حميل السيل»[1].

وأمّا العلامة الثانية: فبالنّظر في منازلهم من الدّركات، بحسب أعمالهم، وهؤلاء على قسمين: فمنهم المُراؤون، أصحابُ الكبائر، المفلسون الظالمون لعباد الله تعالى. وهؤلاء يُقذف بهم في الدركات، فيغرقون في لُجَجِ النّار غَرْقًا، ويُحرقون فيها حَرْقًا، إلا مواطن السّجود، حتى يصيروا فحمًا من شدّة العذاب، فإذا استوفوا مدّة العقاب التي حدّدها الله تعالى لهم، ماتوا ثم أذن الله للشافعين فيهم، أو يتغمدّهم بواسع رحمته، ويُخرجهم من النّار بفضله.

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٦/ ص٢٧٠٤)، ومسلم، (ج١/ ص١٦٣).

وهناك قِسمٌ آخرُ.. يعذّبون في دركات النّار العليا، وهي أخفّ الدّركات من حيث العذاب، كما شهدت بذلك النّصوص[1]، حتى إنّ منهم أصنافًا لا تأخذ منهم النّار إلا مقداراً معروفًا من أجسادهم، وهي الأعضاء التي عصوا الله تعالى فيها. وقد أشار النبي ﷺ إلى هؤلاء في حديثه عن الشفعاء، بقوله: «فيُخرجون خلقًا كثيراً، قد أخذتِ النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه»[2].

---

(١) كما أنّ للجنة درجات تتفاوت فيها منازل السعداء بحسب الإيمان والعمل الصالح؛ فإنّ للنّار دركات، تتفاوت فيها منازل الأشقياء كذلك، بحسب انتفاء الإيمان، وانتهاك المحارم؛ فأدناها دركات المنافقين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[النّساء: ١٤٥]، ثم تتفاوت الدركات صعوداً بعد ذلك بحسب اقتران الشرك بالكبائر وسائر الذّنوب؛ فأدناها، والله أعلم، دركة من اجتمعت فيهم الآفات الثلاث جميعًا؛ فالشرك والكبائر خاصّة، فالشرك وسائر الذّنوب؛ لِما أخبر به سبحانه من أنّ الكفّار يحاسبون على تفريطهم في فروع الشريعة، بعد سؤال المتّقين إيّاهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾[المدّثر: ٤٢ - ٤٨]. وهذه الدركات الثلاث: دركة المنافقين، ودركتا المشركين أهل الظلم والكبائر، والمشركين عمومًا، أشدّ الدركات عذابًا وأعظمها نكالاً، وهي على مراتب، بحسب دركات الكفر والظلم، تعلوها دركات أهل الكبائر والصّغائر من الموحّدين، فأهل الكبائر خاصّة، ثمّ أهل الصّغائر الذين لم تشملهم الرحمة كغيرهم، وهكذا حتى أعلى الدّركات التي يخفّف فيها على أهلها العذاب لجرائم بعينها استحقوا التأديب عليها، أو لسابق شفاعة أو نُصرة، أو معروف وعدل وفضل كان لهم في الدّنيا، والله أعلم بحال عباده.

(٢) أخرجه البخاري، (ج٦/ ص٢٧٠٧)، ومسلم، (ج١/ ص١٦٩).



وأهل هذه الدّركة على منازلَ وأحوالٍ كذلك، بأجزاء مقدّرة، ومدّة محدّدة، بحسب جرائمهم؛ فمنهم: من لا يصيبه العذاب إلا بمقدار ما يوضع على الفم من لِجامِ الدابّة، وهذا خاصّ بمن سُئِل من العلماء عن علم في وقت حاجة، فكتمه ولم يبيّنه للناس(١)، ومنهم من لا تأخذ منهُ النّار إلا مقدار اللُّمْعة في عَقِبِه الذي لم يكن يُصيبه الماءُ عند الوضوء(٢)، ومنهم من تلتهم النارُ سائرَ قدميه أسفل الكعبين، بمقدار ما أسبل من الثوب(٣)، ومنهم من تبلُغُه النّارُ إلى ساقيه، ومنه من لا تصيب منه إلا عينيه، ومنهم الذي وُكِّل به مَلَكٌ يصبّ في أذنه الآنك، وهو الرصاص المُذاب، لا يصيب منه موضعاً آخر في جسده؛ جزاء ما تجسّس على المسلمين، واستمع لحديثهم وهم له كارهون، أو ما استمع من الغناء(٤)، ومنهم من وكّل به مَلَك فهو قائم عليه بصخرة من النّار، يهوي بها على رأسه فيثلغه، فيصيح منها صيحة رهيبة، ويشتدّ صراخه، فيتدهده الحجر، فيتبعه المَلَكُ فيأخذه،

---

(١) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «من سُئل عن علم فكتمه، جيء به يوم القيامة وقد أُلجم بلجام من نار». (أخرجه الحاكم في مستدركه، ج١/ ص١٨١، وقال: هذا الإسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه).

(٢) عن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: تخلّف عنّا النبي ﷺ في سفرة سافرناها، فأدرَكَنا وقد أرهقتنا الصلاة، ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا، فنادى بأعلى صوته: «ويلٌ للأعقابِ من النار» مرتين أو ثلاثاً. (متفق عليه: أخرجه البخاري، ج١/ ص٣٣، ومسلم، ج١/ ص٣٣).

(٣) عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار» (أخرجه البخاري، ج٥/ ص٢١٨٢).

(٤) أخرجه ابن حبان في صحيحه، (ج١٢/ ص٤٩٨).

فلا يرجع إليه حتى يصحّ رأسُه كما كان، فيعودُ عليه، فيفعل به مثل ما فعل في المرة الأولى[1]، ومنهم الذي يُجرجر في بطنه النّار، ومنهم من يأكل النّار، وهكذا سائر أصحاب الذنوب، من الرّجال والنساء، اللذين توعّدهم الله تعالى بعذابِ عضو أو أعضاء من أجسادهم دون غيرها.

ومع هؤلاء قلائل ممن أدركتهم رحمة الله تعالى أو شفاعة الأنبياء؛ لحسن بلائهم ونُصرتهم، وإن لم يفارقوا دين آبائهم، ومنهم أبو طالب، عمّ النبي ﷺ. عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: يا رسول الله، هل نفعتَ أبا طالب بشيء؟ فإنّه كان يحوطُك ويغضب لك؟ قال: «نعم، هو في ضحضاحٍ[2] من نار. لولا أنا لكان في الدّرك الأسفل من النار»[3]. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنّه سمع رسول الله ﷺ، وذُكر عنده عمُّه أبو طالب، فقال: «لعلّه تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعل في ضحضاح من النّار، يبلغُ كعبيه، يغلي منه أمّ دماغه»[4].

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٦/ ص٢٥٨٣).

(٢) قال ابن الأنباري: الضّحضاح القليل من العذاب. والعرب تسمّى الماء القليل ضحضاحاً. قيل لأعرابي: إن فلاناً يدّعي الفضل عليك! فقال: لو وقع في ضحضاح منّي لغرق، أي في القليل من مياهي. وقال غيره: الضحضاح ما يبلغُ الكعبين. وكلّ ما رقّ من الماء على وجه الأرض فهو ضحضاح. (كشف المشكل لابن الجوزي ج٣/ ص١٥٣).

(٣) أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٢٩٣).

(٤) صحيح البخاري، (ج٥/ ص٢٤٠٠). قال السهيلي: الحكمة فيه أنّ أبا طالب كان تابعاً لرسول الله ﷺ بجملته، إلا أنّه استمر ثابت القدم على دين قومه؛ فسلط العذاب على قدميه خاصّة لتثبيته إياهما على دين قومه. (عمدة القاري ج١٧/ ص١٨).



فدلّ ذلك على أنّه قد استوجب دركات النّار السفلى؛ لكفره، ثم رفعه الله تعالى إلى هذه الدركة لما كان له من سابق النّصرة والفداء[1].

حياة جديدة على ضفاف الأنهار!

فإذا استوفى عصاة الموحّدين مدّة عقابهم، بالكيفية والقدر الذي يعلمه الله تعالى، ماتوا في العذاب، ثم أذِن سبحانه لمن يشفع فيهم؛ فتُخرجهم الملائكة، وقد أصبحوا فحماً أسود من شدّة العذاب، لا يُعرفون إلا بآثار السّجود، ومنهم من لا يُعرفون إلا بدارات وجوههم فحسب، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ قوماً يخرجون من النّارِ يحترقون فيها إلا داراتِ وجوههم حتى يدخلون الجنّة»[2].

---

(١) تناولت أحوال هؤلاء العصاة وأعمالهم بالتفصيل في بحث (الأرض الجديدة).

(٢) أخرجه مسلم، (ج١/ ص١٧٨) قال ابن حجر رحمه الله: قوله ﷺ: آثارُ السّجود، قيل: هي الأعضاء السبعة، وهذا هو الظاهر، وقال عياض: المرادُ الجبهةَ خاصّةً، ويؤيّده ما في رواية مسلم من وجه آخر أنّ «قوماً يخرجون من النار يحترقون فيها إلا دارات وجوههم» فإنّ ظاهر هذه الرّواية يخُصّ العُموم الذي في الأولى. (فتح الباري، ج٢/ ص٢٩٣) وقد يُقال: إنّ الجمع ممكنٌ، ولا تخصيص، فإنّ لفظ الحديث هنا جاء بصيغة التنكير: أي قومٌ من مجموعِ هؤلاء العتقاء تكونُ هذه حالهم: أن يحترقوا إلا داراتِ وجوههم؛ لبيان الجُرم الذي وقعوا فيه؛ كأن يكونوا من المصلّين السّاهين عن إسباغ وضوئهم، أو المتوضّئين السّاهين عن صلاتهم، ممن توعّدهم الله تعالى بالويل، أو نحوهم، فتكون هذه علامتهم، بخلاف سائر العتقاء المحافظين على وضوئهم وصلاتهم، وإن لم تكن تنهاهم عن الفحشاء والمنكر؛ فيُعذّبون فيها من وجه تفريطهم، ويحرّم الله تعالى على النّار أن تأكل مواضع السّجود منهم؛ لبيان منزلتهم بين أصحاب الجحيم، والله أعلم.



وقد وصف النبي ﷺ مشهد اللحظات الأخيرة في النّار لبعض هؤلاء العتقاء، واللحظات السعيدة الأولى على ضفاف الأنهار فقال ﷺ: «أمّا أهل النار الذين هم أهلها فإنّهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم»، أو قال: «بخطاياهم»، فأماتهم إماتة، حتى إذا كانوا فحماً، أُذن بالشفاعة، فجيء بهم.. ضبائر، ضبائر[1]، فبُثّوا على أنهار الجنّة، ثم قيل: يا أهل الجنّة أفيضوا عليهم، فينبُتون نبات الحبّة تكون في حميل السيل»[2].

وفي لفظ البخاري: «حتى إذا أراد الله رحمة من أراد من أهل النار، أمر الله الملائكة أن يُخرِجوا مَن كان يعبد الله، فيُخرجونهم، ويعرِفونهم بآثار السّجود، وحرّم الله على النّار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النّار، فكلّ بن آدم تأكله النّار إلا أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتُحشوا، أي احترقوا حتى ظهرت عظامهم[3]، فيُصبّ عليهم ماء الحياة، فينبِتون كما تنبت الحبّة في حميل السيل»[4].

مجالس العتقاء في الجنّة:

ولكلّ سعيدٍ من العتقاء قصّة نجاة فريدة.. يظلّ يردّدها في المجالس، أمام أهله وأصدقائه. ولأنّ الجنّة دارُ وفاء وإحسان فإنّ كلّ عتيق فيها يزداد شوقه لرؤية ربّه، ولا يزالُ في حمدٍ وثناء كلّما تقلّب في كنف النّعيم، ولا

---

(١) أي: جماعات، جماعات.

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج١/ ص٢٧٨)، ومسلم، واللفظ له، (ج١/ ص١٧٢).

(٣) المحُش: احتراق الجلد، وظهور العظم، (لسان العرب ج٦/ ص٣٤٥).

(٤) حميل السيل: ما يحمله السّيل من الغثاء والطين، (لسان العرب ج١١/ ص١٨٠).



ينسى إخوانه المتّقين الذين نافحوا عنه، وظلّوا يناشدون ربّهم، ويسألونه أن يشفّعهم فيهم، يقولون: «ربنا كانوا يصومون معنا، ويصلّون، ويحجّون!» فيقال لهم: «أخرجوا من عرفتم»[1].

والعتقاء يلتقون بإخوانهم الشّافعين في مجالس النّعيم، وفي سوق الجنّة كلّ جمعة، ويزورونهم في قصورهم.. زيارة محبّة، لا زيارة مِنّة؛ فالمنّة في دار السلام للّه وحده، والسّعداء جميعًا على قلب رجل واحد، سليمةً صدورهم، زكيّةً أرواحهم.. من دخلها منهم ابتداء، ومن دخلها بعد ذلك بشفاعة الشافعين، أو بنفحة من نفحات ربّ العالمين!

الكلّ متحابّون، لا تعيير بينهم ولا ازدراء بسبب الأسبقيّة، ولا تحقير ولا استعلاء بسبب الفوقيّة، قد نزع الله من قلوبهم الغلّ؛ فهم إخوة في مجالس النّعيم، أحبّة في أكناف الرّغد، لا يرى أحدٌ منهم الفضل له على أخيه، بل الفضلُ لله وحده. وكلّ له ممالكه الكثيرة، وزوجاته وخدمه، يقول بلسان حاله ومقاله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾.

ولربما تذكّر هؤلاء العتقاء من كان معهم في النّار من عصاة الموحّدين، فقاموا بدورهم يشفعون لمن يعرفون، ولا يزالون يناشدون الله تعالى فيهم، والله يقبل شفاعتهم، ويشكُر سعيهم؛ رحمة منه وفضلاً.

آخر أهل الجنّة دخولاً!

ويظلّ توافد العتقاء إلى الجنّة زرافاتٍ ووحدانًا، حتى يستتمّ خروجهم من النّار جميعًا، سوى رجلٍ واحد، يصيبه اليأس لما يرى من ذهول السعداء عنه، وذهابهم بمن يعرفون! فإذا فرغ الشّفعاء، وأغلقت

---

(١) أخرجه مسلم، (ج١/ ص١٦٩).

أبواب الجحيم على الأشقياء، واستيقن هذا المسكين بطول البقاء لجأ إلى رحمة ربّه، وأخذ يناديه بأعلى صوته: يا ربّ، يا ربّ، يا ربّ!! مستجيراً من عذاب النّار ومرارة النّسيان. وربّه يرى مكانه، ويعلم حاله، ويسمع مقاله، فيجيبه.. وعندها تبدأ فصول قصّةٍ فريدة من قصص الرّحمة، ومشهدٍ عظيم من مشاهد الكرم الإلهي في الدّار الآخرة!

عن أبي هريرة رضي الله عنه في سياق الحديث الطويل عن رؤية المؤمنين ربّهم يوم القيامة أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يُخرج برحمته من أراد من أهل النّار، أمر الملائكة أن يخْرجوا من النّار من كان لا يشرك بالله شيئا، ممن أراد الله تعالى أن يرحمه، ممن يقول: لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النّار بأثر السجود.. فيخرجون من النّار وقد امتُحِشوا، فيُصبّ عليهم ماءُ الحياة، فينبتون منه، كما تنبت الحبّة في حميل السيل، ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد، ويبقى رجلٌ مقبلٌ بوجهه على النّار، وهو آخر أهل الجنّة دخولاً الجنّة، فيقول: أي ربّ اصرف وجهي عن النّار؛ فإنه قد قشبني ريحها، وأحرقني ذكاؤها. فيدعو الله ما شاء الله أن يدعوه، ثم يقول الله تبارك وتعالى: «هل عسيت إن فعلتُ ذلك بك، أن تسأل غيره؟» فيقول: لا أسألك غيره. ويُعطي ربّه من عهودٍ ومواثيقَ ما شاء الله. فيصرف الله وجهه عن النار. فإذا أقبل على الجنّة ورآها، سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أيّ ربِّ قدِّمني إلى باب الجنّة. فيقول الله له: «أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيتُك؟ ويلك يا بن آدم، ما أغدرك!» فيقول: أي ربّ، ويدعو الله، حتى يقول له: «فهل عسيتَ إن أعطيتُكَ ذلك أن تسأل غيره؟» فيقول: لا وعزّتك. فيُعطي ربّه ما شاء الله من



عهود ومواثيق. فيقدّمه إلى باب الجنّة، فإذا قام على باب الجنّة انفهقت له الجنّة فرأى ما فيها من الخير والسّرور. فيسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي ربّ أدخلني الجنّة، فيقول الله تبارك وتعالى له: «أليس قد أعطيتَ عهودَك ومواثيقك ألا تسأل غير ما أعطيت؟ ويلك يا بن آدم، ما أغدرك!» فيقول: أي ربِّ، لا أكونُ أشقى خلقك. فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله تبارك وتعالى منه، فإذا ضحك الله منه قال: «ادخل الجنّة» فإذا دخلها، قال الله له: «تمنّه»، فيسألُ ربّه، ويتمنّى، حتى إنّ الله ليذكِّرَه من كذا وكذا، حتى إذا انقطعت به الأمانيّ قال الله تعالى: «ذلك لك، وعشرة أمثاله». قال أبو هريرة: وذلك الرجلُ آخرُ أهلِ الجنّة دخولاً الجنّة[1].

وفي الحديث الطويل عن عبد الله بن مَسْعُودٍ تفاصيل عمّا يجري لهذا السعيد في مسيره إلى الجنّة قال: قال النبي ﷺ: «يَجْمَعُ الله الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، قِيَامًا أَرْبَعِينَ سَنَةً، شَاخِصَةً أَبْصَارُهُمْ إلى السَّمَاءِ، يَنْتَظِرُونَ فَصْلَ الْقَضَاءِ. قال وَيَنْزِلُ الله عز وجل في ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ مِنَ الْعَرْشِ» ثم ذكر الحديث، وفيه خبرُ آخر من يدخلّ الجنّة، قال: «فَيُنْطَلَقُ بِهِ إلى غَدِيرٍ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ فَيَغْتَسِلُ، فَيَعُودُ إليه رِيحُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَلْوَانِهُمْ، فَيَرَى ما في الْجَنَّةِ من خِلالِ الْبَابِ، فيقولُ: رَبِّ أَدْخِلْنِي الْجَنَّةَ، فيقول الله له: «أَتَسْأَلُ الْجَنَّةَ وقد نَجَّيْتُكَ مِنَ النَّارِ؟» فيقول: رَبِّ اجْعَلْ بَيْنِي وَبَيْنَهَا حِجَابًا لا أَسْمَعُ حَسِيسَهَا. قال: فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ، فَيَرَى، أو يُرْفَعُ له منزلٌ أَمَامَ ذلك، كَأَنَّمَا هو فيه إليه حُلْمٌ؛ فيقول: رَبِّ أَعْطِنِي ذلك الْمَنْزِلَ، فيقول له: «فَلَعَلَّكَ

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٦/ ص٢٧٠٣)، ومسلم، واللفظ له، (ج١/ ص١٦٣).

إن أَعْطَيْتُكَهُ تسأَلُ غيره؟» فيقول: لا، وَعِزَّتِكَ لا أَسْأَلُكَ غَيْرَهُ، وَأَيُّ مَنْزِلٍ يَكُونُ أَحْسَنَ منه؟! قال: وَيَرَى، أو يُرْفَعُ له أَمَامَ ذلك مَنْزِلٌ آخَرُ كَأَنَّمَا هو إليه حُلْمٌ؛ فيقول: أَعْطِنِي ذلك الْمَنْزِلَ. فيقول الله جَلَّ جلاله: «فَلَعَلَّكَ إن أَعْطَيْتُكَهُ تَسْأَلُ غَيْرَهُ؟» قال: لا وَعِزَّتِكَ، لا أَسْأَلُ غَيْرَهُ، وَأَيُّ مَنْزِلٍ يَكُونُ أَحْسَنَ منه؟! قال: فَيُعْطَاهُ فَيَنْزِلَهُ، ثُمَّ يَسْكُتُ، فيقول الله عز وجلَّ: «ما لك لا تَسْأَلُ؟!» فيقول: رَبِّ لقد سَأَلْتُكَ حتى اسْتَحْيَيْتُكَ، وَأَقْسَمْتُ لك حتى اسْتَحْيَيْتُكَ. فيقول الله تَعَالَى: أَلَمْ تَرْضَ أَنْ أُعْطِيَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا مُنْذُ خَلَقْتُهَا إلى يَوْمِ أَفْنَيْتُهَا، وَعَشَرَةَ أَضْعَافِهِ؟!» فيقول: أَتَسْتَهْزِئُ بِي وَأَنْتَ رَبُّ الْعِزَّةِ؟!! فَيَضْحَكُ الرَّبُّ عزّ وجلّ من قَوْلِهِ.

قال: فَرَأَيْتُ عَبْدَ الله بن مَسْعُودٍ إذا بَلَغَ هذا الْمَكَانَ من هذا الحديث ضَحِكَ، فقال له رَجُلٌ: يا أَبَا عبد الرحمن قد سَمِعْتُكَ تُحَدِّثُ هذا الحديث مِرَارًا كُلَّمَا بَلَغْتَ هذا الْمَكَانَ ضَحِكْتَ؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يحدّث هذا الحديث مِرَارًا، كُلَّمَا بَلَغَ هذا الْمَكَانَ من هذا الحديث ضَحِكَ حتى تَبْدُوَ أَضْرَاسُهُ.

قال: فيقول الرَّبُّ عزّ وجلّ: «وَلَكِنِّي على ذلك قَادِرٌ، سَلْ»، فيقولُ: أَلْحِقْنِي بِالنَّاسِ، فيقول: «الْحَقِ النّاسَ». قال: فَيَنْطَلِقُ يَرْمُلُ في الْجَنَّةِ، حتى إذا دَنَا مِنَ النّاسِ رُفِعَ له قَصْرٌ من دُرَّةٍ، فَيَخِرُّ سَاجِدًا، فَيُقَالَ له: ارْفَعْ رَأْسَكَ.. مالك؟! فيقولُ: رأيتُ رَبِّي، أو: تَرَاءَى لي رَبِّي، فَيُقَالُ له: إنما هو مَنْزِلٌ من مَنَازِلِكَ. قال ثُمَّ يَلْقَى رَجُلا، فَيَتَهَيَّأُ لِلسُّجُودِ له، فَيُقَالَ له: مَهْ؟! مالك؟! فيقول: رأيتُ أَنَّكَ مَلَكٌ مِنَ الْمَلائِكَةِ! فيقول: إنّما أنا خَازِنٌ من خُزَّانِكَ، عَبْدٌ من عَبِيدِكَ، تَحْتَ يَدِي أَلْفُ قَهْرَمَانٍ على مِثْلِ ما أنا عليه. قال: فَيَنْطَلِقُ أَمَامَهُ حتى يَفْتَحَ له الْقَصْرَ، قال: وهو في دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ، سَقَائِفُهَا وَأَبْوَابُهَا،



وَأَغْلاقُهَا وَمَفَاتِيحُهَا منها، تَسْتَقْبِلُهُ جَوْهَرَةٌ خَضْرَاءُ، مُبَطَّنَةٌ بِحَمْرَاءَ، كُلُّ جَوْهَرَةٍ تُفْضِي إلى جَوْهَرَةٍ على غَيْرِ لَوْنِ الأُخْرَى، في كل جَوْهَرَةٍ سُرَرٌ وَأَزْوَاجٌ، وَوَصَائِفُ، أَدْنَاهُنَّ حَوْرَاءُ عَيْنَاءُ، عليها سَبْعُونَ حُلَّةً يُرَى مُخُّ سَاقِهَا من وَرَاءِ حُلَلِهَا، كَبِدُهَا مِرْآتُهُ، وَكَبِدُهُ مِرْآتُهَا، إذا أَعْرَضَ عنها إِعْرَاضَةً إزدادت في عَيْنِهِ سَبْعِينَ ضِعْفًا عَمَّا كانت قبل ذلك، وإذا أَعْرَضَتْ عنه إعراضه ازْدَادَ في عَيْنِهَا سَبْعِينَ ضِعْفًا عَمَّا كان قبل ذلك، فيقول لها: وَالله لَقَدِ ازْدَدْتِ في عَيْنِي سَبْعِينَ ضِعْفًا، وَتَقُولُ له: وَأَنْتَ وَالله لَقَدِ ازْدَدْتَ في عَيْنِي سَبْعِينَ ضِعْفًا. فَيُقَالُ له: أَشْرِفْ، قال: فَيُشْرِفُ، فَيُقَالُ له: مُلْكُكَ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ، يَنْفُذُهُ بَصَرُهُ.

وداعٌ.. إلى لقاء متجدّد!

فإذا فرغ السّعداء من حوارهم بقرب الحِجاب العظيم بين الجنّة والنار، وسمعوا أخبار النّاجين من العتقاء، وأبصروا ما أدرك أهلَ الأعراف من رحمة ربّ العالمين، لهجوا بحمد ربّهم على ما أولاهم، وقفلوا إلى مجالسهم الأولى بقرب الأنهار، تحت ظلال الأشجار، ودرجوا في أكناف النّعيم.. مخلّفين أهل النّار وراءهم، غرقى في دركات الجحيم.

وإذا كان طيبُ الحديث، وجميل الحوار، ومتعة التذكّر، والثناء على الله عز وجل هو الذي يزيّن مجالس أهل الجنّة، فإنّ حالهم قبيل الانطلاق إلى قصورهم وممالكهم حالٌ كريمة كذلك. وما أشبه مجالس المتّقين في الدّارين! وبخاصّة عند البدء والختام، فقد كان السّعداء في الدّنيا يتواصون بكفّارة المجلس قبيل أن ينفضّوا عنه[1]؛ لتكون معطّرًا له، شاهدة بفضله،

(١) قائلين: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.



أو مكفّرةً لما اعتراه من الخلل. وللسّعداء في مجالس الجنّة حالٌ قريبةٌ من ذلك عند الختام، أخبر الله عنها في أحد المشاهد البديعة بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1] [يونس: ٩ - ١٠]. فيا لها من بهجة غامرة في مجالس الرّفاه، وما أجمله من لقاء ووداع في كنف الأنس والحبور.

وإذا كان بقاء المعروف بين أهل الجنّة وتزاورهم مما تطيب به السّكنى، ويزداد التواصل، وتحلو المجالس؛ فكيف الشّأن بلقاء خالقهم سبحانه؟! إنّ قلوبهم اشدّ ما تكون شوقًا إليه، وأرواحهم أعظم ما تكون أنسًا به، وحواسّهم أنضر ما تكون بذكره وتسبيحه.

والسّعداء في بلاد الأفراح يشتاقون لرؤية ربّهم، ويترقّبون ساعة اللذّة الكبرى، ويتهيّأون لها، ويتذاكرونها ويترقّبونها في قصورهم ومجالسهم. بل لم تكن لهم في دار الدّنيا لذّة أحبّ منها. عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال

---

(١) أكملُ أحوال المجالس الدنيوية ما شابهت فيه المجالس النّبوية في الدّنيا والمجالس السعيدة في الجنّة؛ من حيث مادّة الحديث، وطريقة الجلوس، وأسلوب الضيافة، والحال التي يلتقي عليها أهل المجالس ويفترقون. وهذا لا يكون إلا في مجالس الصالحين، الذين يجتمعون على ذكر الله تعالى، ويتفرّقون عليه. وكثيراً ما حلّ عليهم رضوان ربّهم في مجالسهم، وشملت كلّ من كان معهم من غيرهم. فإذا دخلوا الجنّة كانوا أسعد النّاس بنعيمها ومجالسها. فما بالك بمن يتحقّق فوز جليسه في الدّنيا؛ لأنّه كان معه؛ كيف يكون حاله إذا وافى ربّه الذي كان يأنس بذكره، ويعطّر المجالس بالثناء عليه، ولا يختمها إلا بحمده وتسبيحه؟!



رسول الله ﷺ: «إنّ أدنى أهلِ الجنّة منزلةً من ينظرُ إلى خِبائه وخدمه ونعيمه وسرره مسيرة ألف سنة! وأكرمُهم إلى الله من ينظرُ إلى الله بُكرةً وعشيًا»، ثم تلا هذه الآية: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1]. نسأل الله الكريم من فضله.

(١) أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده، (ج١٠/ ص٧٧).

يَوْمُ المَزِيْدِ

هاهي المطايا قد جُهّزت، والركائب قد هُيّئت، والزوجاتُ الحسان يترقّبن خروج السعيد برحمة ربه، وهو في تمام زينته. الغِلمان يملأون المكان حركةً؛ والجميع تعلوه البهجة؛ فاليوم يوم الجمعة، وفيه سوق أهل الجنّة، الذي يجتمع فيه على صعيد واحد جميع السّعداء، من درجات الجنّة كلّها.. الجميع يفد إلى هذا المكان المقدّس.. الأنبياء والصدِّيقون، والشهداء والصالحون. وأعظم لذّات النّعيم ما يجده المتّقون في يوم المزيد! لقد سمعوا عن شرفه ومكانته في أيامهم الخالية، وها هو يُقبل عليهم حقّ اليقين في أوّل أيام السّعادة، وأسنى لحظات الخلود.

وشرفُ هذا اليومِ ظاهرٌ من اسمه؛ فهو يوم المزيد الذي يزداد فيه السّعداء من النّعيم المقيم، وتُنال به اللّذات الغالية، والمطالب العالية، ويحدُثُ فيه الأُنس والتعارف، وبه يستتمّ أهلُ الجنّة أسبوعهم الأوّل في بلاد الأفراح، بأعظم لذّات الجنّة وأكملها، وأشرفها وأعلاها.. رؤية ربّهم جلّ جلاله.



أيّام الجنّة!

إذا دخل أهل الجنّة الجنّة وانغمسوا في نعيمها، فإنهم يشعرون بحركة الزمان وتقّلبه، ودوران الأيام وانتقالها، بطريقة تختلف عن تلك التي اعتادوها في الدّنيا بسبب تعاقب الليل والنهار، وحركة الشمس والقمر!!

وللسعداء في إدراك مرور الأيام، والتفريق بين أجزاء اليوم الواحد طرق شتّى لا يعلمها إلا الله عزّ وجلّ، منها حركة الستائر والأبواب! فإذا قام الغِلمان بغلق الأبواب، وسَدْل الستائر، وإرخاء الحُجُبِ؛ فإنّه علامةُ دخولِ وقت المساء في أيام الدّنيا! وأمّا فتحُ الأبواب ورفعُ الستائر فعلامةٌ على البُكور، وبدء النهار[1].

وضياء الجنّة هادئ بديع، كما بين طلوع الفجر إلى بزوغ الشمس[2].. ليس فيها ضحوٌ حارق، كذلك الذي يُقابل منتصف النّهار في الدّنيا، ولا ظلامٌ حالك. وأهلُ الجنة لا يُصيبهم عَطَشٌ ولا عُرِيّ، بل نعيم في كنف الضياء المحبّب، والنّسيم العليل، والماء البارد، والرّي، والثياب الحريرية، والحُليّ الثمينة، قال تعالى مخاطباً آدم عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[طه: ١١٨ - ١١٩].

---

(١) ذكره العزّ بن عبدالسلام في تفسيره (انظر: تفسير العزّ بن عبدالسلام لسورة مريم الآية:٦٢، ج٢/ ص٢٨٣).

(٢) قال المرّوذي: سمعتُ أبا عبدالله، يعني شيخه الإمام أحمد، يقول: كانوا عند أنس بن مالك قبلَ طلوع الشمس فقال: هكذا نهارُ الجنّة. (انظر: أخبار الشيوخ وأخلاقهم للمرّوذي، ص ١٧٤). وعن سعيد بن الحَبحاب قال: كنتُ آتي أبا العالية في أحيانٍ قبلَ طلوعِ الشّمس، فقال: هكذا نهارُ الجنّة. (المرجع نفسه).

وقد كان يُعجب أصحابَ النبي ﷺ إصابة الغداء والعشاء في أوقاتهما، فأُخبروا أنّ ذلك كائن لهم في الجنّة، قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾[مريم: ٦٢]، والمعنى: مقدارُ البُكرة والعشيِّ من أيام الدّنيا.

والسعداء يعرفون على وجه التحديد وقت الغداة ووقت العشيّ من أيّام الدّنيا، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «من غدا إلى المسجد أو راح، أعدّ الله له في الجنّة نُزلاً كلّما غدا أو راح»(١).

شرف يوم الجمعة:

وأهل الجنّة يقدّرون لأيام الجنّة قدرها، ولديهم من وسائل تحديد الزّمان ما لم تر مثله عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر(٢). والزّمانُ

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج١/ ص٢٣٥) ومسلم، (ج١/ ص٤٦٣). ومعنى الآية عامّ، يشمل مقدار هذين الوقتين في دار الدّنيا، كما يحتمل مجرّد الذهاب والإياب. قال بن حجر رحمه الله: المراد بالغدوّ: الذهاب، وبالرّواح: الرّجوع. والأصل في الغدوّ المضي من بُكرة النّهار، والرّواح بعد الزّوال، ثم قد يُستعملان في كل ذهاب ورجوع توسّعاً. (فتح الباري، ج٢/ ص١٤٨).

(٢) القادمون من بادية الدنيا إذا دخلوا الجنّة ورأوا ما فيها من النّعيم وأساليب تحديد الزّمن، وضبط المواعيد والرّحلات، وجدولة المناسبات الكثيرة واللقاءات والمجالس.. أدركوا مقدار التخلّف الذي كانوا عليه، حتى في أزمنتهم الرّقمية والحاسوبية، التي تفنّنوا فيها باستحداث الأجهزة الدقيقة التي تذكّرهم بمواعيدهم، وتضبط أزمنة رحلاتهم ومناسباتهم وأعمالهم، وتحدّد مواعيد الكسوف والخسوف، وتقيس درجات الحرارة والاهتزازات، وثوران الرياح والأعاصير، ومواسم الحصاد، ونحوها. =



في الجنّة من حيثُ تعلّقه بالبدء والانتهاء زمنٌ واحد.. له بداية، ولا نهاية له؛ إذ الخلود سرمديّ أبديّ لا فناء فيه، والنعيمٌ دائمُ متجدّد لا نفاد له[1].

وإذا جاز لأهل الجنّة أن يؤرّخوا أيّامهم، ويضبطوا مواعيدهم، ويرتّبوا مناسباتهم السّعيدة الكثيرة، فإنّ هناك أيّامـًا خالدة في تأريخهم الجديد؛ فيومُ البعثِ من القبورِ يومٌ مشهود، ويومُ الصّدور عن النّار بعد ورودها يومٌ مشهود، ويوم دخولِ الجنّة يوم مشهود، وهو أعظمها وأكثرها حضوراً في تأريخ السّعداء!

واليوم الأول من أيام الجمعة يوم عظيمٌ مشهودٌ كذلك، وهو أشرف أيام الجنّة وأبركها؛ لما فيه من لقاء المؤمنين بربّهم ونظرهم إليه، وهو الأقرب إلى يوم الهجرة النّبويّة من أيام الدّنيا؛ وهو الفرقانُ الحقّ بين الحياتين والدارين والمآلين الذي تحصّلت فيه أكمل الغايات، على أرفع درجات اللذّة القلبية التي يصحبها الأمن الخارجيّ الظاهر، والله أعلم.

= ويكفي لبيان الفرق بين كمال التنظيم وثبات الدّقة في الدارين أنّ الفوضى العارمة في مطارات أهل الدنيا ومؤسساتهم سريعـًا ما تحدث لأدنى عارض؛ فانقطاع الكهرباء، أو حصول زلزال، أو انفجار بركان، أو اشتباه في عُطلٍ أو عمل تخريبي كافٍ لأن تستحيل حياة النّاس إلى جحيم، تضيع معها أعمالهم، وتذهب مخططاتهم، وتُلغى حُجوزاتهم واجتماعاتهم، وتُشلّ حركتهم تمامـًا!!

(١) مسألة (خلود أهل الجنّة وأهل النّار) أودعتها في بحث (الأرض الجديدة.. محطات من رحلة الأرواح إلى الدار الآخرة).

وكما كان ليومِ الجمعةِ مكانته عند المؤمنين في الدّنيا فإنّ له محبّته الخاصّة في دار السّلام؛ ففي هذا اليوم دخل المتّقون الجنّة[1]، وفيه يلقون ربّهم؛ فيُخاطبهم، ويُغدق عليهم من الخير العميم الذي لا حدّ له! عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله يبعثُ الأيّامَ يوم القيامة على هيأتها، ويبعثُ الجُمُعَة زهراءَ منيرةً، أهلُها يحُفّون بها، كالعروس تُهدى إلى كريمها، تضيء لهم.. يمشون في ضوئها، ألوانُهم كالثّلج بياضًا، وريحُهم يسطعُ كالمسك، يخوضون في جبال الكافور، ينظُرُ إليهمُ الثّقلانُ، لا يُطْرِقون.. تعجّبًا، حتى يدخلون الجنّة، لا يُخالطهم أحدٌ إلا المؤذّنون المحتسبون»[2].

---

(١) يُستأنس بدخولِ السّعداء الجنّةَ في يوم الجمعة بالنّصوص التي أخبرت أنّه خير الأيّام عند الله تعالى، وأنّه اليوم الذي دخل فيه آدم عليه الجنّة أوّل الأمر، وفيه أُخرِجَ منها، وفيه تقوم السّاعة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة.. فيه خُلق آدم، وفيه أُدخل الجنّة، وفيه أخرج منها. ولا تقوم الساعة إلا في يوم الجمعة». (أخرجه مسلم، ج٢/ ص٥٨٥).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، (ج١/ ص٤١٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرّجاه. (انظر: صحيح الجامع ١٨٧٢).



لَبَّيْكَ اللهمَ لَبَّيْكَ!

ومجيء السّعداء.. رجالاً ونساء[1] لزيارة ربّهم في هذا اليوم العظيم،

---

(١) المعتمد في مسائل الغيب نصوص الشرع لا محض التخييل والرأي والمقارنة. والنّصوص الصحيحة الصريحة تؤكد اشتراك المتّقين جميعاً بخطاب النّعيم المقيم.. الرّجال والنّساء، وهو خطاب عام قلّما يرد فيه تفصيل مفردات النعيم. ومسألة رؤية نساء الجنّة ربّهنّ تبارك وتعالى يوم المزيد قائمة على هذا الأصل. وهي في المقابل ليست من فضول المسائل التي يسع فيها السّكوت، بل من الأمّهات الأصول؛ لأنّها تتعلّق بلذّة هي أعظم لذات الجنّات وأعلاها وأغلاها، ولا يُخرج النّساء منها إلا بدليل صريح في المنع، وليس ثمّ. وعدمُ العلمِ بالشيء لا يعني العلمَ بعدمه، وبخاصة إذا ظهر الفصلُ باستصحاب الأصل.

والأقرب، من حيث النّظر في نصوص النعيم والإسعاد، والأكمل في سياق الإكرام والإنعام، أن نساء الجنّة الصالحات، اللاتي دخلنها برحمة الله تعالى يرين ربّهنّ في يوم المزيد، على الوجه الذي يعلمه الله تعالى، والكيفية التي تُناسب هذه الدّار العليّة والمحلّة الواسعة البهيّة.

والاستدلال بالمنع ليس له مستند إلا الاستشهاد بنصوص صحيحة غير صريحة أو العكس؛ وأشهرُ ما يمكن أن يشار إليه في المنع مسألتان، الأولى: أنّ قرب المؤمنين في ذلك اليوم من ربّهم إنّما يكون بحسب تبكيرهم إلى صلاة الجمعة في أيّام الدّنيا، والنّساء لا جمعة لهنّ!! وهو استدلال خارج عن محلّ النّزاع، لأنّ الحديث واردٌ في سياق القُرب، لا بيان الأهلية في الحضور، ولا يُمنع أن يكون للنساء قربٌ وبعد نسبيّ خاصّ بهنّ، أو أن يكون لهنّ مُجتمعهنّ الخاص في ذلك الوادي الأفيح، بمنابر وكراسي وكثبان بحسب أعمالهنّ الصالحة، والله أعلم.

والثانية: أنّ النّصوص صرّحت بزيادة الزوجات جمالاً فوق جمالهنّ، وهنّ في القصور، وأنّ أزواجهنّ يلحظون ذلك، وقد جاء في الصحيح: «فيرجعون إلى =

يتمّ وفق نظام وترتيب بديع؛ فقد روي في الأثر أنّ الدّعوة لحضور هذا اللقاء

= أهليهم وقد ازدادوا حُسنًا وجمالاً فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حُسنًا وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حُسنًا وجمالاً». فإذا كانت النّصوص تؤكّد قرارهنّ في القصور فكيف يقال بعد هذا إنّهن ممن كان في سوق الجنّة، وسعد بلذّة النّظر في ذلك اليوم؟! والجواب أنّ لفظ (الأهل) يُطلق على الصّنفين من الزوجات: مقصورات الخيام من حور الجنّة اللاتي خُلِقن فيها، وهنّ المراد بهذا الصنف من زيادة الجمال، والله أعلم، ونساء الجنّة الصالحات اللاتي فاق حُسنهنّ وزاد بعد عودتهنّ مع أزواجهنّ؛ فجمال الوجوه التي تبدّى لها خالقها أعظم من تلك التي زيد في جماله وهي في مكنون القصر.

وقد سبق التفريق بينهنّ من وجوه، منها ملازمة لفظ (القصر) في البساتين والخيام والقصور للحور. ولا يُقال ببطلان الاستدلال هنا لدخول الاحتمال عليه، فإن الاستدلال قائم على أصل لا يزول، كما سبق، وما سواه شواهد عليه.

وأحوال النّاس في هذه الأيّام تقرّب كثيراً هذه الصّورة.. ألا ترى أنّ المحاضرات والدروس الكبرى التي يحضر فيها عالمٌ إمام من خارج البلدة.. يطمع النّاس في رؤيته والسّماع منه، يُختار لها من مساجد البلدة أوسعَها وأفخَمها، ثمّ تتقدّم دعوة النّاس بين يدي اليوم المشهود بإعلان عامّ جرت العادة ألا يُتكلف فيه ببيان وجود مكان مخصّص للنساء؛ لأنّ حضور هذا الإمام عادة، في مثل هذا اللقاء الفريد، داخل هذا المسجد بالذّات، مما تعارف النّاس على حضور الجميع فيه بلا استثناء. فإذا دنى الموعد أقبلَ الرّجل بزوجته وذرّيته، وترك الخادمة أو الخادمات في المنزل يرعين الصّغار ويقُمن بواجب الخدمة، ويهيّئن النُّزل حتى يعود السيّد مع أهله؟! أفيجري هذا النّسق من لقاء الفرحة والفائدة بلقاء داعٍ من دعاة الله تعالى في هذا اليوم، بدار المخافة، ولا تجري الفرحة بلقاء الله جلّ جلاله بدار الجزاء في يوم المزيد؟!



العظيم توجّه لكل واحد من السعداء بعينه عن طريق مَلك كريم!! عن علي رضي الله عنه قال: إذا سكن أهل الجنة الجنة أتاهم مَلَك فيقول لهم: إنّ الله تبارك وتعالى يأمُرُكُم ان تزوروه، فيجتمعون[1].

فإذا أناخوا عن قريب كريمَ النجائب، وأوقفوا المطايا حيثُ تلوح الرغائب، وبلغوا مُرادهم، مكلّلين بأجمل الثياب وأبهى الزّينة والحُلل، إذا هم بالجمع الكريم يفدون إلى السّوق العظيم، ويقبلون من ممالكهم الكثيرة، في أبّهة الملك، ويجتمعون في البقعة المباركة، التي هي أشرف المحالّ وأعلاها، وأجملها وأغلاها، حتى لكأنّهم من حُسنها وبديع مناظرها، وكريم الوفادة فيها لم يروا الجنّة إلا السّاعة!

ويكفي لبيان شرف هذا المحفل الفريد، في هذا اليوم السعيد أنّه ما من لحظة في عمر الزمان أكرم من هذه اللحظة، ولا بقعة في أكناف المكان أشرف من هذه البقعة، ولا اجتمع فيها خلقٌ هم أحبّ إلى الله تعالى وأقرب من هذا الوفد الكريم.

لحظاتٍ يسيرة تسبق اللّذة الكبرى.. منتهى الآمال والغايات، وأسنى المطالب والدرجات. وكلّ تقيّ في هذا الوادي المقدّس يرى أنّه أسعد الجمع وأكرمهم عند ربّه؛ مما يرى ويسمع، ويشعر ويترقّب. قال ﷺ: «إنّ أهل الجنة ليغدون في حُلّة و يروحون في أخرى، كغدوّ أحدِكم ورواحه إلى مَلِكٍ من ملوك الدنيا، كذلك يغدون ويروحون إلى زيارة ربّهم عزّ و جلّ، وذلك لهم بمعالم ومقادير، يعلمون تلك الساعة التي يأتون فيها ربهم عزّ

(١) انظر: الترغيب والترهيب للمنذري، (ج٤/ ص٣٠٥) و الزواجر للهيتمي، (ج٢/ ص١٠٠٧).

وجلّ»[1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يُقْبِلُ الرَّجُلُ ذُو البزّة الْمُرْتَفِعَةِ فَيَلْقَى مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَمَا فِيهِمْ دَنِيٌّ، فَيَرُوعُهُ مَا يَرَى عَلَيْهِ مِنَ اللِّبَاسِ والهيئة، فَمَا يَنْقَضِي آخِرُ حَدِيثِهِ حَتَّى يَتَمَثَّلَ عَلَيْهِ بِأَحْسَنَ مِنْهُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَحْزَنَ فِيهَا»[2].

الملائكة الكرام في هذه اللحظات الغالية يحفّون بالسعداء.. مسلّمين مرحّبين؛ فهؤلاء صفوة المتقين من ذريّة آدم الذي أمرهم ربّهم بالسجود له، تكريماً وتقديراً، وهم على حال من البهجة والخدمة معاً.. يعرّفون هذا بهذا، ويقرّبون هذا من هذا. والغلمان كأنّهم لؤلؤ منثور، يتنقّلون بين السعداء مسرورين فرحين.. يقرّبون صِحاف الذّهب والفضة، ويدورون بالكؤوس المُترعة من كلّ مذاق، على كلّ صنف؛ فالمتّقون هنا في ضيافة الكريم الرّحمن، ولكل ما يُبهجه ويُفرحه؛ فربهم أعلمُ بما يُحبّون ويشتهون، وبما يأنسون ويشتاقون.

الجميع يعيش فرحة غامرة.. يسلّمون على بعضهم، ويتبادلون أطراف الحديث، ويضحكون في أجمل مشاهد الصفاء البشري على الإطلاق؛ والأنبياء يحوط بهم أهل الجنّة مسلّمين ومستمعين، ولهم أن ينهلوا من رغائب القلوب ومطالب الحواس ما يشاؤون! فهذا يوم المزيد، ﴿يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[المائدة: ١١٩].

---

(١) أخرجه أبو يوسف، يعقوب بن سفيان الفسوي بسنده إلى أبي برزة الاسلمي، (انظر: المعرفة والتاريخ ج٣/ ص٣٥٨، وحادي الأرواح، ج١/ ص١٨٥).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، (ج١٦/ ص٤٦٧).



ونصوص الرؤية تشير إلى أنّ وفد المتّقين إذا انتظم عِقْدُهم، واكتمل جَمْعهم ودارت عليهم موجبات الضيافة الأولى في هذا المكان المقدّس، وحصل لهم من طيبِ اللقاء، وجميل التعارف، وحُسن الحوار والتآلف ما يُبهج القلوب ويُسعد الأرواح ناداهم المنادي: يا أهل الجنّة، إن ربكم تبارك وتعالى يستزيركم فحيّ على زيارته[1]. فيقومون.. تعلوهم الفرحة والحُبور، ثمّ يفيضون وفداً واحداً، مكرمين.. إلى الوادي الأفيح، حيث أعدّت لهم منازل الكرامة، قبيل لحظات من ساعة التجلّي العظيم.

فإذا نهدوا إلى حيث دعتهم الملائكة إذ بالنجائب قد أُعِدّت لهم[2] فيستوون على ظهورها، وألسنتهم لا تفتر عن التسبيح والتحميد، والتهليل والتكبير[3]! قال تعالى واصفاً هذا المسير الميمون: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾، أي: على نجائب من نور عليها الرّحال[4].

(١) وهذه دعوة كريمة أخرى، سوى تلك التي بلغتهم في قصورهم.

(٢) وكأنّ هذه النّجب، والله أعلم، مراكب جديدة غير التي جاءوا عليها، مخصّصة فقط لنقلهم إلى الوادي الأفيح للقاء ربّهم وإعادتهم منه. وهذا أبلغ في التكريم. والبشر في بادية الدّنيا يعلمون ظاهراً من ذلك، وقد جرت عليه عادة ملوكهم مع كبار الضيوف حال الاستقبال في المطارات ونحوها، على فوارق في الهيئات والذوات والصفات لا تخفى، وإلا فأين الّضيفُ من الضيف؟ وأين المراسمُ من المراسم، والمراكب من المراكب؟!

(٣) حادي الأرواح، (ج١/ ص١٩٥).

(٤) انظر: تفسير الطبري، (ج١٦/ ص١٢٧)، وأضواء البيان، (ج٣/ ص٥١٢).

وفد الرّحمن المكرمون يفيضون في هذا اليوم الخالد، الذي لم يوجد في تاريخ الدّنيا والآخرة أسعد منه ولا أبرك، لينعموا بالنظر إلى وجه الجبّار جلّ جلاله.. بعزّه وكبريائه، حيث يتجلّى لهم، فيكشف عن أعينهم حجابَ النور، ويؤنِسهم بلذيذ المحاورة الكبرى التي يبثّوه فيها حُبّهم وشوقهم.

إنّه يوم المزيد، الذي يزدادون فيه نعيماً على نعيمهم، وحُبوراً على حبورهم. وهل فوق مزيد الرحمن من مزيد؟

وبينا هم يفيضون إلى الجبّار جلّ جلاله.. في أكرم مشهد من مشاهد الجنّة، صوب أعظم نعيم ينتظرهم منذ ولدتهم أمهاتهم، إذ بمشاعر الحبّ للربّ تجيش، وذكريات الآلاء والأشواق تلوح؛ فالموعد بعد قليل سيكون مع الملك الجليل سبحانه! لحظات ويجتمعون بمن أوجدهم من العَدَم، وأولاهم وافر النعم، ويسّر لهم طريق الهداية حتى بلغوا منازل السّعادة.. إنّهم يفيضون للقاء الله جلَّ جلالُه.. لرؤية مَن كُلُّ نعيمٍ إليه، وكلّ مِنّة بفضله، وكلّ بهجة غمرتهم، وكلّ فرحةٍ خالطت قلوبهم فبجوده وإحسانه.

يا لها من مشاعر لا توصَف! السعداء يفيضون في هذه الساعة للقاء الله العظيم، الذي كان أرحم بهم من أمّهاتهم، وكلّ تقيّ يستعيد طيف الإحسان، على جوانح الذلّ والرّضى والمحبّة للملك الجليل سبحانه.. كم رفق بهم على إساءتهم، وتحبّب إليهم على غفلتهم، وتقرّب منهم على بُعدهم، وأحسن إليهم على جهلهم!

كم دَعَوْهُ فاستجاب لهم، وكم دعاهم فلم يجيبوه! كم تعرّف إليهم بجميل الرعاية والسِّتر، وما تعرّفوا عليه بكمالات الطاعة والذّكر!! كم طال بُعدهم عنه، مع كثير الإحسان منه، فلم يعاملهم على قليل العمل، ولم



يبادرهم مع أوّل الزلل. لم يكن لهم في الظُلمات سِواه، ولا أنيسَ في أوقات الوحشة إلا إيّاه.

حَفِظَهم حال العدم؛ إذ لم يكونوا شيئًا مذكوراً، وظلّ يُجري عليهم قطرات الدّماء بقَدَرٍ في نياط عروقهم النّحيلة حتى اكتمل خَلْقُهُم! ثم أجرى لهم قطرات اللبن بقَدَرٍ حتى استتمّ تمامُهم! فلما بلغوا السّعي فتَح لهم أبوابَ الرِّزق من السّماء والأرض، ثمّ لم يزل بهم رحيمًا.. يجبُر كسرَ المنكسرين، ويحلُم على جهل الجاهلين، ويجيبُ دعوة المضطرين، ويقبلُ توبة المذنبين، حتى أدخلهم الجنّة، وها هم يوافوه في يوم المزيد!

إنّهم يفدون إلى الحبيب الذي طالما فزعوا إليه عند انقطاع السُّبُل.. القريبِ الذي كانوا يأوون إليه كلّما ضاقت بهم الحيل! كم فرّوا منه أول الأمر، فلمّا لم يجدوا أرحم منه وأكرم فرّوا إليه! كم تنكّروا له ساعة الرّخاء، فلّما دنت لحظات الانقطاع انطرحوا بين يديه خجلاً. وجدوه رحيمًا كريمًا، يغفر ما كان منهم بما يكون، ويتجاوز عن طيش الجهل بخفَقَات القلوب، وانكسار الجناح، وانقطاع الحِيَل ولهَجات الألسُن! لم يكن لهم عنه غَناء، ولا بهم دونه بقاء. ما غاب عنهم طرفة عين؛ فقد أبصروه في جميلِ الرّعاية وكريمِ الإحسان. كم أورثَهم ضعفُهم بين يديه قوّة، وفقرُهم إليه غِنى، وما ذاقوا العزّ إلا بالذلّ إليه، وما كان العلمُ إلا عينَ التسليم له. كم كان يتنزّل إلى سمائهم في كلّ ليلة.. يدعوهم أن يقوموا ليغفر لهم، وهم نيام، مشغولون عنه!

فأنّى يفارق الحياء وجوهًا علاها التقصير، وهي سائرة الآن للنّظر إلى وجْهِ الْعَلِيِّ الْكَبِير؟! وأنّى يُحسن التعبيرَ لسانٌ ظلّ كليلاً لا يجيب الجليل،



وهو ينادي في كلّ ليلة: «من يدعوني؟ من يسألني؟ من يستغفرني؟»، ولو شاء لأمرهم بالقيام تلك الساعة، فلم ترقأ لعيونهم المدامع، ولم تهدأ جنوبهم على المضاجع. وها هو اليوم يدعوهم ليقرّبهم، ويُعلِمهم أنّه ما زال كما عوّدهم.. كثيرَ الصفح، قديمَ الإحسان، واسعَ الفضل، جميلَ العطاء.

لقد أسعدهم ساعة دخول الجنّة، ورحّب بهم، ثم حاورهم وسألهم أن يطلبوا ما يشاؤون من النّعيم! وهل نعيمٌ يفوقُ ما تفضّلتَ به علينا حتى الساعة؟ أيُّ أمْنٍ بعد رضاكَ نطلُب؟ وأيّ نعيم بعد رؤياك نرغب؟ سألتَنا: «هل رضيتم؟!!» والجنّةُ كُلّها.. بما فيها ومن فيها، مُلكُ يَدِك، ونحن الضّعفاءُ الدّخلاء الفقراء! ثم أوليتنا النّعيم الذي نرفلُ به الآن، وهو من فيض جودك وإحسانك!

آه من خجلة الموقف بين يديك؛ ومن استحضار التقصير حال القدوم عليك! فلك الحَمْدُ أنّكَ ربّنا، ولكَ المِنّةُ على الإحسَانِ الذي عَوَّدْتَنا.. لَبَّيْكَ اللهمَ لَبَّيْكَ! قال محمّد بن علي رحمه الله: يُقال لأهل الجنّة: إنّ ربَّكُم تبارك وتعالى يُقرِئُكُمُ السَّلامَ، ويسْتَزيرَكُم لتنظروا إليه وينظُرَ إليكم، وتُحيّونَه ويُحيّيكم، ويُكلّمُكُم وتُكَلّمُونه، ويزيْدُكم من سعته وفضله، إنّه ذو رحمة واسعة، وفضلٍ عظيم.. فيتحوّلُ كلُّ رجلٍ مِنهم على راحلتِه، ثم انطلقوا صفـًا واحداً معتدلاً، لا يفوق منه شيءٌ شيئـًا.. ولا يمُرّون بشجرٍ من أشجارِ الجَنَّة إلا أتحفتهم بثمرها[1].

(١) حادي الأرواح، (ج١/ ص١٨٥)، قال ابن القيم رحمه الله: لا يصح رفعه إلى النبي. وحسبُه أن يكون من كلام محمّد بن علي رحمه الله.



كلُّ شيءٍ حولَهم سعيدٌ في هذا اليوم البهيج.. النّعيم مِن فوقهم، والنّعيم مِن تحتِ أرجُلهم، والنّعيم يُحيط بهم مِن كلّ جانب!! الأشجارُ الغنّاءُ تُطاولُ السّماء ارتفاعـًا، وتزدادُ خُضرة، والمياهُ الباردةُ العذبة رقراقة في الأنهار الجارية، وتفيض من العيون النضّاخة، والثمارُ النّضيجةُ تتدلّى من غُصونِ الأشجار، والأطيار المغرّدة تحلّق فوقهم بأجمل الألوان، وأعذب الألحان!

منازل الأشواق!

ها هم يفيضون للنَّظرِ إلى وجهِ الجليلِ سبحانه.. أكملُ مطلوبٍ للصالحين، وأسمى الرّغائب إلى قلوب المحبّين العارفين. كم نصبوا لأجلها الأقدام في ظُلمات السَّحَر، وأظمأوا الأكباد في لَهَب الهواجر، وقدّموا في سبيلها الأموال والأنفُس، وهجروا الأوطان ومراتع الصبا.

كم تملّك الشوقُ قلوبَ الأنبياء والمرسلين لبلوغ هذه اللحظات، وكم لهجت به ألسنتُهم، ودارت عليه دعواتهم، وأضحى البشارة الكُبرى التي يَزُفّونها إلى مَن بعدهم؛ فهذا كليمُ الرّحمن، موسى عليه الصلاة والسلام، حين أشرقت على قلبه نضرةُ النّعيم من لذيذ المناجاة، وانغمس قلبُه في سكونِ الخشية والتعظيم لمولاه، يُناجي بلسانِ الحال والمقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[الأعراف: ١٤٣].

وهيهات لقلوبٍ وأجسادٍ دُنيوية، بمدركاتها المتواضعة، وطاقاتها الضعيفة التي خُلقت لدار الفناء أن تقوى على احتمال لذّة هي أعظم نعيم أهل الجنّة، اللذين صوّرهم الله تعالى بطاقات وحواس وقوى لا نظير

لها[١]. ولولا ما ركّب الله تعالى في أهل الجنّة من قُوّةِ التَّحمّلِ والإدراك، وثبات الأفئدة والحواس لانصدعت قلوبُهم لرؤيةِ خالِقِهم، كما تصدّع الجبلُ العظيمُ ليلةَ التجلّي في الوادي المقدّس!

وأكملُ النّاس إيماناً أصدقهم حبّاً، وأصدق المُحبّين مَن لَهَجَ بالشّوقِ للقاء خليله، وليس ذاك إلا لأنبياء الله ورسله، عليهم الصّلاة والسلام، وأشدهم في ذلك: محمّد ﷺ الذي فاضت الأشواق على لسانه، وجرى الوجدُ في جميع كيانه، فعن عمّار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «اللهم بعلمك الغيب، وقُدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيراً لي، وتوفّني إذا كانت الوفاةُ خيراً لي. اللهم إنّي أسألك خشيتَك في الغيب والشهادة، وكلمةَ العدلِ والحق في الغضبِ والرّضا، وأسألكَ القصدَ في الفقر والغنى، وأسألُك نعيماً لا يبيد، وقرّة عينٍ لا تنقطع، وأسألك الرّضا بعد القضاء، وأسألك برد العيشِ بعد الموت، وأسألك لذّة النّظرِ إلى وجهك، وأسألك الشوق إلى لقائك.. في غير ضرّاء مُضرة ولا فتنة مُضِلة. اللهم زيّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»[٢].

---

(١) وشواهد الأحوال في الدّنيا على ضعف طاقات البشر وحواسّهم ومدركاتهم كثيرة لا تخفى؛ فالصوت إذا تجاوزت شدّته قُدرةَ احتمالهم تسبّب في هلاكهم، والضوءُ إذا بهَرهم سناهُ فوق ما تطيق عيونهم أعمى أبصارهم، والفرحةُ الشديدة أو الخوفُ الشديد إذا انتاب قلوبَهم فوق ما تحتمل، تزلزلت واضطربت نبضاتُها حتى تتوقّف!

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، (ج٥/ ص٣٠٥) والإمام أحمد في مسنده، (ج٤/ ص٢٦٤).



ولشدّة شوقه ﷺ لرؤية ربّه ظلّ يبشّر أصحابه بأنّ ذلك كائنٌ يوم القيامة لا ريبَ فيه، ويُقرّب لهم حقيقة الرؤية ويؤكّدها، ويزيّنها إلى قلوبهم، ويتحيّن للحديث عنها الأحوال المواتية المحبَّبة، والصوّر الحسيّة المُقَرِّبة؛ فقد خرج ﷺ مع أصحابه في ليلة صافية من ليالي المدينة الغرّاء، لا سحاب فيها.. قد انتصف فيها الشهر، وأضاء القمر، وتلألأت النّجوم، فرفع رأسه ثم قال: «إنّكم سترون ربّكم كما ترون هذا القمر، لا تُضامّون في رؤيته؛ فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾(١).

وبادرهم ذات يوم قائلاً: «إنّكم سترون ربّكم عياناً»(٢). أي: بأعينكم الباصرة، لا يحولُ بينكم وبينه حِجابٌ. وسُئل ذاتَ مَرّةٍ: هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ فقال ﷺ: «نعم. هل تضارّون في رؤية الشمس بالظهيرة، صحوًا ليس معها سحاب؟ وهل تضارّون في رؤية القمر ليلة البدر، صحوًا ليس فيها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «ما تضارّون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة، إلا كما تضارّون في رؤية أحدهما»(٣). وهذا التشبيهُ منه ﷺ تشبيهٌ للرؤيةِ بالرؤيةِ، لا تشبيهٌ للمرئيّ بالمرئيّ. وحاشا لله تعالى أن يُشبهه شيء من خلقه.

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٨٣٦)، ومسلم، (ج١/ ص٤٣٩).

(٢) أخرجه البخاري، عن جرير بن عبد الله، (ج٦/ ص٢٧٠٣).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه (ج٦/ ص٢٧٠٣)، ومسلم، (ج١/ ص١٦٣).

ولو قُدّر لبشرٍ أن يرى ربّه في الدّنيا لكان هو ﷺ، ومع ذلك لم يتجلّى له ربّه حتى في أرفع مواطن التشريف.. حين بلّغه سدرة المنتهى، وناجاه في بقعةٍ لم تطأها قدمٌ، ولم يخفق فيها جَناح! عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألتُ رسول الله ﷺ: هل رأيتَ ربَّك؟ قال: «نورٌ، أنَّى أراه؟!»[(١)]. وعن عبدالله بن شَقِيقٍ قال: قلت لِأَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه: لو رأيتُ رسول الله ﷺ لَسَأَلْتُهُ. فقال: عن أَيِّ شَيْءٍ كُنْتَ تَسْأَلُهُ؟ قال: كنتُ أَسْأَلُهُ: هل رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قال أبو ذَرٍّ: قد سَأَلْتُ، فقال: «رأيتُ نُورًا»[(٢)]. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «من زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ على الله الْفِرْيَةَ» «ولكن رأى جبريلَ في صورَتِه، وخَلقُه سادٌّ ما بين الأفق»[(٣)].

أرفعُ مشاهدِ التكريم والتنظيم!

أشرف المتّقون على الوادي المقدّس، ولاحت رسوم السعادة من بعيد. لقد طويت الأيام الخالية كظلِّ سراب، وزال العناء والبؤس على الأعتاب، ولم تبق إلا لحظات يسيرة على رؤية الملك الوهّاب.

الملائكة المقرّبون يملأون المكان. وسكونُ الهيبةِ والجلالِ، والنُّضْرةِ والجمال تزداد كلّما اقترب الوفد من البقعة المباركة، التي لا أحسن منها منظراً، ولا أكمل ترتيباً وتنظيماً. السعداء يتحرّكون إلى ربّهم في هذه اللحظات

---

(١) أخرجه مسلم، (ج١/ ص١٦١).

(٢) المرجع نفسه.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١١٨١) ومسلم، والزيادة له (ج١/ ص١٥٩).



صفًّا واحداً معتدلاً، كما كانوا يَصُفّون في صلاتهم.. لا يتقدّم منهم أحد على أحد.. في موكبٍ مهيبٍ لم يَخطُر على قلبِ بشر، بعد أن نالوا من التكريم أرفَعَهُ، ومن السّعادة أوفاها!

المناظرُ على امتداد الطريق، يمينًا وشمالاً محفوفةٌ بكلّ بهيج، لم تقع أعينُ بني آدمَ على أمتعَ منها ولا أحسن منذ دخول الجنّة! كلّ شيء في هذا المكان مختلفٌ في حُسنه وجماله، ولا مجال للمقارنة بينَه وسائرِ الرّوضات في جنّات النّعيم، من حيثُ السّعة والكمال، والنُّضرة والجَمال. كلّ شيء هنا يُبهج العين، ويُطرب الأسماع، ويُفرح القلوب، وهو فوق ما يجد أصحابُ الدّرجات الأولى في منازلهم وأجملُ مما يرى أصحابُ الدرجات العُلى في عظيم مُلكهم! بهجةُ الألوان، ونُضرة الأشجار، وعبَق الرائحة، ونبعُ العيون، وتدفّق الأنهار.. كل شيء يختلف عما رأى الوفد من قبل!

البقعة المباركة في هذا الوادي الأفيح لا مثيل لها في سُكُونِها وهُدوئها، وطيبِ هوائها! الأطيارُ مغرّدة، والمجامرُ فوّاحة، والعيون جارية ونضّاخة، والأشجارُ غنّاء مثمرة، والمُروج الخضراء مُزدانةٌ بكلّ بهيج، والأنهار تجري رقراقة من غير أخاديد، لا تفيضُ ولا تنساح في غير مجراها، وعلى حوافّها كيازينُ الذّهبِ والفضّة، والنّسائم المطيّبة تتهادى بنعومة على الجمع المبارك، والزّرابي مبثوثة على المنابر الوفيرة، والكراسيّ الوثيرة.. ومجالس الكثبان المسكيّة تمتدّ بنظام بديعٍ في الوادي المقدّس، المرصوف بالياقوتِ والزُّبُرْجُدِ والجَوهر، ومِلاطِ المسك الأذفر، وقناديل العرش الفخمة تضيء المكان!! جمالٌ لا مثيلَ له، ورفاهٌ يبعث في أرواح الجمع السعيد بهجة وحبوراً!



وكيف لا يكون لهذه البقعة المقدّسة خُصوصيتَها وقد اختارها الله تعالى دون سائر الجِنان لتحظى بهذا الشرف العظيم، وهذا اللقاء الخالد؟! قال ﷺ مبيّناً مكان هذه البقعة المباركة على وجه التّحديد: «وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلا رداءُ الكبرِ على وجهه، في جنّة عدن»[1].

ولجنّة عدن خصوصيتها وشرفها الرّفيع دون سائر الجِنَان، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خلقَ اللهُ جَنَّة عَدْنٍ بيده. لَبِنَةٌ من دُرّة بيضاءَ، ولَبِنَةٌ من ياقوتَةٍ حمراءَ، ولَبِنَةٌ من زُبُرْجُدٍ خَضْراء، مِلاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ، وحشيشُها الزّعفرانُ، ثم قال لها: «انطقي»، فقالت: «قد أفلح المؤمنون»، فقال الله تعالى: «وعزّتي وجلالي لا يُجاورنُي فيكِ بخيلٌ». ثم تلا رسول الله ﷺ: «وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ»[2]. كما ورد تحديدٌ أدقّ لمكانِ اللقاء في جنّة عدنٍ ذاتها، وأنّه في الفردوس الأعلى.. أرفعِ مكان منها، وهو أعلى الجنّة وأشرفُ منازِلها، لقوله ﷺ في الحديث الطويل الذي سيأتي: «إنّ ربّك اتّخذ في الفردوسِ وادياً أفيَحَ، فيه كُثُبٌ من مسك» الحديث[3].

مراسمُ الاستقبالِ في لحظات ما قبلَ الرُّؤيةِ غايةٌ في النّظامِ والدِّقّة، والهدوءِ والهيبة، لم يعهدها أهلُ الدّنيا قطّ في اجتماعاتهم ومؤتمراتهم،

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٨٤٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط عن ابن عباس رضي الله عنهما، (ج١٢/ ص١٤٧).

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير، (ج٢/ ص٣١٥) عن أنس.



ومراسمُ استقبال ملوكهم ورؤسائهم. فإذا بلغوا المُراد خَلَعوا نِعالهم[1]؛ تهيئةً للقاءِ الرّبّ الكريمِ سبحانه، وبَهَرهم ما يجدون من حفاوة التكريم، وتهيئة النُزُل، وفخامةِ المكانِ، وطِيْبِه، وجمالِ منظره، وحسن إضاءته، وكمالِ تنظيمه.

كلّ شيءٍ هُنا فريد! المكان فسيحٌ ومرتّب، وأماكن الجلوس فخمةٌ، وهي رفيعةٌ متنوّعةٌ، ما بين «منابر من نور، ومنابر من لؤلؤ، ومنابر من ياقوت، ومنابر من زبرجد، ومنابر من ذهب، ومنابر من فضة. ويجلس أدناهم، وما فيهم دني، على كُثبان المسك والكافور.. ما يرون أنّ أصحاب الكراسي أفضل منهم مجلساً»[2].

ومنازلُ السعداءِ في هذا المكان، وقُربُهم من ربّهم سبحانه، إنّما يكونُ بحسبِ إيمانهم، ومقدارِ تبكيرهم إلى صلاة الجمعة في أيّام الدّنيا. عن علقمة قال: خرجتُ مع عبدالله بن مسعود رضي الله عنه إلى الجُمُعة فوجد ثلاثةً قد سبقوه، فقال: رابعُ أربعة؟! وما رابع أربعةٍ ببعيد. إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الناس يجلسون من الله تعالى يوم القيامة على قَدْرِ رواحهم إلى

---

(١) يُستأنس في التعّرف على آداب لقاء مَلكِ الملوكِ سُبحانه في ذلك اليوم بما أمر به كليمه موسى عليه الصّلاة والسّلام في الدّنيا؛ فقد هداه سبحانه لأكمل الآداب الظاهرة والباطنة، من: طهارة الثياب وطيب الرّائحة، وخلع النّعال، والاستماع بأدب ووقار، قال تعالى في ليلة التكريم: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١١ - ١٤].

(٢) صحيح ابن حبان، (ج١٦/ ص٤٦٧).



الجُمُعات.. الأوّل والثاني والثالث» ثم قال: رابعُ أربعةٍ، وما رابعُ أربعةٍ ببعيد[1]. وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريل وفي يده مرآة بيضاء فيها نكتةٌ سوداء، فقلتُ: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الجُمُعة، فُضِّلْتَ بها أنتَ وأمّتُك، فالنّاسُ لكم فيها تبع: اليهود والنصارى، ولكم فيها خيرٌ، وفيها ساعةٌ لا يوافقها مؤمنٌ يدعو الله بخير إلا استُجيبَ له، وهو عندنا يومُ المزيد. قال: يا جبريلُ، وما يومُ المزيد؟ قال: إنّ ربّك اتّخذ في الفردوسِ وادياً أفيَح، فيه كُثُبٌ من مسك، فإذا كان يومُ الجمعة أنزلَ الله ما شاء من الملائكة، وحولَه منابرُ من نورٍ، عليها مقاعدُ النبيين، وتحفّ تلكَ المنابرُ بكراسي من ذهبٍ مكلّلة بالياقوت والزبرجد، عليها الشهداء والصِّديقون، ثم جاء أهلُ الجنّة فجلسوا من ورائهم، على تلك الكُثُب، فيتجلّى لهم تبارك وتعالى حتى ينظروا إلى وجهه، ويقول الله: «أَنَا رَبُّكُمْ، قَد صَدَقْتُكُم وَعْدِي، فَسَلُوْنِي أُعْطِكُم». فيقولون: ربّنا نسألك رضوانك، فيقول: «قَدْ رَضِيْتُ عَنْكُمْ، فَسَلُوْنِي»، فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم، فيقول: «لَكُمْ مَا تَمَنَّيْتُم، وَلَدَيْنَا مَزِيْدٌ». فَهُم يُحِبّون يومَ الجمعة؛ لما يُعطيهم فيه ربُّهم من الخير، وهو اليوم الذي استوى فيه ربّكم على العرش، وفيه خُلق آدم، وفيه تقوم الساعة»[2].

---

(١) أخرجه ابن ماجه، (ج١/ ص٣٤٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير، (ج٢/ ص٣١٥). وأخرجه ابن أبي شيبة، والبزار وأبو يعلى، وابن أبي الدنيا في صفة الجنّة، وابن جرير، وابن المنذر، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والآجري في الشريعة، والبيهقي في الرؤية، وأبو نصر السجزي في الإبانة، من طرق جيدة، انظر (الدر المنثور ج٧/ ص٦٠٥).



والمؤمنون حال ترقّبهم في هذا الوادي الأفيح تعلوهم سعادةٌ غامرة، وتظهر على وجوههم علامات النّضرة والحبور.. قلوبهم متآلفة، وأرواحهم متعارفة.. والملائك تحفّ بهم.. مسلِّمة ومبارِكة هذا المنقلب الكريم، فهم اليوم ﴿فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٠٢ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٢ - ١٠٣].

وبينا هم في سعادتهم الغامرة يُحبَرون إذ هَبّت عليهم ريحُ الشِّمالِ[١]، وهي ريحٌ طيّبةٌ مُرسَلةٌ بإذن ربّها، تزيدُ من جمالِ الشيء الذي تخالطه، وإن كان جميلاً، وتَفيضُ عليه من طيب الرائحة وإن كان مطيّبـًا. عن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ في الجنّة لسُوقـًا يأتونها كلّ جمُعُة، فتهبّ ريحُ الشمال، فتحثو في وجوههم وثيابهم؛ فيزدادون حُسنـًا وجمالاً»[٢].

فإذا تخلّلتهم هذه الريح الطّيبة، وهم في موكبهم العظيم، حثَت على ثيابهم الطّيبَ والنّعيم، بما لم يخطر على قلوبهم، ولم تُسفر إلا وقد علت وجوهَهم النُضرةُ والجمالُ؛ فيزدادون طيبـًا وجمالاً؛ لأنّهم عمّا قليل سيحاورون

---

(١) كثيرة هي حقائق الجنّة التي تقترن بجزيرة العرب في دار الدّنيا! ومنها ريح الشمال هذه التي تهبّ على أهل الجنّة فيستبشروا بها؛ لأنّها تذكّرهم بالريح الشمالية التي كانت تهبّ عليهم آنذاك من جهة الشام فتسوقُ معها الغيثَ العميم، وسحابَ المطر الذي تنتفع به الأرض والنّاس والدوابّ. وهم اليوم على موعد مع الغيث العميم الذي يروي قلوبهم وأرواحهم، ويظهر أثره في نضارة وجوههم، وطيب أخلاقهم وثيابهم.

(٢) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص٢١٧٨).

الجليلَ سبحانه، وهو طيّبٌ يحبّ الطّيب، وكلُّ طيبٍ حسّي ومعنوي، في الدّنيا والآخرة فمِنه جَلّ جلالُه.

مَلِكُ المُلُوْكِ يَتَجَلّى لأهل الجنّة!

شعورٌ غريب عمّ المكان في هذه اللحظة.. الاستكانة والخشوع يظلّلان البقعة المباركة؛ كلّ شيء ساكنٌ سُكونَ الرّهبة، خاضعٌ خُضوعَ الهيبة.. الأطيارُ جاثمة في أكنانها.. الأشجار الغنّاء ذابلة أغصانها.. الملائك على حالّ من الّذلّ، قد خشعت أصواتها، وانحنت رؤوسها، وخنست أجنحتها[1]!

وما هو إلا قليل حتى يتنزّل الربّ الجليل، في ظُلل من الغمام والملائكة.. فيُسلّم على أهل الوادي، يقول: «السلامُ عليكم يا أهلَ الجنّة»، فيرُدّون قائلين: اللهمّ أنت السّلام، ومنك السّلام، تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام[2]، ويُدركوا بأنّ السلامة التامّة متحقّقة لهم من جميع الوجوه، أبد الآباد.

---

(١) وهذا دأبُهم عليهم السّلام كلّما اقتربوا من ربّهم، أو تنزّلت عليهم آياته. عن أبي هريرة ﷺ قال: إن نبي الله ﷺ قال: «إذا قضى اللهُ الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها؛ خضعانا لقوله، كأنّه سلسلة على صفوان، فإذا ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ قالوا للذي قال: ﴿ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾» (أخرجه البخاري، ج٦/ ص٢٧١٩).

(٢) مصداقَ ما أخبَرهم به سبحانه عن حالهم إذا دخلوا الجنّة، بقوله: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ۝٥٧ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٧ – ٥٨]. وقد نهى النّبي ﷺ عن قول: السّلام على الله، فقال: «لا تقولوا السّلام على الله؛ فإنّ الله هو السّلام» (أخرجه البخاري، ج١/ ص٢٨٧). قال ابن حجر في سبب النّهي: لأنّ ذلك عكس ما يجبُ أن يُقال؛ فإنّ كلّ سلام ورحمة له ومنه سبحانه، وهو مالكها ومُعطيها.. وهو سبحانه المرجوعُ إليه بالمسائل، المُتعالي عن المعاني المذكورة، فكيف يُدعى له وهو المدعوّ؟ والسّلام اسم من أسمائه سبحانه، وهو السّالم من النقائص، ومن كلّ آفةٍ وعيب. (بتصرّف من فتح الباري، ج٢/ ص٣١٢).



ثم يبدأهم الرّبُّ الجليل بالحديث، يقول: «يا أهلَ الجَنّة»، فيقولون: لبّيْك ربّنا وسَعديك، والخيرُ في يديك، فيقول: «هل رضيتم؟» فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربّ، وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحدًا من خلقك؟! فيقول: «ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟» فيقولون: يا ربِّ، وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك؟ فيقول: «أُحِلّ عليكم رضواني.. فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»(١).

فيا له من موقفٍ مَهيب.. تحارُ عنده الأفهام، وتكَلّ الأقلام، ويعجَز عن تصويره البيان. فإذا اطمأنّت نفُوسُهم بلقاءِ حبيبهم، أخذ يسألهم جلّ جلاله عن رغَبَاتِهم وأمنياتهم، فيقول: «تريدون شيئًا أزيدكم؟» فيقولون: «ألم تبيّض وجوهنا؟ ألم تُدخلنا الجنّة؟ وتنجّينا من النار؟»(٢).

ولا أحبّ إلى الرَّبِّ الجليل سبحانه من المدح والثناء، وما من منبر للتمجيد والتحميد أشرفُ من منبرٍ يوضع في هذا اليوم العظيم! وممن يحظى بهذا الشرف نبيُّ الله داود عليه الصلاة والسلام. عن مالك بن دينار في قول الله جلّ جلاله: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ قال: إذا كان يوم القيامة أُمِر بمنبرٍ رفيعٍ فوُضِع في الجنّة، ثم نُودي: يا داودُ، مّجدني بذلك الصوتِ الحَسَن الرَّخيم الذي كنتَ تمجّدني به في دار الدنيا. قال: فيستفرغُ صوتُ داود جميع نعيم أهل الجنان، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾(٣).

---

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٣٩٧)، ومسلم، (ج٤/ ص٢١٧٦).

(٢) أخرجه مسلم عن صهيب، (ج١/ ص١٦٣).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنّة بسند حسن، ح٣٤٣/ ص٢٢٩. وهو في مسند أبي عوانة، (ج٢/ ص٤٨٢)، وذكره ابن القيم في حادي الأرواح، (ج١/ ص١٧٦). وقال الألباني: ضعيف جدًا، (ضعيف الجامع، حديث ٢٢٤٠).

فإذا حاوَرَهم ربُّهم وحاوروه، وسألهم فأجابُوه؛ ثم أنصتوا للتّمجيد والتّحميد والثناء، بقلوب يملؤها الحبّ والشوق والحياء، بُسطت بين أيديهم مأدبة الخُلد التي لا أفخم منها ولا أعظم!

فإذا فرغوا من الطعام والشراب، دارت عليهم تُحَفُ الرّحمن.. من الثياب والحُليّ واللطائف التي لم ترها عينٌ من قبل! عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنّ أهل الجنّة إذا اجتمعوا أمرَ اللهُ تبارك وتعالى داود عليه الصّلاةُ والسَّلام فيرفع صوته بالتسبيح والتهليل، ثم توضع مائدة الخُلد. قالوا: يا رسول الله، وما مائدةُ الخُلْدِ؟ قال: «زاويةٌ من زواياه أوسَعُ ممّا بين المشرق والمغرب، فيُطْعَمون ثم يُسْقَون ثم يُكْسَون»[1].

فإذا نالهم من كريم الوفادة فوق ما يأملون، بادرهم الجليلُ بالإكرامِ الذي عَوّدَهم، فيقول: «سَلُونِي.. فهذا يُومُ المَزيْد»، عندها يُلجمهم حجابُ الأدبِ عن مزيد الطلب، وينظروا بعينِ الامتنانِ إلى قديمِ الإحسان، فيقولوا: إنّا قد رضينا، فارض عنّا، فيقول لهم: «يا أهل الجنة.. لو لم أرض عنكم لم أُسْكِنْكُم جنتّي، فهذا يومُ المزيد، فسلوني» فيجتمعون على كلمة واحدة: أرِنا وجهك ننظر إليه، فيكشفُ اللهُ تبارك وتعالى الحُجُب بينهم وبينه، ويتجلّى لهم عياناً بصورته المقدّسة العليّة، «فما أُعطوا شيئاً أحَبّ إليهم من النَّظر إلى ربّهم عزّ وجَل»[2].

---

(١) ذكره بن القيم رحمه الله في حادي الأرواح، (ج١/ ص١٨٥) وعزاه إلى أبي نعيم من حديث علي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم، عن صهيب، (ج١/ ص١٦٣).



فإذا أشرق نورُه جلّ جلاله على أهلِ الوادي.. أسْفَرَت وجُوهُهم، وخَشَعت قُلوبُهم، وشَخَصت أبصَارُهم.. ذاهلةً برؤيته عن كلّ ما سواه!! فلا تسل عن إشراقِ البُقعَة المقدّسة بنورِ الرّحمَن، ولا عن اللذّات التي يحصّلها المتّقون في أسعد لحظات الزمان.. لذّاتٌ تنغمسُ فيها رغائبُ الأرواحِ والقلوب، وتزداد فيها نضارةُ الوجوهِ وعافيةُ الأبدان!! عن حذيفة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله إذا صيّر أهل الجنة إلى الجنّة، وأهلَ النّار إلى النّار ليس ثمّ ليلٌ ولا نهار، قد علمَ الله عزّ وجلّ مقدار تلك الساعات. فإذا كان يومُ الجمعة، في وقت الجمعة التي يخرج أهل الجمعة إلى جُمعتهم، قال: فيُنادي منادٍ: يا أهلَ الجنّة اخرُجوا إلى دارِ المزيد، فيخرُجون في كُثبان المسك[1]، فإذا قعدوا، وأخذ القومُ مجالسهم، بعث الله عليهم ريحاً تُدعى الُمثيرة، فتُثير عليهم المسكَ الأبيض، فتُدخله في ثيابهم، وتُخرجه من جيوبهم، فالريحُ أعلمُ بذلك الطيب من امرأة أحدكم، لو دُفع إليها طيبُ أهل الدنيا، ويقول الله عزّ وجلّ: «أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب، وصدّقوا رُسُلي ولم يَروني؟ سَلوني.. فهذا يومُ المزيد». فيجتمعون على كلمة واحدة: إنّا قد رضينا، فارض عنّا، ويرجعُ إليهم في قوله لهم: «يا أهلَ الجَنَّةِ.. لو لم أرض عنكم لم أُسْكِنْكُمْ جَنَّتِي، فهذا يومُ المزيدِ، فسلوني» فيجتمعون على كلمة واحدة: أرنا وجْهَكَ ننظر إليه. قال: فيكشفُ اللهُ تبارك وتعالى الحُجُبَ، ويتجلّى لهم سبحانه، فيغشاهم من نوره، لولا أنّ الله قضى أن لا يموتوا لاحترقوا. ثم يقال لهم: «ارجعوا إلى منازلكم»،

---

(١) قال حذيفة ﵁، راوي الحديث: واللهِ لهو أشدُّ بياضاً من دقيقكم.

فيرجعون، وقد خَفُوا على أزواجهم، وخَفِين عليهم؛ مما غشيهم من نوره تبارك وتعالى!! فلا يزال النّور يتمكّن حتى يرجعوا إلى حالهم، أو إلى منازلهم التي كانوا عليها، فيقولُ لهم أزواجُهم: لقد خرجتم من عندنا بصورةٍ ورجعتم إلينا بغيرها؟! فيقولون: تجلّى لنا ربُّنا عزَّ وجَلّ، فنظرنا إلى ما خفينا به عليكم. قال: «فهم يتقلّبون في مسكِ الجنّة ونعيمَها، في كُلِّ سَبْعَةِ أيَّام، وهو يومُ المزيد»(١).

أكمل اللّذات!

وكلّ ما يتعرّض لنور الرّحمن لحظة التجلّي يُصيبه النّعيمُ.. أبدانُهم، ووجوهُهم، وأرواحُهم، وقلوبُهم، وسائرُ أعضائهم! وكلّ لحظةٍ من لَحَظَاتِ النّظر إليه سبحانه نعيمٌ بحدّ ذاتها، لم يجد أهلُ الجنّة مثلها مُنْذُ دخلوا الجنّة.. تنسى بها الأرواحُ كلَّ بؤسٍ وشقاء، والأجسادُ كلَّ سَقَمٍ وعناء؛ فكأنّها في رغَدٍ دائمٍ لم تُكدّره شدّةٌ قطّ، ولم تنزل به كُربَةٌ قطّ! بل اللذّات الكريمة الماضية في الدّار البهيجة العالية تنغمس بمكنون هذه اللذّة الغالية، حتى لكأنّهم ما عرفوا حقيقة النّعيم إلا السّاعة!! فما القصورُ بغُرَفِها وتُحَفِها وأرائِكِهَا؟! وما الرّوضاتُ بمُرُوجِهَا وأشجارِها وحدائِقها؟ وما المشاربُ والطعامُ؟! وما المراكبُ والحورُ والخيامُ؟! وأين الأنهارُ الجارية، والغُرفُ البهيّة العالية في جَنْبِ اللذّة التي تكتنِفُهم هذه السّاعة؟! وهل نعيمٌ أعظمُ ممّا يجدون؟! أو فرحةٍ وسعادةٍ فوقَ ما يشعرون؟! إنّها غايةُ حياةِ الأرواح، ولذّةُ القلوب والأبدان. قال الله جلّ جلاله يصفُ حالَ السّعداء في هذه اللحظة الخالدة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٢ - ٢٣]. قد

---

(١) أخرجه البزار في مسنده عن الأعمش عن وائل عن أبي حذيفة، (ج٧/ ص٢٨٩).



كساها نُورُ ربِّها الحُسنَ والنُّعومَةَ والصَّفاءَ، وعَلَاها الإشراقُ والبهاءُ! فإذا كانت غمسةٌ واحدةٌ في نهرِ الحياةِ على أبواب الجنّة تُنسي العُتقاء والطّلقاء شقاءَ الدّنيا، وتكسوهم بهجةَ الأرواحِ، ونضارةَ الوجوهِ وقوّةَ الأبدانِ.. فكيفَ بهم في هذه اللحظة، وكلُّ جزءٍ منهم يتنعّم باللذّة الكبرى، وينغمِسُ في أرفع مراتب النعيمِ وأغلاه؟!

ورؤية الله تعالى في يوم المزيد لها خصوصيتها من كلّ وجه؛ وإلا فالمتّقون يرون ربّهم قبل ذلك.. لقد رأوه جلّ جلاله على عرصات القيامة[1]، ولم تكن لحظة أعظم وأكرم من تلك الرؤية التي أزالت الخوفَ عن قلوبهم، والعناءَ عن أجسادِهم.. وهوّنت عليهم الأهوالَ الصّعاب، بعد رهبةِ الترَقّبِ، والفِرارِ بالنَّفْسِ من الوالدةِ والولد، والعِشرة والمدد.

ونعيمُ الجنّة.. في ذاته ولذّاته، يسعُ أهلها أجمعين؛ على اختلاف أعمالهم ومنازلهم، والجزاءُ فيها من جِنس العمل؛ فمن آمن بالغيب، ووفَى لمولاه، وأحبّه وإن لم يكن يراه، وافاه مَولاهُ يومَ المزيد بالجزاءِ الأكملِ الذي لا محيدَ عنه، ورفعَ الحجابَ بينه وبينه، وتجلّى له، وحاوره حِوارَ محبّةٍ ورحمة! ومن أقام على طاعته سبحانه، ولم يتحوّل عنها حتى يلقاه، وافاه مولاه بالنّعيم المقيم الذي لا يتحوّل عنه أبداً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧ - ١٠٨].

---

(١) قال الله تعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] أي: عن رؤيته سبحانه يوم القيامة، في حين يراه المؤمنون عياناً.

والجليل سبحانه عليمٌ كريم؛ من نصَبَ لهُ بدَنَه في طاعته، وسَجَد له وجهُه لمحبّته، وخشع قلبُه لعظمته، وافاه من جميل الجزاء فوق ما كان من قليل العمل، والموعدُ يومَ المزيد.. الذي يتفضّل فيه الرّب على عباده؛ فيُغدق عليهم من أعطيات الكرامة ما يريح أبدانهم، ويكسو بالنّضارةِ وجوهَهَم، ويسكب اليقينَ والأمانَ على قلوبهم.

ورضوانُ ربّ العالمين أعظمُ منازل النّعيم وأرفعها! بل أعظم من الجنّة ذاتها؛ لأنّ الجنّة، بكلّ ما فيها، إنّما تُطلب، ويحلو النّعيم فيها برضوانه جلّ جلاله! قال سبحانه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[التوبة: ٧٢]، أي: رضوان الله تعالى أجلّ وأعظم ممّا هم فيه من النعيم! ولذا ناسب أن يذكّرهم سبحانه في هذا اليوم العظيم بما تفضّل به عليهم في لحظات السعادة الأولى، حين تلقّاهم على أبواب الجنّة وبادرهم بالسلام، وخاطبهم بلسان المحبّة والإكرام، ووعدهم بأن يُعطيهم أعظمَ ما يحلو به المُقام في دار السلام، بقوله: «ألا أُعْطِيكُم أفضلَ من ذلك؟» «أُحِلّ عليْكُم رِضْواني، فلا أسْخَطُ عليكم بعدَه أبدًا»(١). عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنّة الجنّة يقول الله عزّ وجلّ: هل تشتهون شيئًا فأزيدكم؟ فيقولون: ربَّنا، وما فوق ما أعطيتنا؟ فيقول: رضواني أكبر»(٢).

واللهِ لولا رؤيةُ الرّحمنِ في الـ جنّاتِ ما طابت لذي العِرْفان

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٥/ ص٢٣٩٧)، ومسلم، (ج٤/ ص٢١٧٦).

(٢) أخرجه الحاكم، (ج١/ ص١٥٦) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وأخرجه ابن أبي الدنيا في صفة الجنّة بسند صحيح، (ص١٠٠).



أعلى النّعيم نعيمُ رؤيةِ وجهه وخطابِه في جنّة الحَيَوان

وأشدّ شيءٍ في العذاب حِجابُه سُبحانَه عن ساكني النيران

وإذ رآه المؤمنون نسوا الذي هُم فيه مما نالت العينان

فإذا توارى عنهمُ عادوا إلى لَذَّاتِهم مِن سائر الألوان

فلهم نعيمٌ عند رؤيته سوى هذا النَّعيمِ فحبذا الأمران[1]

ولحظاتُ التجلّي الإلهي أسعدُ لحظاتِ العُمُر وأغلاها، لا حساب فيها للزمن بين السعداء؛ حيث يتمنّى كلّ أهل الوادي أن لو طالت مُدّة التجلّي وامتدّت لتشمل سائر أيّامهم في الجنّة! عن محمّد بن علي ﵁ قال: إذا أسْفَرَ الرَّبُّ عن وجهه الكريم، وتجلّى لهم في عظمته العظيمة، فقالوا: رَبَّنَا أنت السَّلامُ، ومنك السَّلامُ، ولك حقّ الجلال والإكرام، فقال لهم ربهم تبارك وتعالى: «إنّي السَّلامُ، ومني السَّلامُ، وليَ حَقّ الجلالِ والإكرام.. مرحبا بعبادي الذين حَفِظوا وَصيتي، ورعوا عَهدي، وخافُوني بالغيبِ، وكانوا مِنّي على كُلِّ حالٍ مُشفقين»، فيقولون: وعِزّتِكَ وجَلالك، وعُلوِّ مكانك.. ما قَدَرنَاكَ حَقّ قَدْرك، وما أدّينا إليكَ كُلَّ حَقّك، فائذن لنا بالسّجود لك، فيقول لهم ربّهم تبارك وتعالى: «إنِّي قد وضعتُ عنكم مَؤنَةَ العبادة، وأرَحتُ لكم أبدانكم، فلطالما أتعبتم ليَ الأبدان، وأعنيتُم ليَ الوُجوهَ، فالآن أفْضَيْتُم إلى رَوْحي ورحمتي، وكرامتي.. فاسألوني ما شئتم، وتمنّوا عليّ أُعْطِكُم أمانيّكم، فإني لن أجزيكم اليومَ بقدر أعمالكم، ولكن بقدر رحمتي وكرامتي وطَوْلي وجلالي، وعلوّ مكاني وعظمة شأني».

(١) الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم رحمه الله، (ج٣/ ص٣٦٤).

فلا يزالون في الأمانيّ والعطايا والمواهب، حتى إن المقتصر من أمنيّته ليتمنّى مثلَ جميع الدّنيا منذ خلقها الله عزّ وجلّ إلى يومِ أفناها، فقال لهم ربهم عزّ وجلّ: «لقد قصّرتم في أمانِيِّكُم ورضيتم بدون ما يَحِقُّ لكم، فقد أوجبتُ لكم ما سألتُم وتمنّيتم، وألحقتُ بكم ذرّيتكم وزِدتُكُم ما قَصُرَت عنه أمانيّكم»(١).

فإذا سمعوا هذا الخطاب الكريمَ من الرّبِّ الرّحيم تحسّروا على ضياع الأوقات وعدم المسارعة بالخيرات في دار الغَفَلات. عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس يتحسّر أهل الجنّة، إلا على ساعةٍ مرّت بهم لم يذكروا الله فيها»(٢). لكنّ الحسرة لا تدوم في بلاد الأفراح، وبخاصّة حين يتذاكرُ أهلُها ما أولاهم ربّهم من الفوزِ العظيم والنّعيمِ المُقيم، وأنّهم لولا رحمَته لكانوا من الضالين، قال تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[آل عمران: ١٨٥].

حِجَابُ النُّوْرِ!

الحوار الإلهي في يوم المزيد حوارُ رحمة وإكرام، بين يدي الأمنيات الرّغيدة، وفي كنف اللذات البهيجة. وما يكون فيه من تذكيرٍ لبعض السّعداء بشيء من هنّاتهم في الدّنيا لا يخرج عن سياق التذكير بالإكرام، والتعريف بجميل الرّعاية والإنعام، بخلافِ ما دار يوم القيامة من مناقشة الحساب أو عرض الذنوب في كنف السّتر، قبل أن تحين ساعة العفو والصفح والتجاوز.

---

(١) أورده ابن رجب الحنبلي في شرح حديث «لبيك اللهم لبيك»، (ج١/ ص٨٨) وابن القيم في حادي الأرواح، (ج١/ ص١٨٦) وقال رحمه الله: لا يصح رفعه إلى النبي، وحسبُه ان يكون من كلام محمّد بن علي رحمه الله.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، (ج٢٠/ ص٩٣).



والفارق كبير بين: الإقرار على سبيل المحاسبة، أو العرض على وجه العفو والصّفح، وبين التذكير على كنف المحبّة والرّضى والإحسان. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدنى المؤمنُ يومَ القيامة من ربِّه عزَّ وجَلَّ، حتى يضع عليه كَنَفَه، فيقرّره بذنوبه، فيقول: «هل تعرف؟» فيقولُ: أيّ ربِّ أعرف، قال: «فإنّي قد سترتها عليك في الدّنيا، وإنّي أغفرها لك اليوم»، فيُعطى صحيفةَ حَسَناته. وأمّا الكفّار والمنافقون، فيُنادى بهم على رؤوسِ الخلائق: «هؤلاء الذين كذبوا على الله»[(١)].

والنّظر إلى وجه ملك الملوك سبحانه لذّة يجد المتّقون أثرها في أرواحهم وأجسادهم؛ وبها تتحقّق أعلى مراتب الكمال الرّوْحَانيُّ وأسمى هيئاتِ الحُسْنِ والجمال الظّاهر؛ ولا يصل إليها إلاّ المتّقون في دار الخلود، عندما يتجلّى الجليلُ لهم؛ فيرونه عياناً بدون حجاب، وتكسوهم النضارة ويعلو وجوههم البهاء، ويغمر قلوبهم شعور العزّة والكرامة، والفخر والعظمة[(٢)]. قال الله عز وجل: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾[يونس: ٢٦]، فالحسنى: الجنّة، والزيادة: النّظر إلى وجه الله تعالى.

وقليلٌ من يُكرمهم الله تعالى بحوار التّكريم والإنعام، والفضل والإحسان، قبل يوم القيامة، ومنهم الشّهداء في سبيل الله تعالى[(٣)]، إذ ورد

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٧٢٥، ومسلم، (ج٤/ ص٢١١٨).

(٢) بخلاف ما اعتاد أهل الدّنيا تقديمه عند رؤية سادتهم وكُبرائهم، من الذّل والخوف قُبيل اللقاء، وأحوال المهانة في الذّات والصّفات، وغلبة التملّق والنّفاق حال المحاورة والطلب.

(٣) وهذه من جملة الكرامات التي يحظى بها الشهيد، وما أكثرها! عن المقدام بن =

أنّ منهم من يحاوره ربّه حوار الكرامة بعد الموت مباشرة، كِفاحـًا ليس بينه وبينه حجاب، ومن هؤلاء عبدالله بن عامر بـن حـرام، فعـن جـابر ﷺ قـال: لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: يا جابر، ما لي أراك منكسراً؟ قلتُ: يا رسول الله استُشهد أبي، قُتل يومَ أحُد، وترك عيـالاً وديـنـًا، قـال: «أفـلا أبشّـرك بما لقي الله به أباك؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «ما كلّمَ الله أحداً قطّ إلاّ من وراء حجـاب، وأحيـا أبـاك فكلّمـه كِفاحـًا»، فقـال: «يـا عبـدي تمـنّ علـيّ أعُطِكَ»، قال: يا ربّ تُحييني فأُقتل فيك ثانية، قال الرّبّ عزّ وجلّ: «إنّـه قـد سبق منّي: أنهم إليها لا يُرجعون». قال: وأُنزلت هذه الآيـات: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١][(١)].

= معد يكرب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ستّ خصال: يُغفر لـه في أوّل دفعة، ويرى مقعده من الجنّة، ويُجار من عـذاب القـبر، ويـأمنُ مـن الفـزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاجُ الوقـار.. الياقوتـةُ منهـا خيرٌ مـن الـدّنيا ومـا فيهـا، ويزوّج اثنتين وسبعين زوجـة مـن الحـور العين، ويشـفعُ في سبعين مـن أقاربـه» (أخرجه الترمذي في سننه، ج٤/ ص١٨٧ وقال: حديث حسن صحيح غريب).

(١) أخرجه الترمذي، (ج٥/ ص٢٣٠). وعن جابر ﷺ قال: قُتِل أبي يوم أحد، فبلغني ذلك، فأقبلتُ فإذا هو بين يدي النبي ﷺ مُسجّى، فتناولـتُ الثّوب عـن وجهـه، وأصحاب رسول الله ﷺ ينهوني؛ كراهية أن أرى ما به مـن المُثلـة، ورسـول الله ﷺ لا ينهاني. فلما رُفع قال رسول الله ﷺ: «ما زالت الملائكة حافّة بأجنحتها حتى رُفِع» ثمّ لقيني بعد أيّام فقال: «أي بنيَّ، ألا أبشّرك؟! إنّ الله تعالى أحيا أبـاك، فقـال: تمنّـه» فقال: أتمنّى يا ربِّ أن تُعيد روحي، وتردّني إلى الدّنيا حتى أُقتَل مرّة أخرى. قال: «إنّي قضيت أنهم إليها لا يرجعون». (صفة الصفوة ج١/ ص٤٨٧).



فإذا كان هذا شأنُ الشهيدِ قبل يوم القيامة، فكيف يكون حالُه وقد تُوِّج بتاج الوقار، ثم وافى ربّه في هذا اللقاء السعيد؟! وأيّ كرامة في حوار الإنعام سيحظى بها في يوم المزيد؟!

وكشفُ الحجاب: رفع الموانع والحوائل عن أبصار أهل الجنّة حتى يروا ربّهم بأعينهم، ويُبصروه جلّ شأنه بصفات العظمة والجلال، والبهاء والكمال، والرِّفعة والجمال. فهو حجابٌ في حقّهم، لا حقّه سبحانه؛ لأنّ الله تعالى منزّه عن أن تُدْرَكَ عَظَمَتُهُ أو يَحجبه أو يُحيط به شيء من مخلوقاته.

وحجابُه عزّ وجل النّور، وهو رداءُ الكبرياء الذي أخبر عنه رسول الله ﷺ بقوله: «جنّتانِ من فضّة.. آنيتهما وما فيهما، وجنّتان من ذهب، آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبِر على وجهه، في جنّة عدن»[1].

وهذا الرداء هو الذي اختص الله عز وجل به نفسه، دونَ سائرِ خلقه، وهو الذي يحولُ بينهم وبين رؤيته؛ تعظيماً له ومهابةً وإجلالاً. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ فيما يحكي عن ربِّه عزَّ وجَلَّ، قال: «الكِبرياءُ رِدائي، فمن نازعني ردائي قَصمتُه»[2]. وفي رواية: يقول الله سبحانه: «الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيتُه

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٤/ ص١٨٤٨).

(٢) أخرجه الحاكم، (ج١/ ص١٢٩)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه بهذا اللفظ، إنّما أخرجه مسلم من طريق الأغر عن أبي هريرة بغير هذا اللفظ.

في النَّـار»(١). وعـن أبـي موسـى رضي الله عنه قـال: قـام فينـا رسـول الله صلى الله عليه وسلم بخمـسِ كلمـاتٍ، فقـال: «إنّ الله عـز وجـلّ لا ينـام، ولا ينبغـي لـه أن ينـام. يخفِـضُ القِسط ويرفعه. يُرفع إليه عملُ الليلِ قبل عملِ النهار، وعملُ النَّهار قبلَ عملِ الليل. حجابُه النّور «وفي رواية: النّار» لو كشفه لأحرقَت سُبُحاتُ وجهه(٢) ما انتهى إليه بَصَرُه من خلقه»(٣).

فإذا ابتهجت قلوب السعداء وأرواحهم، وأسفرت وجوههم من لـذّة النظر إلى ربّهم، أخذ سبحانه يتلقّاهم ويحادثهم، واحدًا واحدًا.. يحاورُ كلّ سعيد بمفرده؛ يناديه باسمه، ويناجيه بحديث مودّة لا يشاركه فيه سواه، ثم يسأله أن يطلبَ ما شاء من النّعيم.. له ولمن ترك وراءه! عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما مِنكُم من أحدٍ إلا سَيُكلِّمُه رَبُّه، ليس بينه وبينه تُرجمان، ولا حجاب يحجبه»(٤).

وما في لحظات المناجاة الإلهية لكلّ واحدٍ منهم طولَ قيام على سائر السّعداء؛ لأنّها تَسَعُهُم أجمعين.. في وقتٍ واحد؛ فحديثُه جلّ شأنُه معهم جميعـًا كحديثه مع نفس واحدة، بكيفية لا يعلمها إلا هو سبحانه، كما كان

---

(١) أخرجه ابن ماجه عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، (ج٢/ ص١٣٩٧).

(٢) سُبُحاتُ وَجْه الله تعالى: أَنْوَارُه وجلالُه وعَظَمَتُه.. قال ابن شُميل: سُبُحاتُ وَجْهه: نُورُ وَجْهِه. وقيل: سُبُحاتُ الوَجْهِ: مُحاسنُه لأَنّك إذا رأَيتَ الحَسَنَ الوَجْهِ قلتَ: سبحانَ اللهِ. وقيل: معناه: تَنْزيهـًا له أَي سُبحانَ وَجْهِهِ. (تاج العروس، ج ١ / ص ١٦١٨).

(٣) أخرجه مسلم، (ج١/ ص١٦١).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج٦/ ص٢٧٠٩)، ومسلم، (ج٢/ ص٧٠٣).



عليه ابتداءُ خلقِهم وبعثِهم، وشواهدُ ذلك من كتاب الله تعالى وسنّة نبيّه ﷺ كثيرة لا تُحصى، قال تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾[لقمان: ٢٨]، أي: ربُّكُم سُبحانه سميعٌ لأقوالكم جميعًا، بصيرٌ بأفعالكم جميعًا في وقت واحد، كَسَمْعِه وبَصَره بالنسبة إلى نفسٍ واحدة منكم[1]! وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾[الأنعام: ١٠٢ - ١٠٣].

لذّةُ التَّسْبيحِ والحَمْدِ والثناء:

أهلُ الموقف، في يوم اللقاء الخالد، لا ينقطعُ حُبُورُهم، فهم بين لذيذ النّظر، وجميلِ المحاورة، وبهجة الأمانيّ والأعطيات. والله الجليل يتحبّب إليهم، ويسألهم أن يسألوه! ثم يُنيلهم من النّعيم فوقَ ما يأملون، ويكسوهم من السّعادة والبهجة فوق ما يشتهون، ويُفيضُ على أرواحهم الرِّضى والأمان، والكرامَة والإنعام! فلا يجدون أفضل من التّسبيح والثناء والحمد!

والتّسبيحُ عند أهلِ الجنّة من جُملة اللذائذِ الغاليةِ التي يتنعّمون بها، ومادّتُه لصيقةٌ بكُنْهِ حياتهم، وجوهر ذواتهم، ولذّته مركّبة في قلوبهم، كما

---

(١) قال الإمام السّعدي رحمه الله: وهذا شيء يحيّر العقول: أنّ خلقَ جميع الخلق، على كثرتهم، وبعثهم بعد موتهم، بعد تفرّقهم.. في لمحةٍ واحدةٍ، كخلقه نفسًا واحدة! فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور، والجزاء على الأعمال إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته! ولذا ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات، وبصره لجميع المبصَرات فقال:(إنّ الله سميع بصير). (تفسير السعدي، ج١/ ص٦٥١).

رُكّبت لذّات الحواس الظاهرة في أجسادهم: لذّات السمع والبصر، والذوق والشمّ واللمس! بل إنّهم ليتنعّمون بذكر الله تعالى وتسبيحه أشدّ من تنعّمهم باللذّات الظاهرة الأخرى!

وما يُفتح عليهم في لحظات التجلّي الغالية من المحامد التي لم يعرفوها من قبل محضُ تكرّم وإلهامٍ منه سبحانه، فلا يملكون، وهم يتقلّبون في لذّات الرّغد والسّعادة إلا أن يقولوا بلسان واحدٍ، مقولتَهم التي يردّدونها في مجالسهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فإذا بهم يُنادَون على إثر ذلك: ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ٤٣].

والتسبيحُ في الجنّة يجري من أهلها مجرى النّفَس، ويقومُ من قلوبهم وأرواحِهم مقامَ الطَّعامِ والشَّراب للأبدان، وبه تزدادُ أبدانُهم نُضرةً وجمالاً! وما أدقّ وصفَ رسول الله ﷺ حين أخبر عن طعام أهل الجنّة وشرابهم إذا دخلوها، وبهما قوتُ أبدانهم، ثم قرنه بتسبيحهم وتحميدهم الذي به حياة قلوبهم وأرواحهم! فعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إنّ أهلَ الجنّة يأكلونَ فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يمتخطون» قالوا: فما بالُ الطعام؟ قال: «جُشاءٌ ورشَحٌ كرشَحِ المِسك، يُلهمون التَّسبيحَ والتحميدَ، كما تُلهمون النَّفَس»[(١)].

وكما يُطاف على أهل الجنّة بكرةً وعشيّا بوجبتين فاخرتين، فيهما من صنوف الطعام والشراب، والفواكه والحلوى ما يُشبع البدن ويُرويه، فإنّ

(١) أخرجه مسلم، (ج٤/ ص٢١٨٠).



لأرواحهم وقلوبهم لحظات مخصوصة ترتوي فيها من ذكر الله تعالى وتسبيحه بكرةً وعشيًّا.. يُلهمون فيهما من الثناء والمحامد والتسابيح مالم يُفتح عليهم من قبل! وهذا من جملة ما أخفي لهم من قرّة الأرواح والقلوب، التي تزيد في لذّاتها وأنسها على لذّات الأعين والحواس. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوّلُ زُمرة تلج الجنّة صورتهم على صورةِ القمر ليلة البدر.. آنيتُهم فيها الذهبُ، أمشاطهم من الذَّهبِ والفضة، ومجامرُهم الأُلُوَّةُ، ورَشْحُهم المسك. ولكلّ واحد منهم زوجتان، يُرى مُخّ سوقهما من وراء اللّحم من الحُسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب رجل واحد، يسبّحون الله بُكرةً وعشيّا»[1].

وأهل الجنّة يقرؤون القرآن الكريم كذلك!! وهو عندهم من جملة اللذات التي تقوم مقامَ القوت للأرواح؛ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نمتُ فرأيتُني في الجنّة، فسمعتُ صوتَ قارئ يقرأ، فقلت: من هذا؟! قالوا: حارثة بن النعمان. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كذلك البر»، وكان أبرّ النّاس بأمّه»[2].

وما أعجبَ الشّبه بين جنّة الدّنيا وجنّة الآخرة! فللمتقين في الدنيا لحظات غالية يذوقون فيها من النّعيم ما يهيّج أشواقهم لنعيم الجنان. وكم في الجنّة من تذكير للنفوس المؤمنة بأزمنةٍ وأعمالٍ، وأمكنةٍ وأحوالٍ

---

(١) أخرجه البخاري، (ج٣/ ص١١٨٣)، ومسلم، (ج٤/ ص٢١٨٠).

(٢) أخرجه الحاكم، (ج٤/ ص١٦٧) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وهو في الصحيحة، (ح٩١٣).

اقترنت بلحظَات السعادة والرّاحة في الدّنيا، ويجدون بركتها ولذتها في الجنّة[1].

ومن تأمّل في النّصوص وجد التقارب كبيراً بين أزمنة العبادات هنا وأوقات اللذّات هناك، وبين ماهيّة العمل الصالح هنا، وجزاءَه الكبير هناك.. ومقابَلةُ القيامِ في الدّنيا بالرَّاحةِ في الجنّة، والصِّيامِ بالرِّيّ، والدم والآثار الكريهة المنبعثة من الطّاعات بلون المسك ورائحته، ومقابلةِ القليلِ اليسير بالعظيمِ الكثير!! وكلّ ذلك شاهدٌ على حِكمةِ الخالقِ جَلَّ شأنُه وكرمه، وكمالِ علمه وقدرته، فهو خبيرٌ.. يضعُ الأمورَ في مواضِعِها، عليمٌ بأحوالِ عباده وأعمالِهم، وإن كانت يسيرة، رحيمٌ بالسائرين إليه، ومن رحمته جعل لهم في العبادات مقدّماتِ نعيم تُذكّرهم بكمالات النّعيم في الجنّة، عن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إذا مررتم برياضِ الجَنّة

(١) كم من لذّة قلبية استشعرها التّقيّ من جرّاء سَجْدَةٍ في ظُلمةِ الليل البهيم، أو سَفْرَةٍ إلى البلد الحرام، أو وثبة من بين الصّفوف للقاء العدوّ وقت الزحام، أو وقفةِ تذكّر هيّجت في القلب استحضارَ قديم الإحسان من الكريم المنّان، ونحوها من اللذّات التي تسكُبُ على القلب من المتع واللذّات ما لا يدركه إلا العارفون؛ حتى لكأنّ السعيد في رياض جنّته الصّغرى، يطوّف في نعيم الجنّة الكبرى، يشُمّ رائحتها، ويذوق حلاوتها، ويتنعّم في رياضها! ولذا قال أحد العلماء: إنّه ليمرّ بالقلب أوقاتٌ، أقولُ فيها: إن كان أهلُ الجنّة في مثل هذا، إنّهم لفي عيش طيّب!! وقال آخر: إنّ في الدنيا جنّة، هي في الدّنيا كالجنّة في الآخرة، من لم يدخلها لم يدخل جنّة الآخرة! ولو تأمّل العاقل هذا التقابل لازداد طلبُه للجنّة وسمَت هِمّته عن دِمَنِ الأرض.



فارتَعوا» قالوا: وما رياضُ الجَنّة؟ قال: «حِلَقُ الذِّكْرِ»[1] وقال ﷺ: «ما بين بيتي ومنبري روضةٌ من رياض الجنّة»[2].

ومع أنّ السّعداء يسبحون الله تعالى في الجنّة تسبيحاً مُطلقاً في كلّ وقتٍ، على كلّ حال، إلا أنّ تخصيص التسبيح في هذين الوقتين المباركين من أوقات الجنّة.. البُكرة والعشيّ، له مكانته وفضله عند الله تعالى. وهو تسبيحُ لذّة تتنعّم به الأرواحُ والقلوب، وتقوم لذّة الرّغد فيه متزامنة مع أوقات تسبيح العبادة التي كانوا يحافظون عليها في أيام الدّنيا الخالية.

ومن شاء اللذّة في هذه الدار فليجرّب الحال الرّفيعة من كمالات السّعادة، ولْيدخُل جَنّةُ الدّنيا في يوم الجمعة، قُبيل الغروب، وهو مقيم في بلد الله الحرام.. يذكُرُ الله تعالى كثيراً، ويسبّحه أصيلاً، وقد أسند ظهره إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد الحرام، والكعبةُ بين يديه.. يتأمّل عظَمَتها، وطوافَ وفدِ الله تعالى حولَها.. قد انكسرت قلوبُهم وخشَعَت أصواتُهم، والأطيارُ من حوله تصدحُ مسبّحةً آمنةً في جنبات البيت، ثمّ ليتذكّر عندها حالَ السّعداء، وهم متكئون على الأرائك في القصورِ العالية، والخيامِ الفارهة، والنّعيمِ المقيم في جنّاتِ النّعيم، حيثُ النّسائمُ المطيّبةُ، والأطيارُ المغرّدة، والرّفاهُ الكبير الذي لا يوصف!

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي، (ج٥/ ص٥٣٢) وأحمد، (ج٣/ ص١٥٠).

(٢) هكذا لفظ الحديث، وهو متفق عليه: أخرجه البخاري، (ج١/ ص٣٩٩)، ومسلم، (ج٢/ ص١٠١٠).

ويزداد تسبيح المتّقين وتمجيدهم لربّهم كلّما تذكّروا الحالَ التي كانوا عليها في الأيّام الخالية، واستحضروا رحمة ربّهم، وحِفظه حتى أوردهم هذا النّعيم! فلا يملكون، بعد أن غمرت محبّتُه سبحانَه شِغافَ قلوبهم، وتمكّن الرّضا عنه في أرواحهم إلا أن يقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[فاطر: ٣٤ - ٣٥].

الله أكبرُ كَبيْرَاً:

ما أشبهَ حال أهل الموقفِ الأكبر يومَ المزيد، بحال أهل الموقف الأصغرِ يوم عرفة!! فاليومان مشهودان في الدّارين، وفيهما من أحوالِ القَبُولِ والإجابة، والرّضى والسّعادة، والرضوان والكرامة ما لا يخفى على أحدٍ من المتّقين. وفي الموقفين مباهاةٌ بالمتّقين، وثناءٌ على المجيء الميمون.. هناكَ من كلّ فجّ عميق.. شُعثًا، غُبراً، ضاحين، وهنا من كلّ نُزُلٍ رغيدٍ.. على مواكب الرّفاه.. فرحين، مُكرمين! عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ في أهل عرفة: «إنّ الله عز وجل ينزل إلى السماء الدّنيا فيقول: انظروا إلى عبادي جاؤوني شُعثاً غُبراً، اشهدوا أنّي قد غفرت لهم ذنوبهم»[(١)]. فكأنّ السّعيد وهو قافلٌ إلى ركائبه في سوق الجنّة، مُحرمٌ وافى المَشْعَرَ الحَرَام، صبيحةَ عيدِ الأضحى، ثمّ شَرَع صوبَ البيتِ العتيق للتحلّل الأكبر، بعد أن وافى الإكرام على صعيد عرفة، وقضى مناسكه:

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، (ج٥/ ص٢٠٦)، والحاكم في المستدرك، (ج١/ ص٦٣٥).



ولـذا تـراه محـرمـًا أبـداً ومـو ضـعُ حِلِّـه منـهُ فلـيس بِـدانِ
يبغـي التمتـع مُفـردا مـن حُبِّـه متجـرّداً يبغـي شـفيعَ قـران
ويظلّ يسعى دائمـًا حول الصفا ومحسّـرٍ مسـعاه لا العَلَمـان
ويروم قُربانَ الوصال على مُنى والخيـفُ يحجُبـه عـن القـربان
فيظـلُّ بالجمـرات يرمـي قلبَـه هـذي مناسـكُهُ بكـل زمـان
والنّاس قد قضَّوا مناسكِهم وقد حثُّوا ركـائبهم إلـى الأوطـان[١]

ويا له من تقابل بديع!! ها هم المنقطعون عن أهليهم صوب بكّة.. رجالاً وركبانـًا، يفِدونَ اليومَ إلى ربّهم على النجائب! وها هي الرّواحل المُترفَةُ اليومَ تقوم مقام الضوامر، وسوافي الطيبِ والمسكِ الأذفر على أرضِ العقيق صوبَ الوادي الأفيح في جنّة عدن، تقوم مقام الشّعَثِ والغبَرِ وسوافي الطريق صوب الوادي المقدّس في البلد الأمين! وما أحظى من أجابَ نداءَ الخليل هناك بالنداء لرؤية الجليل هنا.

ألا ما أسعد الأرواح الرّضيّة في الدّارين! تلك.. برؤية أعظمِ أثر يدلّ على بلاد الأفراح وتقبيله، وهذه لرؤية أعظم نعيمها والانغماس فيه!

---

(١) يعبّر ابن القيم رحمه الله في نونيته عن شوق المؤمن المحبّ لمحبوبتيه مكّة المكرّمة.. جنّة الدّنيا، وبلادِ الأفراح يوم القيامة؛ فتراه يحدوه الوجدُ وهو في طريقه، وهذا مقصوده من التعبير بالتّمتع والقران والوصال. أمّا الجمراتُ فجمراتُ عشق القلب للمحبوب. فإذا انتهت مناسك الحج هنا، فمناسك السّائر إلى الجنّة لا تزول، والمؤمنُ دومـًا في حال شوق وعشق وغرام، وهو لا يزال محرمـًا عن كلّ ما يقطعه عن محبوبته.. الجنّة، حتى يُسلّم ويصل إليها، وذلك يوم فرحته، وتحلّله الأكبر.

ويا لله ما أكرمَك وأعظمَ مِنَنَك! تتحبّبُ إلى عبادِك فتدعُوهُم إليكَ في الدّارين، ثمّ تتجلّى لهم هنا، وتتنزّل عليهم هناك، والفضلُ لك في الأولى والآخرة!! فأيُّ قلبٍ يصبر عنك؟! وأيُّ لسانٍ يُطيقُ هجرك؟! وأيُّ روحٍ تحيا بغير ذكرك؟!

ألا هنيئاً لكم يا أهل الموقف هذا النّزلَ الكريم، بعد أن قطعتم أيام العناء الطويل بالصبر الجميل، وحقّقتم المأمول بمكابدة ليالي الشتاء، وظمأ الهواجر، وحفظ الحقوق، واجتناب المحارم، ها أنتم توافون ربّكم يوم المزيد، فيتلقّاكم مرحّباً ومباهياً، ويناديكم نداء المحبّ الشكور، العليم بما في الصدور: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[الإنسان: ٢٢].

ولا أحبَّ إلى الملائكةِ الكرامِ، بعد حبِّ الله تعالى، ممن يحبُّه الله عزَّ وجلَّ! ولا أكرمَ عندَهم ممن يُكرمه سبحانه، ويرضى عنه! ولذا تجدُهم يستقبلون أهلَ الموقفِ، بعد لحظة التجلّي، بالسَّلامِ والبِشارة.. كأنّهم إنّما ذاقوا نعيم الجنّة للتوّ!! يهنّئونهم بما أنالهم الجليلُ سبحانه من كريمِ الشَّرَفِ والوِفَادة، ويباركون سعيهم في الدّار الخالية، يقولون: طابَ اليومَ مثواكُم يا أهل الجنّة، بعد أن طابت أعمالُكم في الدّنيا.. هنيئاً لكم رضوان ربّكم، وهنيئًا لمن خلفّتم وراءكم من أهليكم! لا أسعد منكم اليومَ ولا أبرك، ولا أهنأ ولا أوفرَ حظّاً.. لا خوفٌ عليكم بعد اليوم، ولا أنتم تحزنون!

فإذا عاين أهل الموقف هذا النّعيم من الرّب الرّحيم، وسمعوا البشارة من الملائكة الكرام ازدادوا في منازل الحُبُور حُبوراً، ومع النّعيم لذّةً وسروراً، ولَهَجَت ألسنتُهم بالحمد والثناء.



لذّةٌ لا تنقطع!

الوجوهُ المُسفرةُ في هذه اللحظات نَضِرةٌ، ضاحكةٌ مستبشرة، مرفّلة ببهاء الزِّينةِ وعبَقِ الطِّيب وانشراح الصّدور.. قد نالها الرّضى والرضوان، والنّعيم الدائم في روضاتِ الجِنان.

ولذّة النظر إلى الربّ الرحيم دائمةٌ متّصلةٌ، وهي بحسب مراتب أهل الجنّة وشرفهم، وعملهم الصالح، فمنهم: من ينظره كلّ يوم بكرةً وعشيّاً، ومنهم من ينظر كلّ جمعةٍ مرّةً واحدة. فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر الذي ليس كمثله شيء. فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النّعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم، فازدادوا جمالاً إلى جمالهم(١).

والصّالحون من أهل الدّنيا يحدوهم الشوقُ لهذا اليومِ العظيم، ويسألونَ ربّهم لذّة النظرِ إلى وجهه، والاجتماعِ بصفوة خلقه، من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين. عن سعيد بن المسيب رحمه الله أنّه لقي أبا هريرة ﵁ فقال له أبو هريرة: أسألُ الله أن يجمع بيني وبينك في سوقِ الجنّة، قال سعيد: أوفيها سوقٌ؟ قال: نعم، أخبرني رسول الله ﷺ: «أنّ أهل الجنّة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضلِ أعمالهم، فيؤذَنُ لهم في مقدار يومِ الجمعة من أيّام الدّنيا، فيزورونَ الله عزّ وجل، ويبرُزُ لهم عرشُهُ، ويتبدّى لهم في روضة من رياض الجنّة، فتوضَع لهم منابرُ من نور، ومنابرُ من لؤلؤ، ومنابرُ من ياقوت، ومنابر من زَبَرجَد(٢)، ومنابرُ من ذهب، ومنابرُ

---

(١) تفسير السعدي، (ج١/ ص٩٠٠).

(٢) الزبرجد من الجواهر، وهو الزُّمُرّد، واحدته زُمُرُّدة. وهو الدُّرّ المرصَّعُ بالياقوت. (لسان العرب، ج١/ ص٦٧٦).

من فضّة. ويجلس أدناهم، وما فيهم دنيء، على كُثبانِ المسك والكافور، ما يرون أنّ أصحابَ الكراسي بأفضلَ منهم مجلساً»، قال أبو هريرة: قلتُ: يا رسول الله، هل نرى ربَّنا؟ قال: «نعم، هل تتمارون في رؤية الشَّمسِ والقمرِ ليلةَ البدر؟» قلنا: لا، قال: «كذلك لا تتمارون في رؤيةِ ربكم عزّ وجلّ، ولا يبقى في ذلك المجلس أحدٌ إلا حاضَرَهُ الله عزَّ وجلَّ مُحاضرةً، حتى إنّهُ يقولُ للرَّجُلِ منكم: «ألا تذكرُ يا فلان يومَ عملتَ كذا وكذا؟» يذكرّه بعض غدراته في الدّنيا؟ فيقول: يا ربِّ، أفلم تغفر لي؟ فيقول: «بلى، فبسِعَةِ مغفرتي بلغتَ منزلتكَ هذه». فبينما هم كذلك، غشيتهم سحابةٌ من فوقِهم، فأمطَرَت عليهم طيباً لم يجدوا مثلَ ريحهِ شيئاً قطّ، ثم يقول: «قومُوا إلى ما أعدَدتُ لكم من الكرامة، فخذوا ما اشتهيتم»، قال: فنأتي سوقاً قد حَفّتهُ الملائكة، فيه ما لم تنظرِ العيونُ إلى مِثلِه، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على القلوب. قال: فيُحمَل لنا ما اشتهينا، ليس يُباعُ فيه شيء، ولا يُشترى».

وفي ذلك السوق يلقى أهلُ الجنّة بعضُهم بعضاً، فيُقبِلُ الرجلُ ذو المنزلةِ المرتفِعةِ فيلقى من هو دونه، وما فيهم دنيء، فيروعه ما يرى عليه من اللباس، فما ينقضي آخرُ حدِيثهِ حتى يتمثّل له عليه أحسن منه، وذلك أنّه لا ينبغي لأحد أن يحزن فيها.

قال: «ثم ننصرفُ إلى منازلنا، فتلقّانا أزواجنا، فيقُلنَ: مرحباً وأهلاً، لقد جئتَ وإنّ بكَ من الجمالِ والطِّيبِ أفضلَ ممّا فارقتنا عليه؟! فنقولُ: إنّا جالسنا اليوم ربَّنا الجَّبار، عزّ وجلّ، وبحقّنا أن ننقلب بمثل ما انقلبنا»[1].

(١) أخرجه الترمذي، (ج٤/ ص٦٨٥)، وابن ماجه، (ج٢/ ص١٤٤٧).



ويُظِلُّهــم إذ ذاك منــهُ ســحابةٌ	تــأتي بمثــلِ الوابــلِ الهتّــان
بينـا هــمُ في النّــور إذ غشــيتهمُ	سُــبحان مُنشــيها مــن الرّضــوان
للهِ ســوقٌ قــد أقامتــه المــلا	ئكــةُ الكــرامُ بكــلِّ مــا إحســان
فيهــا الــذي والله لا عــينٌ رأت	كــلا ولا ســمعت بــه أذنــان
كلا ولم يخطُر على قلبِ امرئٍ	فيكــون عنــه معبَّــراً بلســان
واهًا لـذا السوقِ الـذي مَن حَلَّهُ	نــالَ التهــاني كلَّهــا بأمــان
يُدعى بسوقِ تعـارفٍ مـا فيه مِن	صــخبٍ ولا غِــشّ ولا أَيمــان
وتجـارةٌ مـن لـيس تُلهيــهِ تجـا	راتٌ ولا بيــعٌ عــن الــرّحمن
أهـلُ المـروءة والفتــوَّة والتُّقـى	والــذِّكرُ للرحمــن كــلّ أوان
يا من تعوّض عنه بالسّوق الـذي	رُكِــزت لدَيــهِ رايــةُ الشّــيطان
لو كُنت تدري قدرَ ذاك السّوق لـم	تَـركن الـى سـوق الكسـاد الفـاني[1]

في كَنَف النّعيم:

فإذا قضى السّعداء من التكريم أشْرَفَهُ، ومن النّعيمِ أرْفَعَهُ، وفرغـوا مـن مراسـم الحفـاوة والوفـادة في هـذا اليـوم العظـيم.. يـوم المزيـد، والتقـوا بأحبابهم، وأعطت الملائكةُ كلّ واحدٍ منهم تحُفته التي خصّه بها الـرّحمن جلّ جلاله، توجّهوا إلى كريم النّجائب.. مُحمّلين بـأرفع التُّحَفِ والرَّغَائب، وأسنى الأمانيِّ والمَطَالِب.. تحفُّهُمُ الملائكةُ الكِرامُ، ويحْدُوهُمُ الرِّضـى والرِّضوانُ، والمناظرُ الجميلة، تحيط بهم عن اليمين والشمائل، قد ازدادت في نظرهم جمالاً عنها يوم أقبلوا عليها.

(١) الكافية الشافية (القصيدة النونية) لابن القيم رحمه الله، (ج٣/ ص٥٨٨).

فإذا شرعوا في المسير إلى أهليهم، أخذوا يُودَّعون ويودِّعون، ويسلِّمون على الأنبياء والمُرسلين، والشّهداء والصالحين، وعلى الأحباب والأصحاب.. تغمُرهم الفرحة التي لم تزل معهم، وتعلوهم النُّضرةُ والبِشرُ الذي لم يفارق وجوههم، ويتذكّرون ما كانوا يجدون في أيام الدّنيا إذا خلوا بربّهم في أوقات السحر من تاجِ الوقَارِ، الذي يُعرفون به إذا بزغ النّهار[1].

ها هم اليوم يزدادون بلقاء ربهم من كلّ نعيم، ويكتنفهم كلّ رَغد.. يظهر أثرُه في نُضْرةِ وجوههم، وزكاءِ قلوبِهم، ونعومةِ أبدانهم، وجمالِ ثيابهم، وفي الطَّيب الخالص الذي يعبق من أجسادهم وثيابهم! كيف لا، وقد انغمسوا للتوّ في أكمل لذّات النعيم الباطن، الذي يخالط قلوبهم وأرواحهم ومشاعرهم، وأكملِ لذّات النّعيم الظاهر الذي يتجلّى في أبدانِهم وثيابِهم، وفيما يصطحبونه معهم من التحف واللطائف التي لم تر مثلها أعينهم، ولم تخطر على قلوبهم؟!

فلا يروعُ أهلَ القصور المتطلّعين إلى الأفق البعيد الموصِل لسوقِ الجنّة إلا وركائبِ الوفدِ الكريم تُزاولُ في أكنافِ النّعيم، وأسرابِ المطايا تحفُّها سَحَائبُ الرَّحمة.. محمّلةً بأصنافِ التُّحَفِ والهدايا.

فإذا أقبلَ الصّارخُ بأجملِ البشائر، وحملت ريحُ الصّبا عبق الثّياب بأزكى ما تذكي المجامر، نزَل الولدانُ مستقبلين، وهبّت الحور الحسان على الشُرفات.. يلوّحن للقادم السعيد.. من بعيد.

---

(١) قيل للحسن: ما بال المتهجّدين من أحسن النّاس وجوها؟ قال: لأنّهم خلوا بالرّحمن؛ فألبسهم من نوره. (التهجّد وقيام الليل لابن أبي الدّنيا، ج١/ ص٣٤١).



فإذا خالطت بهجة المزيد قلوب الأبرار، وامتزجت لـذّاتها بكُنـه الحقـائق والأسرار، فلا تسل عمّا يفيض من الرَّغد على الحواسِ والأجساد، ولا عن انغمـاس الأرواح في رِيّ النُّضـرة والإسـعاد، ولا عمّـا يبصـره المتّقـون مـن موعودَ محبوبهم، عـين اليقـين.. بعـد أن خاضـوا في لذائـذ الأشـواق وحيـاة الأرواح.. حقّ اليقـين. في هـذه السّـاعة تـتراءى أمـام الوفـد المبـارك منـازلُ الأفراح في دار السّلام.

فإذا أبصرَ السعيدُ الحالَ التي كان عليها من النّعيم، والحالَ التي يـؤول إليها من النّعيم، والحالَ التي يفد عليها من النّعيم.. أثنى على ربّه ثناءً عَطِراً جمـيلاً، وحمِـده حمـدًا طيبـًا كثيـرًا، واطمأنّـت نفسُـه، واسـتكان قلبُـه، وأشرَقت رُوحُه بلّذة غامرةٍ لا مثيل لها! فها هو يرفل في اللذّات المتجدّدة، وينعم بالحُبور المقيم. ولـه في كـل يـوم لذائـذ لـم ترهـا عـين مـن قبـل، ولـم تسمع بها أذن، ولـم تخطر على قلب بشـر! ولـه في كـلّ لـذّة بهجـةٌ لا تنقطـع، ومـع كـل بهجـةٍ سـعادةٌ وفرحـة، لا تـزول حتـى تحـلّ محلّهـا لـذّات أخـرى ومباهج لم يجدها من قبل!!

دنا السّعيد من منازل الأهل والأحباب.. وأناخت النُجُبُ بعـد الغيـاب على الأبواب. الولدانُ يتلقّونه على مشارف القصر العظيم بأبهى صُورِهم، في أجمل حُللِهم.. مرحّبين ومسلّمين، ويقدّمون له من اللذائذ مـا يشـتهيها، مما علموا حُبّه إياها.. ومعهـا لذائـذ أخـرى جديـدة، يُحبّهـا ولا يعلـم بحُبّـه إياها إلا الله جلّ جلاله!! فيسأل عنها، فيقولـون: هـي لـك مـن عنـد الله جـلّ شأنه، جاءتك في غيبتك؛ كرامةً لك في هذا اليوم السعيد.. فهو يوم المزيد!!

فإذا بهرته مراسمُ الاستقبالِ على الأبواب! وصعد إلى نُزُلِه في غُرُفات الأحباب، إذ بالجميع متلهّف إليه، ومشتاقٌ للسلام عليه؛ فيتجّه إلى أحظى زوجاته، وأكملهنّ حُسناً وجمالاً، فإذا دخل عليها، مستحضراً سابق معرفته بجمالها، بَهَرهُ منها ما يرى من حُسنها، وكمالِ نضرتها وبهائها، على حالٍ يفوقُ ما تركها عليه، وأسَرَه ما يجد من بديع الزّينة والحُلل، مما لم يرها عليها من قبل!! فيسألها، فتقول: هو من عند الله تبارك وتعالى، أتحَفَنا به في غيبتك، كرامةً لك في هذا اليوم السعيد! ثم تُخبره كذلك بأنّه رجع من عند ربّه على حُسن وجمالٍ، ونضارة وبهاء، يفوقُ ما كان عليه من قبل، فيقول: «لقد تجلّى لنا ربّنا عزّ وجلّ، فنظرنا إليه» وكلّ ما ترين فمن بهاء نوره وكريم فضله وجوده!!

وفي مشهد بديع، يصفُ رسول الله ﷺ تفاصيل هذا اللقاء بين الحبيبين، في لحظات السّعادة والحبور، فيقول: «إنّ في الجنّة لسُوقاً يأتونها كلّ جمُعُة، فتهِبّ ريحُ الشمال، فتحثو في وجوههم وثيابهم؛ فيزدادون حُسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حُسناً وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حُسناً وجمالاً»[1].

فما بالك بالحور الحسان، اللاتي خلقهن الله عزّ وجلّ في غاية الحُسن والجمال، والصفاء والبهاء والكمال.. كيف يكون جمالهُنّ إذا ازددن فوق الجمال جمالاً، وفوق الحسن حسناً وبهاء؟! وما بالك بالشابّ الجميل القويّ، الذي صوّره الله عز وجل عند دخول الجنّة بأبهى صورة وأجملها،

(١) أخرجه مسلم عن أنس بن مالك، (ج٤/ ص٢١٧٨).



وأكمل حال وأحسنها، كيف يكون جماله إذا ازداد فوق ذلك قوّةً وجمالاً؟!

وهكذا يتواصل الحُبور.. ويمتلئ جدولُ المتُع باللذات والسّرور.. تحت ظلال الأشجار، وعلى ضفافِ الأنهارِ في كنف القصور.

ومن الشُّرُفاتِ يُطلّ العشيقان على الممالك والغُرفات والخيام.. والرياض الغنّاء، والمروج الخضراء، على مدّ الأفق.. مكلّلة بالأزهار، مُزدانة بكل لون بهيج! والحشائشُ البديعةُ تتمايل تحت الأشجار الوارفة، المحمّلة بالثمار النّضيجة، والمجامرُ تُذكي عبق الطّيب في الأرجاء، والأطيارُ تغرّد على الأفنان، والماء العذب الرّقراق يجري منساباً من تحت القصور، ويتعرّج بين الحقول. والنسائمُ العليلةُ تملأ المكان، حيث الرَّوْحُ والرَّيحان، والولدانُ هناك.. يقطفون من الثمار، ويغرفون من الأنهار.

وينسدلُ مشهدُ النّعيم على أصوات الملائكة الكرام، وهم يدخلون مسلّمين على الحبيبيْن في الشُرُفات العالية، تحفّهما اللذّات والمُتع الغالية، وبين أيديهما أطباق الفاكهة النضيجة، والكؤوسُ المُترعة على آنية الذّهب والفضّة، يقولون: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾. فيردّون عليهم السلام، ثم يشرعون في الثّناء على الله الجليل الذي أولاهم هذا النّعيم.. يقولون: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾[الزمر: ٧٤].

تم بحمد الله وتوفيقه

المراجع

١- القرآن الكريم.

البخاري: محمد بن إسماعيل.

٢- الجامع الصحيح، اليمامة للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٧هـ.

ابن أبي الدنيا، عبدالله بن محمّد بن عبيد القرشي البغدادي.

٣ – صفة الجنّة، تحقيق ودراسة: عمرو عبدالمنعم سليم، مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٤١٧هـ.

٤ – التّهجد وقيام الليل، تحقيق: مصلح الحارثي، مكتبة الرشد، الرياض، ط، ١٤١٨هـ.

ابن أبي شيبة، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي.

٥ – الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ.

ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني، أبو العباس.

٦ – درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١٤١٧هـ.

٧ – مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن قاسم النجدي، مكتبة ابن تيمية، ط.٢

٨ – النبوات، المطبعة السلفية، القاهرة، ط ١٣٨٦هـ.

الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن.

٩ – كشف المشكل، دار الوطن، ١٤١٨هـ.

ابن حبان: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي.

١٠ – صحيح بن حبان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط١، ١٣٩٠هـ.

ابن حجر: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني.



١١ - المطالب العالية، تحقيق: د. سعد بن ناصر الشثري، دار العاصمة، ط١، ١٤٠٩هـ.

١٢ - فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠ هـ.

ابن حنبل: أحمد بن حنبل الشيباني.

١٣ - المسند، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٣٩٨ هـ.

ابن رجب، عبد الرحمن بن أحمد البغدادي الحنبلي.

١٤ - شرح حديث لبيك اللهم لبيك، تحقيق: وليد آل فريان، دار عالم الفوائد، ط١، ١٤١٧هـ.

ابن عساكر، علي بن الحسن الشافعي.

١٥ - تاريخ مدينة دمشق، وذكر فضلها وتسمية من حلّها من الأماثل، تحقيق: محبّ الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م .

ابن قيم الجوزيّة، محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي، أبو عبدالله.

١٦ - حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٧ - الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ.

١٨ - الكافية الشّافية في الانتصار للفرقة النّاجية (القصيدة النّونية)، عني بها: عبدالله بن محمد العمير، دار ابن خزيمة، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.

١٩ - مدارج السالكين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٣هـ.

ابن كثير: إسماعيل بن عمر القرشي.

٢٠ - تفسير القرآن العظيم، دار الحديث، القاهرة، ط٦، ١٤١٦هـ

ابن ماجه: محمد بن يزيد القزويني

٢١ - صحيح سنن ابن ماجه، صحّحه محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

ابن المبارك، عبد الله بن المبارك بن واضح.

٢٢ – مسند الإمام عبد الله بن المبارك، تحقيق: صبحي البدري السامرائي، مكتبة المعارف، ط١، ١٤٠٧هـ.

ابن منصور، سعيد بن منصور الخراساني.

٢٣ – سنن سعيد بن منصور، تحقيق: الأعظمي، الدار السلفية، الهند، ط١، ١٤٠٣هـ.

ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري.

٢٤ – لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط١.

أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني.

٢٥ – صحيح سنن أبي داود، صححه محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي.

٢٦ – السنن الكبرى، دائرة المعارف النظامية، الهند، ط١،١٣٤٤هـ.

الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة.

٢٧ – صحيح سنن الترمذي، صححه الألباني، المكتب الإسلامي، ط ١٤١٧هـ

الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد.

٢٨ – النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

الحاكم، محمد بن عبدالله أبو عبدالله النيسابوري.

٢٩ – المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١،١٤١١هـ.

الحوشبي: جمال بن فضل بن محمد.

٣٠ – الأشقياء والسعداء يوم القيامة، بحث غير منشور.

٣١ – زاد الجندي المسلم، بحث غير منشور.



٣٢ - من قصص الصالحين والعصاة في الأمم الماضية، بحث غير منشور.

الدارقطني، علي بن عمر أبو الحسن البغدادي.

٣٣ - سنن الدارقطني، تحقيق: السيد عبد الله يماني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ.

الذهبي، محمّد بن أحمد بن عثمان الذهبي، أبو عبد الله.

٣٤ - سير أعلام النّبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣هـ.

الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر.

٣٥ - مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٤١٥هـ.

الأصبهاني، أحمد بن عبد الله بن أحمد بن مهران المهراني، أبو نعيم.

٣٦ - صفة الجنة، تحقيق: علي رضا عبد الله، دار المأمون، دمشق، سوريا، ط١، ١٤٠٦هـ.

٣٧ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ.

الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، الشهير بالراغب.

٣٨ - المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان.

السّعدي، عبدالرحمن بن ناصر السعدي.

٣٩ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ.

السيوطي: عبد الرحمن بن الكمال.

٤٠ - الدرّ المنثور، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣م. الجامع الصغير، تصحيح: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٨هـ.

الشافعي، أبو الحسن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي.

٤١ - التنبيه والرّدّ على أهل الأهواء والبدع، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، ط ١٤١٨هـ.

الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار الجكني.

٤٢ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، مكتبة بن تيمية، القاهرة، ١٤٠٨ هـ.

الصنعاني: عبد الرزاق بن همام بن نافع.



٤٣ - المصنّف في الأحاديث والآثار، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٣٩٢هـ.

الصنعاني: محمد بن إسماعيل الأمير.

٤٤ - سبل السلام شرح بلوغ المرام، دار الحديث، القاهرة، ط ١، ١٤٢١هـ.

الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني.

٤٥ - المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد، إحياء التراث الإسلامي، ط ١، ١٣٩٧هـ.

الطبري: محمد بن جرير.

٤٦ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: محمد شاكر، مكتبة ابن تيمية، ط ٢.

عبد الباقي، محمّد فؤاد عبدالباقي.

٤٧ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ.

العظيم آبادي، محمد شمس الحق.

٤٨ - عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م.

العنزي، عدلان بن ساري العنزي.

٤٩ - الغاية، مباحث علمية حول الجنّة، دار القاسم، الرياض، ط١، ١٤٢٦هـ.

عيسى، أحمد بن إبراهيم.

٥٠ - شرح قصيدة بن القيم، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٦هـ.

العيني، بدر الدين محمود بن أحمد.

٥١ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الغزالي، محمد بن محمد أبو حامد.

٥٢ - إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت.

الفوزان، صالح بن فوزان.



٥٣ – التعليق المختصر على القصيدة النّونية المسمّاة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية لابن قيم الجوزية، أشرف على طبعه: عبدالسلام بن عبدالله السليمان، ط ١٤٢٤هـ.

الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب.

٥٤ – القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت.

القاري، علي بن سلطان بن محمد القاري.

٥٥ – مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، تحقيق: جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

القرطبي: محمد بن أحمد الأنصاري.

٥٦ – الجامع لأحكام القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤ هـ.

الكلبي، محمّد بن أحمد بن محمّد الغرناطيّ.

٥٧ – التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتاب العربية، لبنان، ط٤، ١٤٠٣هـ.

مالك، مالك بن أنس أبو عبدالله الأصبحي.

٥٨ – موطأ الإمام مالك، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر.

المباركفوري، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم، أبو العلا.

٥٩ – تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، دار الكتب العلمية، بيروت.

المروذي، أبو بكر أحمد بن محمّد بن الحجاج.

٦٠ – أخبار الشيوخ وأخلاقهم، تحقيق الدكتور عامر حسين صبري، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ.

مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري.

٦١ – صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، إدارات البحوث العلمية، الرياض، ١٤٠٠هـ.

المقدسي، محمد بن عبد الواحد بن أحمد أبو عبد الله الحنبلي.

٦٢ – الأحاديث المختارة، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، مكتبة النهضة، مكة، ط١٤١٠،١هـ.

المناوي، زين الدين عبد الرؤوف المناوي.

٦٣ - فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٣٥٦هـ.

٦٤ - التيسير بشرح الجامع الصغير، مكتبة الإمام الشافعي، ط ٣، الرياض، ١٤٠٨هـ.

المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، أبو محمد.

٦٥ - الترغيب والترهيب، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

الموصلي، أحمد بن علي، المشهور بأبي يعلى.

٦٦ - مسند أبي يعلى، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط، ١٤٠٤هـ.

النسائي: محي الدين يحيى بن شرف النسائي.

٦٧ - سنن النسائي، دار اليمامة للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٧هـ.

النووي: يحيى بن شرف بن مري أبو زكريا.

٦٨ - صحيح مسلم بشرح النووي، إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

الهندي، علاء الّدين، علي المتّقي بن حسام الدين.

٦٩ - كنز العمال، تحقيق محمود الدمياطي، دار الكتب العلمية بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

الواحدي، علي بن أحمد أبو الحسن.

٧٠ - الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط١، دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، ١٤١٥هـ.



الفهرس





الموضوع	الصفحة



الموضوع	الصفحة



الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

في هذا الكتاب

أشرف المتّقون على الوادي المقدّس، ولاحت رسوم السعادة من بعيد. لقد طويت الأيام الخالية كظلِّ سراب، وزال العناء والبؤس على الأعتاب، ولم تبق إلا لحظات يسيرة على رؤية الملك الوهّاب.

الملائكة المقرّبون يملأون المكان. وسكونُ الهيبةِ والجلالِ، والنُّضْرةِ والجمال تزداد كلّما اقترب الوفد من البقعة المباركة، التي لا أحسن منها منظراً، ولا أكمل ترتيباً وتنظيماً.

السعداء يتحرّكون إلى ربّهم في هذه اللحظات صفّاً واحداً معتدلاً، كما كانوا يَصُفّون في صلاتهم.. لا يتقدّم منهم أحد على أحد.. في موكبٍ مهيبٍ لم يَخطُر على قلبِ بشر، بعد أن نالوا من التكريم أرفَعَهُ، ومن السّعادة أوفاها!

IS THIS REALLY PARADISE ?

الطبعة الخامسة 1443 - 2022